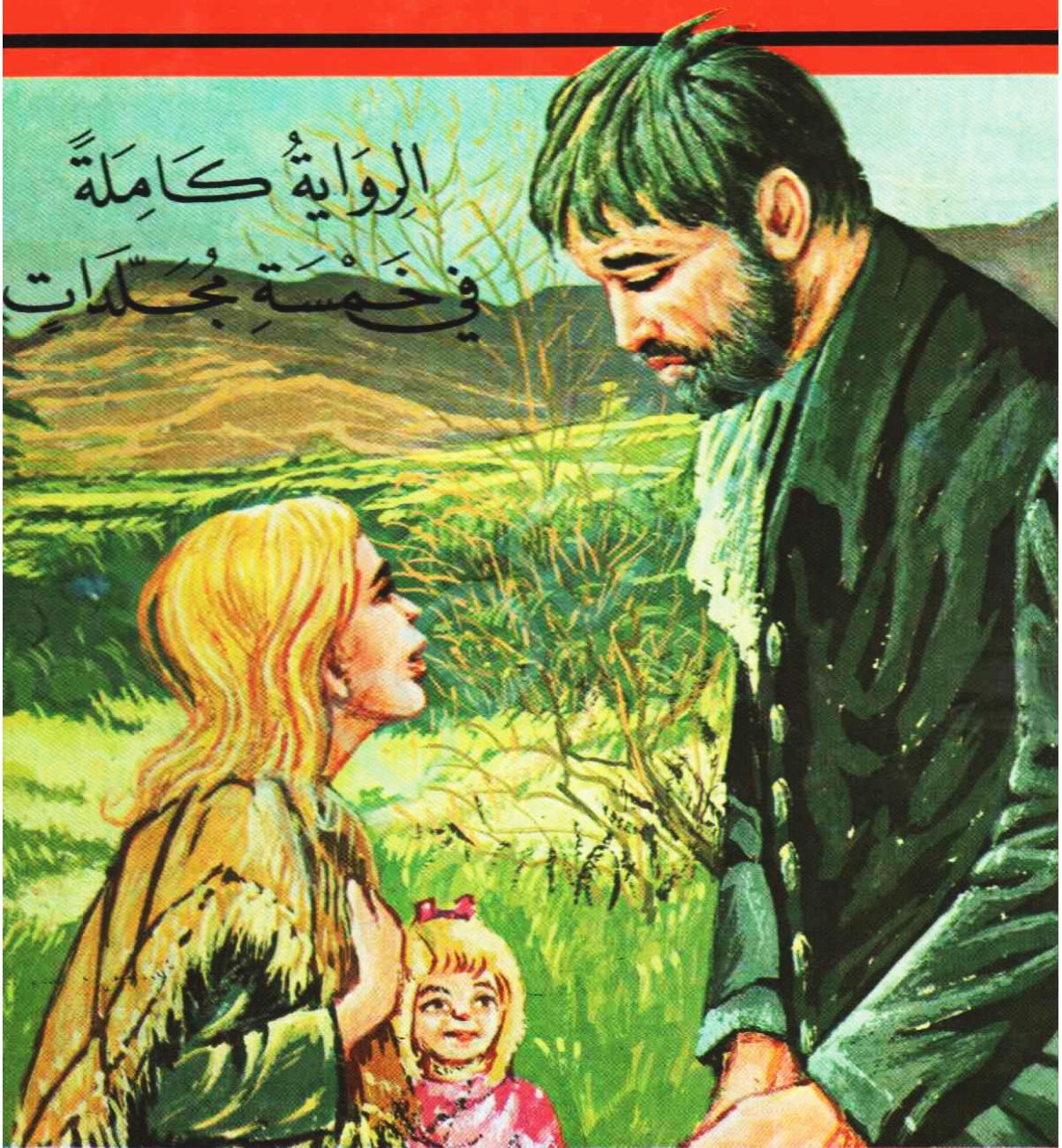


# البُوْسَاء

الرِّوَايَةُ كَامِلَةً  
فِي خَمْسَةِ بُرْجَلَاتٍ



# الْبُوكِسِرِيَّة

لِشَاعِرِ فَرْنَسَةِ الْعَظِيمِ  
فِي كُتُورِ هِيجُو

المُجْلِدُ الْخَامِسُ

نُقَلَهُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ  
مُسَيِّرُ الْعَيْلَكِي

دار العلوم للملايين  
بيروت

ABDEEN

البُوكَيْرَاءُ

LES MISÉRABLES

Par

Victor Hugo

جميع الحقوق محفوظة

ABDEEN

الطبعة الأولى

١٩٥٥

الطبعة الثانية

أبريل (سبتمبر) ١٩٧٩



القسم الخامس

جان فاجان

## الكتاب الأول

### أَحْرَبَ بَيْنَ أَرْبَعَةِ جُدُراً

١

«كاربيد»، ضاحية سان انطوان  
و «سيلا»، ضاحية التامبل

إن المتراسين الأشد رسوحاً في الذاكرة ، والذين قد يشير البهمسا  
مراقب الأمراض الاجتماعية ، لا ينتسبان إلى العهد الذي تقع فيه احداث  
هذا الكتاب . فهذا المتراسان - وكل منها رمز ، ذو شكل مختلف ،

---

• كاربيد Charybde و Scylla تيارات مائية وصخور شهيرة في مضيق مسينا كان الملائكون  
لقدماه يغافلها اعظم الخوف فيحاولون اجتايها فلا يكادون يتبعون من بعضها حتى يقروا في  
بلاد الآخر .

حالة رهيبة - إنما انبثقا من الأرض أيام ثورة حزيران ١٨٤٨ المؤومة ،  
أكبر حرب شوارع شهدتها التاريخ .

ولكن يتفق في بعض الأحيان أن ذلك القاطن الكبير - الراعي -  
بحتج ، حتى على المبادئ ، حتى على الحرية ، والمساواة ، والأخاء ،  
حتى على الاقتراع العام ، حتى على حكومة الجميع بواسطة الجميع .  
من أعمق آلامه المريدة ، من خيباتها ، من ضروب حرمانها ، من  
حمياتها ، من شدائدها . من آخرتها الوبيئة ، من جهالاتها . من  
ظلماتها . وعندئذ يشن السوقه الحرب على الشعب .  
إن الصعاليك يهاجمون الحق العام ؛ إن حكومة الدهماء تتمرد على  
الشعب .

تلك أيام فاجعة . ذلك بان ثمة دائماً مقداراً ما من الحق في هذا  
الجنون . إن ثمة انتحاراً في تلك المبارزة . وهذه الكلمات ، التي  
يُقصد بها إلى الإهانة ، الصعاليك ، الراعي ، حكومة الدهماء ، السوقه ،  
ثبتت - وأسفاه - خطيبة أولئك الذين يحكمون أكثر مما ثبتت خطيبة  
أولئك الذين يتأنلون . ثبتت خطيبة أصحاب الامتيازات أكثر مما ثبتت  
خطيبة المنبوذين .

اما نحن فلستنا لنفظ هذه الكلمات ، أبداً ، إلا في أسي وفي  
احترام . لانه حين تسرير الفلسفة الحقيقية التي تتصل بها ، فإنها كثيراً ما  
تجد فيها ضرورياً من العظمة عديدة إلى جانب مظاهر المؤس والشقاء .  
لقد كانت اثنينا خاضعة لحكم الدهماء . والصعاليك هم الذين صنعوا  
هولندة . والسوقه أفقدت روماً غير مرأة . والراعي اتبعوا يسوع المسيح .  
ليس ثمة مفكر لم يتأمل في وقت ما عظمة الطبقة الوضيعة .

ولا ريب في ان القديس جروم كان يفكر في هؤلاء الراعي ، وفي  
جميع هؤلاء الفقراء ، وفي جميع أولئك الصعاليك ، وفي جميع  
هؤلاء المؤسائهم الذين انتق منهم الرسل والشهداء ، عندما اطلقت هذه

إن حفائظ هذه الجمهرة التي تتألم والتي تدمى ، إن عنفها في تحريف المبادئ التي هي حياتها ، ومقاومتها الفعالة للقانون ، كلها انقلابات شعبية ، وينبغي أن تُكتب . إن الرجل المخلص ليتفانى من أجل ذلك ، وهو يقاوم هذه التزعات بسبب من حبه نفسه لتلك الجمهرة . ولكن ما أكثر ما يستشعر أنها معنوية ، حتى وهو يعارضها ، وما أكثر ما يجلها حتى وهو يقاومها ! أنها واحدة من تلك اللحظات النادرة التي نحس خلامها ، ونخاف نعمل ما يجب أن نعمله ، شيئاً بخط تدابيرنا وينصحتنا بعدم الذهاب إلى أبعد . نحن نصر وثابر ، إننا مكرهون على ذلك . ولكن الضمير ، على الرغم من ارتياحه ، محزون : واداء الواجب بشوّهه انقباض في القواد .

ولنسارع إلى القول إن حزيران عام ١٨٤٨ كان حادثاً خارقاً للعادة ، وأنه يكاد يكون من المتعذر على المرء أن يصنفه في فلسفة التاريخ . وكل ما قلناه اللحظة ينبغي أن يوضع جانبياً عندما ننظر في تلك الفتنة الفريدة التي تستشعر فيها قلق العمل المقدس يطالب بحقوقه . كان ينبغي أن تُقمع . كان هذا هو الواجب . ذلك لأنها هاجمت الجمهورية . ولكن ، أي شيء كان حزيران ١٨٤٨ في الحقيقة ؟ ثورة الشعب على نفسه .

وبحسب يظل الموضوع نصب العين لا يكون ثمة استطراد . فليسمع لنا إذن أن نلتفت نظر القاريء إلى المتراسين الفريدين إلى بعد الحدود ، اللذين تحدثنا عنهم اللحظة ، والذين ميزا تلك الثورة :

لقد سد أحدهما ضاحية مان انطوان ، وحمى الآخر منافذ ضاحية التامبل . وأولئك الذين نهضت أمامهم ، تحت سماء حزيران الزرقاء النيرة ، هاتان الرائعتان الرهيبتان من روائع الحرب الأهلية ، لن ينسوها أبداً الدهر .

كان متراس سان انطوان هائلاً عجيناً ؛ كان يتألف من ثلاثة أدوار ؛ وكان طوله سبعمئة قدم . لقد سد فم الضاحية العريض من اقصاه إلى اقصاه ، يعني ثلاثة شوارع . ولقد نهض مخدداً ، ممزقاً ، مسناً ، مجزعاً ، مثلثاً بشق هائل ، مستندًا إلى أكواخ من الحجارة كانت هي نفسها بروجاً بارزة ، دافعاً رؤوساً هنا وهناك ، متكتتاً في قوة على أكمني بيوت الضاحية الصخمتين - نهض مثل سد سيكلوبسيٌّ في اعمق تلك الساحة الرهيبة التي شهدت اليوم الرابع عشر من تموز . وتدرج تسعه عشر متراساً على طول الشوارع ، خلف ذلك المتراس الرئيسي . ولو قد نظرت إليه مجرد نظر اذن لاحسست في الضاحية بذلك الألم المماطل المحضر الذي بلغ تلك اللحظة الأخيرة التي تحول فيها الشدة إلى كارثة . من اي شيء شُيد ذلك المتراس ؟ من انقاض ثلاثة بيوت ، كل منها ذو ستة أدوار ، سُويت بالارض لهذا الغرض ، - كذلك قال بعضهم . ومن اعجيب الاصحاق جميماً ، - كذلك قال بعضهم الآخر . كان له ذلك المظهر المبكي الذي تتخذه جميع اعمال البغض : الخراب . وقد تقول : من الذي أقام ذلك ؟ وقد تقول أيضاً ومن الذي دمره ؟ كان ارتجال الفورة . انظر ! هذا الباب ! هذا الحاجز المشبك ! هذا الافريز ! اطار النافذة هذا ! هذا الكانون المكسور ! هذا الرجل المصدوع ! ايتوا بكل شيء ! اطربوا كل شيء ! ادفعوا ، دخرجو ، إحفروا ، خربوا ، إهدموا كل شيء ! كان تعاون الرصيف ، والمحصاة ، ولوح الخشب ، والقضيب الحديدي ، والخرقة ، ولوحة الزجاجي المحطم ، والكرسي المجرد من قشه ، وبقايا الملفوف ، والمزقة ، والثوب البالي ، واللعة . كان عظيماً وكان صغيراً . كان الحفرة التي لا قرار لها زيقها الاختلاط والمعاء في

• نسبة الى جماعة السكلوب الاسطورية ، وقد سبق التعريف بها . والمقصود مثل سد جبار .

الحال . الكتلة قرب النرة ؛ شقة الخاطط المهلومة والصحن المكسور . تأخر متعدد بين جميع الفضلات . كان سيفيف . قد طرح صخرته هناك ، وكان يعقوب قد طرح كسرة قدره . وعلى الجملة فقد كان شيئاً فظيعاً . كان آكروبوليس الحفاة . كانت عربات مقلوبة توغرر المنحدر . وكانت عجلة نقل قائمة هناك ، بالعرض ، ومحورها مسدد إلى السماء ، فكانه ندية فوق تلك الواجهة الصاغبة . وكانت عربة عمومية مرفوعة في إيهام ، بقوة الأيدي ليس غير ، فوق قمة للركام ، وكانت أراد مهندسو تلك الوحشية أن يضيفوا الطيش إلى الربع . تقول كانت تلك العربة يتقدم عيرها المجرد عن دابته إلى خيول المواء المجهولة . كانت تلك الكتلة للجبار ، طهي الفتنة ، تمثل للعقل صورة أوسا فوق بيليون . في كل الثورات . عام ٩٣ فوق عام ٨٩ ، التاسع من تمبريلدور فوق العاشر من آب ، الثامن عشر من برومير فوق الحادي والعشرين من يناير ، فانديمير فوق بريبيال ، و١٨٤٨٠ فوق ١٨٣٠ . وكان المكان يستحق تلك المشقة ، وكان ذلك المتراس خليقاً بأن يبرز في نفس المكان الذي اختفى منه الباستيل . ولو ان الاوقيانوس استطاع ان ينشئ سلوداً اذن لبنيها على هذا النحو . وكانت سورة الفيسان منطبيعة على ذلك السد الشانه . أيَّ فيضان ؟ الجمهور . كان خليقاً بالمرء ان يحسب انه يرى اللحظة متحجرأً . كان خليقاً به ان يظن انه سمع فوق ذلك المتراس ، وكانت هناك فوق قبرها نخلات القاسم

---

\* \* \* \* \* ابن ليبرول وملك كورنث ، وقد اظهر بقوته النظيفة ، وتقول الاسطورة انه حكم عليه بعد موته ياد وهرسج في جهنم سترة فضة فرق قمة جبل حيث كانت تلك لصفرة تعاود السقوط من غير انقطاع .

P6Hoa \*\* جبل في تبالية مجاور جبل أوسا \*\*\* . وتقول الاساطير انه يوم اراد \* العائلة \* ان يصلوا الى السماء ، بعده ان ثاروا حل جويثير ، وضعوا بيليون فوه اوسا . ومن هنا نشأ قوهم : ركيْ بيليون فوه اوسا . يعني بذلك المتمحيل الوصول الى نهاية ما .

بالقوة ، تلك التحلات السوداء المائلة الناشرطة في الظلام . اكان دغلا ؟  
أكان عيداً من اعياد باخوس ؟ أكان معقلا ؟ لقد بدا وكأن الدوار قد  
شيده بخفق الجناح . كان ثمة شيء من المستنقع في ذلك المتراس . وشيء  
من اوليمبوس في تلك الفوضى . كنت ترى . في عماء مليء بالآيس،  
عوارض سقوف ، وقطعاً من عاليٍ بورق جدرانها . وأطُر نوافذ  
بزجاجها كلها مزروعاً في الانقضاض ، تنتظر المدفعية ، ومداخن مقتلة ،  
وخرازين ، وطاولات ، ومقاعد ، في تقوضٍ نابع . وألقاً من تلك  
الأشياء الحقرة ، التي يابها الشحاذ نفسه ، والتي تنطوي في آن معاً  
على هيجان وعدم . كان خليقاً بالمرء ان يقول إنها كانت حطام شعب ،  
حطاماً من خشب ، من حديد ، من برونز ، من حجارة ، وان ضاحية  
سان انطوان قد جرفتها هناك إلى يابها ، بضربة هائلة من مكنسة ،  
مشيدة متراسها من بؤسها . ثم ان بعض قرم الحطب الشبيهة بقطع  
الخشب الغليظة القصيرة ، والسلال المفككة ، والهيكل الخشبية ذوات  
المساند الخاصة بالرفوف المتعددة شكل المشائق . والدوالib الناتحة أفقياً  
من بين الانقضاض - إن هذه كلها دغمت بصرح الفوضى ذاك صورةَ  
النkal القديم الذي تحمله الشعب . لقد اتخذ متراس سان انطوان من كل  
شيء سلاحاً . لقد انبثق من هناك كل ما كان في ميسور الحرب  
الاهلية ان تندف به رأس المجتمع . أنها لم تكون معركة . كانت داء  
بلغ غاية استفحاله ، فالبنادق القصيرة الخفيفة التي دافعت عن ذلك المعلم  
والتي كان بينها بعض البنادق العادية ، ثارت فتاناً من الخرف المطلبي ،  
وعُظيمات . وأزار سترات ، وحتى دوالib طاولات صغيرة -  
قذائف خطيرة بسبب من الرصاص . كان ذلك المتراس مجيناً ؛ لقد  
أطلق نحو السحب ضجيجاً يمتنع على الوصف . وفي بعض الاحيان كان  
يتحدى الجيش فيعطي نفسه بالخشود وبالعاصفة . لقد توجته جمهرة من  
الرؤوس اللامعة ، وملائكة تائبٌ مترافق . كانت قمعته شائكة بالبنادق ،

والسيوف ، والعصي ، والقوس ، والحراب ؛ وكان علم احمر كبير ينافق مع الريح ، وكان في ميسور المرء ان يسمع صيحات القبادة ، واناشيد المجموع ، وقرع الطبول ، وتنهدات النسوة ، وضحكات الجائعين المظلمة الضاربة . كان ضخماً مواراً بالحياة . وانطلق منه هزيم رعد ينابل اليك انه منطلق من ظهر بهيمة كهربائية . لقد حجبت روح الثورة بسحابها تلك القمة التي زجر فيها صوت الشعب الشبيه بصوت الله . وانبثت جلال عجيب من ذلك العملاق المليء بالنفایات . كان كومةً من الأقدار ، وكان جبلَ سيناء .

وكما قلنا من قبل لقد هاجم باسم الثورة ، ماذا ؟ الثورة . كان هذا المتراس - المصادفة ، الفوضى ، الانشاد ، سوء التفاهم ، المجهول - يواجه الجمعية التأسيسية ، وسيادة الشعب ، والاقتراع العام ، والامة ، والجمهورية . وكان هو السكارمانيل « متخدياً المارسيز . نحدّ عجانون » ولكنه باسل ، ذلك لأن هذه الصاحبة العتيقة بطلة .

وبادلت كل من الصاحبة ومتراصها المعونة . لقد عضدت الصاحبة المتراس ، وقوى المتراس الصاحبة . وامتد المتراس الضخم مثل جرف تحطمته عليه ستراتيجية جنرالات افريقيا . إن كهوفه ، ونواميه الغريبة ، وشاليه ، وحدباته قد كشرت ، إذا جاز التعبير ، وضحكت ساخرة تحت الدخان . وتلاشت القذائف هناك في اللاشكل . وغاصت القنابل للصغيرة هناك ، والتهمت ، وغارت . ولم توقف كُرات المدافع إلا إلى إحداث الحفر ، فـأي فائدة من تسديد القذائف إلى العباء ؟ وأخذت الكتاب ، المتعودة أشد مشاهد الحرب وحشية ، تنظر بعين قلقة إلى هذا المتراس البهيمي الضاري ، الشبيه في تشوّكه بالختير البري ، وفي ضخامته بالجبل .

وعلى ربع فرسخ من هناك ، عند زاوية شارع التاميل الذي يصب

---

• فوغ من الرقص الثنائي شاع عام ١٧٩٣ اثناء الثورة الفرنسية وقد سبق التعريف به .

في العجادة قرب «شاتو دو» ، إذا أتلت عنقك في جسارة وراء النقطة التي تشكلها واجهة مخزن دالماشي ، تلمع في المدى البعيد ، خلف القناة ، في الشارع الذي يرتفع منحدرات الـ «بيغيل» ، عند قنة الكثيب ، جداراً غريباً يصل إلى الدور الثاني من واجهات المنازل ، ضرباً من صلة الوصل بين البيوت القائمة إلى اليمين والبيوت القائمة إلى اليسار ، وكأن الشارع طوى بنفسه ، كرة ثانية ، جداره الأعلى لكي يحجب على نحو مفاجيء . كان ذلك الجدار مبنياً من حجارة الارصنة . كان مستقيماً ، صحيحاً ، عاساً ، عمودياً ، مسوئي بالزاوية المثلثة ، مشيداً بخيط البناء ، مقواماً بالقادن . لم يكن فيه اسمى البتة . من غير شك ، ولكن ذلك لم يوهن من معهاريته الخشنة ، شأنه في هذا شأن بعض الأسوار الرومانية . ومن ارتفاعه كان في ميسور المرء ان يحزر عمقه . كان أعلى السور متوازياً ، رياضياً ، مع قاعدته . وهنالك وهناك كان في استطاعتك ان تتبين ، على السطح الرمادي ، كوكى تقاد لا تلحظ ، تشبه خيوطاً سوداء . وكانت مسافات متساوية تفصل ما بين هذه الكوى . وكان الشارع مقفرأ على مرئى النظر . وكانت التواخذ كلها والأبواب كلها موصدة . وفي الخلفية ، نهض ذلك السد الذي جعل الشارع زقاقة غير نافذ . جدار جامد هادئ . لم يكن في ميسورك أن ترى احداً ، أو أن تسمع شيئاً . لا صيحة ، لا صوت ، لا نفس .  
 قبر من القبور .

وغمرت شمس حزيران الباهرة هذا الشيء الرهيب بالضياء :  
 ذلك كان متراس ضاحية التامبل .

حتى إذا بلغ المرء الأرض ورأها ، كان من المتعذر عليه ولو كان أكثر الناس جرأة ، ان لا يقلق أمام هذا الشبح الخفي . كان محكمًا متداخلاً ، متراكباً ، مستقيماً ، متناسقاً ، وفاجعاً . كان المرء يستشعر ان رئيس هذا المتراس كان عالماً بالمنتهى ، أو شيئاً . كان المرء يراه ،

وكان يتكلّم بهمس . حتى إذا غامر أحد بين الفينة والفينية - جندي أو ضابط أو ممثل للشعب - وحاول أن يعبر الشارع المهجور ، سمعت صفرة حادة وخفيضة ، وسقط عابر السبيل جريحاً أو صريراً . أما إذا نجا فعنده كثرة من كرات المدافع ترى غائبة في أحد المصاريع الموصدة ، في فسحة بين حجري بناء ، في جص جدار من الجدران . وكانت تلك الكرة كبيرة في بعض الأحيان . ذلك أن رجال المتراس كانوا قد صنعوا من قطعتين من أنبوب غاز حديدي مصوب ، سُدَّ أحد طرفيه بالدُّسْرُ وطين المأقد ، مدفعين صغيرين . وهكذا لم يبق ثمة هدر للبارود لا طائل تحته . كانت كل طلقة فعالة تقريباً . وكانت هنا وهناك بضمّ جثث ، وبرك دم على الرصيف . وإنما اذكر كيف راحت فراشة بيضاء تطوف في الشارع جيئةً وذهوباً . إن الصيف لا يتنازل عن عرشه .

وفي الجوار كانت أرصفة أبواب العربات مغطاة بالجرحى .  
كنت تحس نفسك منظوراً من شخص لم تره ، وإن الشارع بطوله كان معرضاً لنيران البنادق .

ولاذ احتشدوا خلف صهوة الجواد التي يشبهها مدخل ضاحية التاميل ، راح الجنود المهاجمون ينظرون ، في هدوء ورباطة جأش ، إلى هذا المتراس الحدادي ، إلى هذا السكون ، إلى هذا اللاثائر ، الذي انبثق منه الموت . لقد زحف بعضهم على الأرض حتى بلغوا أعلى منحنى للجسر ، محاذرين ان تبدو قلائsemهم بأية حال .

وابدى الكولونيل موتبيثار الباسل إعجابه بهذا المتراس بزة من كتفيه .  
وقال لأحد المندوبين :

- « ما اعظم بناء ! إنك لا ترى فيه حبراً يتقدم حبراً . إنه مصنوع من خزف صيني ! »

\* الدسار *Etooupe* خط من ليف تشد به الواح السفينة ، ج. دسر .

وفي تلك اللحظة ، كسرت قذيفةُ الصليبَ الذي كان على صدره ، وخرَّ الكولونيل على الأرض .

- « يا لهم من جبناء ! ولكن دعهم يبرزون ! دعنا نراهم ! إنهم لا يجرأون ! إنهم يختبئون ! » لقد صمد متراس ضاحية التامبل ، يدافع عنه ثمانون رجلا وباجمه عشرة آلاف ، صمد ثلاثة أيام . وفي اليوم الرابع فعلوا مثل مافعل في زاتشا . وفي قسطنطينة . . . . لقد ثقروا البيوت ، ونفذوا من السقوف ، واستولوا على المتراس . إن أحداً من الشهرين جباناً لم يفكر في الفرار . لقد قتلوا جميعاً ، ما عدا رئيسهم بارييلمي ، الذي ستحدث عنه اللحظة .

كان متراس سان انطوان صخباً الرعد ، أما متراس التامبل فكان الصمت . كان بين هذين المتراسين فرق ما بين الفظيع والمشووم . لقد بدا أحدهما أشبه بالفهم الفاغر ، وبدا الثاني وكأنه قناع .

وإذ سلمنا بأن ثورة حزيران المظلمة العملاقة كانت مؤلفة من غضب وأحجية ، فقد كان في استطاعتنا ان نستشعر التباين ، في المتراس الأول ، وان نستشعر أبا الهول في المتراس الثاني .

كان كورنيه رجلا طويلا القامة ، كان ذا منكبين عريضين . ووجه

\* واحة مجاورة لبيسكره في مقاطعة قسنطينة بالجزائر وقد صمدت في وجه الحصار الفرنسي عام 1849 صموداً باسلاً . ثم ان الفرنسيين شنوا عليها هجوماً منيناً فسقطت .  
\*\* قسنطينة ، من اعمال الجزائر ايضاً وقد قاومت الفرنسيين مقاومة بطولية  
عام 1826 - 1827

آخر ، وقبضة ساحقة ، وقلب جريء ، ونفس وفية ، وعن سلامة الطوية فطيعة . كان بأسلا ، هماماً ، مريض الغضب ، عاصفاً ، وكان أكثر الناس وداً ، وأشد المقاتلين هولا . كانت الحرب ، والصراع ، والقتال هي الهواء الذي يحيا عليه ، والذي يجعله ائساً طلق المحبة . كان في ما مضى ضابطاً بحرياً ، ومن حركاته ومن صوته كان في ميسورك أن تحس أنه انتق من الأوقانوس ، وأنه جاء من العاصفة ، لقد واصل العاصفة في المعركة . وفي ما عدا العبرية كان في كورنيه شيء من دانتون ، كما كان في دانتون - في ما عدا الألوهة - شيء من هرقل . أما بارتيليمي ، المزيل ، القميء ، الشاحب ، السكريت فكان ضرباً من «المتشدد» الفاجع ، الذي لطمته أحد رجال الشرطة ذات يوم ، فأنشأ يراقه ، ويرصدده ، حتى قتلها ، فأدخل سجن المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة وهو في السابعة عشرة . ثم انه خرج من هناك ، وأقام ذلك المراس .

وفي ما بعد - وذلك شيء فظيع - قتل بارتيليمي كورنيه ، وكانت كلامها لاجئين في لندن . كانت مبارزة فاجعة . وبعد فترة يسيرة ، وقع بارتيليمي في شرك واحدة من تلك المجازفات التي تمتزج فيها العاطفة ، تلك الكوارث التي ترى فيها العدالة الفرنسية اسباباً تحقيقية ، ولا ترى العدالة الانكليزية فيها غير الموت ، ثم شُنق بارتيليمي . إن الصرح الاجتماعي المظلم مركب على نحو جعل هذا الكائن البائس الذي انطوى على ذكاء ، راسخ من غير شك ، ورعاً كان عظيماً ، نقول جعل هذا الكائن البائس يبدأ - بفضل الحerman المادي ، والظلمة الاخلاقية - في سجن الاشغال الشاقة بفرنسا ، ويتهمي بالمشتبه في انكلترة . ان بارتيليمي لم يرفع ، في جميع الاحوال ، غير راية واحدة ، هي الزاوية السوداء .

## ما الذي يمكن أن يُصنع في المرة غير الكلام؟

إن للستة عشر عاماً أثراًها البعيد في التربية السرية للثورة ، ولقد فهمها حزيران عام ١٨٤٨ خيراً مما فهمها حزيران عام ١٨٣٢ . وهكذا فإن متراس شارع الـ « شانفريري » لم يكن غير رسم تقريبي خفيف ، وغير جنون بالقياس إلى هذين المتراسين الجبارين اللذين صورناهما منذ لحظة ، ولكنه كان بالنسبة إلى ذلك العهد شيئاً رهيباً .

وأفاد المتمردون - تحت بصر آنجلزاس ، ذلك لأن ماريون ما عاد ينظر إلى شيء - أفادوا من الليل . لأنهم لم يرموا المتراس فحسب ، ولكنهم كبروه أيضاً . لقد رفعوه قدمين اثنين . وكانت القضبان الحديدية المغروزة في حجارة الأرصفة تشبه رماحاً في معقل . وكانت مختلف ضروب التفزيات المضافة والمنقولة من كل ناحية قد ضاعت التعقد الخارجي . لقد حُوّل المتراس ، في براعة ، إلى جدار من الداخل ، وإلى دغل من الخارج .

لقد أعادوا بناء السلم المصنوع من حجارة الأرصفة ، ذلك السلم الذي كان يمكنه من الصعود مثل سور حصن من الحصون .  
لقد نظموا المتراس ، ونزعوا الردم من الحجرة السفلية ، وانحدروا من المطبخ مستشفى ، وأتوا تضميد الجراح ، وجمعوا البارود المتناثر على الأرض والطاولات ، وسبدوا كرات المدفع . وصنعوا الخراطيش ، وحلجو النسالة ، وزعوا أسلحة المسراعي . ونشتوا داخل المتراس ، والقطعوا الحطام ، وحملوا الجثث .

وركموا الموتى بعضهم فوق بعض في زقاق مونديتور ، وكانوا لا يزالون سادتهُ . وظل الرصيف أحمر ، فترة طويلة ، في تلك البقعة . وبين القتلى كان أربعة من رجال حزس الضواحي الوطني . وكان آنجلوراس قد رغب في أن توضع ملابسهم العسكرية جانباً . ونصح آنجلوراس القوم بأن يرقدوا ساعتين . وكانت النصيحة من آنجلوراس أمراً . ومع ذلك فإن ثلاثة نفر أو أربعة أفادوا منها . واصططع فوبي هاتين الساعتين لحرث هاتين الكلمتين على الجدار المواجه للخمارة :

« فلتتحي الشعوب ! »

والواقع أن هاتين الكلمتين ، اللتين نقشتا في الحجر بواسطة مسحار ، كانتا لا تزالان مقروءتين على ذلك الجدار في عام ١٨٤٨ . وأفادت النسوة الثلاث من استراحة الليل ، فاختفيا نهائياً ، مما جعل المتمردين يتৎفسون في حرية أعظم . لقد وجدن ملجاً هن في أحد البيوت المجاورة .

وكان معظم الجرحى قادرين على متابعة القتال . راغبين في ذلك . كان ثمة ، فوق فراش للدواجن وبعض حزم القش . في المطبخ الذي أسمى الآن مستشفى . خمسة رجال ذوي جراح خطيرة ، اثنان منهم كانوا من الحرس البلدي . لقد ضمدت جراحات الحرس البلدي أولاً . لم يكن قد بقي في الحجرة السفلية غير مابوف . تحت غطائه الأسود ، وجافير موتفاً إلى الودن .

وقال آنجلوراس :

— « هذه غرفة الاموات . .

وفي داخل هذه الحجرة ، المضاءة على نحو باهت بشمعة . وعند الطرف الأقصى نفسه ، وقد نهضت المائدة الجنائزية خلف الودن مثل قضيب حديدي أفقى . كان ضرب من صليب ضخم قائم قد تكون من

جافر واقفاً ، وما بوف مددأ .  
كان عريش العربة العمومية ، رغم أن وايل القلائف قد ذهب  
جزء منه ، لا يزال عالياً إلى درجة تمكنهم من ان يرفعوا عليه احدى  
الزيارات .

وعلى آنجولراس ، الذي كان يتمتع بصفة الزعيم هذه ، وهي ان  
يعلم دائمًا ما يقوله . على سترة العجوز القتيل . المخروفة الدامية ،  
بهذا العريش .

ولم يكن في ميسورهم الآن ان يتناولوا اما وجبة من وجبات الطعام .  
فلم يكن ثمة لا خبز ولا لحم . كان رجال المتراس الخمسون قد  
استهلكوا وشيكياً . خلال السنت عشرة ساعة التي قضوها هناك ، مؤمن  
الحانة المزيلة . وبعد مدة بعينها . لا بد لكل متراس صامد من ان  
ينتهي إلى ما انتهت إليه « ميدوز » . إن عليهم ان يستسلموا للمجاعة .  
كانوا في الساعات الاولى من يوم ٦ حزيران الاصبارطي حين طوق  
المتردون « جان » ، في متراس سان ميرتي ، وراعوا يسألونها خبراً  
صائحين : « نريد شيئاً نأكله ! » ، فما كان منها إلا ان اجابت جميع  
اولئك المقاتلين بقولها : « ولماذا ؟ الساعة الآن الثالثة . وعند الساعة  
الرابعة سنموت ! »

ولاذ لم يجدوا شيئاً يأكلونه . فقد حظر آنجولراس الشراب . لقد  
حرّم الخمر ، وقتّ العرق .

ووجدوا في القبو نحواً من خمسين زجاجة ملأى ، وختومة ختماً محكماً .  
وفحصها آنجولراس وكومبوفير . وفيها بما يغادران القبو قال كومبوفير :

---

Méduse \*  
وقد بلأ ١٤٩ من ركبها الى طوف انشيء على عجل واخللت الامواج تسبّب به في  
حرس البحر . وبعد اثني عشر يوماً عثر على هذا الطوف ، وعلى جثث خمسة عشر شخصاً  
من كانوا على متنه « ميدوز » . أما الباقرون فكانوا قد أنسوا طماماً للأسماك .

« انها من المخزونات العتيقة التي خلفها هوشلو الاب الذي بدأ حياته بقالا . »

ولاحظ بوسوبيه :

— « ينبغي ان تكون خمراً أصلية . من حسن الحظ أن غرانتير نائم؛ ولو قد كان قائماً على رجله اذن لكان علينا ان نبذل جهداً كبيراً لانقاذ هذه الزجاجات . »

وعلى الرغم من الهمسات ، وضع آنجولراس « الفيتور » على الزجاجات الخمس عشرة . ولكي لا يمسها احد . ولكي تبدو وكأنها مقدسة ، امر بأن توضع تحت المائدة التي سجى عليها الأب مابوف . وحوالى الساعة الثانية صباحاً احصوا انفسهم . كان قد بقي منهم سبعة وثلاثون .

كان الصبح قد آذن بالانبهاج . وكانوا قد اطفأوا ، منذ لحظات ، تلك الشعلة التي أعيدت إلى مغرزها ، في حجارة الارصفة . وكان الجزء الداخلي من المتراس غارقاً في الظلمة ، وبدا من خلال الذعر الفسيقي الغامض شيئاً بسطع سفينة متزوعة الصواري والقلوع . وفي غدوتهم ورواحهم ، تحرك المقاتلون فيه مثل اشكال سوداء . وفوق وكر الظلام الرهيب هذا ، كانت طوابق البيوت المخرسae ترسم على نحو شاحب . وفي القمة برزت المداخن المحزونة . وكانت السماء مصطبة بذلك اللون الفاتني المردّ الذي قد يكون أبيض ، وقد يكون أزرق . كانت بعض الطيور ترسل . فيما هي تنطلق في الجو . أغاني بهيجه . وكان على سطح المترل العالى ، الذي يشكل خلفية المتراس ، بوصفه متوجهاً نحو الشرق ، انعكاس نور أزهر . وعند كوة الدور الثالث ، عبت ريح الصباح بشرفات رأس الرجل الميت . البيضاء .

وقال كورفيراك لفويبي :

— « أنا سعيد لأطفائهم الشعلة . فذلك الشعلة المنشدة وسط الريح ،

كانت تزعجي . لقد بدت وكأنها خائفة . إن ضوء الشعلة يشبه حكمة الجبان . انه غير واضح ، لأنه يرتجف . .  
العجز يوقف العقول كما يوقف الطيور . كان كل امرء يتحدث .  
واستوحى جولي الفلسفة من هزة كانت تطوف حول احد الميازيب  
وහتف :

— « ما هي المزءة ؟ إنها تصحيح . ذلك ان الله بعد ان خلق الفأرة  
قال : « ولكن ، لقد ارتكبت حماقة . » ثم خلق الهرة . الهرة هي  
تصويب الفأرة . والفارأة ، زائد الهرة ، هي مسودة الخلقة منقحة»  
مصححة . .

وانشأ كومبوفير ، وقد احاط به الطلاب والعمال ، يتحدث عن  
الموتى ، عن جان بروفير ، عن باهوريل ، عن مابوف ، وحتى عن  
« لو كابوك » ، وعن حزن آنجولراس الكالح . قال :

— « هارموديوس \* وآريستوجيتون ، بروتونس ، كبرياتس \*\* ،  
ڪروموبيل ، شارلوت كورداي \*\*\* ، صاند \*\*\*\* - كلهم عرفوا ،  
بعد الطعنة ، لحظات من الألم النفسي المريض . ان فؤادنا لشديد الارتعاش ،  
وان الحياة الإنسانية هي من الغرابة بحيث انه في الاغتيال المدنى نفسه ،  
وحتى في الاغتيال المحرر ، إذا كان ثمة اغتيال محزز ، نجد الندم على  
قتلنا رجلا ، يفوق البهجة خدمتنا الجنس البشري . »

---

\* اثنى تامر مع صديقه آريستوجيتون Aristogiton ضد ولدي بيسيرات: هيارك وهبياس (٥٢٤ ق.م.).

\*\* Chéréas هو الخطيب الشعبي الروماني الذي قتل الامبراطور الروماني الظالم كاليفولا ، عام ٤١ م.

\*\*\* Charlotte Corday هي الفتاة الشابة التي طفت « مارا » ، في الحمام ، بخنزير ، انتقاماً للجيرونديين . وقد اعدمت في ١٧ تموز عام ١٧٩٣ وليس لها من العمر غير خمس وعشرين سنة .

\*\*\*\* Louis Sand وطفي المانى اغتال الوزير كونترييو Kotszevio ( ١٧٩٥ - ١٨٢٠ )

وبعد لحظة — فذلك هو مسرى المحادثة — ومن طريق الانتقال من قصائد جان بروفير ، راح كومبوفير يقارن ما بين مترجمي «الجيورجيك» ، بين «رو» و «كورنان» ، وبين «كورنان» و «دوليل» ، مشيراً إلى بعض المقاطع التي ترجمها مالفيلاتر ، ومحاجة العجائب المتصلة بموت فيصر . ومن هذه الكلمة ، قبص ، ارتد الحديث إلى بروتونس .

وقال كومبوفير :

— « لقد صرّع قيصر بحق . كان شيشرون قاسياً على قبص ، وكان مصرياً . إن هذه القسوة ليست ذمأ . فحين يتصدى زولوس لاهانة هوميروس ، وحين يتصدى ميفيوس لاهانة فيرجيل ، وحين يتصدى فيزير لاهانة مولير ، وحين يتصدى البابا لاهانة شيكسبير ، وحين يتصدى فريتون لاهانة فولتر ، نجد أنفسنا أمام قانون قديم من قوانين الحسد والكراءة مطبقاً تافذاً . إن العبرية تجذب الاهانة ؛ وكبار الرجال يُنجح دائمًا في وجوبهم ، قليلاً أو كثيراً . ولكن زولوس شيء ، وشيشرون شيء آخر . كان شيشرون قاضياً بالروح كما كان بروتونس قاضياً بالسيف . أنا أنكر ، من تاحبتي ، تلك العدالة النهائية : السيف ؛ ولكن العصور القديمة رضيت بها . إن قيصر ، الذي انتهك حرمة الروبيكون ، والذي كان يخلع الرتب المنشقة من الشعب وكانتها منبعثة <sup>Géorgiques</sup> ، او أعمال الأرض ، قصيدة تعليمية ذات موضوع زراعي من نظم الشاعر فيرجيل .

« Zoilus ناقد من أهل القرن الرابع قبل الميلاد ، تهجم على هومير تهجساً مضمكاً ( ١٧١٨ - ١٧٢٦ )

Frénon ناقد شهير كان خصاً لفولتر وغيره من « الفلاسفة » الذين هيأوا الجلو الشورة الفرنسية .

نهر صغير يفصل إيطاليا عن غالا ( فرنسة ) ، وكان مجلس الشيوخ الروماني قد حظر اجتيازه على الرومان وقاية لرومة من صدور القوات الفرنسية ، ولكن قيصر هزى بهذا المظفر واجتاز النهر .

من ذات نفسه ، والذى أبى ان يقف عند دخول الشيوخ - ان قبض  
هذا قد مثل ، كما قال اوتروبيوس \* ، دور الملك ، بل دور  
الطاغية تقريباً *regia ac poené tyrannica* . كان رجلاً عظيماً ، لا فرق .  
الدرس أعظم . لقد أثرت جراحاته الثلاث والعشرون في أقل ما أثر  
في البصاق على وجه يسوع المسيح . لقد طعن قيسar بأيدي الشيوخ ، أما  
المسيح فقد لطمته الخدم . وكلما عظمت الإهانة ، نستشعر  
وجود الله .

وهتف بوسوبيه ، وهو يطل على المتحدثين من أعلى ركام الحجارة ،  
وبندقته القصيرة الخفيفة في يده :

- « ايه سيداتينيوم ، ايه ميرهينوس ، ايه بروبالينث ، ايه يا منقَّ  
اينتيد ! اوه ! من ذا الذي يهرب لي القلترة على ان الفظ شعر هو ميروسن  
مثل اثنيني من لوريوم أو من إيدابتيون ! »

### ٣

## نور وظلم

كان آنجولراس قد مضى للقيام باستكشاف . لقد سلك زفاف شارع  
مونديتور ، زاحفاً في حذاء البيوت .

وينبغي ان نقول إن المترددين كانوا مفعمين بالأمل . فالطريقة التي  
صدوا بها الهجوم أثناء الليل ، كانت قد قادتهم تقريباً إلى ان يزدوا ،  
مقدماً ، هجوم الفجر . لقد انتظروه ، ولقد ابتسموا له . لم يعد لديهم  
شك في نجاحهم ، كما لم يكن لديهم شك في قضيتهم . وفوق هذا ،

\* Europe مؤرخ لاتيني من أهل القرن الرابع الميلادي وضع كتاباً مفيداً يهرب  
بـ « مختصر التاريخ الروماني » .

فقد كان واضحًا ان التجدة توشك ان تُقبل . لقد اعتمدوا عليها . وفي سهولة التبؤ المظفر ذلك ، الذي هو جزء من قوة الفرنسي المقاتل ، قسموا النهار الذي كان قد آذن بالاندلاع إلى ثلاث مراحل متميزة . ففي الساعة السادسة صباحاً سوف تقبل كتيبة « كانت قد عولجت » ، وعند الظهر يعم العصيان باريس ، وعند الغيب : الثورة .

لقد سمعوا ناقوس سان ميري الذي لم يسكت لحظة منذ المساء و كان ذلك دليلا على أن المتراس الآخر ، المتراس الكبير ، متراس جان ، لا يزال صامداً .

وتناقلوا هذه الآمال كلها في ضرب من الهمس البهيج ، الرهيب في وقت معًا ، همسٌ كان شيئاً بأذى قفير من التحل في حالة حرب .

وظهر آنجولراس من جديد . لقد رجع من جولته التسرية القائمة في الظلمة الخارجية . واصغرى لحظة إلى هذا الابتهاج كله وهو متصالب النراعن ، واحدى يديه على فمه . ثم إنه قال ، نضراً متورداً في بياض النهار النامي :

— « إن جيش باريس كله يقاتل . إن ثلت ذلك الجيش يضغط على المتراس الذي انتم فيه . وإلى جانب الحرس الوطني ، لاحظت قلانس كتيبة المشاة الخامسة . ورابة الفرقة السادسة . سوف يُشن عليكم الهجوم خلال ساعة . أما الشعب ، فقد كان أمس يغلي على نار ، ولكنه لا يتحرك هذا الصباح . ليس ثمة ما نتوقعه ، وليس ثمة ما نرجوه : ولن نفوز من احدى الضواحي بعد الآن بأكثر مما سنفوز من احدى الكتاب . لقد تخلى القوم عنكم . »

وسقطت هذه الكلمات على اذى الجموع ، فأحدثت مثل ذلك الأثر الذي تحدثه في التحل قطرات العاصفة الأولى . لقد اعتمدوا كلهم بالصمت . كانت لحظة من لحظات ذلك السكوت الذي لا سبيل إلى وصفه

حين يكون في ميسور المراه ان يسمع حفيظ اجنبة الموت .  
وكانت تلك اللحظة قصيرة ؟

وصاح من اعمق الجموع الاشد إللاماً ، صوت يخاطب آنجلاراس :  
- « ليكن ذلك . فلتجعل ارتفاع المتراس عشرين قدمًا ، ولبنق  
كلنا فيه . ايها المواطنون ، دعونا نقدم احتجاج الجثث . فلنظهر للملأ  
انه إذا ما تخلى الشعب عن الجمهوريين فإن الجمهوريين لا يتخلىون عن  
الشعب :

وحررت هذه الكلمات اذهان الجميع من سحابة القلق الشخصي الالمية.

لقد استقبلت هناف حماسی ۹

ولم يعرف قط اسم الرجل الذي تكلم هكذا . كان رجلاً مغموراً من لابسي الدّرّاعات ، رجلاً مجهولاً ، منسياً ، بطلاً عابراً ، ذلك الغفل العظيم الذي نقع عليه دائماً في الازمات الانسانية والولادات الاجتماعية ، والذي ينطق في اللحظة المناسبة ، وعلى نحو سامي ، بالكلمة الحاسمة ، والذي يتلاشى في الظلام بعد ان يمثل ، لحظة من زمان ، على ومض البرق ، الشعب والله .

كان هذا العزم الصارم قد ملأ جو اليوم السادس من حزيران ١٨٣٢ إلى درجة جعلت المترددين في متراس سان بيري يطلقون في الساعة نفسها تقريباً هذه الصيحة التي امست تاريخية والتي أوردت في المحاكمة: «بيان أجاعوا لمساعدتنا أم لم يجئوا». فلمنت هنا حتى الرجل الأخير! وهكذا نرى أن كلا من المتراسين اتصل بالآخر على الرغم من أنها كانتا منفصلتين مادياً.

## نقص خمسة وزيادة واحد

بعد ان تكلم الرجل المجهول الذي رسم «احتجاج الجثث» وبعد ان أعطى صيغة النفس المشاركة ، ارتفعت من جميع الشفاه صيغة راضية ورهيبة على نحو غريب ، صيغة حدادية المعنى ، مظفرة الجرّم :  
 — « فليحي الموت ! فلتبق كلنا هنا ! »

قال آنجولراس :

— « ولماذا كلنا ؟ »

— « كلنا ! كلنا ! »

وأضاف آنجولراس :

— « المذكر منيع . والمراس جيد . ثلاثة رجال يكفون . لماذا نضحي باربعين ؟ »  
 فأجابوا :

— « لأن أيّاً منا لا يريد ان يغادر المكان . »

فصاح آنجولراس ، وكان في صوته ارتياح يكاد يكون غاضباً :

— « إنها المواطنون ، الجمهورية ليست غنية بالرجال حتى تتحمل النفقات على غير طائل . فهو اسراف . وإذا كان من واجب بعضنا أن يمضي لسبيله فان هذا الواجب ينبغي ان يؤدي كأي واجب آخر . »  
 وكان آنجولراس ، رجل المبدأ ، على اخوانه في الذهب ، ضرب من السلطان الكلي الذي ينبع من المطلق . ومع ذلك ، وبرغم هذا السلطان الكلي ، فقد كان ثمة دمدمة .

وإذ رأى آنجولراس ، وكان زعيماً حتى رؤوس اصابعه ، إلى القوم يدمدون ، أصرّ على رأيه . ثم عاد إلى القول في شموخ :

- « على كل من يخشى ان لا تكون اكثر من ثلاثة أن يعبر عن رأيه . »  
وتضاعفت الدمدمة .

والاحظ صوتًّا منطلق من احد الجموع :  
- « ولـى هذا ، فمن اليسر جداً ان نطالب المرأة بالانصراف  
المتراس محاصر . »  
وقال آنجولراس :

- « ليس من ناحية الاسواق . إن شارع مونديتور سالك . ومن  
طريق الـ « بريشور » يستطيع المرأة ان يصل الى الـ « مارشيه  
ديزنسانت » .

واضاف صوت آخر من بين الجمع :  
- « وهناك سوف يلقون القبض عليه : انه سوف يقع هناك على  
جماعة من الحرمس المخربين أو من جند الضواحي . انهم سوف  
يرون رجلاً يمضي وقد ارتدى دراعة واعتبر بقلنسوة . فيسألونه : « من  
اين اقبلت ، يا هذا ؟ انت من جماعة المتراس ، اليـس كذلك ؟ »  
وينظرون إلى يديك . ان رائحة البارود تبعـق منك . ويعـدونك رميـاً  
بالرصاص . »

ومن غير ان يجـب ، مـس آنجـولـراس كـتف كـومـبـوـفـير ، وـذـهـبـاـ مـعـاـ  
إـلـىـ الحـجـرـةـ السـفـلـىـ .

ثم انـهاـ وجـعاـ بـعـدـ لـحظـةـ . كان آنجـولـراس يـحملـ بـينـ يـديـهـ  
الـبذـلاتـ الـعـسـكـرـيـةـ الـأـرـبـعـ التيـ كانـ مـخـفـظـاـ بـهاـ . وـتـبعـهـ كـومـبـوـفـيرـ ،  
حـامـلاـ الـاحـزـمـةـ الـمـصـنـوـعـةـ مـنـ جـلـدـ الـجـامـوسـ ، وـالـقـلـانـسـ الـعـسـكـرـيـةـ :  
وقـالـ آنجـولـراسـ :

- « بـهـذـهـ الـمـلـابـسـ الـعـسـكـرـيـةـ يـسـطـبـعـ اـحـدـكـمـ انـ يـخـتـلـطـ بـالـجـنـودـ  
وـيـهـزـبـ . إـنـ مـعـيـ ماـ يـكـفـيـ أـرـبـعـةـ ،



الناعمات جداً ، المعتمرات بقلانس من الازهار ، اللواتي يغنين ، اللواتي يثرثن ، اللواتي يملأن البيت بالعفة ، اللواتي يشهن عطراً حياً ، اللواتي يثبتن وجود الملائكة في الجنة بظهور العذارى على الأرض ، جانٌ تلك ، ليزا تلك ، ميعي تلك ، هاته الكائنات المعبدة النبيلة اللواتي هن نعمات وموضع فخرك ، آه ايها الرب ، سوف يجعن ! ما الذي تريدون ان اقوله لكم ؟ إن ثمة سوقاً للاجساد البشرية ، وليس بایديکم الشبحية المرتعشة من حولهن تستطيعون ان تحولوا بينهن وبين الدخول إلى تلك السوق ! فكرروا في الشارع ، فكرروا في الرصيف المغطى بالصالكين ، فكرروا في الدكاكين التي تغدو النسوة امامها ويرحن عاريات الاكتاف ، عسراً الوحل . هاته النسوة ايضاً كن طاهرات . فكرروا بأنحواتكم ، اعني اوئلک الذين لهم منكم اخوات . الشقاء ، البغاء ، الشرطة ، سان لازار - ذلك ما سوف تسقط فيه تلك الفتیات الجميلات الناعمات ، تلك المعجزات الواهنات اللواتي ابدعنن الحياة واللطف والجمال ، الأشد نصرة من زنابق شهر نوار ! آه ! لقد قُتلتمن ! آه ، انت لم تعودوا إلى جانبهم ! حسن جداً ، لقد رغبتم في انقاذهن الشعب من الملکية ، فأسلمتم فتیاتکم إلى البوليس . ايها الاصدقاء ، خذلوا حذرکم ، ليکن عندکم شيء من الرأفة . ان النساء ، النساء البائسات ، ليس من عادتهن أن يفكرن طويلاً . نحن نعتر بأن النساء لم يتلقين ثقافة الرجال ، نحن نحظر عليهن القراءة ، نحن نحظر عليهن التفكير ، نحن نحظر عليهن الانبهاك في السياسة . فهل تخذرون عليهن ، الليلة ، ان يذهبن إلى معرض الجثث المجهولة للتعرف إلى جثثکم ؟ اسمعوا ، إن اوئلک الذين لهم عائلات يجب ان يكونوا اولاداً طيبين ، فيصافحونا ويحضوا لسبيلهم ، تاركين لنا مهمة العمل ، هنا ، وحدنا . أنا اعلم جيداً ان الانصراف يقتضي شجاعة ؛ إنه عسراً . ولكن كلما ازداد الشيء عسراً كان اجل

---

\* سجن النساء واصلاحيهن في ذلك العهد .

بالثناء والتقدير . قد يقول أحدهم : « إن عندي بندقية ، أنا في المتراس ، ليكن ما يكون ، سوف أبقى .. » ليكن ما يكون ، هذه عبارة قد قيلت باكراً جداً . أنها الأصدقاء ، هنالك غد ؛ انت لست تكونوا هنا في ذلك الغد ، ولكن أسركم سوف تكون . ويا لها من آلام ! انتبهوا ، طفل جميل ، يمور بالصحة ، طفل ذو وجنتين مثل التفاح ، طفل يهدر ، ويثرث ، ويلغو ، ويضحك ، ويعقب بالعبر تحت القبلة ، هل تعلمون ما الذي يحل به حين تخلّي عنه ؟ لقد رأيته واحداً ، صغيراً جداً ، لا يزيد طوله عن هذا المقدار . كان أبوه قد مات . وكان بعض الناس القراء قد تلقفوه بداع الشفقة ، ولكن لم يكن عندهم خبر يأكلونه . كان الطفل جائعاً دائماً . وكانت الدنيا شتاء . ولم يبك البة . لقد رأوه يحوم حول الموقد الذي لم ينطو على نار قط ، والذي كانت مدحتته ، كثما تعرفون ، مجصصة بالطين الاصفر ؟ وزرع الطفل باصابعه الصغيرة شيئاً من ذلك الطين ، وأكله . كان يتنفس في عسر ، وكان وجهه شديد الشحوب ، وكانت رجلاه رخوتين ، وكان بطنه متضخماً . إنه لم يقل شيئاً . وخطابوه ، فلم يحب . لقد مات . لقد حُمل إلى « مستشفى نيكر » ليموت ، وهناك رأيته . كنت جراحًا في ذلك المستشفى . والآن ، إذا كان بينكم آباء ، آباء يهيج نفوسهم أن يتزهوا يوم الاحد مسكون بأيديهم الكبيرة القوية ايسدي اطفالهم الصغيرة ، فليتخيل كل منهم ان ذلك الطفل كان ولده . هذا الطفل البائس ، وانا اتذكره جيداً ، يبدو لي اني اراه الآن ، وهو مدد عاريًا فوق مائدة التشريح ، وقد نأت عظامه تحت جلده مثل القبور تحت أعشاب مقبرة . لقد وجدنا ضرباً من الوحل في معدته . وكان ثمرة رماد في اسنانه . والآن ، دعونا نراجع ضمائernا ونشترين قلوبنا . الاحصاءات تظهر ان نسبة الوفيات بين الاطفال الذين تخلّي عنهم آباؤهم تبلغ خمسة وخمسين بالمئة . أنا أعود فأذكر : المسألة

مسألة زوجات ، أنها مسألة امهات ، أنها مسألة فتيات صغيرات ، إنها مسألة أطفال . هل اخاطبكم من أجلكم انتم ؟ نحن نعرف جيداً من انتم . نحن نعرف جيداً انكم كلکم شجعان ، وحق الاله ! نحن نعرف جيداً ان في نفوسکم جميعاً بهجة افتداء القضية العظمى بأرواحکم وفخر ذلك الافتداء . نحن نعرف جيداً انکم تحسون بان کلا منکم قد اختبر لكي يموت موئاً نافعاً رائعاً ، وان کلا منکم بعض بالتواجذ على نصيبه من النصر . حسن جداً . ولكنکم لستم وحدکم في هذا العالم . هناك كائنات اخرى بحسب عليکم ان تفكروا فيها . ينبغي ان لا تكون اثانيين .

وحنوا رؤوسهم جميعاً وقد طفت على وجوههم سحابة قاتمة : يا لتناقضات القلب البشري الغريبة في اسمى لحظاته ! إن كومبوفير ، الذي تكلم هكذا ، لم يكن يتيمأ . لقد تذكر امهات الآخرين ، ونبي امه : كان قد اختار الموت . كان «أثانيا» ، وكان ماريوس الصائم ، المحموم ، المسلوب آماله واحداً بعد آخر ، الجائع إلى الامى ، اشد انواع الغرق قناماً ، المشبع بالعواطف العنيفة ، المستشعر ان النهاية تقترب — كان ماريوس يسترسل أكثر فأكثر في ذلك الذهول الخيالي الذي يسبق ساعة الهاك ، دائمأ ، حسين نختارها بارادتنا .

كان خليقاً بالعلم الفيسيولوجي ان يدرس فيه الاعراض النامية لذلك الاستغراق الحمي . المصنف المعروف عند العلماء ، والذي هو بالنسبة إلى الألم اشبه بالانحطاط بالنسبة إلى اللذة . إن لليلأس ايضاً انحطاطه و وكان ماريوس قد انتهى إلى تلك النقطة . لقد شهد كل شيء وكأنما كان يفعل ذلك من خارج . وكما قلنا من قبل ، فقد بدت الاشياء ، الجارية امامه ، وكأنها نائية . لقد رأى الكل . ولكنه لم يتبين التفاصيل

---

\* نسبة الحمى .

لقد رأى الغادين والرائحن من خلال وهج مذهل . وسع الاصوات  
تشكلم وكأنما تبعث من أعماق هوة .

ومع ذلك ، فقد هزه هذا . كان في ذلك المشهد حد مسنون نفذ  
إليه ، وأيقظه . وكانت تطوف في ذهنه الآن فكرة واحدة ليس غير :  
أن يموت ، ولم يكن راغباً في الانحراف عنها . ولكنه فكر ، في سرّته ،  
الفاجعة ، انه ليس من المحظوظ على المرء ، فيما هو بهلك نفسه ، ان ينجد  
شخصاً آخر .

ورفع عقيرته قاتلاً :

- « آنجولراس كومبوفير على حق . لا تضحيات على غير طائل :  
أنا اضم صوتي إلى صوتها ، وينبغي ان نسرع . ولقد قال لكم  
كومبوفير الاشياء الخامسة . ان يبنكم نفراً لهم اسر ، لهم امهات ، لهم  
اخوات ، لهم زوجات ، لهم اطفال . فليغادر هؤلاء صفوتنا ! »  
ولم يتحرك أحد .

وأعاد ماريوس :

- « على المتزوجين ومعيلي الأسر ان يغادروا الصفوف ! »  
كانت سلطته عظيمة . صحيح ان آنجولراس كان زعيم المتراس ،  
ولكن ماريوس كان مخلصه .

وصاح آنجولراس :

- « أنا أمركم بذلك . »

وقال ماريوس :

- « أنا اناشدكم ذلك ! »

وعندئذ ، وبعد أن اثارتهم كلمات كومبوفير ، وهزمهم أمر آنجولراس ،  
وحركتهم صلاة ماريوس ، راح هؤلاء الرجال الابطال يسعى بعضهم  
بعض . فقال فتى منهم لرجل في منتصف العمر : « هذا صحيح .  

---

somnambulisme أو السير أثناء الرقاد . »

انت والد أسرة . إذهب ! فأجابه الرجل : « انت اولى بالذهاب ان لك اختن تعيلهما . » ونشب نزاع لم يُسع بعثله من قبل . كمان . يدور حول من منها ينبغي ان لا يسمح لنفسه بأن يوضع عند باب القبر .

وقال كوموفيير :

— « عجلوا ! بعد ربع ساعة يكون الاوان قد فات . »

وواصل آنجولرامس :

— « ايا المواطنون ، هذه هي الجمهورية ، والاقتراع العام هو الذي يحكم . عينوا بانفسكم من الذي ينبغي ان ينصرف . » وأطاعوا . وما هي الا بضع دقائق حتى كان خمسة منهم قد عينوا بالاجماع ، فقادروا صفو المقائلين .

وهتف ماريوس :

— « لهم خمسة ! »

ولم يكن ثمة غير اربع بدلات عسكرية .

فاندفع الخمسة يقولون :

— « حسن ان واحداً منا يجب ان يبقى . »

وكانت المسألة الآن : من الذي يجب ان يبقى ، ومن الذي سوف يجد اسباباً تبرر عدم بقاء الآخرين . ونشب النزاع الكروبيم كرة أخرى .

— « انت ، انت لك زوجة تحبك . » — « أما انت فان عندهك امك العجوز . » — « انت ليس لك لا اب ولا ام ، فما الذي سيحل بأحواتك الثلاثة الصغار ؟ » — « أنت اب لخمسة اطفال . » — « إن لك الحق في ان تعيش . انك في السابعة عشرة . لم يشن الاوان بعد . » كانت هذه المatriس الثورية الضخمة مواعيد بطولات . كان غير ممكن الوقوع سهلاً هناك . ولم يدهش بعض هؤلاء الرجال من بعض .

وذكر كوموفير :  
- « عجلوا ! »

وصاح صوت من بين الجموع يخاطب ماريوس :  
- « عين انت بنفسك من الذي يجب ان يبقى . »  
فقال الخمسة :

- « اجل . اختر . سوف نطيلك . »

واعتقد ماريوس الان أن ليس ثمة مكان لعاطفة ما . ومع ذلك فلم تكن تراوده هذه الفكرة ، فكرة اختيار رجل الموت ، حتى ارتد دمه كله إلى قلبه . وكان جديراً بلونه ان يشجب لو كان في ميسوره ان يزداد شحوباً .

وتقىد نحو الخمسة ، الذين ابتسموا له . وصاح كل منهم وقد امتلأت عينه بذلك الشعلة الشريفة التي نراها في أعماق التاريخ على الله « تيرموبيل » :

- « انا ! انا ! انا ! »

وعدهم ماريوس في ذهول . كانوا لا يزالون خمسة ! ثم وقعت عليهن على البذلات العسكرية الأربع .

وفي تلك اللحظة سقطت بذلة خامسة ، وكأنما كان سقوطها من السماء ، فوق الأربع الآخر .

لقد انهى الرجل الخامس .

ورفع ماريوس عينيه فرأى مسيو فوشلو凡 .  
كان جان فالجان قد دخل اللحظة إلى المتراس .

وسواء أكان ذلك بفضل توجيه من شخص ما ، أو بفضل الغريزة ، المصادقة فأنه كان قد اقبل من طريق شارع مونديتو . وبفضل

---

\* Thermopyles فجاج مشهورة في تسالية ، بين جبل انوبية وخليج مالياك حيث حاول ليونidas مع ثلاثة رجال اسبارطي زحف الفرس التراة مظهراً بطولة تكاد تكون اسطورية .

ملابسـه الخاصة بالحرس الوطني ، استطاع ان يجتاز الطريق في يسر .  
ولم يطلق الحرـس الذي اقامـه التـمردون في شـارع مونـديـر اشارـةـ الخطـرـ  
قطـ من أـجلـ رـجـلـ مـفـرـدـ من رـجـالـ الحـرسـ الـوطـنـيـ . لـقدـ اـجـازـ لـهـ انـ  
يـسـلـكـ الشـارـعـ قـائـلاـ في ذاتـ نـفـسـهـ : « لـعلـهـ انـ يـكـونـ مـدـداـ ، وـفيـ أـسـواـ  
الـاحـوالـ اـسـيرـاـ ». كـانـ الـلحـظـةـ بـالـغـةـ الـخـرـجـ فـهـيـ لاـ تـسـمعـ لـلـحـارـسـ  
بـأـنـ يـشـغلـ عنـ وـاجـهـ وـعنـ مـركـزـ مـراـفـيـهـ .

ولـحظـةـ دـخـلـ جـانـ فالـجـانـ المـراسـ لمـ يـلـحظـهـ اـحـدـ . كـانـ الـاعـنـ كـلـهـاـ  
مـركـزـةـ عـلـىـ الرـجـالـ الخـمـسـةـ المـخـتـارـيـنـ وـعـلـىـ الـبـذـلـاتـ الـعـسـكـرـيـةـ الـأـرـبـعـ .  
وـرـأـيـ جـانـ فالـجـانـ ، وـفـهـمـ . وـفـيـ صـمـتـ ، نـزـعـ مـلـابـسـهـ ، وـطـرـحـهـ عـلـىـ  
رـكـامـ الـبـذـلـاتـ الـأـخـرـىـ .

وـكـانـ الـانـفـعـالـ مـمـتـنـعـاـ عـلـىـ الـوـصـفـ .

وـتسـاءـلـ بـوـسـوـوـيـهـ :

ـ « مـنـ هـذـاـ الرـجـلـ ؟ـ »

فـأـجـابـهـ كـوـمـبـوـفـيرـ :

ـ « إـنـهـ رـجـلـ يـنـقـذـ الـآـخـرـينـ .ـ »

وـقـالـ مـارـيوـسـ فـيـ صـوتـ رـصـينـ :

ـ « أـنـاـ اـعـرـفـهـ .ـ »

وـكـانـ هـذـاـ التـوكـيدـ كـافـيـاـ لـلـجـمـيعـ .

وـالـفـتـ آـنجـولـرـاسـ نـحـوـ جـانـ فالـجـانـ وـقـالـ :

ـ « إـيـهاـ الـمـوـاطـنـ ، اـهـلاـ بـكـ .ـ »

ثـمـ اـضـافـ :

ـ « اـنـتـ تـعـلـمـ اـنـكـ سـوـفـ تـمـوتـ .ـ »

وـمـنـ غـيـرـ اـنـ يـجـيبـ ، سـاعـدـ جـانـ فالـجـانـ التـمـرـدـ الـذـيـ اـنـقـذـهـ ، عـلـىـ اـرـتـداءـ  
ثـوبـهـ الـعـسـكـرـيـ .

## أي افق يرى من أعلى المتراس

كانت حال الجميع ، في ساعة الموت تلك ، وفي ذلك الموطن الذي لا يعرف الرحمة ، قد وجدت حاصلها وذروتها في كابة آنجولراس العليا .

كان آنجولراس يجسّد في ذات نفسه كمال الثورة . ومع ذلك ، فقد كان ناقصاً ، بقدر ما يمكن للمطلق أن يكون ناقصاً . لقد تعلق أكثر مما ينبغي بسان جوست \* ، وأقل مما ينبغي به « آناشارسيس كلوتز » \*\* ، وبرغم ذلك فان عقله ، في جمعية « أصدقاء الألفباء » ، كان قد انتهى إلى أن يتلقى بعض الاستقطاب من أفكار كومبوفير . وكان قد شرع بطرح ، منذ مدة ، شيئاً فشيئاً ، شكل العقيدة الضيق ، واجاز لنفسه ان يمضي في طرق التقدم اللاحقة ، وارتضى آخر الامر ، كتطور نهائي ورائع ، تحول الجمهورية الفرنسية العظيمة إلى جمهورية انسانية ضخمة . أما في ما يتصل بالوسائل المباشرة ، في حالة من حالات العنف ، فكان يريدهم ان يكونوا ذوي عنف . وهو في هذا لم يتغير ، وكان لا يزال من تلك المدرسة الملحمية الرهيبة التي تلخص في هذه الكلمة : ثلاثة وسبعون . . . .

كان آنجولراس واقفاً على السلم المصنوعة من حجارة الارصفة ،

\* Saint — Just ( ١٧٩٤ - ١٧٦٧ ) عضو المؤتمر الوطني زمن الثورة ، وعضو لجنة السلامة الوطنية ، وكان شديد التطرف في ثوريته ، وقد مات على المقصلة مع ووبسيير .  
\*\* Anacharsis Cloots عضو المؤتمر الوطني في عهد الثورة الفرنسية ، وكان أحد مؤسسي « عبادة العقل » ، وقد لقب نفسه بـ « خطيب الجنس البشري » . وقضى نحبه مثل المقصلة مع المييريين ( ١٧٥٥ - ١٧٩٤ ) .  
\*\*\* يقصد عام ١٧٩٣ الذي ساد فيه الارهاب الثوري في فرنسة .

ومرققه على انبوب بندقيته القصيرة الخفيفة . كان يفكر . واجفل وكأنما كان في غمرة من عصفات ريح . ان للمواطن التي يجثم فيها الموت مثل هذه الآثار ذوات القوائم الثلاث . وانبعثت من عينيه ، المفعمين بالبصر الباطني ، ضروب من التران المطفأة . وفجأة رفع رأسه ، وارتدى شعره الاشقر إلى الوراء مثل شعر الملائكة فوق مركبته القاتمة المصنوعة من النجوم . كان اشبه بعفرة الاسد المروع وسط حالة من نور . و هذه آنجولراس :

— « اها المواطنون ، هل تتصورون المستقبل ؟ شوارع المدن مغمورة بالضياء ؛ اغصان خضراء على عتبات المنازل ؛ الدول متآخية ؛ الناس متصرفون بالعدل ؛ الشيوخ يباركون الاطفال ؛ الماضي محباً للحاضر ؛ المفكرون يتمتعون بحرية كاملة ؛ المؤمنون ينعمون بالمساواة ؛ السماوات للدين ، والرب كاهناً مباشرة ، وقد امسى الضمر مذحراً ؛ لا بغض ؛ الاخاء يجمع ما بين المعلم والمدرسة ؛ الشهرة للمكافأة وللعقوبة ؛ العمل للجميع ؛ القانون في خدمة الجميع ؛ السالم فوق الجميع ؛ لا دماء مسفوحة ؛ لا حزوب ؛ الامهات تغمرهن السعادة ! إن اخضاع المادة هو الخطوة الأولى ، وتحقيق المثل الاعلى هو الخطوة الثانية . فكروا في الذي صنعه التقدم حتى الان . ففي العهود القدمة كانت العروق البشرية ترى في رعب إلى الافعوان الذي نفت فوق الماء ، والتين الذي تقيناً ناراً ، والعُقاب — هولة السماء — الذي طار بجناحي نسر وبرائين نمر ، حيوانات رهيبة كانت فوق الانسان . بيد ان الانسان كان قد طرح أشراكه ، أشرك الذكاء المقدسة ، وكان قد اوقع بالهولات آخر الأمر .

لقد روضنا الافعوان ، وهو يدعى المركب البخاري ؛ لقد روضنا التين ، وهو يدعى القاطرة ؛ ونحن على وشك ترويض العُقاب ، وقد

أسمينا اليوم نملكه ، وهو يدعى المنطاد . ويوم يتم هذا العمل البروميتي .  
 ويوم يوفق الانسان إلى أن يسخر لرادته تسييراً نهائياً وهم القدماء  
 الثلاثي ، الافوان ، والثنين ، والعقارب ، فعندئذ يصبح سيد الماء ،  
 والنار ، والهواء ، وعندئذ يصبح بالنسبة إلى سائر الخلية الناشطة  
 ما كانت الآلة القدعة بالنسبة إليه هو . الشجاعة ، وإلى الإمام ! أنها  
 المواطنون ، إلى أين نحن ذاهبون ؟ إلى العلم وقد جعل حكومة ، إلى  
 قوة الأشياء وقد غدت وحدها القوة العامة الوحيدة ، إلى القساوون  
 الطبيعي الحامل جزاءه وعقوبته في ذات نفسه والمعلن رسمياً بالبرهان  
 الذاتي ، إلى فجر الحقيقة المطابق لفجر النهار . نحن ماضون نحو اتحاد  
 الشعب ؛ نحن ماضون نحو وحدة الانسان . لا أوهام بعد اليوم ؛ لا  
 طفيفيات بعد اليوم . الواقع محكوماً بال حقيقي ، تلك هي الغاية . إن  
 الحضارة سوف تقيم محاكمها فوق قمة اوروبة ، وبعد ذلك في وسط  
 القارات ، في برلان للذكاء كبير . لقد رثي شيء مثل ذلك من قبل .  
 ن مجالس اليونان التمثيلية القدمة المعروفة بالآمفيفكتيونات  
 كانت تعقد جلساتن في العام ، الأولى في دلفي ، مقر الآلة ، والثانية  
 في تيرموبيل ، مقر الأبطال . ولسوف يكون لاوروبة آمفيفكتيوناتها ،  
 ولسوف يكون للكرة الارضية آمفيفكتيوناتها . إن فرنسة لتحمل بين  
 جوانحها هذا المستقبل السامي . ذلكم هو حَمْلُه القرن التاسع  
 عشر . فما رسمته بلاد الاغريق رسمأ أولياً جدير بأن يتم على يد  
 فرنسة . أصح إلى اذن ، يا فويبي ، أنها العامل الباسل ، يا رجل  
 الشعب ، يا رجل الشعب . أنا أجلك . أجل ، انت ترى عصور  
 المستقبل في وضوح . أجل ، انت على صواب . انت لم يكن لك لا أب

\* نسبة إلى بروميثيوس الذي تروي الأساطير انه سرق النار من السماء ، وكان واسع  
 حجر الاساس في الحضارة الإنسانية ..  
 \*\* الحمل هنا يعني المطلب .

ولا ام . فويبي . لقد اتخذتَ من الانسانية أمةً لك ، ومن الحق أباً لك إنك سوف تموت هنا ، يعني سوف تتضرر . ايها المواطنين ، مهما يحدث اليوم ، وسواء اهزمنا أم انتصرنا ، فأنتا ستصنع ثورة . ومثلاً تضيء الحرائق المدينة بكمالها هكذا تبرر الثورات الجنس البشري كلها هـ واي ثورة تلك التي ستصنعها ؟ لقد سبق لي ان قلت : إنها ثورة الحق؛ ومن وجهة النظر السياسية هناك مبدأ واحد ليس غير : سيادة الانسان على نفسه . وهذه السيادة التي لنفسى على نفسى تدعى الحرية . وحيث تشارك اثنان من هذه السيدات أو أكثر تبدأ الدولة . ولكن ليس في هذه المشاركة اي تنازل البتة . ان كل سيادة تتخلى عن جزء من ذاتها لكي تشكل الحق العام . وهذا الجزء متساوٍ بالنسبة إلى الجميع . وتماثل المقادير التي تتخلى عنها هذه السيدات يدعى المساواة . والحق العام ليس غير حماية الجميع مشعةً على حق كلِّي ، لا أكثر ولا أقل . وحماية الجميع هذه لكلِّي تدعى الاحماء . ونقطة التقاute بين هذه السيدات المتألفة تدعى المجتمع . ولما كان هذا التقاute الققاء ، فإن تلك النقطة هي عقدة؛ ومن هنا ما ندعوه الرابطة الاجتماعية . وبعضهم يقول العقد الاجتماعي ، وليس من فرق بين التعبيرين ، لأن لفظة العقد قد صيغت ، اشتقاقياً ، من فكرة الرابطة . فلتتفاهم في ما يتصل بالمساواة . لانه إذا كانت الحرية هي القمة فان المساواة هي القاعدة . المساواة لا تعني ، ايها المواطنين ، نهوض النبات كله على مستوى واحد ، مجتمعًا من اعشاب ضخمة وستديانات صغيرة ؛ جواراً من ضروب الحسد يخصي بعضها بعضاً : إنه ، مدنياً ، تكافؤ الفرص أمام الكفايات كلها ؛ وسياسياً تساوي الاصوات جميعاً في القيمة ؛ دينياً ، تساوي جميع الضمائر في الحقوق . إن للمساواة وسيلة : التعليم المجاني الالزامي الحق في الوصول إلى الالقباء ؛ يجب ان نبدأ بهذا . المدرسة الاولية الزامية للجميع ، والمدرسة الثانوية متاحةً للجميع ؛ ذلك هو القانون . ومن

المدرسة المتهائلة ينشق المجتمع المتساوي . أجل ، التعليم ! الضياء ! الضياء ! كل شيء ينبعث من الضياء ، وكل شيء يرتد إليه وإليها المواطنون ، ان القرن التاسع عشر عظيم ، ولكن القرن العشرين سوف يكون سعيداً . وعندئذ لن يبقى بعد شيء مما يشبه التاريخ القديم . ولن يتغير على الناس بعد ان يخشوا ، شأنهم اليوم ، فتحاً ، أو غزوا ، أو اغتصاباً ، أو تنافساً بين الشعوب بالأسلحة ، أو اعتراضاً للحضارة متصلة بزواج ملك ، أو ولادة في انظمة الطغيان الوراثية ، أو تمزيقاً للشعوب بمؤتمر ، أو تجرييناً ناشئاً عن سقوط اسرة مالكة ، أو صراعاً بين دينين يلتقيان وجهاً لوجه ، مثل تيسين من تيوس الظلام ، فوق جسر الألهمية . لن يتغير على الناس بعد ان يخشوا الجوع ، والاستغلال ، والبغاء بسبب من العوز ، والبؤس بسبب من انعدام العمل ، وان يخشعوا المشنة ، والسيف ، والعارك ، وجميع تصوّصيات المصادفة في غابة المصائب . بل ان في استطاعتنا أن نذهب إلى حد القول : لن تبقى بعد مصائب . ان الناس سوف يكونون سعداء . والجنس البشري سوف ينفذ قانونه كما تنفذ الكرة الأرضية قانونها . ولسوف يقام التناجم من جديد بين النفس والنجم . إن النفس سوف تتجذب حول الحقيقة كما ينجذب النجم حول الضياء . إليها الاصدقاء ، إن الساعة التي نعيش فيها ، والتي اخاطبكم فيها ، هي ساعة مظلمة ، ولكن ثمن المستقبل يكون فظيعاً دائماً . الثورة باب ، توئى عنده المكوس . اوه ، ان الجنس البشري سوف ينقد ، وتنال عثرته ، ويوقع في قلبه العزاء . اننا نؤكد ذلك هنا في هذا المتراس . من اين ترتفع صيحة الحب إذا لم ترتفع من قمة التضحية ؟ ايها الاخوة ، هذا مكان الانتصار بين اولئك الذين يفكرون واولئك الذين يتأنلون . إن هذا المتراس ليس مصنوعاً من حجارة ارصفة ، أو من ألواح خشب ، أو من حديد ؛ إنه مصنوع من ركامين ، ركام افكار وركام آلام . إن البؤس ، هنا ، يلتقي بالمثل الاعلى . هنا يعانق النهار الليل ،

ويقول له : « سوف اموت معك ، وانت سوف تولد من جديد معي . »  
ومن ضغط ضروب الحزن كلها ينبع الامان . إن الآلام لتحمل  
حشرجتها هنا ، وان الاشكال لتحمل خلودها . وهذه الحشرجة وذاك  
خلود سوف يتمترجان ويشكلان موتنا . ايها الاخوة ، إن ذلك الذي  
يموت هنا يموت تحت اشعاع المستقبل ، وإننا لداخلون إلى قبر مضاء  
بالفجر . »

وقاطع آنجولراس نفسه مقاطعة ، ولا تقول انتهى ، وراحت شفاته  
تشحر كان في صمت وكأنما كان لا يزال يخاطب نفسه . ونظروا اليه  
في انتباه ، محاولين ان يسمعوا شيئاً اضافياً . لم يكن ثمة تصفيق ، ولكنهم  
تهامسوا فترة طويلة . وإذا كان الكلام نفثاً ، فإن ارجاف العقول يشبه  
ارتجاف اوراق الاشجار .

## ٦

### ماريوس تائماً ، جافير موجزاً

فلنرو ما كان يدور في خلد ماريوس .  
ينبغي ان نتذكر حاليه الذهنية . فكما ذكرنا منذ لحظة ، كان كل  
شيء عنده ، الآن ، حلماً من الاحلام . وكان إدراكه مشوشًا . و يجب  
ان نؤكد أن ماريوس كان في ظل الاجنحة الكبيرة السوداء التي تنبسط  
فوق المحتضرين من الناس . لقد استشعر انه دخل القبر ، وبدا له انه  
قد انتهى إلى الجانب الآخر من الجدار ، ولم يعد يرى وجوه الاحياء  
لا يعنيه ميت .

كيف ظهر مسيو فوشلوفان هناك ؟ لماذا كان هناك ؟ ما الذي كان  
يبيتني ؟ إن ماريوس لم يطرح ايّاً من هذه الاسئلة . وإلى هذا ، فبسبب

من ان ليأسنا تلك الخاصة التي تجعله يلف الآخرين كما يلفنا ، فقد بدا له ان من المنطقى ان يقبل كل امرىء على الموت .  
كل ما في الأمر أنه فكر بکوزيت متقبض الفواد .

وفوق هذا ، فان مسيو فوشلوفان لم يتحدث اليه ، ولم ينظر اليه ، بل انه لم يجد انه سمع شيئاً حين رفع ماريوم صوته لكي يقول : « أنا اعرفه . »

اما ماريوم ، فقد كان في مسلك مسيو فوشلوفان هذا راحة له ، واذا جاز لنا ان نصطنع مثل هذه الكلمة مثل تلك الانطباعات فيتعين علينا ان نقول ان ذلك المسلح قد سره . فلقد طالما استشعر ان من المستحيل عليه باعما حال من الاحوال ان يوجه كلمة إلى ذلك الرجل اللغر الذي كان في نظره مبهماً ومهيباً في آن واحد . وكان قد انقضى زمن طويل ايضاً على رؤيته ايام آخر مرة ، مما زاد في قوة تلك الاستحالة ، بالنسبة إلى ماريوم ذي الطبيعة الحية المتحفظة .

وغادر الرجال الخمسة المعينون المتراس مالكين زقاق مونديتور . كانوا يشبهون رجال الحرس الوطني كل الشبه . ولقد غادر واحد منهم المتراس وهو يبكي . وقبل ان يمضوا لسبيلهم عانقوا اوشكى الذين مكتوا .

حتى إذا انصرف الرجال الخمسة الذي أرسلوا إلى الحياة ، فكسر آنجولراس في ذلك الذي حُكم عليه بالموت . ومضى إلى الحجرة السفلية . كان جافير ، المشدود وثاقه إلى العمود ، مستغرقاً في التفكير .

وسأله آنجولراس :

ـ « هل تحتاج إلى شيء؟ »

فأجاب جافير :

- « مني ستقتلوني ؟ »

- « انتظر . نحن في حاجة إلى كل خرطوشة من خراطيشنا في هذه اللحظة . »

فقال جافير :

- « اذن ، فاعطوني ما اشربه . »

وقدم آنجولراس بنفسه كأساً من الماء اليه . وإذ كان جافير مشلود الوثاق فقد ساعده على ان يشربه .

وعاد آنجولراس إلى الكلام :

- « اهذا كل شيء ؟ »

فأجاب جافير :

- « إن شدي إلى هذا الورتدي يرذيني . ولم يكن رفيقاً منكم ان تركوني أقضي الليل هنا . شدوا وثاني كما تريدون ، ولكن في استطاعتكم من غير ريب أن تمددوني على طاولة . مثل الرجل الآخر . وبحركة من رأسه ، أشار إلى جثمان مسيو مابوف .

كان في أقصى الغرفة ، كما نذكر ، مائدة عريضة كانوا قد صبوا فوقها القذائف وصنعوا الخراطيش . وإذا كانت الخراطيش كلها قد صنعت ، وإذا كان البارود كله قد استعمل ، فقد أمست تلك المائدة شاغرة .

ونزولا عند أمر آنجولراس ، فك اربعة متزدين وثاق جافير : وفيما كانوا يفكرون وثاقه كان خامس يسد إلى صدره حربة . لقد تركوا يديه موثقين خلف ظهره . واحتاطوا قدميه بحبال قصيرة ولكنه قوي كان يسمح له بأن يخطو خطوات طولها خمس عشرة بوصة مثل خطوات أولئك الصاعددين إلى المشنقة . وقد وادوه إلى المائدة في أقصى الغرفة ، فمددوه فوقها ، وشدوا جذعه إليها شدآ محكماً .

وزيادة في الحيلة ، وبواسطة حبل مشلود إلى عنقه ، اضافوا إلى

مجموعة الاربطة التي جعلت كل هرب مستحيلا - اضافوا ذلك النوع من الرباط الذي يدعونه في السجون حكمة ، والذى ينطاق من مؤخر العنق ثم ينفصل فوق المعدة ، ويشد إلى اليدين بعد ان يمر بين الرجلين . وفيما كانوا يوتقون جافير حدق اليه رجل ، عند عتبة الباب ، في انتبه فريد . وكان في الظل الذي أحدهته ذلك الرجل ما جعل جافير يدير رأسه . لقد رفع عينيه ، وعزف جان فالجان . ولم يحصل مجرد إجفال . لقد غض طرفه في صلف ، واكتفى بالقول : « ذلك طبيعي جداً . »

## ٧

### الوضع يصبح خطراً

وتنفس الصبح في سرعة . ولكن ايام من النوافذ لم تفتح ، وابا من الابواب لم يفتح فتحاً يسيراً . لقد ارتفع الفمحي ، أما ساعة اليقظة فلم تكن قد حانت . وكانت الجيوش قد أخلت اقصى شارع الـ « شانفريري » تجاه المتراس ، كما ذكرنا . لقد بدا سالكاً ، مفتحاً للعابرين في هدوء مشووم . وكان شارع سان دينيز أخزس مثل جادة ابي الهول في ثيبة . لم يكن ثمة كائن حي عند مفارق الطريق التي كانت تبپض تحت أشعة الشمس . إن شيئاً ليس أكثر حدادية من اشراق الشوارع المهجورة ذلك .

ولم يكن في ميسور المرء ان يرى شيئاً ، ولكنه كان في ميسوره ان يسمع . كانت حركة خفية تجري على مسافة ما . وكان واضحاً ان اللحظة

---

\* الحكمة ، بالتحويلة ، حديدة في الجام تكون على انف الفرس وحنكه تمنعه عن مخالفه راكبه . وسميت بذلك لأنها تمنعه من الجري الشديد . وهي ترجمة لكلمة martingale التي في الأصل .

المرجة قد حانت : وانسحب الحرس ، ثالثم في المساء . ولكنهم  
انسحبوا كلهم هذه المرة .

كان المتراس أقوى منه لحظة المجوم الأول - لقد سموا به ، أعلى  
فاعل ، بعد انسحاب الرجال الخمسة .

وما إن سمع آنجولراس إخطار الحرس الذي كان يراقب منطقة  
الأسواق ، حتى اتخذ قراراً خطيراً خشية أن تؤخذ قواته على حين  
غرة من خلاف . كان قد سد المجاز الصغير المؤدي إلى زفاف مونديتور  
الذي كان حتى ذلك الحين سالكاً . ولقد نزعوا ، من أجل ذلك ،  
حجارة الارصفة على محاذة بضعة بيوت أخرى . وهكذا كان المتراس ،  
الم hazırlan ثلاثة شوارع - من أمام ، بشارع الـ « شانفريري » وعن  
يسار ، بشارع دو سيني ، و « لا بيتيت تروواندرى » ، وعن يمين بشارع  
مونديتور - قد أمسى أمن من عقاب الجن أو يكاد . صحيح أنهم  
كانوا مطوقين على نحو مشوّوم . كانت للمتراس ثلاث جبهات ، ولكن  
لم يبق له خرج . وقال كورفيراك ضاحكاً :

- « معقل ، ولكنه مصيدة . »

وكان آنجولراس قد ركب قرب باب المأمة نحوأ من ثلاثة حجرأ  
من حجارة الارصفة « اقتلعت على غير طائل » كما قال بوسوبيه .  
وكان الصمت قد غدا ، الآن ، عميقاً في الناحية التي ينتظر أن يشن  
منها المجوم بحيث أمر آنجولراس كل رجل من رجاله بالعودة إلى موقعه  
المحدد له .

ووزعَت على القوم جميعاً أنصبة من العرق .

وليس شيء أكثر غرابة من متراس يستعد للغارة . إن كل رجل  
يختار مكانه ، كالذى يقع في المسارح . انهم يتكونون على جوانبهم ، وعلى  
مرافقهم ، وعلى مناكبهم . وثمة نفر يتخذون لأنفسهم من حجارة  
الارصفة كراسى ودكاكاً . وقد تكون هنها زاوية حجارة مزعجة ، فهم

يتعلمون عنها ، وقد يكون هناك حائط ذو زوايا يستطيع المرء ان يضي به فهم يفزعون اليه . والأعسرون من المقاتلين هم اعلاف قبيحة ؟ انهم يخذلون الواقع التي لا تلتزم سائر الجماعة . وكثير من المقاتلين يعملون إلى ترتيبات تحكمهم من القتال وهم قعود . إنهم يريدون أن يقتلوا في غير ما انزاعج ، وان يموتوا في رفاهية . ففي حرب حزيران ١٨٤٨ المشوّمة كان متعدد ذو اصابة رهيبة ، متعدد قاتل من اعلى سطحية ، فوق سطح ، قد حمل كرسيًا ذا ذراعين من نوع فولبر إلى هناك . إن وايلا من القذائف قد وجده فيه .

وما يكاد الزعيم يأمر بالاستعداد للقتال حتى تقطع جميع الحركات المشوّشة . لا تبقى ثمة مناورات بين متعدد ومتعدد ؟ لا تبقى ثمة تجمهرات ودية ، لا تبقى ثمة احاديث تدور بين كل شخصين على حدة ، لا تبقى ثمة اعتزال . إن كل ما في الذهان يتتحول ، ويتغير في انتظار المهاجم . المراس قبل الخطر فوضى ، ولكنه عند الخطر ضبط . ان الخطر يولد النظام .

ولم يكدر آنجولاس يحمل بندقيته القصيرة الخفيفة ذات الاسطوانة المردوقة ، ويزتفق ضرباً من المزقفع كان قد احتفظ به لنفسه ، حتى ران الصيت على الجميع . وسمعت على طول الجدار المشيد من حجارة الارصفة ضجة صغيرة جافة . غير واضحة . كانوا يشحذون بنادقهم .

وفوق هذا ، فقد كانت مسالكهم أكثر اعتزازاً واحفل بالثقة من ذي قبل . إن فرط التضحية توظيف . لم يعد عندهم أمل ، ولكنْ يأس . اليأس ، السلاح الاخير ، الذي يهب النصر في بعض الاحيان . ذلك ما قاله فيرجيل . إن الأمداد العليا لتنبئ من العزائم المتطرفة . ان التخويف في الموت قد يكون الوسيلة إلى النجاة من الغرق . وهكذا يصبح غطاء النابوت لوحَ الخلاص .

وكما حدث في الليلة الفائتة ، كان انتباء الجميع قد تحول ، بل نكاد نستطيع ان نقول انه كان مستندأ ، إلى اقصى الشارع ، الذي غدا الان مضاءً ومنظوراً .

ولم يطل انتظارهم . واستوقف النشاط استثنائاً ملحوظاً في ناحية سان لو ، ولكن ذلك لم يشبه حركة المجموع الأول . لقد كان في جملة السلسل ، وارتجاج الجمع المحتشد ارتجاجاً مهدداً ، وصليل النحاس المصدر الواثب فوق حجارة الرصيف ، وفي ضرب من القعقة الاحتفالية – كان في هذا كله ما يؤذن بأن جسماً مشووماً من حديد يتقدم ويقترب . وسرت رعدة في احساء تلك الشوارع العتيقة الآمنة المشقوقة والمبينة لسير المصالح والافكار على نحو متعر ، والتي لم تُجعل للدوران دوالibz الحرب الزهيب .

وكان تحديق المقاتلين جميعاً إلى اقصى الشارع قد غدا ضارياً .  
وبدا مدفع .

ودفع الجندي ذلك المدفع . كان على استعداد لاطلاق النار . كانت الدوالibz الامامية قد نُزعت ، وكان مدفيعان يستدان العربة ، واربعة عند الدوالibz ، وآخرون يتبعونهم بعربة العتاد . لقد رئي دخان الفتيلة المشتعلة .

وصاح آنجولراس :  
– « النار ! »

واطلق المتراس كله النار ، وكان الانفجار رهياً . وغطت سحابة دخان المدفع والمدافعين ومحتمهم . وما هي إلا ثوان معدودات حتى تبدلت السحابة ، وعاد المدفع والمدافعين إلى الظهور . وعمد المكلفوون بالمدفع إلى وضعه تجاه المتراس ، في توءدة ، وفي ضبط ، وفي غير ما سرعة . إن رجلاً ما لم يمسّ . ثم ان رئيس المدافعين ، القى بثقله على مؤخر المدفع لكي يرفع خط انومي ، وراح يسد المدفع بوقار فلكيّ

يصوب تلسكوباً .

وصاح بوسوبيه :

- « مرحى للمدفعين ! »

وصفق المراس كلّه .

وبعد لحظة ، كان المدفع قد وضع بحزم في منتصف الشارع ، منفرج الساقين فوق الساقية ، مستعداً لإطلاق النار . كان شدق مروع قد فتح على المراس .

وقال كورفيراك :

- « هيا ، كونوا ناشطين ! هو دا الفظ . بعد الضربة بطرف السباقة يجيء دور الكلمة . إن الجيش يبسط يزته الكبير نحونا . إن المراس سوف يزعزع على نحو جدي . البنادق تجسس ، والمدافع تشتعل . »

ثم أضاف :

- « إنه مدفع برونزى تزن قذيفته ثمانية ارطال ، وهو يمثل نموذجاً جديداً . وهذه المدفع ، برغم أنها لا تزيد على نسبة عشرة أجزاء من الصفيح إلى مئة من التحاس إلا زيادة طفيفة ، تظل عرضة للانفجار . إن فرط الصفيح فيها يجعلها رقيقة بأكثر مما ينبغي . وفي هذه الحال ، تنشأ فجوات وتجاويف في ثقب إشعال البارود . ولذلك يتفادوا هذا الخطر ، ويكونوا قادرين على إطلاق النار عنوة ، فقد يتبعن عليهم أن يرجعوا إلى طريقة القرن الرابع عشر ، التطويق بأُطر مستديرة ، وإلى تدعيم المدفع خارجياً بسلسلة من الحلقات الفولاذية بدون لحام ، من مؤخره إلى محوره . وفي غضون ذلك يعالجون العلة جهد طاقتهم . ويكتشفون أين تقع الثقوب والفتحات في ثقب الأشعال بواسطة

سابر ما . ولكن ثمرة طريقة افضل ، هي نجمة غرييوفال .  
المتحركة . .

والاحظ بوسوبيه :

— « في القرن السادس عشر ، كانوا يفرضون الجزء الداخلي  
من المدفع . . »  
فأجاب كومبوفير :

— « نعم ، ذلك يزيد في القوة على رمي القذائف ، ولكنه يضعف  
من حسن الاصابة . وإلى هذا ، ففي المدى القصير لا يكون لصار  
القذيفة ذلك العنف المطلوب . إن الخط العدسي ليبالغ فيه ، وإن سيل  
القذائف لا يكون من الاستقامة حيث يمكنها من اصابة جميع الاشياء  
المعرضة . ولكنه على اية حال ضرورة من ضرورات القتال تعاظم  
أهميةها كلما اقترب العدو وتسارع إطلاق النار . وضعف التوتر هذا في  
خط القذيفة المنحني ، في مدافع القرن السادس عشر المفترضة ، مزدهر  
إلى ضعف الشحنة . والشحنات الواهنة المصطنعة في هذا الضرب من  
السلاح تفرضها ضرورات علم القذائف ، من مثل صيانة سند المدفع  
متلا . وعلى الجملة فالمدفعية ، ذلك الطاغية المستبد ، لا تستطيع ان  
تفعل كل ما تشاء ؛ القوة ضعف ضخم . إن كرة المدفع لا تزيد سرعتها  
على ستمائة فرسخ في الساعة . اما الضوء فتلغى مردوده سبعين الف فرسخ  
في الثانية . تلك هي أفضلية يسوع المسيح على نابوليون . »

فقال آنجولاس :

— « أعيدوا شحن الاسلحة ! »

ما الذي سيحدث لقطاء المتراس حين تنصب عليه النار ؟ هل تحدث  
فيه النار ثغرة ؟ ذلك كان هو السؤال . وفيما كان التمردون يعيدون شحن

---

\* قائد مدفعية فرنسي شهر ابتدع نظاماً مدفعياً جعل من مدفعية فرنسة  
القوى مدفعية اوروبية عند فجر الثورة ( ١٧١٥ - ١٧٨٩ ).

نادقهم ، شحن المدفعيون المدفع .  
 واستبد بالمراس قلق بالغ .  
 لقد انطلقت النار . ودوى الانفجار .  
 وصاح صوت مبتهج :  
 - « حاضر ! »  
 ومع انطلاق القذيفة انقض غافروش على المراس .  
 لقد أقبل من طريق شارع دو سيني . وكان قد تخطى ، برشاقة ،  
 المراس الشانوي الذي كان يشكل واجهة تبه الـ « بيتت  
 تروواندرى » .  
 وأحدث غافروش في المراس اثراً أعظم من اثر القذيفة .  
 وضاعت القذيفة في فوضى الانقضاض . لقد كسرت ، على الأكثر ،  
 دولاب العربة العامة ، وأجهزت على كارثة آنسو العتبقة . وإذا رأى  
 رجال المراس إلى ذلك شرعوا يضحكون .  
 وصاح بوسوبه مخاطباً المدفعين :  
 - « تابعوا ! »

## ٨

### المدفعيون يتذكرون انطلاقة جديدة

وأحاطوا بغافروش .  
 ولكنه لم يجد منسعاً من الوقت لينبئهم بشيء . وانتهى به ماريوس ،  
 وهو يرتعد ، جانياً .  
 - « ما الذي جاء بك إلى هنا ؟ »  
 - « اسكت ! وأنت ما الذي جاء بك ؟ »

وَحْدَقَ إِلَى مَارِيُوسَ بِوْقاْحَتِهِ الْمَلْحَمِيَّةِ . وَاتَّسَعَتْ عَيْنَاَهُ بِالضَّيَاءِ الْفَخُورِ  
الَّذِي كَانَ نَمُورٌ فِيهِمَا .

وتابع ماريوس كلامه في جرس صارم :

- « من قال لك ان تعود ؟ هل أوصلت رسالتي على الأقل إلى عنوانها ؟ »

ولم ينج غافروش من شيء من وخز الصمير في ما يتصل بتلسك  
الرسالة . فبحكم رغبته في العودة العاجلة إلى المتراس ، كان قد تخلص  
منها تخلصاً بدلاً من أن يسلّمها تسليماً . لقد اضطر إلى أن يعرف لنفسه  
 بأنه عهد بها في شيء من الطيش إلى ذلك الرجل الغريب الذي لم  
يتبين ، هو غافروش ، وجهه مجرد تبيّن . صحيح أن ذلك الرجل  
كان حاسر الرأس ، ولكن هذا غير كاف . وعلى الجملة فقد عانى  
بعض التبكيت الباطني على ذلك ، وخشى أن يوجهه غافروش إليه  
ضرروب التأنيب . وسلك ، لكي ينجو من البلاء ، الطريق الأبسط . لقد  
كذب على نحو مقيت .

- « ايه المواطن ، لقد أسلمتُ الرسالة إلى الباب . كانت السيدة نائمة . ولسوف تتلقى الرسالة ساعة تستيقظ . »

كان ماريوس في ارسال ذلك الكتاب هدفان : أن يودع كوزيت .  
وان ينقذ غافروش . ولقد اضطر إلى أن يقنع بنصف ما ابتغاه .  
ومثلت أمام ذهنه هذه المطابقة : إرساله الكتاب ووجود مسيو  
فوشلوفان في المتراس . ولفت نظر غافروش إلى مسيو فوشلوفان :

- « هل تعرف هذا الرجل ؟ »

فقاں غافروش :

1. 2 ) -

والواقع ان غافروش ، ، كما اشرنا اللحظة ، لم يكن قد رأى جان فالجان إلا في الظلام .

وتبدلت الأحداث المقلقة السقية التي كانت قد نشأت في ذهن ماريوس . هل كان يعرف آرام مسيو فوشوفان ؟ لعل مسيو فوشوفان كان جمهورياً . ومن هنا وجوده الطبيعي في هذا المعرك . وفي غضون ذلك كان غافروش قد انتهى إلى الطرف الآخر من المراس ، صائحاً :  
— « بندقيتي ! »  
واصلر كورفيراك أمره باعطائه ايها .

وحذر غافروش « رفقاء » ، كما كان يدعوه ، قاتلاً ان المراس مطوق . لقد وجد صعوبة كبيرة في الوصول اليه . كانت كتيبة من المشاة قد سرت بنادقها في شارع الـ « البيت تروواندري » ، تراقب ناحية شارع دو سيني . وفي الناحية المقابلة ، كان الحرس البلدي يحتل شارع الـ « بريشور » . وفي الخط الامامي كان القسم الاكبر من الجيش .

حتى إذا قدم غافروش هذه المعلومات اضاف قاتلاً :  
— « أنا افوضكم أن تعطوهم حبة دواء كريهة . »  
وفي غضون ذلك كان آنجولراس فوق مرتفعه يراقب ويصغي في انتباه بالغ .

وكان المهاجمون قد احجموا عن اطلاق النار كرة اخرى ، بعد ان خييت محاولتهم الأولى آمالهم .

كانت سرية من المشاة قد أقبلت واحتلت اقصى الشارع ، خلف المدفع . واقتلع الجندي حجارة الرصيف ، وأقاموا منها جداراً صغيراً منخفضاً ، ضرباً من الدرية ، لم يكدر يرتفع إلى أكثر من ثمانية عشرة بوصة ، تجاه المراس . وعند زاوية هذه الدرية وإلى يسارها رأوا طلائع فوج الضواحي المراس في شارع سان دونيز .  
وحسب آنجولراس ، القائم بالمرصاد ، انه تبين الضجة الفريدة

التي تحدث عندما تخرج صناديق القذائف من عربة العتاد ، ورأى رئيس المدفعين يغير الهدف وبمقدار فوهه المدفع إماماً طفيفة نحو اليسار . نعم ان المدفعين راحوا يشحنون المدفع بالقذائف . وامسك رئيسهم بنفسه القبضب ذا الفتيلة المشعنة ، وقربه من ثقب الاشعاع .

وصاح آنجولراس :

— « اخضوا رؤوسكم ، إلزموا الجدار ! واركعوا على ركبكم جمياً على طول المتراس ! »

وكيفما اتفق اندفعت نحو المتراس جموع التمردين الذين كانوا متأثرين بتجاه الحانة ، والذين كانوا قد تركوا مواقعهم عند وصول غافروش ، ولكن قبل أن يتقد امر آنجولراس أطلقت النار مثل فوق الكرات المدفعية الرهيب . ولقد كانت النار منطلقة من المدفع فعلاً .

كانت النار مصوبة إلى مدخل المتراس ، ولقد ارتدت عن الجدار .

وهذا الارتداد الفظيع قتل رجلين وجراح ثلاثة .

ولو تواصل هذا اذن لما كان في الامكان الدفاع عن المتراس . لقد كان غير ممتنع على القذائف المدفعية .  
وسمعت ضجة حزن شديد .

وقال آنجولراس :

— « فلنمنع الطلقة الثانية على الأقل . »

وخفض بندقيته القصيرة الخفيفة ، وسددتها إلى رئيس المدفعين الذي كان في تلك اللحظة منحنياً فوق مؤخر المدفع عازلاً لاحكام تسديده إلى الهدف .

كان هذا الرئيس رقيباً مدفعياً وسيماً ، غض الشباب ، اشقر ، علب المحيا ، تطفو على وجهه تلك السيماء الذكية الخاصة بذلك السلاح المختار الرهيب الذي ينبغي ، بحكم تكامله في المول ، ان ينتهي بقتل الحزب . ونظر كومبوفير ، الواقع قرب آنجولراس ، إلى هذا الشاب .

وقال كومبوفير :

- « وأسفاه ! ما أبغض هذه المذابح ! عندما لا يقى ثمة ملوك لن يقى ثمة حرب . آنجولراس ، انت تسد النار إلى ذلك الرقيب ، انت لا تنظر اليه . فكر في أنه شاب فاتن ، إنه شجاع . انت ترى انه مفكر . إن هؤلاء المدفعين الشباب يتمتعون بثقافة جيدة . إن له أباً ، وأما ، وأسراة . ولعله ان يكون عاشقاً . إن عمره خمسة وعشرون ربيعاً على الأكثـر . ولعله ان يكون أخاك . »

وقال آنجولراس :

- « إنه كذلك . »

فقال كومبوفير :

- « أجل ، وأخي أيضاً . حسناً . فلنتحقق دمه ! »

- « دعني وشأني . يجب ان نفعل ما يجب ان يُفعل . وفى بطء تحدرت عبرة على خد آنجولراس الرخامى .

وفى الوقت نفسه ، ضغط على زناد بندقيته القصيرة الخفيفة . وانطلقت النار . ودار المدفعى على نفسه مرتين ، باسطاً ذراعيه امامه ، رافعاً رأسه وكأنه كان يريد أن يستنشق الهواء ، ثم خر على جانبه فوق المدفع وانطرح هناك جثة هامدة . كان في امكان المزء ان يرى ظهره وقد انبعس منه على نحو عمودي سيل من الدماء . كانت القذيفة قد دخلت صدره واخترقت ظهره . لقد مات .

وتعين عليهم ان ينقلوه من هناك ويعهدوا في عمله إلى شخص آخر . والحق ان ذلك اكسب المقاتلين بعض دقائق .

فأئدة تلك البراعة القديمة في الصيد المحظور ، وتلك الطلقة

النارية المعصومة التي أثرت في الحكم الصادر عام ١٧٩٦

وتعارضت الآراء في المتراس . كان المدفع على وشك ان يطلق ناره من جديد . وما كان في مقدور المتردين ان يصدوا ربع ساعة تجاه وأابل من تلك التبران . كان ضروريًا أن يوهنوا تلك الفخربات .

وأصدر آنجولزام أمره :

— « يجب ان نضع حشية هناك . »

فقال كوموبير :

— « ليس عندنا شيء من ذلك . إن الجرحى مددون فوقها . . . ولم يكن جان فالجان — الجالس على حدة فوق أحد المعلم ، عند زاوية الحانة ، واضعًا بندقيته بين فخذيه — لم يكن حتى تلك اللحظة قد اشترك في الاحداث الجارية . لقد بدا له وكأنه يسمع المقاتلين يقولون من حوله : « هي ذي بندقية لا تقوم بأيما عمل . . . حتى إذا سمع أمر آنجولراس انتصب واقفاً .

والقاريء يذكر أنه عند وصول الكيبة إلى شارع الد « شانفرزيي » وضعت امرأة عجوز فراشها أمام نافذتها ، بعد ان توافت اطلاقات القذائف . وهذه النافذة ، نافذة علبة من العلالي ، كانت على سطح منزل ذي ستة أدوار قائم على مسافة يسيرة من المتراس . وكان الفراش الموضوع بالعرض ، قد أنسد أدناه إلى وتدين من أوتاد الغسيل ، وُشد أعلاه بحبلين بدؤا من بعيد وكأنهما خيطان ربطا إلى مسامير دُقسا في إطار الكوة . وكان هذان الجبلان يشاهدان على صفحة السماء مثل

شعرتين .

وقال جان فالجان :

— « هل يستطيع أحد منكم أن يعبرني بندقية خفيفة ذات اسطوانة مزدوجة ؟ »

وقدم اليه آنجولراس بندقيته الخفيفة القصيرة ، وكان قد شحنها منذ لحظة .

وسدّد جان فالجان البندقية إلى النافذة ، واطلق النار .

وقطع واحد من جبلي الفراش .

وندلّي الفراش من خيط واحد ليس غير .

واطلق جان فالجان الطلقة الثانية . وأصاب الجبل الثاني ذجاج النافذة .  
وانزلق الفراش بين الوتدين وسقط في الشارع .  
وصفق المتراس .

وصاح الجميع :

— « هي ذي حشبة . »

قال كومبوفير :

— « أجل ، ولكن من الذي سوف يذهب التماماً لها ؟ »  
كانت الحشبة قد سقطت ، في الواقع ، خارج المتراس ، بين المحاصرين والمحاصرين . وكان موت المدفعي قد اسخط الجيش ، فظلّ  
الجند بعض لحظات مستلقين على وجوههم خلف خط حجارة الارصفة  
التي أقاموه . ولكي يعواضوا عن صمت المدفع الالزامي ، هذا المدفع  
الذي خرس ريشا يعاد تنظيم استخدامه ، فتحوا النار على المتراس . ولم  
يجب التمردون على رصاص البنادق هذا ، توفيرأ للذخيرة لهم . وتحطم  
وابل الرصاص على صخرة المتراس ، ولكن الشارع الذي ملأه ذلك  
الوابل بالقذائف ، كان رهياً .

ونخرج جان فالجان من فرجة المتراس ، وولج الشارع ، واجتاز

عاصرة القذائف ، ومضى إلى الحشية ، فرفعها ، ووضعها على ظهره ،  
ورجع إلى المتراس .

ووضع الحشية بنفسه في الفرجة . وركزها على الجدار تركيزاً جعل  
رجال المدفعية لا يرونها .

حتى إذا تم له ذلك انتظر المتعرون أن تنصب عليهم نيران المدفعية .  
ولم يطل انتظارهم .

لقد تقى المدفع ، في هدار ، مشحونه من الرصاص الضخم . ولكن  
لم يكن ثمة ارتداد . إن القذيفة قد اجهضت على الحشية . لقد فاز  
المتعرون بمعندهم . ولقد أنقذ المتراس .  
وقال آنجولراس لجان فالجان :

— « أيها المواطن ، الجمهورية تشكرك .  
وأخذ العجب بوسوبيه وضحك . وهتف :

— « من غير الأخلاقى أن يكون لخشية هذه القوة كلها . انتصار ذلك  
الذى يخضع على ذلك الذى يصفع . ولكن سيان . المجد للخشية السى  
تنسخ مدفعاً . »

## ١٠

### الفجر

في تلك اللحظة استيقظت كوزيت .

كانت غرفتها صغيرة ، نظيفة ، منعزلة ، ذات نافذة طويلة قائمة  
إلى ناحية الشرق ، تطل على فناء البيت الخلفي .

ولم تعرف كوزيت شيئاً مما كان يجري في باريس . إنها لم تغادر  
غرفتها قط خلال الليل ، وكانت قد آوت إليها عندما قالت توسين :

١٧٦ ييلو ان هناك صخباً .

كانت كوزيت قد نامت بضع ساعات ، ولكن نوماً عميقاً . لقد رأت في ما يرى النائم أحلاماً عذاباً ، ولعل ذلك راجع - جزئياً - إلى أن فراشها الصغير كان ناصع البياض . لقد رأت شخصاً هو ماريوس وكأنه مطوق بهالة . واستيقظت والشمس في عينيها ، مما أحدث باديء الأمر مثل أثر استمرار الحلم .

وكان انفعالها الأول ، لدن خروجها من هذا الحلم ، بسيجاً . واستشعرت كوزيت الطمأنينة كاملة . كانت تمر ، شأن جان فالجان قبل بضع ساعات ، برجع الروح التي لا تريد الشقاء . لقد بدأت ترجو بكامل قواها من غير أن تدري لماذا ؟ ثم استبد بها انتقاض الفواد . « ها قد انقضت ثلاثة أيام لم تر فيها ماريوس . ولكنها قالت في ذات نفسها انه لا بد قد تلقى رسالتها ، وأنه يعرف اين كانت ، وأنه كان عظيم الفتنة ، وأنه سوف يجد وسيلة للوصول إليها . » « وهذا سوف يتم اليوم من غير شك ، وربما هذا الصباح بالذات . » « كانت الشمس قد اشرقت ، ولكن أشعتها كانت أفقية جداً . ولقد فكرت ان الوقت مبكر جداً . وان عليها ان تنهض ، برمغم ذلك ، لكي تستقبل ماريوس . »

لقد استشعرت أنها لا تستطيع أن تحيي بدون ماريوس ، وان هذا بالتأني كان كافياً ، وأن ماريوس سوف يجيء . ولم يكن أبداً اعتراض ممكن القبول . كان ذلك كلته ثابتة . ولقد كان رهياً إلى حد كاف أن تقاسي الآلام ثلاثة أيام موصولة حتى الآن . ماريوس يغيب ثلاثة أيام ، - إن ذلك لفظي وحق الالام . والآن كانت مناكدة السماء القاسية تجربة انتهت اجلها . كان ماريوس آتياً ، ولو سوف يحمل إليها انباء طيبة . على هذا التحو خلق الشباب ، إنه يكفي دموعه على عجل ، إنه يعتقد ان الحزن لا طائل تحته ، وهو لا يقبله . الشباب بسمة

المستقبل امام كائن مجهول هو المستقبل نفسه . إن من الطبيعي ان يكون سعيداً . إنه ييدو وكأنه يتنفس الأمل - تنفساً .

إلى هذا ، فان كوزيت لم توفق إلى تذكر ما كان ماريوس قد قاله لها حول مسألة هذا الغياب الذي ما كان ينبغي ان يطول أكثر من يوم واحد ، او تذكر ما كان قد قدمه اليها من تفسير لهذا الغياب . إن كلا منا قد لاحظ بأية رشاقة تجري القطعة النقدية الساقطة على الارض وتخفي ، وبأي فن تجعل من المتعذر على المرء أن يكتشف مكانها . إن ثمة افكاراً تخالنا مثل هذه المخاللة عينها . إنها تخفي في زاوية من دماغنا . لقد قضى الامر . لقد ضاعت . ومن المستحيل علينا بعد ان نتذكرها . واغتنشت كوزيت ، بعض الشيء ، بذلك الجهد الصغير الذي بذلته ذاكرتها على غير طائل . لقد قالت لنفسها ان نسيانها كلمات نطق بها ماريوس كان عملاً شريراً جداً اقدمت عليه ، بل عملاً مجرماً جداً .

ونهضت ، وتوضأت الوضوعين ، وضوء النفس وضوء الجسد ، صلاتها وزينة وجهها .

انا قد ندخل القاريء ، عند الضرورة ، إلى غرفة زوجية ، لا إلى غرفة بتولية . إن الشعر ليجرؤ على ذلك بشق النفس ، أما النثر فينبغي ان لا يفعل .

إنها باطن زهرة لما تفتح بعد . إنها بياض في الظل ؛ إنها الخلية الجوهرية لزنبقة مغلقة يجب أن لا ينظر إليها الانسان ما دامت الشمس لما تنظر إليها بعد . إن المرأة في كممها مقدسة . إن هذا السرير البريء الذي ينكشف ؛ ونصف العزي الزائع ذاك الخائف من نفسه ؛ وتلك القدم البيضاء التي تلجم إلى مشاية ؛ وذلك الصدر الذي يختجب أمام مرآة وكان تلك المرأة عين ترى ؛ وذلك القميص الذي يسارع إلى الارتفاع وإخفاء الكتف لدن طقطقة قطعة من أثاث أو لدن مرور هربة ،

وهذه العصائب المعتودة ، والأبازيم المنشبة ، والأشرطة المشدودة ، وهذه الارتعادات ، وارتفاعات البرد والحياء ، وذلك الخجل اللذيد في كل حركة ، وذلك القلق الذي يكاد يكون مجنحاً حيث لا سبب للخوف ، وأطوار الملابس المتعاقبة ، الفتاتة كسحب الضحى - إن هذا كله ليس من المناسب ان يوصف ، وانه من الكثير ، حقاً ، ان يشار اليه .

بل إن عين الرجل يجب ان تكون أدقى أمام بزوج فتاة صغيرة منها أمام بزوج نجم من النجوم . إن إمكانية اللمس يجب ان تزيد الاحتراز . فرغب الدراق ، وغبار الخوخ ، وبلور الثلج المشع ، وجناح الفراشة المذرور بالريش - كل اولئك اشياء غليظة بالقياس إلى ذلك الطهر الذي لا يعرف حتى مجرد انه طاهر . ان الفتاة الصغيرة ليست غير بارقة حلم ، وهي لست تصبح بعد ثنالا . إن مخدع نومها مخبوء في ظلال المثل الاعلى . وليس النظرة غير الرصين يشهو شبه الظل القائم هذا . فلان تنظر هنا يعني ان تدنس .

إننا لن نُظهر ، اذن ، شيئاً من كل ذلك التشوش الطفيف العذب الذي اتسم بها استيقاظ كوزيت .

تروي حكاية شرقية ، ان الله خلق الوردة بيضاء ، ولكن آدم نظر إليها لحظة شرعت في التفتح ، فاستحيت واحمر وجهها . إننا من اولئك الذين يستشعرون انهم قاصرون أمام الفتيات الصغيرات والازهار لأننا نجدهن جديرات بالاحترام .

وارتدت كوزيت ملابسها في عجل بالغ ، ورجلت شعرها وسوته ، ذلك الشعر الذي كان شيئاً بسيطاً جداً ، عندما كان النساء لا يورمن خصلهن وجدائلهن بوسائل ولفائف ، ولا يضعن نسيجاً صفيقاً في شعرهن . ثم فتحت النافذة ، واجالت طرفها في ما حولها راجية ان تكتشف شيئاً من الشارع ، زاوية منزل ، ناحية من رصيف ، وان توقف الى ترق ماريومس هناك . ولكنها لم تستطع ان ترى شيئاً من الشارع .

كان الفنان الخليفي مطوقاً بأسوار عالية ، وكانت بعض جنائن ليس غير تبدو للعيان . وترامت هذه الخدائق بشعة في عيني كوزيت ، وللمرة الأولى في حياتها وجدت الازهار قبيحة . ولقد كان خليقاً بأحرق جزء من ساقية من سوافي الشوارع أن يتراءى لها وكأنه أهم من ذلك كله . وأخيراً ، شرعت تنظر إلى السماء ، إذ خيل إليها أن ماريوس قد يجيء من تلك الطريق أيضاً .

وفجأة اغرورت عينها بالدموع . لم يكن ذلك خفة منها . ولكن الضنى كان قد عطل آمالها . واستشعرت على نحو غير واضح ذعراً لا سبيل إلى تحديده . لقد طافت الأشياء في الهواء حتى . وقالت في ذات نفسها أنها غير واثقة من شيء . وان احتجاب المرأة عن البصر يعني فقدانه . إن الفكرة القائلة بأن ماريوس قد يعود إليها ، فعلاً . من السماء لم تعد تبدو فاتنة . بل أمست مشوومة .

ثم ان الهدوء عاودها ، فتلك هي طبيعة هذه الغيوم . كما عاودها الأمل وضرب من الابتسام غير الوعي ، ولكن الواقع بالله .

كان كل امريء لا يزال نائماً في ذلك المترزل . لقد خيم ثمة صمت ريفي . ولم يكن اي من مصاريع النوافذ قد فتح . كان كوخ البواب موصدأ . ولم تكن توسين قد افاقت بعد . وكان من الطبيعي جداً ان تخسب كوزيت ان أباها كان نائماً . ولا ريب في أنها قد تألمت كثيراً . وفي أنها كانت لا تزال تتألم ؛ ذلك أنها قالت في ذات نفسها ان أباها كان غير كريم ، ولكنها كانت تعتمد على ماريوس . كان إمام الضعف بمثيل ذلك الضياء امراً مستحيلاً بالكلية . وبين الفينة والفينية كانت تسمع على مسافة ما خرباً من الارتفاعات الخرساء . وقالت: « من العجيب ان الناس يفتحون ابواب العربات وينلقونها في هذه الساعة المبكرة جداً ». كان المدفع يقصد المراس بقدائفه .

وعلى اقدام معدودات تحت نافذة كوزيت ، في افريز الجدار العتيق

الاسود ، كان عش سنونو ، وكان ذلك العش يحدث نتوءاً صغيراً خلف الافريز ، بحيث كان في ميسور المرء ان يرى إلى الجزء الداخلي من هذا الفردوس من على . كانت الأم ، هناك ، باسطة جناحيها مثل مروحة فوق صغارها . وطوف الاب في الفضاء ؛ لقد انطلق لسيله ، ثم رجع حاملاً عنقاده الطعام والقبلات . وذهب الضحى المرتفع هذا الشيء المعبد . كان القانون العظيم ، « تكاثروا » هناك باسم الوجه جيلاً ، وكانت هذه الغامضة العذبة تفتح اكمامها في ظل مجد الصباح . وانحنت كوزيت ، وشعرها تحت أشعة الشمس ، وروحها مستغرقة في الأحلام ، وقد اضاءها الحب من داخل والضحى من خارج – انحنت على نحو شبه ميكانيكي . ومن غير ان تعرف بانها كانت تفكر في ماريوس في الوقت نفسه . شرعت تنظر إلى هذه الاطيارات ، إلى هذه الاسرة ، إلى ذلك الذكر وتلك الأنثى ، إلى تلك الام وإلى هذه الصغار ، بمثل القلق العميق الذي يورثه العش أحدي العذاري .

## ١١

### الطلقة التي لا تخطئ أحداً ولا تقتل أحداً

وتواصل إطلاق النار من جانب المهاجمين . كانت البنادق تعمل حيناً ، والمدافع تعمل حيناً ، من غير ان تحدث – في الحق – اذى كبيراً . لقد أصيب الجزء الاعلى من واجهة كوزيت ليس غير بأضرار . وتشوهت شيئاً فشيئاً نافذة الطابق الاول وكوى السطح التي مزقها رصاص البنادق وقدائف المدفع تمزيقاً . وكان على المقاتلين المترکزين هناك

ان ينسحبوا . وإلى هذا ، فذلك هو فن مهاجمة المتراس : ان تطلق النار بتواتر ، فترة طويلة من الزمن ، ابتعاد استفاد ذخيرة التمردين ، إذا ما ارتكبوا خطيئة الرد . حتى إذا لوحظ ، من فتور نيرائهم ، انه لم يبق عندهم لارصاص ولا بارود فعندهم تشن الغارة . ولم يقع آنجولراس في هذا الشرك . إن المتراس لم يردّ البتة .

وكلما اطلقت مفرزة من الجندي نارها كان غافروش يورم خده بسانه ، علامـةـ الازداءـ المتشامـخـ .

وقال :

ـ «ـ هـذـاـ صـحـيـحـ .ـ مـزـقـواـ الـقـمـاشـ .ـ نـخـنـ فـيـ حـاجـةـ إـلـىـ نـسـالـةـ .ـ وـاسـتـجـوـبـ كـوـرـفـيـرـاـكـ الـقـذـائـفـ عـنـ السـبـبـ فـيـ اـنـدـامـ تـأـثـيرـهـ ،ـ وـقـالـ لـلـمـدـفعـ :

ـ «ـ لـقـدـ بـدـأـتـ تـصـبـحـ مـسـهـبـاـ ،ـ أـهـاـ الرـجـلـ الطـيـبـ .ـ فـيـ الـمـعـرـكـةـ يـشـغـلـ أـحـدـ الـفـرـيقـينـ بـالـفـرـيقـ الـآـخـرـ ،ـ كـالـذـيـ يـعـدـتـ فـيـ الـحـفـلـاتـ الـزـاقـصـةـ .ـ وـمـنـ الـمـحـتمـلـ أـنـ يـكـوـنـ ذـلـكـ الصـمـتـ الـذـيـ رـانـ عـلـىـ الـمـتـرـاسـ قـدـ شـرـعـ يـقـلـقـ الـمـغـرـبـينـ ،ـ وـيـعـلـمـهـ يـخـافـونـ حـادـثـةـ ماـ ،ـ غـيرـ مـتـوـقـعـةـ ،ـ وـاـنـ يـكـوـنـواـ قـدـ اـسـتـشـعـرـواـ الـحـاجـةـ إـلـىـ اـخـتـلاـسـ الـنـظـرـ مـنـ خـلـالـ رـكـامـ حـجـارـةـ الـاـرـصـفـةـ ،ـ وـمـعـرـفـةـ مـاـ كـانـ يـجـريـ خـلـفـ ذـلـكـ السـوـرـ الـمـعـتـنـعـ عـلـىـ التـأـثـيرـ ،ـ وـالـذـيـ كـانـ يـتـلـقـيـ نـيـرـائـهـ مـنـ غـيرـ أـنـ يـرـدـ عـلـيـهـ .ـ وـفـجـأـةـ لـمـ حـمـلـ الـتـمـرـدـونـ خـوـذـةـ تـلـمـعـ فـيـ الشـمـسـ فـوـقـ سـطـحـ مـجاـوـرـ .ـ كـانـ إـطـفـائـيـ يـسـنـدـ ظـهـرـهـ إـلـىـ الـمـدـخـنـةـ الـطـوـيـلـةـ ،ـ وـبـدـاـ وـكـانـ يـقـومـ ثـمـةـ بـعـهـمـةـ الـحـراـسـةـ .ـ كـانـ عـيـنـاهـ مـصـوـيـتـيـنـ إـلـىـ الـمـتـرـاسـ .ـ

وقال آنجولراس :

ـ «ـ هـنـاكـ حـارـسـ مـزـعـجـ .ـ وـكـانـ جـانـ فـالـجـانـ قـدـ اـعـادـ الـبـنـدـقـيـةـ الـقـصـيـرـةـ الـخـفـيـةـ إـلـىـ آنجـولـراسـ ،ـ وـلـكـنـهـ كـانـ يـحـمـلـ بـنـدـقـيـتـهـ .ـ

ومن غير ان يقول كلمة ، سدد بندقيته إلى الاطفال . وما هي إلا ثانية حتى اصابت الخوذة رصاصة اطاحت بها في صخب فوق ارض الشارع . وسارع الجندي المروع إلى الاختفاء .

وحل محله حارس جديد . وكان هذا الحارس ضابطاً . وسد جان فالجان بندقيته ، بعد ان جدد شحونها ، إلى القادر الجديد ، وأطاح بخوذة الضابط فالتحقت بخوذة الجندي . ولم يكن الضابط عنيداً ، فانسحب في سرعة بالغة . وهذه المرة فهم الاخطار . ولم يعاود احد الظهور فوق السطح ، وأقلع المغيرون عن التجسس على المتراس .

وسأل بوسوويه جان فالجان :

— « لماذا لم تقتل الرجل ؟ »

فلم يجب جان فالجان .

## ١٣

### الفوضي نصير للنظام

وهمس بوسوويه في اذن كومبوفير :

— « إنه لم يجب عن سؤالي . . .

قال كومبوفير :

— « إنه رجل يتلطف في طلقات البنادقية . . .

إن أولئك الذين يحتفظون بشيء منه ذكرى تلك الحقبة التي است الآن قصبة يعرفون ان حرس الفواحسي الوطني كان باسلا في مقاومة الانتفاضات . ولقد كان ضارياً ومقداماً في ايام حزيران ١٨٣٢ وخاصة . إن كثيراً من اصحاب الخمارات الطيبين في « بانتين » ، و « فيرتوس » أو « لاكونيت » ، الذين خلت « مؤسساتهم » من الزبائن بسبب من

الفترة ، قد استأسدوا عند روئتهم صالات رقصهم وقد أقفرت من روادها . و ما توا لكي يُقروا النظام الممثّل بمحنة الضاحية . وفي تلك الأيام ، البورجوازية والبطولية في آن معاً . وفي حضرة افكار كان لها فرسانها ، كان للمصالح مغامروها . والداعي الذي يوزعه السمو لم يفقد العمل شيئاً من بطولته . إن تناقض ركام من الريالات جعل اصحاب المصارف ينشدون المارسيز . لقد سفحوا دماءهم على نحو حماسي في سبيل منضدة المحاسبة . وفي اندفاع اسباراطي دافعوا عن الدكان . ذلك المصغر المائل للوطن .

وفي الواقع — وهذا ما ينبغي ان نقوله — انه لم يكن في ذلك كلّه شيء غير جدي إلى أبعد الحدود . كانت العناصر الاجتماعية تتصارع في انتظار ذلك اليوم التي تنتهي فيه إلى توازن .

وعلامة أخرى من علامات ذلك العصر تلك القووضى المترجدة بالحكومة ( اسم ببريري للحزب الصحيح ) . كان الناس انصاراً للنظام مع عدم الانقياد . لقد قرع الطبل على حين غرة ، بأمر من أحد زعماء الحرس الوطني ، بالمناداة على الاسماء على نحو اشتهاي . وكثير من الضباط مضوا إلى النار بدافع من الوحي . وكثير من رجال الحرس الوطني قاتلوا بسائق « الوهم » ، ولحسائهم الخاص . ففي اللحظات الحرجة ، في « الأيام » ، كان المرء يستشير رؤساهه أقل مما يستشير غرائزه . كان ثمة في الجيش النظامي عصابات حقيقة ، بعضها عصابات سيف مثل فانيقو ، وبعضها الآخر عصابات قلم ، مثل هنري فون فرييد .

كانت الحضارة ، المثلة في تلك الحقبة مع الاسف بخشد من المصالح باكثر مما مثلت بخشد من المباديء — كانت الحضارة في خطر ، أو خيل إليها أنها في خطر . لقد اطلقت صيحة الخطر . وجعل كل امزيء نفسه مركزاً ، وراح يدافع عنها ، ويعرفها ، ويحبها ، على طريقته

الخاصة . وأخذ كل امرئ على عاتقه مهمة إنقاذ المجتمع . إن الاندفاع يذهب في بعض الأحيان إلى حد الابادة . وهكذا فان بعض فصائل الحرس الوطني اقامت نفسها . وبقوة سلطانها الخاص ، مجلساً حربياً ، واصدرت حكمها على اسير من المتمردين ونفذته ، في فترة لا تزيد على خمس دقائق . ولقد كان مثل هذا الارتجال مسؤولاً عن مصرع جان بروفير . قانون «اللش» . ضارٍ ، لا يحق لاي حزب ان يغير به الاحزاب الأخرى . إذ انه مطبق على يد الجمهورية في اميركة وعلى يد الملكية في اوروبة سواء سواء . وقانون «اللش» هذا عرضة للاختفاء . فذات يوم من ايام الفتن طورد شاعر شاب ، يدعى بول ايميه غارنييه ، في القصر الملكي . ورأس الحرابة في ظهره ، ولم ينج إلا بالاتجاه تحت باب العربات من رقم ٦ . وكانت الصيحة : « هودا واحد آخر من اولئك السان سيمونين » .. وكانوا يريدون ان يقتلوه . ذلك انه كان ينأبط مجلداً من مذكرات الدوق سان سيمون .. وقرأ احد رجال الحرس الوطني على هذا الكتاب اسم سانت سيمون فصاح : « اقتلوه ! »

وفي السادس من حزيران ، عام ١٨٣٢ ، ارتضت مفرزة من مفارز الحرس الوطني . يقودها الكابتن فانقو المذكور آنفاً . ارتضت هذه المفرزة ان يقتل منها خلق كثير في شارع الـ « شانفريري » مجرد الموس وبكامل الارادة المطلقة . وقد أقيم البرهان على هذه الحقيقة ، برغم غرابتها الظاهرية ، في التحقيق القضائي الذي أجري بعد ثورة

\* كلمة انكليلية الاصل (Lynch) تفيد معنى محاكمة المرء وبماقتله اعتباطاً من غير قانون ، وهو ما كان يصنمه اليهن بالزنوج الاميركيين وما يزالون حتى اليوم .

\*\* نسبة الى كلود هنري سان سيمون ، المفكر الاشتراكي المشهور ( ١٧٦٠ - ١٨٢٥ ) .

\*\*\* وهو كاتب فرنسي اشتهر بمذكراته ( ١٦٩١ - ١٧٢٣ ) .

١٨٣٢ . وتفصيل ذلك ان الكابتن فانيقو - وكان بورجوaziاً جريئاً قليل الصبر ، ضرباً من جندي النظام المرتقب الذي وصفناه اللحظة ، حكومياً متسبباً جامحاً - لم يستطع ان يقاوم الرغبة في فتح النار قبل الموعد المحدد ، والطموح إلى الاستيلاء على المتراس بنفسه هو وحده ، يعني مع جنود مفرزته . لقد أثار سخطه تكرر ظهور الراية الحمراء والسترة العتيقة التي حسبها الراية السوداء ، فلام جميع القادة وزعماء القوات المقاتلة ، الذين كانوا يتشارون في الموقف ، والذين لم يروا ان ساعة الهجوم الخامس قد حانت ، فتركوا الثورة - وفقاً للتعبير المشهور الذي اصطبغه واحد منهم - « تنضح في عصبرها نفسه . » أما هو فقد حسب ان المتراس ناضج ، واذ كان يتبعن على كل ناضج ان يسقط ، فقد قام بالمحاولة .

لقد قاد رجالاً جسورين مثله ، رجالاً « مسوريين » كما قال احد الشهداء . وكانت مفرزته ، وهي نفسها التي كانت قد قتلت الشاعر جان بروفير ، أولى مغارز الكتبية التي رابطة عند زاوية الشارع . وللحظة كان القوم أقل ما يكونون توقعاً لذلك ، قذف الكابتن المتراس بجنوده . وهذه الحركة ، التي نفذت في حماسة اكبر مما نفذت في فن حربي ، كلفت مفرزة فانيقو غالياً . وقبل ان تجتاح اكبر من ثلثي الشارع ، استقبلت بوابل عام من رصاص المتراس . ولقد صرخ اربعة منهم ، كانوا اكثراهم جرأة ، وكانوا يندفعون في المقدمة - صرعوا بلامسة السلاح الناري للتمرد ، عند عتبة المتراس نفسها ، وهكذا تعين على هذا الجمع الباسل من الحرس الوطني - وهم رجال اولو شجاعة بالغة ، ولكن تعوزهم الصلابة العسكرية - ان ينكصوا على اعقابهم . بعد شيء من التردد ، تاركين خمس عشرة جثة على ارض الشارع . وفسحت لحظة التردد هذه المجال امام التمردين فأعادوا شحن اسلحتهم ، وانصبوا وابل ثان من رصاص - وابل مهلك جداً - على المفرزة قبل

ان تبلغ زاوية الشارع ، مفزعها . وفي لحظة واحدة سقطت بين وابلين من نار ، وانهالت عليها طلقات المدفع من المدفعية التي لم تلتقي اي امر ، فلم تكفل عن إطلاق نارها . وكان فانيقو ، القليل البصر ، واحداً من الذين صرعنهم تلك النيران . لقد قُتل بالمدفع ، يعني بالنظام . وهذا المجموع ، الذي كان ضارياً أكثر منه جدياً ، اثار آنجلوراس .

وقال :

- « يا لهم من مجائب ! انهم يلقون برجاهم إلى الموت ويستهلكون ذخيرتهم على غير طائل . »

لقد تكلم آنجلوراس مثل قائد الفتنة الحقيقي الذي كانه . ان الثورة والقمع لا يتقابلان البتة باسلحة متساوية . فالثورة ، النافدة في سرعة ، لا تملك غير عدد محدود من الرصاصات تطلقها ، وغير عدد محدود من المقاتلين تستهلكهم . فإذا ما فرغ صندوق خرطوش من صناديقها ، أو صرع رجل من رجالها لم يكن ثمة سبيل إلى التعويض عنها . أما القمع فإنه ، بسبب من كونه مالكاً للجيش ، لا يعد الرجال ، وبسبب من كونه مالكاً لـ « فنسين » ، لا يعد الطلقات النارية . والقمع يملك من الكتاب قدرأً موازيأً لما يملكه المتراس من الرجال ، ويملك من معامل السلاح قدرأً موازيأً لما يملكه المتراس من صناديق الخرطوش . وهكذا فتح هناك أمام صراع بنسبة واحد إلى مئة ، صراع ينتهي دائماً بتدمير المتراس . إلا إذا استطاعت الثورة ، وقد انفجرت فجأة ، ان تلقي في الميزان بسيفها الملتهب الشبيه بسيف كبير الملائكة . وهذا قد يقع . وعندئذ يهب كل شيء ، وتبدأ الارصفة في الغليان ، وتسكائر متاريس الشعب ، وتختلع باريس على نحو مفعم بالسلطان ، ويطلسق سراح الـ *quid divinum* ، وتملاًقضاء نذر يوم كيوم العاشر من آب ، ويلوح شبح يوم كيوم التاسع والعشرين من تموز في كل مكان ، ويبدو ضياءً أعموجوبي ، وينكفي شدق القوة الفاغر ، ويرى الجيش ، ذلك

الاسد' . أمامه ، منتصباً هادئاً ذلك النبى ، فرنسة .

١٣

٢٠

## ومضات تخبتو

في عماء العواطف والاهواء التي تداعف عن متراس من المداريس يوجد شيء من كل شيء . هناك الشجاعة . والشباب ، والشرف ، والحماسة . والمثل الأعلى : واليقين ، وانهائى المقامر ، وفوق ذلك كلّه فترات الأمل .

إن احدى تلك الفترات . احدى رعشات الأمل الغامضة تلك ، مرت فجأة ، لحظة لم يكن يتوقعها أحد ، بمتراس شارع الـ «شانفريري» . وعلى حين غرة . صاح آنجولراس الذي كان دائماً بالمرصاد :

— « اسمعوا ! يبدو لي ان باريس تستيقظ . »

من الثابت أنه في صباح السادس من حزيران ، عرفت الثورة ، طوال ساعة أو ساعتين ، انتعاشاً جديداً . لقد أحيا عنادُ ناقوس سان ميري بعض الآمال الخالية . ففي شارع بواريه ، وفي شارع غرافيه ارتسست بعض المداريس . وتجاه باب سان ماريين ، هاجم شاب مسلح ببنادق قصيرة خفيفة كثيبة من الفرسان بمفرده . ومن غير ما ستر ، في وضح الجادة . ركع على احدى ركبتيه ، وتتكبّب سلاحه ، واطلق النار ؛ فصرع قائد الكتبية ، واستدار قائلاً : « هوذا شخص آخر لن يُنزل بنا اذى اضافياً ». وطعنوه بحد السيف . وفي شارع سان دونيز ، اطلقت امرأة النار على الحرس البلدي من وراء شعرية نافذة مسدلة . ورئت وصلاتُ الشعرية الخشبية ترتجف عند كل طلقة . وفي شارع الكوسونيري ، ألقى القبض على غلام في الرابعة عشرة وجيوبه ملأى

بالخراطيش . وهو جم عدد من مراكز الجند . وعند مدخل شارع بيرتن بواريه استقبل وايل من رصاص البنادق حاد جداً وغير متوقع البته كثيبة من الدارعين كان يسير على رأسها الجنرال كافينياك دو باراني . وفي شارع بلاش ميري ألقوا على الجند ، من السطوح ، كستراً عتبقة من الآنية والادوات المترهلة . علامة سيئة . وحين رويت هذه الحقيقة للmarschal سولت ، استغرق مساعد نابوليون العجوز ، وقد تذكر كلمة سوشيه \* في سرقسطة : « نحن نهلك حين تُفرغ النسوة العجائز مباوهن على رؤوسنا » .

هذه الاعراض العامة التي تكشفت لحظة اعتقاد الناس ان الفتنة قد حضرت في موقع ما ، حتى الحقد هذه التي تمت لها الكلمة العليا كرة اخرى ، هذه الشرارات التي انطلقت هنا وهناك فوق تلك الاكواام العميقه من المواد المشتعلة التي تدعى ضواحي باريس - هذه كلها مجتمعة أثارت القلق في نفوس الزعماء العسكريين . لقد أرجأوا ، حتى تنطفئ تلك الشرارات ، المجموع على مداريس موبيه ، والشانفريري ، وسان ميري ، لكي لا تصطدم إلا بها ، ولكي يكون في ميسورهم ان يقضوا على كل شيء بصرية واحدة . لقد قذفوا بفصائل الجند إلى الشوارع المائجه ، مكتسحة كبرائها ، سابرة صغراها ، عن يمين ، وعن شمال ، حيناً في حذر وعلى مهل ، وحيناً في سير خاطف كسيـر الحملة . وحطـم الجنـد ابوـاب الـبيـوت التي سبق أن انطلـقت منهاـ النار ، وـفيـ الـوقـت نفسهـ فـرقـت مناورـات سلاحـ الفـرسـانـ الحـشـودـ المـجـتمـعـةـ فيـ الشـوارـعـ الوـاسـعـةـ . وهذا القـيمـ لمـ يتمـ منـ غيرـ ضـجةـ ، اوـ منـ غيرـ تلكـ القرـفةـ الصـاحـبةـ التي تـلازمـ الـاصـطـدامـاتـ الـواقـعـةـ بـيـنـ الجـيـشـ وـالـشـعـبـ . ذلكـ ماـ أـدرـكـهـ آنجـولـراسـ فيـ الـفترـاتـ الفـاـصـلـةـ ماـ بـيـنـ طـلـقـاتـ المـدـافـعـ وـطلـقـاتـ البنـادـقـ .

---

\* سوكـتـ سـارـشـالـ فـرـنـسـ ( ١٧٧٢ - ١٨٢٦ ) أـيلـ بلاـهـ حـسـنـاـ فيـ إـسـبـانـيـةـ ، وـبـخـاصـةـ فيـ مـعرـكـةـ جـرـتـ قـربـ سـاغـونـتـ .

وإلى هذا ، فقد كان قد رأى بعض الجرحى يجتازون أقصى الشارع على محاصل ، وقال لكورفيراك :

— « هؤلاء الجرحى لا يأتون من عندنا . »

ولم يعمر الامل طويلاً . وomba الوبيض في سرعة . وفي اقل من نصف ساعة تلاشى ذلك الرجاء الذي كان علأا الفضاء . كان اشبه ببرق خلتب ، واستشعر المتردون وكأنما سقط عليهم ذلك الضرب من غطاء العرش الرصاصي الذي تلقى لا مبالاة الشعب على اصحاب الرأي الصليب المتخلى عنهم .

كانت الحركة العامة التي بدلت وكأنها رسمت على نحو غامض – كانت هذه الحركة قد اجهضت . وأصبح في ميسور اهتمام وزير الحرب واستراتيجية القادة العسكريين ان يركزا على المارس الثالثة او الاربعة التي كانت ما تزال قائمة .

وارتفعت الشمس فوق الأفق .

وخاطب احد المتمردين آنجولراس :

— « نحن جائعون هنا . هل سمعت هنا ، فعلاً ، من غير ان نأكل ؟ »

وهز آنجولراس رأسه ، وكان لا يزال مستنداً إلى شرفته ، من غير ان يزيح عينيه عن اقصى الشارع .

## ١٤

### حيث نقرأ اسم خليلة آنجولراس

وواصل كورفيراك ، الجالس على حجر من حجارة الارصدة قرب آنجولراس ، اهاناته للمدفع . وكلما انطلقت السحائب القاتمة من

القذائف التي ندعوها كرات المدافع ، بدوتها الهائل ، تلقّاها بفورة من السخرية .

— « انت ترهق رتيلك ، ايه البهيمة العجوز المسكينة : إنك تقلقني ؛ إنك تفقد ضواعك . هذا ليس رعداً . لا ، إنه سعال . » وضحك الذين كانوا من حوله .

وشرع كورفيراك وبوسوويه ، اللذان كانت يشاشتهما تزداد في ساعات الخطر ، يستعيضان ، مثل مدام سكارون ، عن الطعام بالدعاية . وإذا لم يكن عندهما خمر فقد صبّا الماء للمجتمع . وقال بوسوويه :

— « أنا معجب بآنجلوراس . إن جرأته الممتعة على التأثير لتدعشيني . إنه بحباً وحيداً ، وهذا ما قد يجعله حزيناً بعض الشيء . إن آنجلوراس يتالم من عظمته ، التي تشدّه إلى الترمل . أما نحن الباقين فان لنا جميعاً ، قليلاً أو كثيراً ، خليلات تجعل منها مجانين ، يعني شجاعاناً . فحين يكون المرء عاشقاً كالنمر ، فأقل ما يُنتظر منه أن يقاتل كالأسد . إنها وسيلة تنضم بها لأنفسنا من الحيل التي تديرها لنا سيداتنا الفتيات المغناجات . إن رولان يلقي بنفسه إلى الموت لكي يغيظ آنجليليكا . جميع بطلواتنا تنشق من نسائنا . الرجل من غير امرأة غدارةٌ من غير زناد . إن المرأة هي التي تجعل الرجل ينطلق . والآن ، إن آنجلوراس لا امرأة له . إنه ليس عاشقاً ، وهو بجد الوسيلة إلى أن يكون باسلا . وانه لمن العجز ان يستطيع المرء ان يكون بارداً كالثلج ، ومقداماً كالنار . » ولم يجد أنجلوراس كان يسمع . ولكن لو ان ايا امريء كان قربه اذن لسمعه يغمغم في همس : « Patria » . وكان بوسوويه لا يزال يضحك عندما صاح كورفيراك :

---

« يطل « انشودة رولان » و « رولان المائح » . وأنجليليكا زوجته .

.. الفضة لللاتينية التي تفید مني الوطن . »

— « شيءٌ جديـد ! »

وفي صوت حاجـب يعلنـ بـأـنـ وصولـ شخصـ ماـ . اضافـ :

— « اسـمـيـ المـدـفعـ ذـوـ الـقـذـيفـةـ الـبـالـغـ وزـنـهـ ثـمـانـيـ اـرـطـالـ . »

والـاـقـاعـ انـ شـخـصـيـةـ جـدـيـدـةـ كـانـ قـدـ دـخـلـتـ المـسـرـحـ . كـانـ مـدـفـعـاـ ثـانـيـاـ .

وـفـيـ سـرـعـةـ ، نـفـذـ رـجـالـ المـدـفـعـيـةـ الـنـاـوـرـةـ ، وـوـضـعـواـ المـدـفعـ الـثـانـيـ قـرـبـ المـدـفعـ الـاـولـ .

لـقـدـ اوـحـىـ ذـلـكـ بـأـنـ النـهـاـيـهـ بـاتـتـ قـرـيبـةـ .

وـبـعـدـ بـضـعـ لـحظـاتـ . شـرـعـ المـدـفـعـانـ — وـقـدـ حـشـياـ عـلـىـ عـجـلـ — بـطـلـقـانـ بـيـرـانـهـاـ عـلـىـ الـمـتـرـاسـ مـيـاـشـرـةـ وـكـانـ نـارـ قـوـاتـ الـمـشـاهـ وـجـنـدـ الـضـواـحـيـ تـدـعـمـ الـمـدـفـعـيـةـ .

وـعـلـىـ مـسـافـةـ مـاـ ، سـمـعـ دـدـوـيـ وـابـلـ آـخـرـ مـنـ طـلـقـاتـ الـمـدـافـعـ . وـفـيـماـ كـانـ مـدـفـعـانـ اـثـنـانـ يـقـدـفـانـ بـيـرـانـهـاـ ، مـتـرـاسـ شـارـعـ الـ«ـشـانـفـرـيرـيـ»ـ ، كـانـ مـدـفـعـانـ آـخـرـانـ مـصـوـبـانـ ؛ اـحـدـهـمـاـ فـيـ شـارـعـ سـانـ دـونـيـزـ وـالـآـخـرـ فـيـ شـارـعـ اوـبـريـ لوـ بـوشـيهـ يـطـرانـ مـتـرـاسـ سـانـ مـيرـيـ بـوابـلـ مـنـ قـذـافـهـاـ . وـتـبـادـلـتـ الـمـدـافـعـ الـأـرـبـعـ أـصـدـاءـ كـثـيـةـ .

لـقـدـ تـجـاـوبـ نـيـاحـ كـلـابـ الـحـربـ الـمـشـوـمـةـ .

وـمـنـ اـحـدـ الـمـدـفـعـيـنـ الـلـذـينـ كـانـاـ يـقـدـفـانـ بـنـارـهـماـ مـتـرـاسـ شـارـعـ الـ«ـشـانـفـرـيرـيـ»ـ ، اـنـطـلـقـتـ قـذـافـهـاـ ، عـلـىـ حـينـ اـنـطـلـقـتـ مـنـ الـآـخـرـ كـرـاتـ حـدـيدـيـةـ .

كـانـ الـمـدـفعـ الـمـطـلـقـ لـكـرـاتـ مـرـتفـعـاـ بـعـضـ الشـيـءـ ، وـكـانـ خـطـ الرـميـ مـحـسـوـبـاـ بـحـيـثـ تـصـيـبـ الـكـرـةـ الـحـافـةـ الـقـصـوـيـ مـنـ زـاوـيـةـ الـمـتـرـاسـ الـنـاـتـيـةـ الـعـلـيـاـ قـطـعـتـ رـأـسـهـاـ ، وـفـتـتـ حـجـارـةـ الـأـرـصـفـةـ فـوـقـ رـؤـوسـ الـمـتـرـدـينـ وـكـلـهـاـ ، وـابـلـ مـنـ قـذـافـهـاـ .

وـكـانـ هـذـاـ الـرمـيـ الـخـاصـ مـقـصـودـاـ بـهـ اـنـ يـقـصـيـ الـمـقـاتـلـينـ عـنـ قـمـاـ

المتراس ، وان يكرههم على الاحتشاد في الداخل ؛ يعني ان ذلك قد اعلن الهجوم .

حتى إذا أقصي المقاتلون عن قمة المتراس بالكُرات ، وعن نوافذ الحانة بالقذائف ، أصبح في ميسور القوات المهاجمة ان تغامر في الدخول إلى الشارع من غير ان ترافق ، بل ومن غير ان تكون تحت النار ، كما اصبح في ميسورها ان تتسلق المتراس فجأة ، كفعلها الليلة البارحة وان تستولي عليه – فمن يدرى ؟ – بغتة .

وقال آنجولراس :

– « يجب على اية حال ان تخفض من إزجاج هذه المدفع . »

ثم صاح :

– « اطلقوا النار على المدفعين ! »

كانوا كلهم مستعدين . واطلق المتراس – الذي صمت فترة طويلة – النار في يأس . وتعاقبت سبع إطلاقات أو ثمانية اطلاقات في ضرب من الغضب والبشر . وافهم الشارع بدخان معمٌ . وبعد بعض دقائق ، ومن خلال هذا الضباب الذي اخترقه اللهب ، استطاعوا ان يتبنوا ، على نحو غير واضح ، ثلثي رجال المدفعية منظرتين تحت دوالib المدفعين . أما أولئك الذين ظلوا واقفين فقد واصوا حشو المدفعين في هدوء صارم ، ولكن النار كانت قد تباطأت .

وقال بوسوويه لآنجلراس :

– « الامور تجري على ما يرام . نجاح . »

فهز آنجولراس رأسه وأجاب :

– « ربع ساعة اخرى من هذا النجاح ، ونن تبقى في المتراس عشر خراطيش . »

والذي يبدو ان غافروش قد سمع هذه الملاحظة .

## غافروش في الخارج

ووجأة لمع كورفيراك شخصاً ما ، عند ادنى المتراس ، في الخارج ، وسط الشارع ، تحت وايل الگرات المدفعية .

كان غافروش قد اخذ سلة من الحانة ، وانطلق من فرجة المتراس ، وراح يفرغ في سنته وبهدوء ، صناديقَ الخرطوش الملائي تلك ، التي خلقتها رجال الحرس الوطني الذين صرعوا على منحدر المتراس .

وقال كومبوفير :

— « ماذا تفعل هناك ؟ »

ورفع غافروش انهه .

— « ايهما المواطن ، إيني املاً سلي . »

— « ولكن ، ألا ترى القذائف المدفعية ؟ »

فأجاب غافروش :

— « حسناً ، أنها تمطر . ثم ماذا ؟ »

فصاح كورفيراك :

— « إرجع ! »

فقال غافروش :

— « في الحال . »

وبوبية انطلق إلى الشارع .

ويذكر القاريء أن فصيل فانيقو كان قد ترك وراءه ، وهو ينسحب ، خطأً طويلاً من الجثث .

كان نحو من عشرين قتيلاً متثورين فوق الرصيف ، على طول الشارع . وكان ثمة عشرون صندوق خرطوش لغافروش . ذخيرة من

## الخرطوش للتراس .

كان الدخان في الشارع كالضباب . وكل من قدر له ان يرى سحابة تسقط في فج من فجاج الجبال بين منحدرين وعررين يستطيع ان يتخيّل هذا الدخان محشداً ، وان يتخيّله وكأنه يُكثّف خطيب مظلومين من بيوت شاهقة . لقد ارتفع في بظاء ، وكان يتجدد على نحو موصول . ومن هنا تلك الظلمة التدرجية التي جعلت وضع النهار نفسه شاجاً . وأمسى المقاتلون لا يلمع بعضهم بعضاً ، إلا في عسر ، من اقصى الشارع إلى اقصاه ، على الرغم من انه كان قصيراً جداً .

هذه الظلمة ، ولعلها كانت مدبرة ومرغوبأ فيها من جانب الزعماء الذين عيّنوا اليهم في قيادة المجموع على التراس ، كانت ذات فائدة لغافروش .

فتحت ثنيا حجاب الدخان هذا ، وبفضل ضآلة جسمه ، استطاع أن يُبعد في الشارع من غير ان يراه احد . لقد افرغ صناديق الخرطوش السبعة أو الشاهنة الاولى دونما كبير خطر .

لقد زحف على بطنه ، وراح يudo على يديه ورجليه ، حساماً سلته بين أسنانه ، وتلوّى ، وانزلق ، وتموج ، وتمتع من جثة إلى جثة ، وأفرغ احد صناديق الخرطوش كما يفتح قرد جوزة .

ولم يجرؤ المتصحّنون في التراس - وكان لا يزال على مدى السمع منه - على ان يدعوه إلى العودة ، خشية ان يلفتوا الانظار إليه .

وفوق احدى الجثث ، وكانت جثة عريف ، وجد وعاء بارود .

وقال وهو يضعه في جيده :

- « من اجل العطش . »

وبفضل التقدم المتّعاقب بلغ نقطة كان ضباب الطلقات النارية قد امسى فيها شفافاً .

وكانت هذه الشفافية شديدة بحيث ان مطلقي النار من المشاة ، المعيّن

المترصددين خلف جدارهم المقام من حجارة الارصفة ، وبحيث اف  
مطلقى النار من جند الضواحي المحشدين في زاوية الشارع اكتسحوا فجأة  
 شيئاً يتحرك في الدخان .

ولحظة كان غافروش يجرد رقيباً قرب معلم الطريق من خراطيسه ،  
أصابت الجهةَ كرّةً من كرات المدافع .

وقال غافروش :

— « يا للشيطان ! إنهم يقتلون أمواتي ! »  
وفتحت كرة أخرى الرصيف الذي إلى جانبه . وقلبت ثلاثة سلته رأساً  
على عقب .

ونظر غافروش ، ورأى أنها اقبلت من جند الضواحي .  
ونهض متتصباً على قدميه وقد عبّت الريح بشعره ، واضعاً يديه  
على خاصرتيه ، مسدداً بصره نحو رجال الحرس الوطني المطلقين النار .  
وراح يغنى :

ان المرأة ليكون بشما في ثانٍ ،  
وذلك خطيبة فولير ،  
واحق في باليسو ،  
وذلك خطيبة روسو .

ثم تناول سلته ، ووضع فيها الخراطيس التي سقطت منها من غير  
ان يضيع أيّاً منها ، وتقدم نحو وابل الرصاص ، وشرع يفرغ صنلوق  
خرطوش آخر . وهناك أخطاته قدّيفة رابعة أيضاً ، وما كادت . وغنى  
غافروش :

انا لست كاتباً عدلاً ،  
وذلك خطيبة فولير

انا عصفور صغير  
و تلك خطيبة روسو

ولم توفق قذيفة خامسة إلى أكثر من انتزاع دور ثالث من  
غافروش :

البهجة شيمي  
و تلك خطيبة فولتير  
والبؤس جهاز عرمي  
و تلك خطيبة روسو

واستمر ذلك على هذا النحو فترة ما .  
كان المشهد راعباً وفانياً . كان غافروش . وقد صُوب إليه الرصاص ،  
يسخر من الرصاص . لقد بدا وكأنه مبتهمج جداً . كان هو السنونو  
يضرب الجنود القناصة بمنقاره . ولقد أجاب على كل إطلاقة رصاص  
بدور من أدوار الغناء . وسددوا النار إليه على نحو موصول ، ولكنهم  
اخطاوه دائماً . وضحك الجندي ورجال الحرس الوطني وهم يصوبون  
الرصاص إليه . لقد انطرب على الأرض . ثم نهض . واحتياً عند  
زاوية باب ، ثم قفز ، واحتى . وعاد الظهور . وفر . وأ Jarvis  
على طلقات النار بالسخر ، ونهب في الوقت نفسه الخراطيش ، وافرغ  
صناديق الخرطوش ، وملأ ساته . وأتبعه المتمردون عيونهم . وقد  
توقفت أنفاسهم قليلاً . كان المترأس يرتجف ، وكان هو يغلي . لم يكن  
ذلك طفلاً ، ولم يكن ذلك رجلاً ، لقد كان « متشرداً » جنباً غريباً .  
ولقد كان خليقاً من يراه أن يقول إنه قزم المعتزل المعصوم عن الجراح .  
كانت القذائف تعدو خلفه . وكان هو أرشق منها . كان يلعب مسع  
الموت لعبة « اختبئ » والتمس » على نحو رهيب إلى حد لا يوصف .

وكلما اقرب وجه الشبح الافطس . فرقع «المترد» اصابعه .  
 ييد ان رصاصة ، أشد غدرآ أو مصوبة على نحو افضل من سبقتها .  
 بلغت الطفل الشبيه بالشهاب الغازي . لقد رأوا غافروش يتربع ، ثم يقع .  
 واطلق المتراس كله صيحة . ولكن كان ثمة آنتيروس هـ في هذا الفرم .  
 لأن مس «المترد» الرصيف اشبه شيء بمس العمالق الارض . فلم يقع  
 غافروش الا لينهض من جديد . وظل قاعداً على مؤخرته ، وقد جرى  
 على وجهه خط من الدم طويل ، ورفع ذراعيه في الهواء . ونظر إلى  
 الناحية التي اقبلت منها الرصاصة . وبداً يغني :

لقد سقطت على الارض  
 هذه خطيبة فولير  
 وانفي في السابعة  
 هذه خطيبة ...

ولم يكمل . لقد حالت بيته وبين ذلك قذيفة ثانية من القناص نفسه .  
 وهذه المرة خر على الرصيف مكمباً على وجهه . ولم يتحرك بعدُ فقط .  
 كانت تلك الروح العظيمة الصغيرة قد فاضت .

## ١٦ كيف يصبح الاخ اباً

كان في تلك اللحظة ذاتها في حديقة اللوكسومبورغ – ذلك ان عن  
 المأساة يجب ان تكون ماثلة في كل مكان – طفلان يمسك احدهما ييد  
 الآخر . واغلبظن ان احدهما كان في السابعة من عمره . والآخر

\* علاق من عالقة الميثولوجيا القديمة ، ابن «نبتون» و «الارض» وقد خنقه هرقل  
 (ميركول) بين ذراعيه ، واذ وجد البطل في صراعه ضد آنتيروس ان هذا العمالق كان  
 ينعم بقوه جديدة كما مس الارض فقد رفعه عنها ، فوق ذلك الى ان يسلبه الحياة .

في الخامسة . وإذا نُقعا بالمطر ، فقد كانوا يعيشان في مجازات الحديقة في الناحية المشمسة . كان الكبير يقود الصغير . وكانا شاحبين تعلو جسديهما أسماء بالية . لقد بدت عليهما سيماء طائرتين بريئتين : وقال أصغرهما : - « أنا جائع جداً » .

وساق الأكبر ، وكان قد أصبح وصياً وحاماً ، اخاه بيده اليمرى ، حاملاً باليد اليمنى قضيماً طويلاً .

كانا وحدهما في الحديقة . وكانت الحديقة خالية . بعد أن أوصدت الأبواب بأمر الشرطة بسبب من الثورة . وكان الجنود الذين عسكروا فيها قد طلب إليهم مغادرتها سداً ل حاجات المعركة .

كيف وصل الطفلان إلى هناك ؟ هل هربا من باب مفتر نصف مفتوح ؟ هل اتفق ان كان ثمة في الجوار ، عند « باب الجحيم » ، أو « ساحة الاوزر فاتوار » ، أو في الميدان المجاور الذي تشرف عليه تلك القوصرة ؟ المكتوب عليهما : *innenerunt parvulum pannis involutum* هل اتفق ان كان ثمة كوخ من اكواخ المشعوذين فرا منه ؟ هل قدر لها ، الليلة البارحة أن يغافلا عن حراس الحديقة ساعة الاقفال ، فملحانا ساعات الليل في واحد من تلك الاكشاك التي يقرأ الناس فيها الصحف ؟ الواقع أنها كانا تائعين . وانهما كانا حررين في ما يبدوا . ولأن يكون المرء تائعاً ولأن يبدو حرراً يعني أنه هالك . ولقد كان هذان الصغيران البائسان هالكين حقاً .

هذان الطفلان كانوا عن ذيئن اللذين فلق غافروش عليهما ، والذين يذكرهما القاريء . ولدّيٌّ تينارديه ، المؤجرين لـ « مانيون » ، المسؤولين إلى مسيو جيلنورمان ، والذين أمضا الآن ورقيهن سقطتا من جميع هذه الأعصاب التي تعوزها الجنود ، وعصفت بهما الريح مطوفة فوق الأرض .

---

\* القوصرة : مثلث يقام على واجهة بناء .

كانت ملابسها النظيفة في عهد مانيون ، والتي كانت لها بمناسبتها  
البيان في مسيو جيلنورمان ، نقول كانت ملابسها قد امست  
مزقاً خلقة .

لقد أصبح هذان المخلوقان ، منذ اليوم ، في عداد « الاطفال  
المهجورين » الذين يُبلغ البوليس عنهم ، ويجمعهم ، وينثرهم ، ثم يجدهم  
كرة اخزى في شوارع باريس .

كان لا بد من قلق نهار كهذا حتى يمسى هذان الصغيران المسكينان  
في تلك الحديقة . ولو قد رأهما الحرس ، اذن لطردوا هذه الاسماك .  
فالاطفال الفقراء لا يستطيعون ان يدخلوا إلى الحدائق العامة . ومع ذلك  
فینبغى للمرء ان يفكر ان لهم ، كأطفال ، حقاً في الازهار .

لقد كانوا هناك ، بفضل الابواب الموصلة . كانوا هناك خارقين القانون .  
لقد انسلاً إلى الحديقة ، وبقيا هناك . إن الابواب الموصلة لا تسرح  
الحرس المراقبين ، فمن المفترض ان تستمر المراقبة ، ولكنها تسترخي  
وتستريح . وهكذا فان الحرس ، المراقبين هم ايضاً بالقلق العام المنشغلين  
بالمسائل الخارجية أكثر من اشغالهم بالسائل الداخلية ، لم يعودوا يلقون بالـ  
إلى الحديقة ، ومن ثم لم يروا المذنبين الصغيرين .

كانت السماء قد أمطرت في الليلة البارحة ، بل كانت قد امطرت  
بعض الشيء ذلك الصباح . ولكن الامطار في حزيران لا اهمية لها .  
فليس يدرك المرء ، إلا في صعوبة ، بعد ساعة من العاصفة ، ان ذلك  
النهار الاشرق الجميل كان ماطراً . ان الارض في الصيف لتعجف وشيكًا  
كما تجفف وجنة طفل .

في لحظة انقلاب الشمس هذه يكون ضياء القمر ، إذا جاز التعبير ،  
ثاقباً . إنه يستبد بكل شيء . إنه يدأب وينشر نفسه فوق الارض في  
ضرب من الامتصاص . وإنه لخلق بالمرء أن يقول ان الشمس كانت  
ظماءى . إن الوابل كأس من الماء . وان المطر ليُعبَ في الحال . في

الصباح يكون كل شيء راشحاً ، وبعد الظهر يكون كل شيء مغبراً .  
وليس شيء أروع من اخضرار غسله المطر ومسحته أشعة الشمس .  
تلك هي البرودة الحارة . إن الحدائق والمرور ، وقد أفعمت جذورها  
بالماء وحفلت أزهارها باشعة الشمس ، تقلب إلى مجامر بخور ، وتتفتت  
عطورها كلها دفعة واحدة . إن كل هذه لتصحلك ، وتغفي ،  
وتعرض نفسها . نحن نستشعر ثللاً عذباً . الربيع جنة موقته . وأشعة  
الشمس تساعد على اغراء المرء بالصبر .

هناك أيام لا يطلبون شيئاً أكثر من ذلك ؛ وكائنات حية ما ان يروا  
السماء اللازوردية حتى يقولوا « هذا حسبنا ! » ؛ وحملون مستغرقون  
في الاعجوبة ، يغترفون من وثنية الطبيعة لا مبالغة بالخير والشر ؛  
ومتأملون في الكون منصرفون عن الإنسان على نحو مشرق لا يفهمون  
كيف يستطيع اي امرئ ان يشغل نفسه بجموع هؤلاء ، وظماً او لثك ،  
وبعرى الفقر في الشباء ، والانحاء المفاوي في عمود فكري صغير ،  
بالفراس الحقير ، بالعلبة ، بالحبس المظلم ، بأسمال الفتيات الصغيرات  
المرجفات ، حين يكون في ميسوره ان يحلم تحت الأشجار ؛ نفوس  
مسالمة وفطيعة ، راضية على نحو لا يعرف الرحمة . شيء غريب ؛ ان  
اللامائي يكتفون بهم . أما حاجة الانسان العظمى ، النهائي . الذي يحيى  
العنق ، فهم ينكرونها . النهائي الذي يسلم بالتقدم ، والكذخ السئي لا  
يفكرون فيه . ان اللامحدود ، الذي يولد من امتداج اللامائي والنهاي  
امتداجاً انسانياً وإلهياً ، ليقوتهم . انهم يتسمون . شرط ان يكونوا  
وجهاً لوجه مع السعة التي لا نهاية لها . لا ابهاج البتة ، ولكن اخنطاف  
دائماً . قوام حياتهم أن يتلفوا . وتاريخ الإنسانية عندهم ليس غير رسم  
تقسيعي . إن « الكل » ليس هناك ؛ إن « الكل » الصحيح لا يزال في  
الخارج . أي فائدة في أن نشغل انفسنا بهذا العرض : الانسان ؟ الانسان  
يتأنم ، هذا جائز . ولكن انظر إلى الدبرَ ان البازغ هناك ! الأم قد جف

ثديها . والوليد الصغير يموت . أنا لا ادري شيئاً عن ذلك ، ولكن  
أنظر إلى شكل الوردة المذهل الذي تولّه حلقة من حلقات حماء الصنوبر  
تحت المجهر . قابل ذلك بأجمل ضروب الوشي الدقيق ! هؤلاء المفكرون  
ينسون أن يخربوا . إن فلك البروج ليهيم عليهم بخيث يعنفهم من روية  
الطفل الذي يبكي . إن الله يكشف روحهم . وهناك أسرة من هذه  
النفوس ، الصغيرة العظيمة في آن واحد . من هذه الأسرة كان هورامي  
ومنها كان غوته . ولعل لا فوتين كان منها أيضاً . أنايو اللامائي  
الرائعون ، شهدوا الألم أهادنون . الذين لا يرون نبرون إذا كان الجو  
جميلاً . والذين تخفي الشمس عن عينهم كومة الحطب المعدّ لاحراق  
المجرم . والذين يرون إلى المقصلة تعمل باحثين عن اثر من آثار الضياء .  
والذين لا يسمعون لا الصيحة ، ولا الزفرة ، ولا الخشارة . ولا ناقوس  
الخطر ، والذين يرون كل شيء حسناً ما دام ثمة شهر يدعى شهر  
نوار . والذين يعلنون ، ما دام فوق رؤوسهم سحائب ارجوان وذهب .  
انهم سعداء . والذين عقدوا العزم على ان يكونوا سعداء إلى ان ينفذ  
ضياء النجوم ونشيد الطيور .

إنهم ذوق إشراق قاتم . وهم لا يشكّون في انهم ينبغي ان يرثي لهم .  
وليس من ريب في انهم بذلك جديرون . إن من لا يبكي لا يرى . إن  
عليانا أن نعجب بهم ونرثي لهم ، كما نرثي ونعجب بكائن هو نور  
وظلام في آن معاً . كائن لا عينين تحت حاجبيه . ولكن في وسط  
جيبيه نجمة .

وفي لا مبالاة هؤلاء المفكرين . كما يعتقد بعضهم ، تكمن فلسفة  
متفوقة . ليكن ذلك . ولكن في هذا التفوق بعض الوهن . فقد يكون  
المرء خالداً واعرج . خذ فولكان . مثلاً على ذلك . وقد يكون المرء  
أكثر من رجل واقل من رجل . واللاماكمي الذي لا حد له موجود في  
\* الآلة النار والمعادن عند الرومان .

اللبيعة . ومن ذا الذي يستطيع ان يزعم ان الشمس ليست عمياً ؟  
ولكن ثم ماذا ؟ عن نتني ؟ ؟  
*Solem quis dicere falsum audet*  
وهكذا فان بعض العباقرة افسمهم ، وبعض البشر الاكثر رفعة ، الرجال  
الكواكب . قد يخدعون ! إن أولئك الواقفين فوق ، في الذروة ، في  
القمة ، عند سمت الرأس ، والذين يرسلون إلى الأرض هذا الضياء كلهم ،  
قد يرون قليلاً ، قد يرون في عسر ، قد لا يرون شيئاً ! أليس في  
ذلك ما يوقع اليأس في النفس ؟ لا . ولكن ، اي شيء فوق الشمس  
اذن ؟ الله .

في السادس من حزيران ، عام ١٨٣٢ ، حوالي الساعة الحادية عشرة  
صباحاً ، كانت حدائق اللوكسومبورغ ، المعزلة المهجورة ، فاتنة . كانت  
مربعات الاشجار ومساكن الازهار تُبرز نفسها نحو الضياء في الرأسينج  
العطز وجهَر البصر . لقد بدت الاغصان مدللة بأشراف الظهر . وكان  
بعضها يسعى إلى معاقة بعض . كان في شجرات الجميز جلة دخلات ،  
وتهلل الطيور الجوانث ، وتسلقت الطيور ثقباتُ الخشب شجراتِ  
الكتستاء . ناقرة عيناقيها ثقوب اللحاء . وتقبلت مساكن الزهور ملكة  
الزنابق الشرعية . فأفحى العطور هو ذلك الذي ينبع من البياض . كان  
المرء يستنشق ريا القرنفل المفلقة . وكانت زيان ماري دي مدباشي العجائزة  
صريعة العشق في الاشجار الضخام . وذهبَت الشمس الخرامي وأشعلتها  
وسفتحت عليها ا لون الارجوان ، الخرامي التي لم تكن غير  
مختلف ضروب اللهب حولت إلى ازهار . وحول مساكن الخرامي طوفت  
جماعات النحل ، شرارات من هذه « الازهار - اللهب ». كان كل شيء  
يمور بالملاحة والبهجة ، حتى المطر الوشيك . وهذا المجرم العتيق ،  
الذى كان جديراً بزهارات العسل وزنابق الوادي ان تفيد منه ، لم يحدث  
شيئاً من الانزعاج . وطارت جماعات السنونو على ارتفاع منخفض ،  
وكان ذلك بعيداً فاتناً . لقد استنشق من كان هناك ريح السعادة .

كانت وفزة الضياء تبعث الطمأنينة في الفوس على نحو لا سبيل إلى وصفه . لقد فاضت الحياة ، وفاض النسغ ، والدفء ، والعبير . كانت شعر تحت الخليقة بضمخامة مصدرها . وفي جميع هذه النسائم المشبعة بالحب ، وفي تذبذب انعكاسات النور وارتداداته هذه ، وفي هذا الانفاق الاعجوبسي للأشعة ، وفي هذا التدفق اللاحدود للذهب المائع ، كانت تشعر بتذبذير ما لا ينضب . ووراء هذا البهاء ، شأنك وراء حجاب من الذهب ، كنت تلمع الله ، مليونر التجوم .

وبفضل الرمل لم يكن ثمة أثاره من وحل . وبفضل المطر لم يكن ثمة ذرة من غبار . كانت الباقيات قد غسلت منذ لحظة . كانت المخلفيات كلها ، والاطلسيات كلها ، والمينائيات كلها ، والذهبيات كلها التي تتبخر من الأرض في شكل ازهار – كانت هذه كلها خلاؤ من العيب . وكان هذا البهاء نقىأ . لقد ملأ الحديقة صمت الطبيعة السعيدة الكبير : صمت سماوي متتساوق مع آلاف الألحان ، ومهددات الاعشاش ، ودندنات التحل ، وخفقات الرياح . كان تناغم الموسم كله قد تحقق في كل واحد لطيف . وأنخذت مداخل الربيع ومحارجه أماكنها في

النظام الملائم . لقد انتهت الرنادق ، وأهل الياسمين . كانت بعض الأزهار قد تأخرت ، وكانت بعض الحشرات قد أقبلت قبل إياها . ولقد تأخذ طبعة فراشات حزيران الحمراء مع ساقه فراشات نوار البيضاء . وكانت شجرات الدلب ترتدي جلداً جديداً . وكان النسيم يحفر ثقوب في شجرات الكستناء ذات الصخامة الرائعة . كان ذلك متألقاً . ولقد نظر جندي عريق من عساكر الثكنات المجاورة عبر الباب الحديدى وقال :

ـ « هؤلا الريسم تحت السلاح ، وفي كامل اللباس الرسمي . . . كانت الطبيعة كلها تتناول طعام الصباح ؛ كانت الخلقة جالسة إلى المائدة ؛ لقد حانت الساعة ، ولقد نشر غطاء المائدة الكبير الأخضر فوق الأرض ، وشرقت الشمس ساطعة . وكان الرب يقدم الوجبة الكونية له وبالك كل كائن طعامه أو علفه . لقد وجدت اليمامة بزر قنب ، ووجد البرقش ذرة بيضاء ، ووجد الحسون رتاماً ، ووجد أبو الحناء ديداناً ، ووجدت النحلة أزهاراً ، ووجدت الذبابة نفقيات ، ووجد المخروطي المقبار ذباباً . لقد أكل بعضها بعضاً ، شيئاً ما من غير شك ، وذلك هو لغز الشر متزجاً بالخير ، ولكن أيّاً من الحيوانات لم يكن فارغاً المعدة . . . »

كان المخلوقان الصغيران البائسان قرب الحوض الكبير . وإذا اقلقهما ذلك الضياء كله بعض الشيء ، فقد حاولا أن يختبئا — وتلك غريزة البائس والضعف أمام البهاء وإن يكن مجاهلاً — وظلا خلف كوخ الأوز العراقي .

ووهنا وهناك ، بين الفينة والفينية ، كلما همدت الريح ، سمعا على نحو غامض صيحات ، وجبلة ، وضرباً من الحشرات الصاخبة التي كانت طلقات بنادق ، وصنوفاً من الصرير الابكم التي كانت طلقات مدافع . كان غمة دخان فوق السطوح في اتجاه الأسواق . ورن جرس

كان يبدو وكأنه يُقْرَع ، في المدى البعيد .  
وتراى هذان الطفلان وكأنهما لم يسمعا هذه الاصوات . وكرر اصغرها  
بين الفينة والفينية ، في همس :  
— « أنا جائع . »

وفي وقت واحد مع الطفلين تقريرياً ، تقدم زوج آخر نحو  
الكبير . كان رجلاً في الخمسين يقود يده رجلاً في السادسة . أب وابنه  
من غير شك . وكان الرجل البالغ السادسة من العمر يحمل في يده قطعة  
كبيرة من حلوى مصنوعة بالدقيق والسمن والبيض .

في ذلك العهد ، كانت بعض البيوت المجاورة ، في « شارع السيدة »  
و« شارع الجحيم » ، مفاتيح لحديقة اللوكسومبورغ كان نزلاء  
تلسك اليسوت يستعملونها حين تكون الأبواب موصدة ، وهو  
تساهل ألمي منذ ذلك الحين . ولعل هذا الاب وهذا الابن اقبلَا من أحد  
هذه الأبواب .

ورأى الصغيران البايسان إلى « هذا السيد » يتقدم ، وأحكما اختفاءهما  
أكثر بعض الشيء .

كان بورجوازياً . ولعله عين ذلك الذي كان ماريوس قد سمعه  
ذات يوم ، رغم حمّى جبه ، قرب هذا الحوض الكبير نفسه ، ينصح  
ابنه بأن « يخلص النطرف » . كانت ترين على وجهه سيماء أنيسة متغطرسة  
وكان فمه الذي لم يطبق قط يبتسم ابداً . وهذه الابتسامة الميكانيكية ،  
المتأشة عن فك هو من الكبير بأكثر مما ينبغي وجده هو من الضالة بأكثر  
ما ينبغي ؛ إنما تكشف عن الاسنان أكثر مما تكشف عن الروح . وبدا  
الضعف . بقطعة حلواء المقضومة التي لم ينفعها ، وكأنه متخوم . وكان الطفل  
بورجي بزة جندي من جنود الحرس الوطني ، بسبب من الفتنة ، وكان  
الاب قد احتفظ على ملابس المواطن المدنية ، بسبب من الفتنة .  
وقف الاب والابن قرب الحوض الذي كانت الاوزنان العراقيتان

تسلیان فيه . لقد بدا وكأن هذا البورجوazi معجب إعجاباً خاصاً بالآذنين العراقيتين ؛ وكان يُشبههما من هذه الناحية : أنه كان يمشي مثلهما .

في تلك اللحظة كانت الاوزتان تسبحان ، وتلك هي موهبتها الرئيسية ، وكانتا بعيتين .

ولو قد أصغى الصغران البائسان ، ولو قد كانوا في سن تمكنهما من الفهم ، إذن لاستطاعا أن يتلقفاً كلمات رجل رزين . لقد قال الأب لابنه :

— « العاقل يحيا قانعاً بالقليل . انظر إلي ، يا بني . أنا لا أحب الأبهة . إن أحداً لم يرني قط في ثياب مزينة بالذهب والجواهر : أنا أترك هذا المجد الزائف للذوي العقول الرديئة التنظيم . »  
وهنا انفجرت الاصوات العميقه ، المنطلقة من ناحية الاسواق ، في قرع اجراس متضاعف وضوضاء متعاظمة .

وتساءل الطفل :

— « ما هذا ؟ »

فأجاب الأب :

— « إنها أعياد فوضى ودمارة . »

وفجأة بصر بالغلامين ذوي الاسماں البالية واقفين في غير حراك خلف كوخ الاوز العراقي الأخضر :

وقال :

— « هذه هي البداية : »

وبعد لحظة ، أضاف :

— « لقد شرعت الفوضى تدخل إلى هذه الحديقة . . . وفي غضون ذلك قضم الطفل قطعة الحلوى ، وانثأ بصريخ فجأة : »  
وسأله الأب :

- « لماذا تبكي ؟ »

قال الطفل :

- « أنا لم أعد جائعاً . »

وغدت ابتسامة الوالد عريضة .

- « ليس من الضروري أن تكون جائعاً حتى تأكل قطعة حلوى : »

- « إن هذه القطعة تزعجي . إنها بايئة : »

- « ألم تعد لك رغبة فيها ؟ »

- « لا : »

ودله الآب على الأوزتين .

- « ألقها إلى هذين الطاثرين دوي الأقدام الكفية : »

وتردد الطفل . فرغبة المرء عن قطعة حلواه ليست سبباً كافياً

لل碧رع بها .

وتتابع الآب :

- « كن إنسانياً . يجب أن تأخذنا الشفقة على الحيوانات : »

وأخذ قطعة الحلوى من ابنه وقذف بها إلى الحوض :

وسقطت الكعكة قرب الحافة .

كانت الأوزتان بعيدتين ، في وسط الحوض ، منهمكتين في فريسة

ما . إنها لم تريا أبداً من البورجوazi أو قطعة الحلوى :

وإذ شعر البورجوazi أن قطعة الحلوى كانت مهددة بخطر الضياع ،

وإذ أثاره هذا الغرق غير المجدى ، نذر نفسه لاحتياج تلغرافي لفت آخر

. .

لقد لمحنا شيئاً يطفو ، واستدارتا مثل السفن - وهل كانتا غير

سفينتين ؟ - واتجهتا في توءدة نحو قطعة الحلوى ، بذلك الجلال الصافى

الذى يلائم الحيوانات البيضاء .

وقال البورجوazi ، وقد أبهجه ذكاوه :

- « الأوز (Oysters) يفهم الاشارات (Signes) .

وفي تلك اللحظة تعااظمت من جديد ، وعلى نحو مفاجيء ، تلك الضيجة القصبة المنبعثة من المدينة . إن ثمة رياحاً تنطق بوضوح يفوق ذلك الذي تنطق به الرياح الأخرى . الواقع ان تلك التي هبت في تلك اللحظة نقلت ، في وضوح ، قرع الطبول ، والصيحات ، ونبران فصائل الجند ، وأجوبة الناقوس والمدفع المشوومة . ووافق ذلك انتشار سحابة سوداء حجبت الشمس فجأة .

ولم تكن الاوزتان قد وصلتا إلى قطعة الحلوى .

وقال الأب :

- « فلترجع إلى البيت . إنهم يهاجمون التوينيري . »

وأنمسك بيده من جديد . ثم تابع :

- « من التوينيري إلى اللوكسومبورغ ، ليس ثمة غير المسافة التي تفصل الملكية عن الأشرافية . وهي ليست شاسعة . إن رصاص البنادق سوف ينهر .. »

ونظر إلى السحابة .

- « ولعل المطر نفسه أيضاً سوف ينهر . إن السماء لتتدخل . ولقد صدر الحكم على الغصن الأصغر . فلترجع على عجل . »

وقال الطفل :

- « أود أن أرى الأوزتين تأكلان قطعة الحلوى . »

فأجاب الأب :

- « ذلك خاليق به أن يكون تهوراً . »

وقاد بورجوازيه الصغير .

وادر الابن رأسه ، آسفًا على الاوزتين ، نحو الحوض ، حتى حجمه عنه منعطف من صفوف الاشجار .

وفي غضون ذلك ، كان النائنان الصغيران قد اقتربا نحو قطعة الحلوى

لحظة اقتربت الاوزتان منها . كانت تطفو على سطح الماء . كان اصغر الطفلين ينظر إلى قطعة الحلوى ، وكان اكبرهما ينظر إلى الورجوازي وهو ينصرف .

دخل الاب والابن في به المرات الذي يقود إلى مرقة بمجموع الشجر الكبيرة ، ناحية شارع السيدة .

وما إن غابا عن النظر ، حتى سارع أكبر الطفلين إلى التمدد على بطنه فوق حافة الحوض المدوره . وتشبت بها يده اليسرى ، متذلياً فوق الماء ، وقد أشرف على السقوط ، وبسط يده اليمنى بعصاه نحو قطعة الحلوى . وحثت الاوزتان . بعد ان رأيا العدو ، خطاهما ، وهكذا احدثنا بصدرهما أثراً كان مفيداً للصياد الصغير : لقد ارتدت المياه امام الاوزتين ، ودفعت احدى هذه التموجات الرقيقة المتركة المركز قطعة الحلوى في رفق نحو عصا الطفل . حتى إذا وصلت الاوزتان مست العصا قطعة الحلوى . وقام الطفل بحركة سريعة ، وسحب قطعة الحلوى ، مروعاً الاوزتين ، وتناول قطعة الحلوى ، وانتصب واقفاً . كانت الكعكة مشبعة بالماء ، ولكنها كانت جائعة ظمئنة . وقسم الطفل الاكبر قطعة الحلوى قسمين ، احداهما كبيرة والاخرى صغيرة . واحتفظ بالقطعة الصغيرة لنفسه ، وقدم الكبيرة إلى اخيه الصغير ، وقال له :  
— « ألق هذه إلى بندقتك . »

١٧

## « الأَبُ الْمِيتُ يَرِثُهُ أَبْنَهُ حَسْبُ الشَّرِيعَةِ »

كان ماريوس قد وُثِّبَ إلى خارج المراس . وكان كوموفير قد تبعه . ولكن كان الاواب قد فات . لقد مات غافروش :

ورجع كومبوفير حاملا سلة الخرطوش ، ورجوع ماريوس  
حاملا الطفل .

وفكرا : « وأسفاه ، إن ما عمله أبوه من أجل أبي ارده أنا اليوم  
للابن . مع فارق واحد هو أن تينارديه عاد بأبي حياً ، على حين اني  
اعود بالطفل ميتاً . »

وحين انقلب ماريوس إلى المتراس وغافروش بين ذراعيه ، كان وجهه  
مثل وجه الطفل . مخضباً بالدم .

فلحظة انتهى لكي ينشل غافروش كانت رصاصة قد مسست جمجمته  
مساً رفقاء . إنه لم ينتبه إليها .

ونزع كورفيراك رباط رقبته وعصب به جبين ماريوس .

وسُجِي غافروش على الطاولة نفسها التي سُجِي عليها مابوف . ونشر  
الشال الأسود فوق الجثمانين جميعاً . كان من الاتساع بحيث يغطي  
العجز والطفل .

وزع كومبوفير الخراطيش من السلة التي كان قد رجع بها .  
وهكذا نال كل مقاتل خمس عشرة رصاصة .

وكان جان فالجان لا يزال في المكان نفسه ، جامداً فوق معلمِ  
وحين قدم إليه كومبوفير خراطيشه الخمسة عشر ، هز رأسه .

وقال كومبوفير لأنجولراس في صوت خفيض :

— « هوذا رجل نادر غريب الأطوار . إنه يجد وسيلة إلى أن لا  
يقاتل في هذا المتراس . »

فأجاب آنجولراس :

— « الأمر الذي لا يحول بينه وبين الدفاع عنه . . .

وعاد كومبوفير إلى القول :

— « إن للبطولة رجالها الغريبي الأطوار . . .

وأضاف كورفيراك . الذي كان قد سمع الحديث :

— «إنه من ضرب آخر مختلف عن الاب مابوف :»  
ومن الحقائق الجديرة بالذكر ، ان النار التي كان المتراس يُقذف  
بها لم تقلق الجزء الداخلي منه إلا بشق النفس : واولئك الذين لم يجتازوا  
قط بزوبعة هذا النوع من الحرب لا يستطيعون ان يتصوروا لحظات  
المدوء الفريدة التي تمتزج بهذه الاضطرابات . فالرجال يرثون ويفقدون ؛  
لأنهم يتجمذبون أطراف الحديث ، وأنهم يتبادلون النكات ، وأنهم  
يتبدلون ويتسكّسرون . ولقد سمع احد معارفنا مقاتلا يقول له تحت  
وابل من قذائف المدفع : «هذا شيء اشبه بطعم العذاب الصابحي » .  
إن متراس شارع الـ «شانفرييري» — ونحن نكرر ذلك — قد بسا  
هادئاً جداً من داخل . كان كل تحول وكل وجه من وجوه الحظ قد  
استهلك أو على وشك ان يستهلك . وكان الموقف قد انقلب من حرج  
إلى متوعد ، ومن متوعد كان قد انقلب في أغلب الظن إلى يائس .  
وكلما بدت الوضاع أشد قتاماً خضب الوميض البطولي ذلك المتراس  
بالارجون أكثر فأكثر . وفي رصانة ، نهض آنجولراس بعبء قيادته  
وكانه اسبارطي شاب نذر سيفه المسلول لعقرية أبيدوتاس الكالحة .

وكان كومبوفير يضمد جراح الجرحى وقد ارتدى مثراً : وكان بوسوويه فويسي يصنعن الخراطيش بوعاء البارود الذي اخذه غافروش من العريف الصريح ، وقال بوسوويه لفويسي : « عما قليل سوف نركب العربة العامة إلى كوكب آخر . » وكان كورفيراك ، فوق حجارة الارصفة القليلة التي احتفظ بها لنفسه قرب آنجولراس ، يرتب وينظم مصنع سلاح كاملا ، عصاه المسيفة ، وبندقته ، وغدارتسي قربوس ، وغداررة جيب ، بمثل عنابة فتاة ترتب صندوقاً صغيراً من صناديق أشغال الإبرة . كان جان فالجان ينظر ، في صمت . إلى الجدار المقابل . وكان أحد العمال يثبت على رأسه ، بواسطة خيط من خيوط القنب ، قبة ضخمة من قشن كانت ملكاً للام هوشاو « خوفاً من ضربة

الشمس » كما قال : كان شبان الـ « كوغورد ديكس » يتجادلُون أطراف الحديث ، في مرح ، وكأنما كانوا يتعجلون الكلام باللهجة الأقلية للمرة الأخيرة . وكان جولي ، الذي نزع مزاًة الأرملة ، يفحص لسانه بها . وإذا كان بعض المقاتلين قد اكتشفوا بعض كسرات الخبر ، العفة أو تقاد ، في أحد الأدراج ، فقد راحوا يلتهمونها في شره . وكان ماريوس مضطرب البال متسائلاً أي سوف يقوله والده له .

## ١٨

### العقاب يصبح فريسة

إن علينا أن نفصل القول في ظاهرة سيكولوجية خاصة بالمتاريس : فليس ينبغي أن يهمل شيء مما عيَّز حرب الشوارع العجيبة هذه . وأياً ما كانت تلك السكينة الداخلية الغريبة التي تحدثنا عنها اللحظة ، فإن المتراس يظل – في نظرِ الذين انطوى عليهم – رؤيا من الرؤى .

إن في الحرب الأهلية لرؤيا اشبه برؤيا القديس يوحنا . فكل ضباب المجهول يمترج بهذه الشعل الوحشية – والثورات آباء هول . واما امرئ اجتاز عتراس من المتاريس يعتقد أنه اجتاز بحلم من الاحلام . إن ما يستشعره المرء في هذه المواطن ، كما اشرنا في كلامنا على ماريوس وكما سترى في ما سوف يلي ، هو أكثر من الحياة وأقل من الحياة . فما إن يغادر المقاتل المتراس حتى ينسى اي شيء رأه فيه : لقد كان فظيعاً ، وهو لا يعرف ذلك . كان محظياً بأفكار مقاتلة كانت ذات وجوه بشرية ، وكان رأسه مغموراً بضياء المستقبل . كانت

\* جمع « أبو المول » .

هناك جث مطروحة ، وأطاف متتصبة . وكانت الساعات طويلة إلى حد هائل ، ولقد بدت وكأنها ساعات الابدية . لقد عاش في الموت : ومرت ظلال . أي شيء كانت ؟ لقد رأى أيدياً مخضبة بالدم ؛ كان هدراً مروعًا ، وكان صمتاً رهيباً أيضاً . كانت نسمة أنفوه فاغرة تصيع ، أو أنفوه فاغرة أخرى تعتصم بالصمت . كان في غمرة من الدخان ، أو ربما في غمرة من الليل . وهو يحسب أنه قد مس رشحاً مشوئوماً من عماق مجهولة . إنه لا يرى شيئاً أحمر في أظافره . إنه لم يعد يذكر شيئاً .

ولنعد إلى شارع الدا « شانفريري » .

وفجأة ، بين وايلين من رصاص ، سمعوا صوت ساعة نائية تدق .

وقال كومبوفير :

— « إنه الظهر » .

ولم تكن الدقات الائتلا عشرة قد اكتملت عندما انتصب آنجولاس واقفاً وقدف من أعلى المتراس بهذه الصيحة الراعدة : — « انقلوا بعض حجارة الارصنة إلى المترال . حصنوا التوافد بها : ليتلعب نصف الرجال بالبنادق ، ونصفهم الآخر بالحجارة . حذار ان تضيعوا دقيقة واحدة » .

كانت مفرزة من الجندي ، المتكتبين فرؤسهم ، قد بزرت منذ لحظة . على قدم الاستعداد للقتال ، عند نهاية الشارع .

ولا يمكن أن يكون ذلك غير طليعة جند ؛ وأي جند ؟ جند المجمع ، من غير شك . إن الطلائع ، المكلفين تقويض المتراس ، ينبغي ان يتقدموا دائمآ العساكر ، المكلفين بتسلمه .

لقد وضح انهم كانوا يكادون يمسون تلك اللحظة التي دعاها مسيو دو كلرمان تونير ، عام ١٨٢٢ ، « الجهاد الجهيد » .

ونفذ أمر آنجولاس بالسرعة المضبوطة المميزة للسفن والمتراس ،

وهي مواطن القتال الوحيدة التي يتعدى فيها الفرار . وفي أقل من دقيقة ، كان ثلثا الحجارة التي ركّمها آنجولراس عند باب كورنث قد حُملت إلى الدور الأول وإلى العلية . وقبل أن تصرم دقيقة أخرى كانت هذه الحجارة ، المنضد أحدها فوق الآخر في فن . قد سدت نصف ارتفاع نافذة الدور الأول وكوى العلية . وكانت بضع فتحات . أعدّها فويبي . البناء الرئيسي . في عناية ، تمكنَّ اثنين من البنا دق من التفاذ خلاها . وكان تحصين التواذ هذا ممكناً على نحو أيسر بعد أن كفت المدافع عن إطلاق النيران . كان المدفعان يسددان كُراثتها ، الآن ، إلى منتصف الجدار لكي يحدثا فيه ثقباً ، أو لكي يحدثا ، إذا كان ذلك ممكناً ، ثغرة للهجوم . حتى إذا اتخذت حجارة الأرصفة ، المعدة للدفاع الأخير . مواطنها أمر آنجولراس رجاله بأن يحملوا إلى الطابق الأول تلك الزجاجات التي كان قد وضعها تحت المائدة الممددة عليها جثمانٌ مابوف .

وسأله بوسوويه :

- « من الذي سيشرب هذا ؟ »

فأجابه آنجولراس :

- « هم . »

ثم انهم متربساً نافذة المجرة السفلية ، وهبوا على مقربة منهم العوارض الحديدية التي كانت تساعد على إيقاد باب الحانة ، من الداخل ، أثناء الليل .

كانت القلعة كاملة . كان المتراس هو السور ، وكانت الحانة هي البرج .

وبحجارة الأرصفة الباقيه . سدوا الفتاحة .

وإذ كان يتبعن على حماة المتراس دائمًا أن يقتصلوا في إنفاق ذخيرتهم ، وإذا كان المحاصرون يعرفون ذلك ، فإن المحاصرين ينظمون

أعمالهم في ضرب من التمهل الشير ، معرضين أنفسهم للنار قبل الأوان ، ولكن في الظاهر لا في الحقيقة ، وينعمون بالراحة . إن الاستعدادات للهجوم تُتَّخذ دائمًا في شيء من البطء المنهجي ، وبعد ذلك تنقض الصاعقة .

وهذا البطء مكن آنجولراس من ان يراجع كل شيء . وان يخلع مسحة من الكمال على كل شيء . لقد استشعر انه ما دام مقدراً لخواص الرجال ان يموتونا فينبغي ان يكون موتهم رائعة من الرؤائع .

وقال ماريوس :

— « نحن الرعيمان . سوف اصدر الأوامر الأخيرة في الداخل : ولسوف تبقى انت في الخارج ، وترافق . »

وأخذ ماريوس من ذروة المتراس مقرأً للمراقبة . وأمر آنجولراس بتسمير باب المطبخ الذي كان . كما نذكر ، بمثابة المستشفى المتنقل .

وقال :

— « لا وحل على الجرحى . »

واصدر تعليماته الأخيرة في الحجرة السفل ، في صوت موجز ، ولكنه عميق وهادئ . واصفي فويبي ، وأجاب باسم الجميع .

— « في الطابق الأول : استعدوا لأن تقطعوا السلم بفروعكم . هل تحملونها ؟ »

قال فويبي :

— « نعم . »

— « كم ؟ »

— « فأسان ، وفأس لشق الخشب . »

— « حسن . بقي عندنا ستة وعشرون مقاتلا . كم بندقية عندنا ؟ »

— « أربع وثلاثون . »

— « اي بزيادة ثمانى بنادق . أبقوا هذه الشهانى مشحونة كغيرها وفي متناول أيديكم . تحيطوا بالسيوف والغدارات . عشرون رجلا إلى المتراس . ستة يكمنون عند الكوى وعند نافذة الطابق الاول لكي يطلقوا النار على المغرين من خلال المرامي التي بين حجارة الارصفة . حذار ان تقوموا بأى عمل لا طائل تتحمّه هنا . وحالما يقرع الطبل إشارة الانطلاق يتعين على العشرين رجلا ، القائمين تحت ، ان يندفعوا إلى المتراس . والذين يصلون إلى هناك قبل غيرهم سوف يفوزون بالواقع الفضلي . »

حتى إذا تمت هذه التدابير ، التفت إلى جافير وقال له :

— « أنا لن أنساك . »

ووضع غدارة على الطاولة ، وأضاف :

— « ان آخر رجل يغادر هذه الغرفة سوف يحطم جمجمة هذا الجاسوس . »

وتساءل صوت :

— « هنا ؟ »

— « لا ، لا تتركوا هذه الجثة مع جثتنا . في استطاعتكم ان تتسرعوا الى المتراس الصغير في زقاق مونديتور . إن ارتفاعه لا يزيد على اربعية أقدام . سوف تأخذونه إلى هناك ، وتعدمونه في ذلك المكان . »  
كان ثمة ، في تلك اللحظة ، رجل واحد اكتفى امتناعاً على التأثر ، من آنجولراس . وكان ذلك الرجل جافير .

وهنا يبرز جان فالجان .

كان في حشد المتمردين . وتقىد إلى أمام وقال لا آنجولراس :

— « انت القائد ؟ »

— « نعم . »

— « لقد وجهت إلي الشكر منذ لحظة . »

- « باسم الجمهورية . ان للمتراس منقذين : ماريوس بونيرسي وأنت : »

- « هل تظن اني استحق مكافأة ؟ »

- « طبعاً » .

- « حسناً ، انا اسألك مكافأة . »

-- « وما هي ؟ »

- « أن احرق انا دماغ هذا الرجل . »

ورفع جافير رأسه ، ورأى جان فالجان ، واتى بحركة غير ملحوظة ، وقال :

- « هذا شيء ملائم . »

أما آنجولراس فكان قد شرع بشحن بندقيته القصيرة الخفيفة من جديد : وأجال بصره في ما حوله :

- « لا اعتراض ؟ »

والفت نحو جان فالجان وقال :

- « خذ الجاسوس . »

واستولى جان فالجان ، فعلاً ، على جافير بأن جلس على اتفى المائدة : وأمسك بالغدارة ، وأعلن صليلًّا واهنًّا انه قد رد انبوتها إلى الوراء استعداداً لاطلاق النار .

وفي اللحظة نفسها تقريباً سمعت أبواق :

وصاح ماريوس من أعلى المتراس :

- « احنروا ! »

وشرع جافير يضحك تلك الضحكة الصامتة الخاصة به . وسدد بصره إلى المتراسين وقال لهم :

- « لستم احسن حالاً مني . »

وصاح آنجولراس :

«إلى الخارج جميعاً!»

ووثب المتردون ، في صحب . إلى أمام . وفيما هم يخرجون تلقوا  
في ظهورهم . وليس مع لنا باصطناع هذا التعبير . هذه الكلمة  
من جافر :

## إلى اللقاء القريب :

1

جان فالجان شار لنفسه

وَبَنْ خَلَا جَانِ فَالْجَانِ بِخَافِرِ فَكَ الْحَبْلِ الَّذِي كَانَ يُوثِقُ الْأَسْرَ  
مِنْ خَصْرَهُ . وَالَّذِي كَانَتْ عَقْدَسُدَتِهِ تَحْتَ الْمَائِدَةِ . ثُمَّ أَوْزَعَ إِلَيْهِ بَأْنَ  
يَنْهَضُ :

وامثل جافير الأمر . بتلك الابتسامة التي تمنع على الوصف ، والتي تكفي فيها رفعة السلطة المضادة .

وأمسك جان فالجيان بجاifer من سيره الجلدي كما يمسك المرء بأحدى دواب الاتقال من لببها ، وجرّه خلفه ، وغادر الحانة في توّدة ، لأنّ جاifer المكبل القدمين ، لم يكن قادرًا على أن يخطو غير خطوات قصار : وكان جان فالجيان محمل الغدارة بيده .

وهكذا اجتازا مربع المتراس الداخلي المنحرف . وكان التمر دون ، المترقبون الهجوم الوشيك ، قد اداروا ظهورهم .

كان ماريون ، القائم إلى جانب الطرف الأيسر من الجدار ، هو وحده الذي رأهما يمران . واستعار اجتماع الضاحية والجلاد هذا ضوءاً من الماء المقشع الذي كان في نفسك

واسعد جان فالجان اسره ، المكبل بالاغلال ، على سور متراس

زفاف مونديتور الصغير ، في شيء من العسر ، ولكن من غير أن يفلته لحظة .

حتى إذا تسلقا الجدار ، وجدا نفسيهما وحدين في الزفاف . ولم يرها الآن أحد . لقد حجبتها زاوية المترail عن أعين التمردين . وكانت الجثث المنقولة من المراس قد شيدت ركاماً هائلاً على بعض خطوات منها .

وفي ركام الموتى كان في ميسور المرء ان يتبن وجهها شديد الشحوب ، وشعرأً محلول العقدة ، ويداً مثقوبة ، وصدر امرأة نصف عار . كانت هي ايوبين .

ونظر جافير في انحراف إلى هذه الميتة ، وقال في همس ، وهو على أكثر ما يكون من المدوء :

— « يخيل إلي اني اعرف هذه الفتاة . »

ثم التفت نحو جان فالجان .

ووضع جان فالجان الغدارة تحت ذراعه ، وسدد إلى جافير نظرة لم تكن في حاجة إلى كلمات لكي تقول : « جافير ، هذا أنا . »

واجاب جافير :

— « خذ بثارك . »

واخرج جان فالجان من جيده سكيناً ، وفتحها .

وصاح جافير :

— « مدية ! أنت على حق . هذا يلائمك أكثر . »

وقطع جان فالجان السير الجلدي المطوق لعنق جافير ، ثم قطع العبال المطوقة لعصيميه ، ثم انحني ، وقطع الحبل المكبل لقدميه . ثم انتصب وقال له :

— « انت طليق السراح . »

ولم يذهل جافير في يسر . ومع ذلك ، وبرغم سيطرته الكاملة على

نفسه ، فازه لم يستطع ان ينجو من بعض الانفعال . لقد ظل فاغر الفم  
چامداً لا حراك فيه .

وابتع جان فالجان :

- « انا لا اتوقع ان اغادر هذا المكان . ومع ذلك فاذا اتفق لي ،  
بالمصادفة ، ان افع———ل ، فاني أعيش ، تحت اسم فوشلو凡 . في  
شارع الرجل المسلح ، رقم ٧ . »  
وغضن جافير وجهه مثل نهر يفتح فمه نصف فتحة ، وغمغم من  
بين اسنانه :

- « خذ حذرك . »

وقال جان فالجان :

- « إذهب . »

واستأنف جافير :

- « قلتَ فوشلو凡 ، شارع الرجل المسلح ؟ ،

- « رقم ٧ . »

وكرر جافير في همس :

- « رقم ٧ . »

وزرر سترته ، واعد الصلابة العسكرية ما بين كتفيه ، واستدار  
نصف استدارة ، وطوى ذراعيه ، مستدأ ذقنه باحدى يديه ، ومضى  
لسيله في اتجاه الاسواق . وأتبعه جان فالجان بصره . وبعد بعض خطوات  
التفت جافير وصاح مخاطباً جان فالجان :

- « أنت توقع السأم في نفسي . لينك قتلتني . »

ولم يلاحظ جافير انه لم يعد يخاطب جان فالجان بضمير المفرد .

وقال جان فالجان :

- « لمض لسيلك . »

وابتعد جافير في خطى بطيئة . وبعد لحظة ، انعطف حول زاوية شارع

الـ « بريشور » :

وحن توارى جافير عن العيان ، أطلق جان فالجان نار الفدارة في الهواء .

ثم عاود الدخول إلى المتراس ، وقال :  
— « لقد قضي الأمر . »

وفي غضون ذلك كان الذي حدث هو هذا :

لم يكن ماريوس ، المنشغل بالشارع أكثر من أنهاكه بالحانة ، قد نظر حتى ذلك الحين ، في انتباه ، إلى الجاسوس الذي كان موثقاً في مؤخرة الحجرة السفلية المظلمة .

حتى إذا رأاه في وضع النهار يتسلق المتراس في سبيله إلى الموت ، تبيّنه وعرفه . وتمثلت في ذهنه ذكرى مقاجحة . لقد ذكر مفتش شرطة شارع بونواز ، والغدارتين اللتين كان قد قدمهما إليه ، واللتين استعملها — هو ، ماريوس — في هذا المتراس نفسه . ولم يتذكر الوجه فحسب ، بل لقد تذكر الاسم أيضاً .

ييد ان هذه الذكرى كانت ضبابية غير واضحة ، مثل افكاره جميعها ان ما وجده إلى نفسه لم يكن توكيداً ، وإنما كان سؤالاً : « أليس هذا هو مفتش البوليس الذي قال لي ان اسمه هو جافير ؟ »  
لعله كان لا يزال ثمة متسع للتدخل من أجل هذا الرجل ؟ ولكنه يتعين عليه ان يعرف ، أولاً ، ما إذا كان هو جافير حقاً .

واستوضح ماريوس آنجولراس الذي كان قد اخذ مكانه ، منذ لحظة ، في الطرف الآخر من المتراس :

— « آنجولراس ! »

— « ماذا ؟ »

— « ما اسم هذا الرجل ؟ »

— « من ؟ »

- « مفهوم الشرطة . هل تعرف اسمه ؟ »  
- « من غير ريب . لقد أخبرنا . »  
- « ما اسمه ؟ »  
- « جايفير . »  
وتصدرَّ ماريوس .

وفي تلك اللحظة سمع طلق الغدارة الناري . وبرز جان فالجان مني  
جديد وصاح :  
- « قضي الأمر . »  
وسرت رعشة كثيبة في فؤاد ماريوس .

## ٣٠

### الموتى مصييون والاحياء

#### غير مخطئين

كانت حشرجة المتراس على وشك ان تبدأ .  
وتلاقت الاشياء كلها في جلال تلك اللحظة العليا التراجيدي . الف  
قرفة غريبة في الهواء ، وأنفاس الجماعات المسلحة المندفعه في الشارع  
التي لم يكونوا قادرين على رويتها ، وخسب الفرسان المتقطع ، وزلزلة  
المشاة الثقيلة وهم يزحفون ، وتقاطع نيران المفارز ونيران المدافع في تيه  
باريس ، ودخان المعركة مرتفعاً على نحوِ مذهب خالص فوق السطوح ،  
وصيحات خفية قصبية فظيعة على نحوِ غامض ، وبروق الخطير في كل  
مكان ، وناقوس سان ميري الذي غالب عليه الآن جرس التنهيد ، وعدوينة  
الفصل ، وبهاء السماء الحافلة بأشعة الشمس والسحب ، وجمال النهار ،

وصمت البيوت الرهيب .

ذلك بأنه ، منذ المساء ، كان صفاً البيوت في شارع الـ « شانفريري » قد امساً جدارين ضاربين . كانت الابواب موصدة ، والتواخذ موصدة ، والمصاريع موصدة .

ففي تلك الايام ، الشديدة الاختلاف عن الايام التي نعيش فيها ، حين كانت تحيى الساعة التي يرغب فيها الشعب في إنهاء وضع دام أكثر مما ينبغي ، أو دستور منوح أو بلد دستوري ، وحين كان الغضب الشامل ينتشر في القضاء ، وحين كانت المدينة توافق على انتلاع حجارة ارصفتها ، وحين كانت الانتفاضة تجعل البورجوازية تتسم بان تهمس بكلماتها السرية في أذنها ، فعندئذ كان ساكن المنزل المشبع بالفتنة ، إذا جاز التعبير ، يصبح نصيراً للمقاتل ، ويتأخي المنزل مع القلعة المرتجلة التي استندت اليه . وحين كانت الاحوال غير ناضجة ، وحين كانت الانتفاضة غير مقبولة في حزم ، وحين كانت الجماهير تنكر الحركة ، فعندئذ كان يُقضى الامر مع المقاتلين ، وعندئذ كانت المدينة تحول إلى صحراء تحيط بالثورة ، والنفوس تتلاطم ، والملاجئ توصد ابوابها ، والشارع ينقلب إلى ثغرة لمساعدة الجيش في الاستيلاء على المراس .

إننا لا نستطيع ان نحمل الشعب على ان يسر في معارج التقدم بأسرع مما يتغى . والويل لمن يكرهه على ذلك إكراماً ! الشعب لا ينقاد . وعندئذ يترك الانتفاضة وشأنها ، ويصبح المتمردون مصابين بالطاعون . وعندئذ يصبح كل منزل منحدراً وعرأ ، وكل باب رفضاً ، وكل واجهة بناء جداراً . وهذا الجدار يرى ، ويسمع ، ويأبه . إنه قد ينفتح وينفذ . لا . إن هذا الجدر قاضٍ . إنه ينغلق عليك ويدينك ؟ ما أظلم هذه البيوت الموصدة ! إنها تبدو ميتة ، ولكنها حية . إن الحياة شبه المعلقة في تلك البيوت ، لا تزال باقية . إن أحداً لم يخرج منها

منذ اربع وعشرين ساعة ، ولكن أحداً لم يُفقد . وفي داخل هذه الصخرة ، يروح الناس ويحيطون . إنهم يضطجعون ؛ وإنهم ينهضون ؛ وإنهم ليشعرون أهتم بين أهلهم هناك . إنهم يأكلون ويشربون هناك ، وإنهم ليخافون هناك ، شيءٌ فظيع ! الخوف يعذر سوء القيادة الرهيب هذا . إنه عزجه بالانشاده . وتلك اسباب تخفيفية . بل إن الخوف ينقلب في بعض الاحيان - وهذا امر مشاهد - إلى حميا ، والذعر قد ينقلب إلى جيـشان ، كما ينقلب التبصر إلى غيـظ ، ومن هنا هذه الكلمة البالغة العمـق : مسـعـورـو الاعـتدـالـ . إن ثـمـة تـأـلـقـات ذـعـرـ رـفـيعـ يـنبـقـ منها الفـضـبـ مثل دـخـانـ كـثـيـبـ . - « ما الذي يـريـدهـ هـؤـلـاءـ النـاسـ ؟ـ انـ الرـضاـ لاـ يـعـرـفـ سـيـلاـ إـلـىـ نـفـوسـهـمـ .ـ إنـهـ يـعـرـضـونـ الرـجـالـ المـسـلـمـينـ لـالـخـطـرـ .ـ لـكـائـنـاـ لـمـ يـكـفـنـاـ مـاـ شـهـدـنـاـ مـنـ ثـورـاتـ مـشـابـهـةـ !ـ ماـ الـذـيـ جـاءـ بـهـمـ إـلـىـ هـنـاـ ؟ـ فـلـيـنـجـواـ بـأـنـفـسـهـمـ.ـ الـآنـ .ـ لـأـمـهـمـ الـهـبـلـ !ـ تـلـكـ خـطـيـتـهـمـ هـمـ .ـ إنـهـ يـنـالـونـ الـجـزـاءـ الـذـيـ يـسـتـحـقـونـ .ـ ذـلـكـ لـيـسـ مـنـ شـائـنـاـ .ـ هـوـذـاـ شـارـعـنـاـ الـمـسـكـيـنـ وـقـدـ غـرـبـلـهـ الـقـدـائـفـ الـمـدـفعـيـةـ .ـ إـنـهـ حـزـمـةـ مـنـ الـأـدـنـيـاءـ الـخـلـعـاءـ .ـ وـفـوقـ كـلـ شـيـءـ ،ـ لـاـ تـفـتـحـوـ الـبـابـ »ـ .ـ وـيـتـخـذـ الـمـنـزـلـ مـظـهـرـ قـبـرـ .ـ وـإـمـامـ ذلكـ الـبـابـ يـكـوـنـ الـمـتـرـدـ فـيـ نـزـعـهـ الـأـخـيـرـ .ـ إـنـهـ يـرـىـ كـرـاتـ الـمـدـافـعـ وـالـسـيـوـفـ الـمـسـكـوـبـةـ مـقـلـةـ نـحـوـهـ .ـ فـاـذـاـ مـاـ نـادـىـ ،ـ فـهـوـ يـعـرـفـ أـهـمـ سـيـسـمـونـهـ ،ـ وـلـكـهـ يـعـرـفـ اـيـضاـ أـهـمـ لـنـ يـلـبـواـ نـداءـهـ .ـ إـنـ ثـمـةـ جـدـرانـاـ قـدـ تـحـميـهـ ،ـ إـنـ ثـمـةـ رـجـالـاـ قـدـ يـنـقـذـوـهـ .ـ وـهـذـهـ الـجـدـرانـ هـاـ آـذـانـ مـنـ لـحـمـ ،ـ وـأـلـثـكـ الـرـجـالـ لـمـ اـحـشـاءـ مـنـ حـجـارـةـ .ـ

منـ نـهـمـ ؟ـ

لـاـ أـحـدـ ،ـ وـكـلـ أـحـدـ .ـ

الـعـصـرـ غـيرـ الـكـاملـ الـذـيـ نـعـيـشـ فـيـهـ .ـ

إـنـ الـمـدـيـنـةـ الـفـاضـلـةـ (ـالـيـوتـوـبـيـاـ)ـ لـتـحـوـلـ نـفـسـهـاـ دـائـمـاـ ،ـ مـخـاطـرـةـ بـذـاتـهاـ ،ـ إـلـىـ اـنـفـاضـةـ ،ـ وـمـنـ اـحـتجـاجـ فـلـسـفيـ تـصـبـحـ اـحـتجـاجـاـ مـسـلـحـاـ ،ـ وـمـنـ

« ميرفا » تقلب إلى « بالاً » . والمدينة الفاضلة التي تفقد الصبر وتصبح فتنة ، تعرف ما الذي ينتظرها . وهي تصل دائمًا ، تقريباً ، باسرع مما ينبغي . وعندئذ ترضى بما كُتب لها ، وتقبل ، في بسالة ، الكارثة بدلاً من النصر . إنها تخدم ، من غير أن تتشكي ، أولئك الذين ينكرونها ، بل إنها لخدمتهم وهي تبرئ ساحتهم ، وشهادتها قائمة على ارتضائها الجفاء وال مجر . إنها جمّوح أمم العوائق ، لطيفة أمام انكار الجميل : ولكن أهو إنكار للجميل ؟

نعم ، من وجهة نظر الجنس البشري .

لا ، من وجهة نظر الفرد .

التقدم شيمة الإنسان . وحياة الجنس البشري العامة تدعى التقدم . وسيُ الجنس البشري الجماعي يدعى التقدم . التقدم يسير . إنه يقوم بالمرحلة الإنسانية والأرضية الكبرى نحو السماوي والالهي . إن له مواقفه حيث يجمع شمل القطيع المتخلّف ، وان له محطاته حيث يتأمل ، في حضرة « كنعان » بهي يكشف النقاب فجأة عن أفقه . ان له لبابه التي يرقد فيها . وإن من أشد ضروب القلق مضاضة على المفكر أن يرى الظل يلف النفس البشرية ، وان يتلمس التقدم . في الظلام : مستسلماً للرقاد ، من غير ان يكون قادرًا على إيقاظه .

— « لعل الله قد مات » ، كذلك قال جيرار دو نيرفال ، ذات يوم ، لكاتب هذه الأسطر . خالطاً ما بين التقدم والله ، وحاسباً انقطاع الحركة موت الرب .

محظى ، ذلك الذي يتأس . ان التقدم ليستيقظ على نحو محظوم ؛ وعلى الجملة فإن في ميسورنا أن نقول إنه يسير حتى في النوم ، لأنّه قد نما وكبر . وحين نراه متسبباً كرهاً أخرى بتجده أطول قامة . إن التزوع إلى المسالمة دائمًا ليس من شيمة التقدم إلا بعذر ما هو من شيمة

---

\* Gérard de Nerval كاتب فرنسي ولد في باريس عام ١٨٠٨ وتوفي عام ١٨٥٥

النهر . فعدم إقامة اي سد يعني عدم القاء اي صخر . إن العقبات تجعل الماء يُزبد ، وتحل الانسانية تفور . ومن هنا القلاقل : ولكن بعد هذه القلاقل ندرك ان ارضاً ما . قد كُسبت . وإلى ان يُقر النظام ، الذي لا يعلو ان يكون السلام الكوني ، وإلى ان يهيمن التناغم والوحدة فسيظل التقدم يتخد من الثورات محطات له .

ما التقدم اذن ؟ لقد اجبنا عن ذلك منذ لحظة . انه حياة الشعوب السرمدية :

والآن . قد يتفق في بعض الاحيان ان تقاوم حياة الافراد الموقته حياة الجنس البشري الأبدية هـ

ولنعرف من غير اكتتاب ، بأن للفرد أشواقه المتميزة ، وأنه قد يعظم هذه الاشواق ، من غير ما خيانة ، ويدافع عنها . إن للحاضر نصبياً من الانانية قابلاً للمعذرة . وإن للحياة الموقته حقوقها ، وهي ليست ملزمة بأن تصحي بنفسها ، على نحو موصول ، في سبيل المستقبل والجيل الذي حان الآن دوره في المرور فوق الارض ليس مضطراً إلى أن يختصره من أجل الاجيال – وهي أفرانه على اية حال – التي سوف يجيء دورها في ما بعد . – « أنا موجود ، » كذلك يغمغم ذلك الكائن الذي يدعى « الكل » . – « أنا شاب واني لعاشق ؛ أنا عجوز واني لفي حاجة إلى الراحة ؛ أنا رب اسرة ؛ أنا اعمل ؛ أنا موفق ؛ إن تجارتني لمزدهرة ؛ ان عندي بيوتاً ارغب في تأجيرها ؛ إن لي اموالاً على الدولة ؛ أنا سعيد . إن لي زوجة وأولاداً ؛ أنا أحبهم جميعاً ؛ إنني احب ان اعيش . دعوني وشأنني . » ومن هنا ذلك البرد الشديد الذي يصيب طليعة الجنس البشري الشهمة ، في بعض الاحيان .

إلى هذا ، فيتعين علينا ان نسلم بأن المدينة الفاضلة تنفصل عن فلكها المشع وهي تشن الحرب . إن حقيقة الغد تستغير اسلوبها ، المعركة ، من اكمل وجهة الامس . إنه – المستقبل – ليعمل مثل الامس . وإنها

- الفكرة المحسن - لتصبح وسيلة من وسائل العنف . إنها تعقد بطولتها بعمل من اعمال العنف يكون من العدل ان تتحمل مسؤوليته ، عنف فرصة وانهاز ، مناقض "للبعادىء" ، فهي تعاقب عليه بقضاء محظوم . إن «المدينة الفاضلة - الانفاضة» لقتال والقانون العسكري العتيق في يدها . إنها تطلق النار على الجوايس : إنها تنفذ حكم الموت في الخونة ؛ إنها تعطل كائنات حية وتقتذف بها إلى الظلمات المجهولة . إنها تسخر الموت ، وذلك شيء خطير . ويبدو وكأن المدينة الفاضلة قد فقدت إيمانها باشعاع الضياء ، قوتها التي لا تقاوم والتي لا يعتريها الفساد . إنها تضرب بالسيف . ولكن ليس ثمة إيمان سيف بسيط . فلكل سيف حدان . ومن يجرح بأحدهما يجرح نفسه بالأخر .

حتى إذا قمنا بهذا التحفظ ، وفي قسوة بالغة . يتذر علينا ان لا نعجب ، سواء أنجحوا أم لم ينجحوا ، بمقاتلي المستقبل الماجدين ، بأساندنة المدينة الفاضلة . وحتى حين يتحققون يكونون موضع الاحترام ، ولعلهم إنما يتحققون في حال الاخفاق بالجلال الاعظم . إن النصر ، حين ينسجم مع التقدم ، ليستحق تصفيق الشعوب ، ولكن الهريمة البطولية تستحق شفقتهم . أحدهما بهي ، والآخر ستي . أما نحن ، فأنا نؤثر الاستشهاد على النجاح . إن جردن براون اعظم من واشنطن ، وبيزاكان اعظم من غاريالدي .

إن امرءاً ما ، ينبغي ان يكون في جانب المهزوم من غير ريب : والناس غير منصفين لمجريي المستقبل الكبار حين يسقطون . الثوريون متهمون بأنهم ينشرون الرعب . ان كل متراس ليبدو اعتداء . ان الناس ليؤثمون نظرياتهم ، ويرتابون بهفهم ، ويخشون سريرتهم ، ويتهمون ضميرهم . انهم يعيرون لهم إنما يرتفعون ويكونون ويركمون

---

\* John Brown أحد دعاة تحرير الرق في اميركا ، وقد شق في تشارلزتاون (فرجينيا) لانه دعا الزنوج الى حل السلاح .

في وجه الواقع الاجتماعي السائد كثيّراً من ضروب البوس ، من الآلام ، من الآثام ، من المظالم ، وباقتلاع كتل الظلم من الاعماق السفلية لكي يتمترسوا بها ، ويقاتلوا بواسطتها . ان الناس يصيرون في وجوههم : « إنكم تقتلون بلاط جهنم ! » وفي استطاعتكم ان تحييوا بقوتهم : « وهذا هو الذي يجعل متراسنا مشيداً من مقاصد خيرة . »

وخير الحلول هو ، من غير شك ، الحل السلمي . وعلى الجملة ،  
فلنعرف بأننا حين نرى حجارة الارصفة تفكك بالدب ، وهذا استعداد  
لا يرتاح اليه المجتمع . ولكن خلاص المجتمع رهن بالمجتمع نفسه :  
فالى ارادته الخيرة نوجه النداء . فليس ثمة حاجة إلى علاج عنيف :  
لتدرس الشر في محبة ، ولعنيتنه ، ثم لنتقدم إلى معالجته . ذلك ما ندعوه  
إليه في إلتحاق .

وأياً ما كان ، فحي في حال سقوطهم ، وبخاصة في حال سقوطهم تجلب العظمة أولئك الرجال الذين يقاتلون - في ارجاء الكون كله ، بأعين مسمرة على فرنسة - من أجل العمل العظيم بمنطق المثل الأعلى الصلب الذي لا يلين . انهم يقدمون حياتهم هبة خالصة إلى التقدم . لئنهم يحققون إرادة العناية الالٰهية . إنهم يؤدون فرضاً دينياً . وفي الساعة المحددة ، وبمثل تجرد مثل يصل إلى كلمته الاخيرة ، يدخلون إلى القبر طائعين السيناريو الالٰهي . وهم إنما يرتكبون هذا الكفاح اليائس وهذا الزوال البطولي لكي يقودوا إلى نتائجها الكونية البهية الرفيعة تلك الحركة الإنسانية البدعية التي استهلت على نحو لا يقاوم ، في الرابع عشر من تموز ، ١٧٨٩ . هؤلاء الجنود هم كهان . والثورة الفرنسية عمل من أعمال الله .

ومع ذلك فان ثمة - ومن الخبر ان نصيف هذا الفرق إلى تلك الفروق التي أشرنا اليه—— في فصل آخر - ان ثمة انتفاضات مقيولة ندعوها ثورات . وان ثمة انتفاضات مرفوضة ندعوها فتناً . إن

الانتفاضة التي تفجر هي فكرة تُجرب امتحانها أمام الشعب . وإذا ما رفض الشعب أن يعطيها صوته فعندئذ تصبح الفكرة فاكهة ذابلة . وعندئذ تصبح الانتفاضة مغامرة خاسرة .

إن المضي إلى الحرب عند أول دعوة وكلما رغبت المدينة الفاضلة في ذلك ليس من شيمه الشعوب . إن الامم لا تنعم دائمًا ، وفي كل لحظة ، بمزاج الأبطال والشهداء .

لأنهم أنجابيون . إن الانتفاضات لتثير اشمئزازهم ابتداءً . أولاً ، لأنها كثيرةً ما تتخض عن كارثة . وثانيةً لأنها تتخذ من التجدد نقطة انطلاق لها دائمًا .

ذلك بأن أولئك الذين يصحون بأنفسهم إنما يصحون بأنفسهم—دائمًا— وهذا شيء جميل — من أجل المثل الأعلى . ومن أجل المثل الأعلى وحده . إن الانتفاضة حماسة . والحماسة قد يستبدل بها الغضب ؛ ومن هنا الاتجاه إلى السلاح . ولكن كل انتفاضة موجهة ضد حكومة من الحكومات أو نظام من النظم تطمح إلى شيء اسمى . وهكذا ، مثلاً ، يحسن بنا أن نكرر أن ما حاربه زعماء انتفاضة ١٨٣٢ ، وبخاصة متاحمي شارع الدا « شانفريري » الشبان ، لم يكن لويس فيليب على وجه الضبط . إن معظمهم — ولنقل ذلك في صراحة — كانوا يقررون بسجая هذا الملك الذي كان وسطاً بين الملكية والثورة . إن أيّاً منهم لم يبغضه . ولكنهم هاجموا الفرع الأصغر للحق الالهي في لويس فيليب كما سبق أن هاجموا الفرع الأكبر للحق الالهي في شارل العاشر . وكانت المفدي يريدون استطاط الملكية ، كما أوضحتنا ، هو اغتصاب الآستان للإنسان ، واغتصاب الامتياز للحق ، في العالم أجمع . إن باريس صنف غير ملك إنما ينتزع عنه أن يصبح العالم من غير طغاة . على هذا أتحمّل كانوا يفكرون . كان هدفهم بعيداً من غير شك ، ولعله كان

غامضاً . متراجعاً في وجه الجهد . ولكنك عظيم .

ذلك هو الواقع . وإنما يصحى المرء بنفسه من أجل هذه الروى ؛ التي هي في نظر الضحايا . دائمًا تقريرًا . أوهام . ولكنها اوهمات تتصل بها — على العموم — الحقيقة الإنسانية كلها . انه يقذف بنفسه إلى هذه الأشياء الفاجعة ؛ ثُملاً عما يوشك أن يفعله . ومن يدرى ؟ فقد تُكتب الغلبة لهذه الفتنة . إنها فتة قليلة . إنهم يواجهون جيشاً كاملاً . ولكنهم يدافعون عن الحق ، عن القانون الدولي . عن سيادة كل أمراء على نفسه — تلك السيادة التي لا يمكن التنازل عنها — . عن العدالة . عن الحقيقة . وعند الحاجة يموتون مثل أولئك الإسبارطيين الثلاثة . إنهم لا يفكرون في دون كيshot . ولكن في ليونيداس . ويندفعون إلى أمام ، وما ان يشرعوا في القتال . حتى يمتنعوا على النكوص . وبطوحوا بأنفسهم قديماً ، آملين في نصر لم يُسبق إلى مثله . وفي الثورة مُنجزة . والتقديم مطلق السراح . وفي تكبير الجنس البشري . والخلاص العام . واضعين نصب اعينهم . في أسوأ الاحوال ، معركة كمعركة تيرموبيل . . .

هذا التساقيف من أجل التقدم كثيراً ما يتحقق . ولقد سبق لنا ان قلنا لماذا . ان الجمهور لعموم يستعصي توجيهه على الفرسان . وهذه الكتلة الثقيلة . هذه الجماهير . المحتشدة بسبب من ثقلها نفسه . تخشى المغامرة . وان في المثل الاعلى لغامرة .

وفوق هذا — وينبغي ان لا ننسى ذلك — فإن المصالح هناك ؛ وبين المصالح وبين المثل الاعلى وكل ما هو عاطفي ود مفقود . إن المعدة تشن الفواد في بعض الاحيان .

وعظمة فرنسة وجماهيرها قائمان على نها اقل عنابة بالطن من سائر

---

\* هي معركة البطولية التي خاضها ليونidas ، ملك اسبارطة ، مع قواته البالغة لثمانة ليـن غير ، ضد الفرس ، فقضى نحبه مع رجاله جميعاً ، عام ٤٨٠ ق.م.

الشعوب . إنها تشد الحزام على خصرها بأيسر مما يشهده غيرها . وهي أول من يفتق ، وآخر من يستسلم للرقاد . إنها تخضى في الطليعة : إنها رائدة .

وما ذلك إلا لأنها فنانة .

إن المثل الأعلى لا يعدو أن يكون أوج المنطق ، مثلما إن الجميل ليس شيئاً غير ذروة الحقيقى . والشعوب الفنانة هي أيضاً الشعوب التي لا تعرف التناقض المنطقى . إن حبّك الجمال يعني روئتك الضياء . وهذا ما جعل اليونان تحمل قبل غيرها شعلة أوروبا ، يعني شعلة الحضارة ، لتسليمها بعد إلى إيطالية ، ولتسليمها هذه بدورها إلى فرنسة . شعوب الآلهة رائدة ! *Vita lampada tradunt*

شيء رائع : إن شعر الشعب عنصر تقدمه . ومقدار الحضارة إنما يقاس بمقدار الخيال . والشعب المدآن وحده يجب أن يظل شعباً فحلاً . كورنث ، نعم . سيبارييس ، لا . ومن يتخذه يفسد ويفقد مزاياه أصله . ينبغي أن لا تكون لا هواة ولا عباقرة في الفن : ولكن ينبغي أن تكون فنانين . وفي موضوع الحضارة . يجب أن لا نفرط في الرقة ، ولكن يجب أن نصعد في معارج السمو . وعلى هذا الشرط نعطي الجنس البشري نموذج المثل الأعلى .

إن للمثل الأعلى العصري مثاله في الفن ، ووسيلته في العلم . وانسنا من خلال العلم سوف تتحقق رويا الشعراة الماجدة : المجال الاجتماعي . سوف تنشيء جنة عدن ككرة ثانية من طريق أ + ب . وفي هذه النقطة التي بلغتها الحضارة أعمى المضبوط عنصراً أساسياً من عناصر

---

\* كورنث أطلق مدن بلاد الاغريق القديمة الاكثر ازدهاراً ، وكانت تنافس اثينا واسبارطة .

، Sybaris مستعمرة آخية دمرت عام ( ٥١٠ ) ق.م. وكانت مشهورة برقة سكانها وتخثثهم .

البهي : والعاطفة<sup>ُ</sup> الفنية لا تخدم بالاداة العلمية فحسب . بل تكمل أيضاً . إن على الحلم أن يحب . والفن . الذي هو الفاتح . يجب ان يتخذ من العلم ، الذي هو المحرك . نقطة ارتكاز له . إن صلابة المطية شيء هام . والروح الحديثة هي عقريبة اليونان متخذة<sup>ُ</sup> من عقريبة الهند عربة<sup>ُ</sup> لها . إنها الاسكندر على متن فيل .

إن الام التي تحجرت في العقيدة أو التي افسدها الربع ليست اهلا لأن تقود الحضارة . والمسجد للصنم أو للدينار يوقع المزال في العضة التي تتشي . والارادة التي تضي . والاستغراق الكهنوتي أو التجاري ينقص من اشعاع الشعب . ويخفض من افقه من طريق خفض مستوىه ، ويحرمه ذكاء الهدف الشامل ذاك . الانساني والالهي في وقت معاً ، الذي ينشيء الأمم البشرة . إن بابل ليس لها مثل أعلى . وقرطاجة ليس لها مثل أعلى . أما اثنينا ورومما فأن لها : حتى خلال ظلام القرون الكثيف كله ، حالات من الحضارة ؛ وأنها لتحتفظان بهذه الحالات .

وفرنسة تنتهي إلى نوع الشعوب نفسه الذي تنتهي إليه بلاد اليونان وإيطالية . إنها أثينة بما هو جميل . ورومانية بما هو عظيم . وإن هذا ، فأنها خبرة . إنها تهب ذاتها . وهي أعلى بروح التفاني والتضحية من الشعوب الأخرى . ييد ان هذه الروح تستحوذ عليها وتتخلى عنها . وهذا يكمن الخطر العظيم على أولئك الذين يركضون حين ترغب في ان تتشي ، أو الذين يمشون حين ترغب في أن تقف . إن لفرنسا نكساتها نحو التزعة المادية . وفي بعض اللحظات نرى الأفكار التي تسد ذلك العقل الرفيع وقد فقدت كل ما يذكر بالعظمة الفرنسية . وان لها لمسحة كمساحة ميسوري أو كارولينا الجنوبيه . ما الذي ينبغي أن يُصنع ؟ إن العملاقة تمثل دور الفزمة . إن لفرنسا الالهائية أوهامها الاطفالية . هذا كل ما هنالك .

وليس ثمة ما يمكن أن يقال في هذا الصدد . فلشعب . كما

للكوكب . الحق في الكسوف . وكل شيء حسن . شرط أن يمسود الضياء . وان لا يفسد الكسوف وينقلب إلى ليل . إن الصحي والانتفاضة مترادفعان . وعودة ظهور الضياء مماثلة لبقاء الأنماط .

فلتنصل على هذه الوقائع في هدوء . إن الموت في المتراس . أو الرمس في المنفى . بدبلان مقبولان عن التفاني وبذل الذات . ان الاسم الحقيقي للتفاني هو التراجمة . دع المتخل عنهم يتقادون للتخلية . والمنفيين يخضعون للتفني . ولنقنعوا بأن نتوسل إلى الشعوب الكبرى ان لا تتراجع — حين تراجع — مسافات بعيدة جداً . يجب عليها ان لا توغل في الانحدار بمحجة العودة إلى العقل .

المادة موجودة . واللحظة موجودة . والمصالح موجودة . والبطن موجود . ولكن البطن ينبغي ان لا يكون هو الحكم唯一的 . إن للحياة الموقته حقوقها . ونحن نسلم بذلك . ولكن للحياة السرمدية حقوقها ايضاً . وأسفاه ! إن الارتفاع لا يحول دون السقوط . نحن نرى ذلك في التاريخ أكثر مما نود . تتوضّح أمة بالمجده ; وتتدفق المثل الأعلى : ثم تمرغ في الحماقة . وتجدها سائفة ؛ وإذا ما سألنا لماذا تستبدل فالستاف . بسرير اجابتنا : « لأنني أحب رجال السياسة ». بقى ان نقول كلمة قبل ان نعود إلى المعركة .

إن معركة مثل هذه التي نصفها الآن ليست غير حركة تشنجية نحو المثل الأعلى . والتقدم المصفى عرضة للمرض . وان له ضروب الصرع الفاجعة هذه . وقد قدر لنا ان نلتقي في طريقنا بداء التقدم هذا : الحرب الاهلية . أنها وجه مشووم — وجه هو في آن معًا فصل وفترة بين فصلين — من وجوه هذه المأساة التي محورها منبوز اجتماعي . والتي عنوانها : التقدم .

---

Falstaff ضابط وسياسي انكليزي جعل منه شكييرا في بعض مسرحياته موذجاً للرجل الداعر المألاع العذار (حوالى ١٣٧٨ - ١٤٥٩) .

القدم !

هذه الصيحة التي كثيرة ما نطلقها هي تفكيرنا كله . وفي المرحلة الحاضرة من مأساتنا نحسب ان من الجائز لنا — ما دام في الفكرة التي تتطوّي عليها أكثر من مخنة ينفي ان يُخضع لها — لا ان نرفع الحجاب عن وجهها ، بل ان يجعل النور يشرق ، في وضوح . من خلالها على الاقل .

ان الكتاب الواقع في هذه اللحظة تحت نظر القاريء هو— من ألمه إلى ياهه ، في جملته وتفصيله ، منها تكن التقطعات والاستثناءات ونواحي الصعف — الانقال<sup>١</sup> من الشر إلى الخبر . من الظلم إلى العدل . من الباطل إلى الحق ، من الليل إلى النهار ، من الشهوة إلى الصبر ، من العفونة إلى الحياة ، من البهيمية إلى الواجب ، من الجحيم إلى الجنة ، من العدم إلى الله . نقطة الانطلاق : المادة . المهد : النفس . افعى هيدرية في البداية : ملاك في النهاية .

## ٣١ الأبطال

وفجأة اعلنت الطبول بدء العمليات الحربية .

كان الهجوم أشبه بالزوبعة . ففي المساء ، تحت جنح الظلام ، كانت القوات الحكومية قد اقتربت من المتراس . في صمت ، وكأنها البواء . أما الآن . في وضح النهار ، وعلى قارعة الطريق العريضة ، فقد كانت المباغة مستحيلة بالكلية . وفوق هذا ، فقد كانت القوى الفاعلة حاصرة قناعها ، وكان المدفع قد شرع في التهدار ، وكان الجيش قد هجم على المتراس . كان الم悲哀 الآن هو البراعة . لقد اندفعت في

\* هي آلية معروفة باللغات الأجنبية بالـ *trap*

الشارع : بخطى سريعة . فرقة من سلاح المشاة يفصل ما بين جنودها في فرات متساوية رجال من الحرس الوطني والحرس البلدي عانى أقدامهم . وتدعهما جماعات كثيفة تسمع ولكنها لا ترى . وفُرِّعت الطبول . وضجت الابواق . وسُدِّدت الحراب . وسار الاطفاليون في المقدمة . وانقضت هذه القوات : ثابتة الجنان . على المراس بمثل ثقل عمود برونزى يقضى على جدار .  
وصمد الجدار .

وأطلق المتمردون النار في حمية . وكان المراس وقد تسره المغرون أشبه بعُفرة من بروق . وكان الهجوم خاطفاً إلى درجة جعلت المراس يغض لحظة بالمخربين . ولكنه زلزل الجناد كما يزلزل الاسد الكلاب . وغضي بالمحاصررين ولكن كما يُغضي العُرف بالزبد لكي يعود بعد لحظة إلى الظهور شديد الانحدار . أسود ، رهيباً .

وإذا كانت فرقة المشاة قد اضطرت إلى التراجع إلا أنها ظلت متراصة في الشارع ، بلا سر أو غطاء ، ولكنها فظيعة ، ورددت على المراس بوابل مرؤع من نيران البنادق . وكل من رأى الالعاب النارية يوماً يذكر تلك الحزمة التي تتألف من تشيك بعض الصواعق ، والتي تدعى الباقة . تخيل الباقة ، وقد غدت الآن أفقية لا عمودية ، حاملة كُرْبة مدفعية ، أو رصاصة ضخمة ، أو قذيفة عند نهاية كل نفثة من نفاثات نارها . وموزعة الموت بعنقיד رعودتها . كان المراس تحتها .

وفي كلتا الناحيتين كانت عزيمة متكافئة . كان ثمة بطولة تكاد تكون بربيرية ، وكانت مترفة بضرب من الضراوة البطولية التي بدأت بالضحية بنفسها . تلك كانت الايام التي قاتل فيها رجال الحرس الوطني مثل الجنود الفرنسيين في الجزائر . كانت القوات الحكومية تريد ان تضع حدأ للحركة الثورية ، وكانت الحركة الثورية تريد ان تناضل . إن قبول الموت في ريعان الشباب وفي أوج الصحة يجعل من البالة خبala . لقد

استشعر كل امرئ في ذلك المعركة التضليل الذي تحدثه الساعة الخامسة .  
كان الشارع مغطى بالجثث .

كان آنجولراس في طرف من المتراس . وكان ماريوس في الطرف الآخر . وكان آنجولراس . الذي حمل المتراس كله على رأسه . يدخل نفسه وبخنها موارد التلف . ولقد سقط ثلاثة جنود . الواحد تلو الآخر ، تحت مرتفعه . ومن غير ان يلمحوه مجرد لمح . أما ماريوس فقاتل من غير سر . لقد جعل من نفسه هدفاً . فقد وقف مربزاً أكثر من نصف قامته فوق قمة المتراس . والواقع انه ليس ثمة مبشر أعنف من بخيبل يركب رأسه . وليس ثمة رجل اكثراً ترويعاً عند العمل من حلم من الحالين . ولقد كان ماريوس فظيعاً ومستغرقاً في التفكير . كان في المعركة وكأنه في حلم . ولو قد رأه المرء اذن لحسبه طيفاً يطلق النار من بندقية .

كانت خراطيش المحاصرين على وشك ان تنفذ ، ولكن سخرية باسم لم تكن كذلك . ففي زوبعة الموت التي احاطت بهم كانوا يضحكون .  
كان كورفيراك حاسر الرأس .

وأسأله بوسوبيه :

— « ماذا فعلت بقمعتك ؟ »

فأجابه كورفيراك :

— « لقد أطأروها آخر الأمر بقذيفة من قذائف المدفعية . »

او كانوا يقولون اشياء متکبرة .

لقد هتف فوبي في مرارة :

— « هل يفهم احد هؤلاء الرجال ( وذكر اسماء ، اسماء معروفة ، بل مشهورة . وبعضها من رجال الجيش القديم ) الذين وعدوا بالانضماملينا . واخذوا على انفسهم عهداً بأن يساعدونا ، والذين اقسموا على ذلك بشرفهم ، والذين هم قادتنا . والذين تخليوا عنا ! »

فأجابه كورفالك في انسامة رصينة :

— «ان ثمة انساناً يراغعون قواعد الشرف كما نراغي النجوم ، من مكان بعيد جداً . »

كان الجزء الداخلي مزروعاً بالخرابيش المزقة إلى درجة يخيل معها إلى المرء ان السماء كانت تُشَعِّج .

كان للمغاربين تفوق في العدد ، وكان للمتمردين تفوق في الموضع : كانوا عند أعلى الجدار يمطرون الجنود بغير ان منطلقة من أنابيب بنا دقهم ، فيما كانوا يترنحون فوق القتلى والجرحى وقد سقطوا في الشرك عند منحدر السور . كان هذا المتراس - على النحو الذي شيد عليه ، وقد سُندَّ تسليداً رائعاً - واحداً من تلك الواقع التي تعطل فيها حفنةٌ من الرجال فرقة كاملة عن العمل . ومع ذلك ، فقد كان سلاح المشاة المهاجم يزداد دائماً بأمداد جديدة ويتصحّم تحت وابل الرصاص ، وكان يتقدّم في غير ما رحمة . وأخيراً هصر الجيش المتراس . شيئاً فشيئاً ، وخطوة خطوة ، ولكن في نقصة ، كما يهدر الأواب معصرة العنبر .

وبَيْعُ الْمَجْوَمُ الْمَجْوَمَ . وَتَعَاذِمُ الْهُولُ عَلَى نَحْوِ مَوْصُولِ .  
ثُمَّ نَشَبَ . فَوْقَ رَكَامِ حِجَارَةِ الْأَرْصَدَةِ هَذَا ، فِي شَارِعِ الدَّهْنَافِرِيِّ ، ذَاكُ ، صَرَاعٌ جَدِيرٌ بِأَسْوَارِ طَرَوَادَةِ . لَقَدْ غَدَا هُولَاءِ  
الرِّجَالِ الشَّاهِبِيِّ الْوِجْهَ ، الْمَزْقُو الْثِيَابَ ، الْمَنْهُوكُ الْقُوَى ، الَّذِينَ لَمْ  
يَأْكُلُوا مِنْذَ أَرْبَعِ وَعِشْرِينَ سَاعَةً . وَالَّذِينَ لَمْ يَذْوَقُوا طَعْمَ النَّوْمِ ،  
وَالَّذِينَ لَمْ يَقْدِمُوا عَلَى دُلُومِهِمْ بَعْدَ بَعْضِ رَصَاصَاتِ يَطْلُقُونَهَا . وَالَّذِينَ تَخْسِسُوا  
جِيوبَهُمُ الْفَارَغَةَ مِنَ الْخَرَاطِيشِ . وَالَّذِينَ كَانُوا كَلَّا هُمْ جَرْحَى تَقْرِيبًا ، وَقَدْ  
عَصَبَتْ رَؤُسُهُمْ أَوْ أَذْرَعُهُمْ بِقَمَاشِ صَدَى ، مَسُودَ ، وَتَبَدَّتْ التَّفَوُقُونِ في  
سَرَّاهمِ حَيْثُ كَانَ الدَّمُ يَتَدَفَّقُ ، وَالَّذِينَ كَانُوا مَسْلِحِينَ بِشَقِّ النَّفْسِ بَيْنَ دَفَقَيْ  
دَيْنَةٍ وَسَيْفَ عَنْقَةِ مَثَلَّمَةٍ — لَقَدْ غَدَا هُولَاءِ الرِّجَالِ عَمَالَقَةَ . لَقَدْ

هوجم المتراس . وشُنَّت عليه الغارة . وتُسْوَرَ عشر مرات . ولكنه لم يسقط قط .

ولكي تكون فكرة عن هذا الصراع ، تخيل النار وقد أخْرِم بها ركام من البسالة الفظيعة ، وتخيل إنك تشهد الحريق . إنه لم يكن قاتلا ، لقد كان باطنَ نور . هناك تنفست الأفواه طأا ؛ هناك كانت الوجوه رائعة . هناك بدا الشكل الإنساني مستحيلا ؛ هناك تلاؤ المقاتلون ، وكان من المعتذر عليك أن ترى سمندرات . المعرك هذه تروح وتحب في ذلك الدخان الأحمر . أما مشاهد هذه المذكرة العظيمة فتحجج عن تصويرها . إن للملحمة وحدتها الحق في أن تعلُّم أي عشر ألف بيت من الشعر بوصف معركة واحدة .

كان خليقاً بالمرء أن يقول أنها كانت جحيم البرهمية . أفعى المُؤَى السبع عشرة ، التي يطلق عليها الـ «فِيدا» اسم «غابة السيف». لقد قاتلوا صدرأً لصدر . وقدمأً لقدم . بالغدارات . بالسيوف ، بجمع الكف ، عن بعد ، وعن كثب . من فوق ، ومن تحت ، من كل مكان ، من سطوح المترزل ، من نوافذ الحانة . من كوى الاقيضة التي كان بعضهم قد انزلق إليها . كانوا واحداً ضد ستين . وكانت واجهة كورنث ، نصف المدمرة ، رهيبة جداً . كانت النافذة التي وشمتها القذائف قد فقدت الواحها الرجاجية وأطْرُّها . فهي الآن لا تعدو أن تكون ثقباً شائهاً سده حجارة الارصفة على نحو مشوش . كان بوسويه قد قُتُل ؛ وكان فويبي قد قتل ؛ وكان كورفيراك قد قتل ؛ وكان جولي قد قتل ؛ ولم يكن امام كوموبير ، الذي اخترق صدره طعنات حراب ثلاثٌ لحظةً كان يرفع جندياً جريحاً - لم يكن امام كوموبير غير متسع من الوقت نظر فيه إلى السماء . ولفظ أنفاسه .

\* جمع سمندر Salamandre وهو ضرب من الصندعيات المذهبية ، يقال ان له القدرة على اجتياز النيران من غير ان يحترق ...

وكان ماريوس . المقيم على القتال . مشخصاً بالجراح . وبخاصة حول رأسه . إلى درجة جعلت حياءه يضيع في الدم ، وإلى درجة كانت تخيل إلى المرء أن وجهه قد غُطّي بمنديل أحمر .

كان آنجلوراس وحده سليماً لم يمس . وحين اعوزه السلاح بسط يده يميناً وشمالاً ، وقد وضع أحد التمردين أيام سلاح وفق إليه في قبضته . لم يكن قد بقي لديه ، من أصل أربعة سيف . (أكثر منه فرنسوا الأول في مارييان بوهاد ) غير فلذة من سيف .

يقول هوميروس : « ان ديموميد يتبع آكسيلوم . ابن توثرانيس . الذي يقطن في آريسبا السعيدة . ويملك اوريالوس . ابن ميسسته . دريسوس وأوفيليوس ، وايسبيوس . ويداسوس ذاك الذي جلت به عروس الماء آبارباريه من بوكوليون الذي لا يُفهر . ويوليسيس يخلع بيديت دو بير كوس : وآنديلوخوس يخلع آبليروس : وبوليبيتيس يخلع آستيالوس : وبوليداماس يخلع اوتوس دو سيلين ، وتورس يخلع آريتاون . ويقضي ميغانتيوس تحت طعنات حربة يوربيلوس . ويهرم آغاممنون ، ملك الابطال ، ايلاطوس المولود في المدينة الوعرة المنحدر التي يغسلها نهر سانتيو المرنان . » ففي قصائدنا الفخرية القديمة يهاجم اسبلانديان بنار ذات حدين المركيز العملاق سوانتيبور فيما كان يدافع عن نفسه برجم الفارس بحجارة ضخام كان يقلعها من الأبراج . ولوحاتنا الجدرانية القديمة ترينا دوقي بروتاني وبوربون مسلحين ، دارعين ، موسومين بسمة الحرب ، متعطشين فرسهما . متواجهين . وفي يد كل منها فأس حرية ، متقطعين يتحذّد . متتعلّقين بالحديد ، متقدّرين بالحديد ، بروتاني وقد تراءى أسداته بين قرني تاجه ، وبوربون وقد تبدّت زينة هائلة على حافة خوذته . ولتكن ليس من الضروري لكي يكون المرء بماً ان يعتذر مثل إيفون »

---

• Adolphe Yvon رسام عسكري فرنسي ثمور لوحاته بالحركة . ( ١٨١٧ - ١٨٩٢ )

بالخوذة الدوقة ، أو ان يقبض مثل ايسبلانديان على شعلة حية . أو ان يجلب من ايفر . مثل فيليس . ابي بوليداماس . درعاً رائعة هدية من ملك الرجال او فيتيس . حسبه ان يبذل حياته في سبيل معتقد ما او ولاء ما . وذلك الجندي الساذج الصغير . الذي كان بالامس فلاحة من يوسيا او ليموزين ، والذي يطوف بالليل ، ومية الكرنب إلى جانبه ، حول مربيات الاطفال في اللوكسومبورغ ، وذلك الطالب الفتى الشاحب الوجه المنحني فوق قطعة تشريحية او كتاب . المراهق الاشقر الذي يشذب لحيته بالقص ، خدهما معاً ، وافخر عليهما نفحة الواجب ، وضعهما على نحو متقابل في ساحة « بوشيرا » او زفاف « بلانش ميراي » غير النافذ ، ودع احدهما يقاتل من أجل رايته ، والآخر من أجل منه الأعلى ، ودعهما كليهما يتخلان أنها بخاربان في سبيل الوطن . ان العصراع سوف يكون جباراً ، والظل الذي سوف يلقى على ذلك الميدان الملحمي الكبير حيث تناضل الانسانية ، وقد تقاتلت السترة الزرقاء والمتر الطبي ، سوف يساوي الظل الذي يلقيه مغاريون ، ملك ليسا المليئة بالغمور ، التصارع جداً لجد منبع آجاكس . المائل ، المساوي للآلهة .

## ٢٢ قدماً لقدم

و حين لم يبق احد من الزعماء حياً ، باستثناء آنجولراس وماريوس ،

ومن شهر آثاره « المارشال ناي » في تراجمه من روسيا .  
 \* Polydamas رياضي تسامي ذو قوة اعجوبة . وقد توفي وهو يحملون ان يتدخن فتحمة تدحرجت من مقارة فمحنته سقاً .  
 \*\* Ajax احد الابطال اليونانيين في حرب طروادة .

اللذين كانوا في طرف المتراس . تداعى الوسط الذي كان كورفيراك ، وجولي ، وبوسوريه ، وفوري ، وكومبوفير قد دافعوا عنه طويلاً . وكانت المدفعية قد جوفت ، من غير ان تحدث ثغرة سالكة . قلب المتراس تجوفياً كبيراً . هناك . كانت قمة السور قد اخفت تحت القذائف ، وانهارت . وكانت الانقضاض المتهارة ، في الداخل حيناً وفي الخارج حيناً ، قد أحدث آخر الأمر . بعد ان تراكمت على جانبي السور . شبه منحدرين . احدهما في الداخل والآخر في الخارج . وكان المنحدر الخارجي بمثابة سطح منحنٍ يجعل الهجوم على المتراس يسيراً .

وقام المغرون بهجوم اخر ، وتکلل ذلك الهجوم بالنجاح . لقصد اندفعوا شائکين بالحراب . في خطوات خاطفة ، اندفاعاً لا يقاوم ، وبدت جبهة المهاجمين الكثيفة وسط الدخان عند أعلى منحدر السور . لقد قضي الأمر . هذه المرة . لقد تراجع جمع التمردين المدافع عن الوسط تراجعاً فوضوياً .

ثم استيقظ حب الحياة الكالح في بعضهم . إن كثيراً منهم انتهوا الآن ، وقد سُدّت البهم غابة البنادق تلك ، إلى ان ينفروا من الموت . تلك لحظة توعي فيها غريزة حفظ الذات . ويعاود الحيوان الظهور في الانسان . لقد حُجزوا عند المترز العالي ذي الأدوار الستة الذي شکل مؤخرة المتراس . ولعله كان في ذلك المترز خلاصهم . فقد كان هذا المتراس متمساً : شبه مسوار من أعلى إلى أدنى . وقبل ان يصبح في ميسور الجندي المهاجمين ان ييلعوا الجزء الداخلي من المتراس كان ثمة متسع من الوقت لافتتاح باب وانفلاقه . وكانت ومضة كافية لذلك ؛ ولقد كان باب ذلك المترز المفتوح نصف فتحة والمفلق في الحال كرة اخرى . بمثابة الحياة بالنسبة إلى هؤلاء الرجال اليائسين . في مؤخرة ذلك المترز كانت الشوارع ، والفرار الميسور . والقضاء . وشرعوا

يقرعون هذا الباب باعقاب بنادقهم ، وبرفات أرجلهم ، منادين . صائحين ، متسلين ، مشتiken أيديهم . ولم يفتح أحد . ومن نافذة الدور الثالث اطل عليهم رأس الموت .

ولكن آنجولراس وماريوس ، وسبعة أو ثمانية متحلقين حولهما . وثبوا إلى الإمام وحمّوهم . وصاح آنجولراس في وجه الجنود : « لا تقدموا ! » حتى إذا امتنع أحد الضباط عن الأذعان . قتله آنجولراس . كان الآن في فناء المراس الداخلي الصغير . مولياً ظهره بيت كورنث . شاهراً سيفه بأحدى يديه . مسدداً بندقيته القصيرة الخفيفة بال الأخرى . مبقياً باب الحانة مفتوحاً ، ساداً إياه في الوقت نفسه في وجه المغرين . وصاح مخاطباً اليائسين : « ليس ثمة غير باب واحد مفتوح . وهو هذا . » وغضاظهم بجسده ، مواجهاً عفرده كتيبة بكل منها . ومكثهم من المرور خلفه . واندفعوا كلهم إلى هناك . واحتزل آنجولراس - فيما هو ينفذ بندقيته القصيرة الخفيفة ، التي استعملها الآن وكانتها عصاً . ما يدعوه لاعبو النبات « الوردة المخططة » - احتزل الحراب من حوله وأمامه وكان آخر الداخلين . وكانت لحظة رهيبة . فالجنود يحاولون ان يدخلوا . والمتمردون يريدون أن يوصدوا الباب . لقد أغلاق الباب في كثير من العنف حتى إنّه حين ارتد إلى إطساوه ابسى عين أصابع خمس مقطوعة ملتصقة بالاطار - أصابع جندي كان قد تثبت به .

وظل ماريوس في الخارج . كانت قذيفة قد كسرت ترقّوته ، ولقد استشعر انه على وشك الاغماء . وانه يشرف على السقوط . وفي تلك اللحظة . وكانت عيناه قد أغمضتا - أحسن . وكان يداً قوية تمسك به . ولم يُبق له اغماوه الذي افقده وعيه غير متسع من الوقت لهذه الفكرة . ممزوجة باخر ذكري لكرزت : « لقد وقعت في الاسر . سوف يقتلوني رمياً بالرصاص . »

وراودت الفكرة نفسها آنجولراس حين لم ير ماريوس بين أولئك الذين لجأوا إلى الحانة . ولكتهم كانوا قد انتهوا إلى تلك اللحظة التي لا يجد فيها كل منهم متسعًا لغير التفكير في ميته هو . وثبتت آنجولراس رتاج الباب ودعنه بالحديد ، وأغلقه بأن أقفل الفلق والقفل على نحو مزدوج . فيما كانوا يتحققونه في الخارج خفقاً رهياً — الجنود باعثاب بنادقهم ، والطلائع بقوتهم . لقد احتشد المغبونون عند هذا الباب . كان حصار الحانة قد بدأ الآن .

كان الجنود ، ولنقل ذلك ، مفعمين بالغضب .

كانت وفاة رقيب المدفعية قد اثارت غيظهم . وفوق هذا — وذلك شيء أشد شؤمًا — فقد كان قد سرى في أواسطهم ، خلال الساعات القليلة التي سبقت المجزوم . ان المتمردين يمثلون بالأسرى ، وأنه كانت في الحانة جثة جندي احتُرَ رأسه . وهذا الضرب من الاشاعات هو المرافق العادي للحروب الاهلية ، وان مثل هذه الاخبار الكاذبة هي التي سببت في ما بعد كارثة شارع ترانسونيون \* .

وحين مُرسِّس الباب . قال آنجولراس لرفاقه :

— « فلنبع افسنا بشمن غال . »

ثم تقدم نحو المائدة التي سجى عليها مابوف وغافروش . كان في ميسور المرء ان يرى . تحت الغطاء الاسود ، شكلين مستقيمين متصلين ، أحدهما كبير والآخر صغير . وقد ارتسم الوجهان على نحو عامض تحت ثابيا الكفن الكالحة . لقد نأت يد من تحت الكفن . وتدلّت نحو ارض

\* ملابس شارع ترانسونيون *Transnonain* ، وقد وقعت في ١٤ نيسان ١٨٣٤ أثناء الثورة التي اندلعت في باريس في سان ميري . وتفصيل ذلك ان الجرد اقبلوا لتفويض متعاس شارع ترانسونيون فاطلقت عليهم النار من المنزل رقم ١٢ في ذلك الشارع فجرحت خابطاً . فما كان من الجنود الناضجين الا ان اجتازوا ذلك البيت وذبحوا كل من فيه .

الغرفة . كانت يدَ الرجل العجوز .  
وانحنى آنجلوراس وقبل تلك اليد الجليلة . كما قد قبل البارحة جبين  
الرجل .

كانت هما القلين الوحدين اللذين طبعهما في حياته كلها .  
فلنختصر . كان المراس قد ناضل مثل باب من ابواب ثيبة .  
وناضلت الحانة مثل بيت من بيوت سرقسطة . ان هذه المقاومات  
لضاربة . لا صفح . لا تفاوض ممكناً . إنهم راغبون في الموت شرط ان  
يُقتلوا . وحين يقول سوشيه : « استسلموا ! » يجبيه بالافوكس .  
« بعد حرب المدفع حرب السكين ! » لم يكن ثمة ما يعوز اقتحام  
حانة هوشلو . لا حجارة الارصنة المتهمة من النافذة والسطح على  
رؤوس المغireين مثيرة حتى الجنود بما احدثت من سحق رهيب . ولا  
طلقات الرصاص من الاقية ومن كوى العلية ، ولا احتدام المجموع ،  
ولا سورة الدفاع ، ولا جنون الافناء المسعور ، آخر الامر ، عندما  
اقتحم الباب . وحين اندفع المغireون إلى الحانة ، وقد تعثرت اقدامهم  
باليواح الباب الخشبية المحطممة المتناثرة على الارض . لم يجدوا اياً مقاتل  
هناك . كانت السلالم الولبية التي بُترت بضررها فأس منطحة وسط الغرفة  
السفلى ، وكان بعض الجرحى قد لفظوا أنفاسهم منذ لحظة . وكان جميع  
الذين لم يقتلوا معتصمين في الدور الاول . وهناك . من خلال القلب

---

\* من مدن مصر القديمة ومن أشهر مدن العالم القديم ، وكانتا يطلقون  
عليها لقب \* المدينة ذات الابواب المئة  
\*\* مدينة إسبانية معروفة ، وقد قاتلت الفرنسيين في خراوة فائقة وصمدت لحصارهم  
من حزيران ١٨٠٨ إلى ١٩ شباط ١٨٠٩  
\*\*\* مارشال فرنسة ( ١٧٧٢ - ١٨٢٦ ) وقد لمع نجمه في حروب إسبانيا .  
\*\*\*\* دوق سرقسطة ، وقد أبل بلاء حسناً في الدفاع عن هذه المدينة ضد  
الفرنسيين عام ١٨٠٩ ( ١٧٨٠ - ١٨٤٧ )

الذي في السقف والذي كان هو المدخل إلى السلم . انفجرت طلقات نار رهيبة . كانت البقية الباقي من الخرابيش . حتى إذا نفذت . وحتى إذا لم يبق لدى هؤلاء الرجال المحترسين الراغبين لا بارود ولا رصاص . تناول كل منهم الثتين من تلك الزجاجات التي احتفظ بها آنجولراس . والتي تحدثنا عنها من قبل . ودافعوا عن المطلع بهذه النباتات السريعة الانكسار على نحو رهيب . كانت زجاجات ملأى عماء الفضة . ونحن إنما نروي وقائع هذه المجازرة كما هي . فقد أخذ المحاصرون — وأسفاه — سلاحاً من كل شيء . والنار الاغريقية لم تشن ارخميدس ، والقطaran الفائز لم يشن بايار . إن الحرب رعب كلها . وليس ثمة ما يختار فيها . إن نار المحاصرين . على الرغم من صعوبتها ومن صعوبتها من ادنى إلى أعلى . كانت مهلكة . وما هي إلا لحظات حتى أحبطت حافة الثقب الذي في السطح بروؤس القتلى وقد سالت منها خطوط طويرة حمراء داخنة . كانت القرفة ممتنعة على الوصف . وأحدث الدخان المحبوس المتقد شبه ليل فوق هذا الصراع . وإنما تعجز الكلمات عن الهول حين ينتهي إلى هذه الدرجة . لم يعد ثمة رجال في هذا الكفاح الذي غدا الآن جحيناً . لم يبق ثمة عمالقة ضد مردة . كان أشبه بميلتون ودانبي منه بهوميروس . لقد هاجمت بالسلاسة . وداغست الشياح . كانت بطولة الهولات .

---

\* Bayard فائد فرنسي شهير سلط نجمة اثناء حروب شارل الثامن ، ولوييس الثاني عشر ، وفرنسا الأول ( ١٤٢٣ - ١٤٢٤ )

## أوريست \* صائمًا وينلاد \* سكران

وآخرًا شُنت الحملة على حجرة الدور الأول ، شنها نحو من عشرين حارِصاً - جنوداً ، وحرساً وطنياً ، وحرساً بلدياً - وتب بعضهم فوق أكاف بعض ، مستعينين به بكل السلم ، متوربين الجدران ، متعلقين بالسقف ، مقطعين آخر المقاومين إرباً إرباً ، متفرقين في هرج ومرج ، مشوّهاً أكثرهم يخرج في الوجه في هذا الصعود الرهيب ، مروعين أمامهم الدم وانقلبوا إلى وحش ضاربة . لم يكن ثمة ، الآن ، غير رجل واحد قائم على قدميه : آنجولراس . وإذا أعزوه الخرطوش ، واعزوه سيف يقاتل به ، فلم يبق في يده غير أنبوب بندقيته القصيرة الخفيفة التي كان قد كسر القسم الموج من خشبتها فوق رؤوس الداخلين . كان قد وضع مائدة البليارд بينه وبين المغرين . وكان قد ارتد إلى زاوية الغرفة ، وهناك ، بعين فخور ، ورأس شامخ ، وفي قبضته تلك الشظية من السلاح ، كان لا يزال رهياً إلى درجة تركت من حوله فسحة واسعة . وارتقت صبيحة :

- « هوذا الزعيم ! إنه هو الذي قتل المدفعي . وما دام قد وضع نفسه هناك فلا ريب في أنه مكان جيد . فليبق هناك . ولنطلق عليه الرصاص حيث هو . »

وقال آنجولراس :

- « اطلقوا النار علي ! »

\* ابن آغامون وكلينتر . وقد قتل أنه بالاتفاق مع أخيه أيلكتر أحداً يثار إليه ، ثم امسى ملكاً على آرغوس ولاسيديمون . وكانت تربطه به « ينلاد » Pilade مسافة لا تزال إلى اليوم مضرب المثل .

وطرح البقية الباقيه من بندقيته الخفيفه القصيرة ، وطوى ذراعيه .  
وفتح لهم صدره .

إن الجسارة التي تحمل صاحبها على ان يموت عزيزاً تحرك لوعي  
الرجال دائمآ . فما ان طوى آنجولراس ذراعيه ، مرتضياً النهاية ،  
حتى خفت هدير الصراع في الغرفة ، وهدأت الفوضى فجأة في ضرب  
من الخشوع القبرى . لقد بدا وكأن عظمة آنجولراس المتوعدة ،  
آنجلراس الأعزل الذي لا حراك فيه ، قد رزحت فوق ذلك الصخب .  
وبدا وكأن هذا الشاب الذي كان وحده خلواً من الجراح . بياً ،  
مدمى ، فاتناً ، لا مبالياً وكأنه ممتنع على الجراح - بدا وكأنه استطاع  
بسلطان عينه المادته وحده أن يُكره هذا الجمع المشؤوم على ان يقتله  
في احترام . إن جماله في تلك اللحظة ، وقد زادته كبراؤه روعة ،  
كان بهاء متألقاً . كان نصراً أزهر . وكأنما امتنع على التعب كما  
امتنع على الجرح . بعد الساعات الاربع والعشرين المروعة التي  
أوشكت ان تنقضي . ولعل ذلك الشاهد الذي تحدث بعد ذلك أيام  
المجلس الحربي كان يقصده حين قال : « كان هناك ثائر سمعتهم  
ينادونه أبولو . » وخفض احد رجال الحرس الوطني المسدد بندقيته إلى  
آنجلراس - خفض سلاحه قائلًا : « يدو لي اني اطلق النار  
على زهرة . »

وشكّل اثنا عشر رجلاً مفرزة في الزاوية المقابلة لآنجلراس ، وأعدوا  
بنادقهم في صمت .

وصاح رقب :

- « سددوا بنادقكم ! »

وندخل ضابط :

- « إنتظر ! »

ووجه الخطاب إلى آنجولراس فقال :

- « هل ت يريد ان تُعصب عيناك ؟ »

- « لا . »

- « هل صحيح أنك أنت الذي صرعت رقب المدفعية ؟ »

- « نعم . »

وكان غرانتير قد استفاق منذ بضع دقائق .

ويذكر القاريء ان غرانتير كان قد استسلم للرقاد منذ الليلة الماضية في العجرة العليا من الحانة ، وانه كان جالساً على كرسي ، مكمباً على وجهه فوق احدى الموائد .

لقد تمثلت فيه بكامل قوتها الصورة المجازية العتيقة : « سكران ميت ». كان الشراب الرهيب ، المؤلف من كحول وأفستين وستوت ، قد قذف به في سبات عميق . واذ كانت طاولته صغيرة لا حاجة للمتراس بها ، فقد تركوها له . وكان قد اقام على وضعه نفسه ، مطوي الصدر على الطاولة ، ملفى الرأس على ذراعيه . محاطاً بالكؤوس والأباريق والزجاجات . لقد نام ذلك النوم الملحق الذي نعرفه من الدب الذي أفرسه البرد ومن العلقة المتختمة . إن شيئاً ما لم يكن قادراً على التأثير فيه ، لا رصاص البنادق . ولا كرات المدافع ، ولا القذائف التي ورقت من خلال النافذة إلى الغرفة التي كان فيها . بل للقدر عجزت ضوضاء الهجوم العجيبة عن ان تؤثر فيه . بيد انه كان يستجيب في بعض الاحيان لدوى المدفع بشغرة . لقد بدا وكأنه ينتظر هناك أن تُقبل قذيفة فتكفيه موقنة الاستيقاظ . كانت عدة جثث منطرحة حوله . ولاول وهلة لم يكن ثمة ما يميزه عن نائمي الموت المستغرقين هؤلاء .

إن الضجة لا توقف السكران ، الصمت يوقفه . وهذه الفريدة قد لوحظت غير مرّة . كان سقوط الاشياء كلها ، من حول غرانتير . يضاعف تلاشيه . كان الدمار يهدده . وكان ذلك الضرب من التوقف الذي الم بالصخب أمام آنجولراس صدمة النوم العميق . لكانه عربة

منطلقة حُملت على الوقوف فجأة . إن النائمين ليفيقون من جراء ذلك .  
ونهض غرانتير مجفلا ، وبسط ذراعيه ، وفرك عينيه ، ونظر ، وتاءب ،  
وذهب .

ان الشَّمَل الذي ينتهي اشبه بستار ينزعق . انا نرى ، على نحو اجمالي  
وبنظرة واحدة ، كل ما كان محبوباً . ويتمثل كل شيء ، فجأة ، في  
الذاكرة . وما ان يفتح السكري عينيه - السكري الذي لم يعرف شيئاً ما  
جرى طوال اربع وعشرين ساعة . حتى يلم بكل ما حدث . إن  
أفكاره لتعاوده في جلاء مفاجئ . وان فناء الشَّمَل - وهو ضرب من  
البخار الذي يعمي الدماغ - ليتبدد ، وتخل محله انطباعات الواقع الواضحة  
الدققة .

واذ كان منعزلا في احدى الزوابا . وشبه ملتجي خلف مائدة البليارد ،  
فإن الجنود المصوبيين اعينهم إلى آنجولراس لم يكونوا قد لمحوه مجرد لمح ،  
وكان الرقيب يستعد لتكبير الامر : « سددوا بندقكم ! » عندما  
سمعوا فجأة صوتاً قوياً يصيح إلى جانبهم :  
— « فلتتحي الجمهورية ! أنا انتسب إليها . »  
كان غرانتير قد نهض .

لقد بدا وهج المعركة كلها . وهج المعركة التي فاتته والتي لم يشهدها ،  
في النظارات المومضة المنطلقة من عيني السكران المنقلب من حال إلى حال .  
وكرر : « فلتتحي الجمهورية ! » واحتاز الغرفة في خطى ثابتة ،  
ووقف امام البنادق إلى جانب آنجولراس .

وقال :

— « اقتلوا اثنين بطلقة واحدة . »  
والتفت إلى آنجولراس ، في رفق ، وقال له :  
— « هل تسمح بذلك ؟ »  
وضغط آنجولراس على يده في ابتسامة .

ولم تكد الابتسامة تنتهي حتى سمع دوي الانفجار .  
وظل آنجولراس ، بعد ان مرت مرتين رصاصات ، مستندًا إلى الجدار  
وكأن تلك الرصاصات قد سرتها هناك . كل ما في الأمر انه حتى رأسه .  
وصعق غرانتير ، وخر على قدميه .

وبعد بضع لحظات عمد الجنود إلى اخراج آخر المتمردين الذين كانوا قد اعتصموا في أعلى المترزل . لقد اطلقوا النار من خلال شباكه خشية إلى العلية . وتقاتلوا تحت سقف البناء الأعلى . وألقوا بالجثث من الترافلز ، وبعض اصحابها على قيد الحياة . وقتلت جنديان خفيفا السلاح - فيما كانوا يحاولان رفع العربة العمومية المحطمة - برصاصي بندقية قصيرة أطلقتا من الكوى . وطُرِحَ على أم رأسه رجل يرتدي دراعه ، بطعنة حربة في بطنه ، وانشأ بخشوج على الأرض . وانزلق جندي ومتمرد معًا فوق منحدر السطح المقرمز ، وأُبْرِي كل منهما ان يفلت الآخر . وسقطا ، وقد تعانقا عناقًا وحشياً . ودار صراع مماثل في القبو . صيحات ؛ طلقات نارية ؛ وطء اقدام ضار . ثم ساد الصمت . لقد استولوا على المتراس .

وشرع الجنود في تفتيش البيوت المجاورة ، وفي تعقب الماربين .

## ٣٤ في الأسر

كان ماريوس اسيراً في الواقع . اسيراً جان فالجان .  
كانت اليد التي امسكت به من خلاف لحظة سقط ، والتي انتشرت  
قبضتها وهو يفقد الوعي ، هي يد جان فالجان .  
ولم يقم جان فالجان بابعا دور في المعركة غير تعريض نفسه للخطر .

ولولاه ، في تلك المعركة الخامسة من لحظات الخشارة . لما فكر أحد بالبعضى . وبفضله ، وكان ماثلاً في كل مكان من المجزرة كالعشية الالهية ، تلقيفَ الذين سقطوا ، وحملوا إلى الجثرة السفل ، وُضِمِّنَت جراحاتهم . وفيها بين الفترة والفترة كان يرمي المتراس . ولكن أياماً يشبه ضربة ، أو هجمة ، بل وحتى دفاعاً شخصياً . لم ينطلق من يديه . كان معتصماً بالصمت . وكان يسدي يد العون . وفوق هذا ، فلم يُصب بغير خدوش طفيفة . كانت الرصاصات ترحب عنه . وإذا كان الانتحار جزءاً مما خطر له حين وفدي إلى ذلك القبر فقد اخْفَقَ من هذه الناحية . ولكننا نشك في أنه فكر بالانتحار ، وهو عمل مغاير للدين .

ولم يهد جان فالجان ، في سحابة الصراع الكثيفة ، وكأنه رأى ماريوس ؟ ولكن الواقع أنه لم يرفع عينيه عنه . حتى إذا طوَّج ماريوس طلق ناري ، وثبت جان فالجان برشاقة نمر ، وانقض عليه كما ينقض وحش على فريسة ، وحمله إلى بعيد .

كانت زوبعة الهجوم قد تركت في تلك اللحظة تركراً ضارياً حول آنجولراس وباب المخانة حتى لقد غفل القوم جميعاً عن رؤية جان فالجان يختاز حقل المتراس غير المعد ، حاملاً ماريوس الفاقد رشه بين ذراعيه ، ويختفي خلف زاوية بيت كورنث .

ويذكر القراء أن هذه الزاوية كانت ضرباً من الرأس الجغرافي في الشارع . لقد حمت من الرصاص والقذائف المدفعية ، ومن النظر أيضاً، بضعة أقدام مربعة من الأرض . وهكذا فإن في المخانق ، بعض الأحيان، فسحة تختبئ على التيران ، وإن في أشد البحار ضراوة ، خلف أحد الرؤوس أو عند نهاية درب من دروب الصخور غير النافذة ، زاوية صغيرة هادئة . وفي هذا الضرب من مطاوي المربع المنحرف الداخلي من المتراس توفيت ايونين .

هناك وقف جان فالجان . لقد ترك ماريوس ينزلق إلى الأرض ، واستند ظهره إلى الجدار ، وأجال بصره في ما حوله .  
كان الوضع رهياً .

وطوال لحظة ، أو ربما طوال دقيقتين أو ثلاثة ، كانت شقة الخائط تلك ملحاً وملذاً . ولكن كيف السبيل إلى التجاة من هذه المجزرة ؟ لقد ذكر الألم النفسي المبرير الذي ألم به في شارع بولونسو ، قبل ثمانية سنوات ، وكيف وُقِّع إلى القرار . كان ذلك عسراً آنذاك ، أما اليوم فقد كان متعدراً . فأمامه كان ذلك المترن المحفود الأصم ذو الطوابق السبعة ، والذي بدا غير آهل إلا بذلك الرجل الميت المنحني على نافذته . وإلى يمينه ، كان المتراس المنخفض الذي سد شارع الد « بيتست تروواندري » . لقد بدا اجتياز هذه العقبة يسيراً ، ولكن كان في ميسور المرء أن يرى فوق قمة الجدار صفاً من رؤوس الحراب . كانت سرية من الجندي متمركزة خلف ذلك المتراس ، متوصدة . وكان واضحاً أن اجتياز المتراس معناه التعرض لنيران مفرزة من الجندي ، وأن كل رئيس فد يغامر في الارتفاع فوق أعلى الجدار المشيد من حجارة الارصنة سوف يكون هدفاً لستين بندقية . وإلى يساره ، كان ميدان المعركة . كان الموت خلف زاوية الجدار .  
ما الذي ينبغي أن يفعله ؟

كان في ميسور العصفور وحده ان يفلت من هناك .  
وكان عليه ان يقرر في الحال ، وان يجد وسيلة ما ، وان يتخذ موقفاً . كانوا يتقاتلون على بعض خطوات منه . ولحسن الطالع ، كان الجميع متocomين التحاماً ضارباً عند نقطة واحدة : باب الحانة . ولكن لو خطر لجندي ما ، جندي واحد ، ان يستدير حول المترن ، أو ان يهاجمه على نحو جانبي ، اذن لاتهى كل شيء .  
ونظر جان فالجان إلى المترن المواجه له ، ونظر إلى المتراس القائم

إلى جانبه ، ثم نظر إلى الأرض ، في عنف الشدة الخامسة ، وفي يأس ، وકأنما كان يريد أن يحدث فيها ، بعينيه ، ثقباً .

وتحت هذه النظرة الموصولة تمثل شيء ملحوظ على نحو غامض في ألم الاحتضار ذاك ، وتشكل عند قدميه وكان ثمة قوة في العين قادرة على إنشاء الشيء المطلوب . وعلى بعض خطوات منه ، عند ادنى الجدار الصغير المراقب والمحروس من الخارج على نحو لا يعرف الشفقة ، وتحت بعض حجارة الارصفة المتهارة التي كانت تتجهه جزئياً ، لمح شبكة حديدية منطرحة على الأرض . وكانت مساحة هذه الشبكة ، المصنوعة من قضبان حديدية قوية مستعرضة ، تبلغ نحواً من قدمين مربعين . كان الأطار الحجري المحيط بها متزوعاً من مكانه ، وكماناً قد اقتلع . ومن خلال القضبان كان في ميسور المرء ان يلمع فتحة غامضة ، شيئاً مثل أنبوب مدخنة ، أو اسطوانة صهريج . ووثب جان فالجان إلى أمام . وصعد علم الهروب القديم إلى دماغه مثل ومض البرق . ونزع الحجارة ، ورفع الشبكة الحديدية ، وحمل ماريوس – الذي كان هاماً مثل جثة باردة – على منكبيه ، وهبط – وذلك العمل على ظهره – مستعيناً بعرفقه وركبتيه إلى ذلك الضرب من البشر ، غير العميق لحسن الحظ ، وترك ذلك الباب الآسر القوي الذي رُدت الحجارة فوقه إلى مكانها ككرة أخرى – تركه يسقط على رأسه ، ووجد موطئ قدم فوق سطح مبلط يقع على عمق عشرة أقدام تحت الأرض . وإنما تم ذلك كله ، كما تم الأشياء في المذيان ، بقوة عملاق وسرعة نسر . لقد اقتضى بعض لحظات ليس غير .

ووجد جان فالجان نفسه ، وماريوس ما يزال غائباً عن الوعي ، في شبه مجاز نفقي طويل .

وهناك كان أمن عميق . وصمت مطلق ، وليل . وعاوده مثل الشعور الذي ألم به من قبل يوم هبط من الشارع إلى

الدبر . إلا أن ماسا كان يحمل الآن لم يكن كوزيت<sup>١</sup> ، ولكن ماريون .  
وأمى الآن يسمع فرقه ، مثل همس غامض - وما يكاد - صخب  
الحادة الرهيب وقد افتحمها الجند .



الكتاب الثاني

مُصران لوياثان \*



## الارض وقد أفقرها البحر

كل سنة تندف باريس بخمسة وعشرين مليوناً إلى البحر . وهذا من غير لجوء إلى المجاز . كيف ، وبأية طريقة ؟ ليلاً ونهاراً . لأي غرض ؟ لغير ما غرض . بأية فكرة ؟ من غير تفكير البة . مقابل ماذما ؟ لا شيء . من طريق أي عضو ؟ من طريق معينها . وما معينها ؟ بالوعتها .

---

\* لوياثان *Léviathan* هولة ورد ذكره في التوراة ، في سفر ايوب ، ومن ثم أصبح خلماً على كل شيء هائل رامب .

خمسة ملايين هو أكثر الارقام التقريرية اعتدالاً ، وفقاً لتقديرات العلم الخاص .

فالعلم يعرف اليوم ، بعد طول التجربة ، أن أكثر الأسمدة إخصاباً وفعالية سعادٌ الإنسان . لقد عرف الصينيون ذلك - وينبغي أن نقولها ، ويَا لعَارُونَا - قبلنا نحن . ويخبرنا أيكبيرغ أن الفلاح الصيني لا يذهب البتة إلى المدينة من غير أن ينقلب ناقلاً ، عند طرفي عمود البوص الهندي الذي يحمله ، دلوين ملبيين بما ندعوه الغائط . وبفضل التسмيد البشري لا تزال الأرض في الصين فتية كما كانت في أيام ابراهيم . والقمح الصيني يصل مئة وعشرين ضعفاً . وليس ثمة ذرق يوازي في الخصب نهاية العاصمة . إن المدينة الكبيرة هي أقوى الحشرات التي تعيش وسط الغائط . واصطدام المدينة لانصباب السهل خليق به أن يقترن بالنجاح الأكيد . وإذا كان ذهبنا روثاً ، فإن روثنا هو ، بالمقابلة ، ذهب . ما الذي يُصنع بهذا الروث الذهب ؟ إنه يُحرف إلى الهاوية .

إننا نوجه ، متحملين أعظم التفقات ، قوافل من السفن لكي يجتمع من القطب الجنوبي ذرق النورس والبطريق ، على حين ينكشف إلى البحر بعنصر التروء الجسيم الذي في متناولنا . ولو أن جميع الزبل البشري والحيواني الذي يخسره العالم قد أعيد إلى الأرض بدلاً من ان يلقى به في الماء اذن لسكان كافياً لغذية العالم .

هذه الاكواام من الاقتدار عند زوايا العالم ، وهذه العجلات المحمولة بالوحل الراجحة خلال الشوارع في موهن من الليل ، وهذه العربات الرهيبة المخصصة لاقتدار البلدة ، وهذه السيول الطينية النتنة المجرية تحت الأرض والتي تحجبها حصبة الطريق عنك ، أتدري ما هي كلها ؟ إنها المرج المنور ؛ إنها العشب المخصوص ؛ إنها النمام والص嗣 والمريمية ؛ إنها الطرائد ؛ إنها الماشية ؛ إنها الخوار الرضي تطلقه الثيران الضخام عند

---

\* النورس Pétrel والبطريق Pingouin طائران .

الماء ؛ إنها الصائرة العطرة ؛ إنها القمع المنهّب ؛ إنها الخبز على مائدتك ؛ إنها الدم الحار في عروقك ؛ إنها الصحة ؛ إنها البهجة ؛ إنها الحياة . كذلك شاءت تلك الخلية الخفية التي هي تحول على سطح الأرض ، وتحل في السماء .

ضع هذا في البوقة الكبيرة . إن خصبك سوف ينبعق من هناك فغداة السهول يولف قوت الناس .

إن لك القدرة على ان تطرح هذه الثروة ، وان تجذبني فضلا عن ذلك سخيفاً . وعندئذ تكون قد بلغت اوج جهالتك .

تظهر الاحصاءات ان فرنسة وحدتها تقدر بنصف مليار كل عام ، من خلال أفواه أنهارها ، في المحيط الاطلنطي . انتبه إلى هذا : خمسة مليون نستطيع ان ندفع ربع نفقات الحكومة . والانسان من البراعمة بحيث يفضل ان يلقى بهذه الملابس الخمسة في الساقية . إن مادة الناس نفسها هي التي تُعرف ، نقطة هنا ، وسيولا سيولا هناك ، من خلال تقيؤ بوايعنا البائس إلى الانهار ، وتقيؤ أنهارنا الضخم في المحيط . إن كل شهقة من بوايعنا تكشفنا الف فرنك . ولهذا نتراجعتان : إفقار الأرض ، وتلوث الماء . الجوع طالعاً من الثلم ، والمرض منبعاً من النهر .

ومن الشهور . مثلا ، ان نهر التيمس يسمم ، في هذه الساعة ، مدينة لندن .

أما في باريس ، فقد تعين على السلطة . في هذه السنوات الاخيرة ، ان تنقل معظم مصاب باليوسف إلى سافلة النهر تحت الجسر الآخر .

إن جهازاً أنبوبياً مزدوجاً ، مزوداً بالصمامات والمنافذ ، يستقبل ويرد ، جهازاً تصريفياً ، بسيطاً كرتني الانسان ، منتشرأ حالياً في كثير من قرى انكلترة ، خلائق به ان يكفي لنقل مياه الحقول الناقبة إلى مدننا وللأعادة

مياه المدن الغنية إلى حقولنا . وهذا التحرك اليسير ذهاباً وإياباً ، الأكثر ساطة في العالم ، قادر على أن يعيد إلى حوزتنا الملايين الخمسة المطرحة .  
إننا نفكر في شيء آخر

إن الأسلوب الحالي يؤدي من حيث يحاول أن يفيد . القصد جيد ، ولكن النتيجة تامة . إن الناس يحسبون أنهم يطهرون المدينة ، فماذا بهم يُسمون السكان . البالوعة سوء فهم . وحين يستطيع جهاز التصريف في كل مكان ، عهتمته المزدوجة ، بحيث يعيد ما يأخذ ، أن محل محل بالالوعة - ذلك الغسل البسيط المفتر - فعندئذ ، وبالاشراك مع معطيات اقتصاد اجتماعي جديد ، يزداد نتاج الأرض عشرة أضعاف ، وتخفف وطأة مشكلة الشقاء على نحو فريد . أضف قطع دابر التغفل ؛ إن مشكلته سوف تحل .

وفي غضون ذلك تتدفع الترورة العامة إلى النهر ، ويستمر السيلان . السيلان هي الكلمة . إن أوروبا تدمي نفسها على هذا النحو من طريق الاستتراف .

أما فرنسة فقد اشرنا منذ لحظة إلى الرقم الذي تخسره . والآن ، ولما كانت باريس تضم جزءاً من خمسة وعشرين من مجموع السكان الفرنسيين ، ولما كان الروث الباريسي أغلى أنواع الروث ، فلستنا نعلو الصواب حين نقلل بخمسة وعشرين مليوناً نصيب باريس من خسارة نصف المليار التي تطرحها فرنسة سنوياً . ولو قد انفقت هذه الملايين الخمسة والعشرون على الغوث والإباج اذن لضاعت بهام باريس . إن المدينة تهدّرها في البوالىع . بحيث نستطيع ان نقول ان إسراف باريس العظيم ، وعيدها الرائع ، وحماقتها البوجونية ، وافراطها في الأكل والسكر ، وسيول الذهب المتداقة من راحتها المسوطتين ، وأبيتها ، وبنختها ، وسخاعها البالغ -

---

\* نسبة إلى بوجون Beaujon وهو مالي فرنسي خلع اسمه على أحد أحياه باريس ( ١٧٠٨ - ١٧٨٦ )

كل ذلك هو بالوعتها .

وهكذا ، بعمى اقتصاد سياسي فاسد ، تفرق رفاهية الجميع وتجهز للجة ان تتبعها فتغيب في الاعماق . ينبغي ان تكون هناك شباك من سان كلو للرخاء العام واقتصادياً ، يمكن اختصار هذه الواقعة على النحو التالي : باريس سلة مثقوبة .

إن باريس ، تلك المدينة النموذجية ، ذلك المثال للعواصم الراقية الذي يحاول كل شعب ان يفوز بنسخة عنه ، حاضرة المثل الاعلى تلك ، ذلك الوطن الفعيم للمبادرة والاخت والتجربة ، ذلك المركز والملاذ للعقل ، تلك المدينة الأمة ، خلية المستقبل تلك ، ذلك المركب العجيب من بابل وكورنث ، إن باريس هذه لخليق بها ، من وجهة النظر التي أشرنا إليها اللحظة ، أن تحمل فلاحاً من « فو - كيان » على ان يهز كتفيه .  
قلد باريس ، تُلتف نفسك .

ولى هذا ، وبخاصة في ذلك الاسراف العريق العاطل ، تعمد باريس نفسها إلى التقليد .

وهذه الحماقات المذهلة ليست جديدة . فليس ثمة بلاهة غضة في هذا . لقد تصرف القدماء تصرف المحدثين . يقول ليبيس : « كانت يواليع روما تتصف كاملاً برفاهية الفلاح الروماني » . وحين دمرت البالوعة الرومانية السهل المنخفض المحيط بروما أنهكت روما ايطالية ، وحين وضعت ايطالية في بالوعتها ، عادت فافرغت فيها صقلية ، ثم سردينية ، ثم إفريقية . إن بالوعة روما قد ابتلعت العالم . لقد خلعت هذه البالوعة شراحتها على المدينة وعلى الكرة الارضية . \* *Urbi et orbi* مدينة خالدة . بالوعة لا قرار لها وفي هذه الاشياء ، شأنها في أشياء اخرى . تعتبر روما قدوة .

\* كلمتان لاتينيتان تعنيان المدينة والكون .

وهذه القلعة تقتدي باريس بها ، بكل البلاهة التي تميز بها المدن العبرية .

ولضرورات العملية التي شرحتها اللحظة تقوم تحت باريس باريس آخر . باريس باليع ، لها شوارعها ، ومقارتها ، وساحتها ، ودروبها غير النافذة ، وشرايينها ، وحركة مواصلاتها . باريس باليع هي وحل ولكن يقصه الشكل الانساني .

ذلك بأن علينا ان لا نتعلق احداً ، حتى ولو كان شعباً عظيماً . وحيث يوجد كل شيء نقع على الخزي إلى جانب الرفة . واذا كانت باريس تتطوّي على اثينا مدينة الضياء ، وصور مدينة القوة ، واسبارطة مدينة الفضيلة ، وينوى مدينة الاعجوبة ، فانها تتطوّي ايضاً على « لوتيس » = مدينة الوحل .

وفوق هذا فأن خاتم قوتها هناك ايضاً ، وماخور باريس العملاق يحقق ، بين البدائع الاخرى ، ذلك المثل الاعلى العجيب الذي تتحققه الانسانية من طريق رجال من مثل ميكافيلي ، وبيكون ، وميرابو : عظمة الحقارة .

إن باريس التي تحت الارض ، إذا استطاعت العين ان تخترق السطح ، لأشهب شيء بعرق لولو هائل . وليس في الاسفنجية ثقوب ومعابر اكبر مما في مَدَرَّة يبلغ مدارها ستة فراسخ تقوم عليها المدينة العظيمة العتيقة . وبصرف النظر عن الدياميس ، التي يفصل ما بين كل منها كهف ، وبصرف النظر عن شبكات انباب الغساز المعقّدة ، ومن غير ان نذكر الجهاز الأنبوبي الهائل الذي يوزع مياه الينابيع والذي يتنهى إلى الصنابير الرئيسية ، فان الباليع وحدها تشكل شبكة اعجوبية داكنة تحت الصفتين . تيه مفاتحة المحداره .

هناك يُرى ، في العتمة الرطبة . الجزء ، الذي يبدو وكأنه ثمرة محاض باريس .

---

\* Lutèce اسم باريس القديم .

## تاريخ البالوعة القديم

تخيلْ باريسَ وقد رُفعت مثل غطاءِ . وعندئذ تتمثلُ شبكة البواليع تحت الأرضية ، منظوراً إليها نظرة طائر ، عند كل من الضفتين ، شبه غصن ضخم مطعماً على النهر . ففي الضفة اليمنى تكون « **البالوعة المطرقة** » جذع هذا الغصن ، والمجاريثانوية أفنانه ، والدروب غير النافذة عساليجه .

وهذه الصورة ليست غير صورة عامة ونصف مضبوطة ، لأن الزاوية القائمة ، المألوفة عادة في مثل هذه الشبكات تحت الأرضية ، نادرة جداً في النبات .

ولسوف نشكل صورة أكثر شبهاً بهذا المخطط الهندسي ، بأن نفترض إننا نرى ، منشورةً على خلفية من الظلام . بعضَ امجديات الشرق العجيبة مشوشاً مثل خليط ما ، وقد اتصلت بعض حروفها الشائهة ببعضها الآخر كيما اتفق ، ظاهرياً . وكأنما بفعل المصادفة ليس غير ، من زواياها حيناً ومن اطرافها القصوى حيناً آخر .

لقد لعبت الموارير والبواليع دوراً هاماً في القرون الوسطى ، وفي الإمبراطورية البيزنطية والشرق القديم . فيها ولد الطاعون ، وفيها مات الطغاة . وكانت الجماهير تنظر في رعب يكاد يكون تقريباً إلى سرور التن هذه ، مهود الموت الرهيبة . إن جب قمل بيناريس \* ليس أقل إدهالاً من جب أسود بابل . ووقفتا للكتب التلمودية فإن تغلث فلاسر قد أقسم عاخور نينوى . ومن بالوعة مونستر أطلع جان اليدنني \*\* قمره

\* Benarès مدينة على نهر الفانج مقدمة عند الهندوس .

\*\* Jean de Leyde زعيم القائلين بتجديد العهد في مونستر ، أحلى مدن بروسيا ، وقد قُتل أثناء حملة التهذيب الرهيبة التي جرت عام ١٥٣٦

الكاذب ، ومن جب — بالوعة في بلدة كش<sup>\*</sup> أطلع شبيه الشرقي « المقنع »  
نبي خراسان المحجوب ، شمسه الزائفه .

إن تاريخ الناس ينعكس في تاريخ البواليع . ومعرض جثت المذنبين  
يروي قصة روما . وإنما كانت بالوعة باريس شيئاً فطرياً في الزمن  
الماضي . كانت قبراً ، وكانت ملجاً . ففي هذا الثقب اختبات الجريمة ،  
والذكاء ، والاحتجاج الاجتماعي . وحرية المعتقد ، والتفكير ،  
واللصوصية ، وكل ما تلاهقه القرابين الإنسانية أو قد لاحقته :  
فالمطرقيون<sup>\*\*</sup> في القرن الرابع عشر ، والنشالون المتجلولون ليلاً في  
القرن الخامس عشر ، والموغونوت<sup>\*\*\*</sup> في القرن السادس عشر ،  
ومستيريو موادين في القرن السابع عشر ، والوقادون في القرن الثامن عشر .  
ومنذ مئة سنة كانت طعنة الخنجر الليلية تنبثق من هناك ، وكان النشال  
الذى يلم به الخطير يتزلق إلى هناك . كان للغاية كهفها ، وكان لباريس  
بالوعتها . وكان التشد ، ذلك البيكاريريا الغالي<sup>\*\*\*\*</sup> ، يرتضي بالوعة شعبة  
من « ساحة المجزات » ، فكانوا يأوون في موهن من الليل ،  
ماكرين شرين ، إلى مخرج موبوويه وكأنهم يأوون إلى مخدع .

وكان طبيعياً جداً أن الذين يعملون نهاراً في زقاق « فيد غوسيه »  
غير النافذ ، أو شارع « كوب غورج » ، ان يتخذوا مقامهم الليلي في  
جسر « الطريق الأخضر » أو قناة « هوربوا » . ومن هنا جمهرة من  
الذكريات . ان مختلف ضروب الاشباح لتألف هذه الأروقة الطويلة  
المتعلقة<sup>\*\*\*\*\*</sup> ، والعفن والاخنة الوبية في كل مكان . وهنها وهنها تجد منفذأً

\* اسم اطلق على الباريسين المترددين في مهد شارل السادس ، وقد دعوا  
ذلك بسبب من المطارق المتشبة *Maillets* التي اخلوها من صنع السلاح عام ١٣٨١  
\*\* بروتستان فرنسة .

\*\*\* هي من احياء باريس القديمة ، وكان ملجاً للشاذين والمترددين في القرفة  
الوسطى .

يتكلّم فيون من داخله إلى رابليه في خارجه :

إن البالوعة ، في باريس القديمة ، هي ملتقى جميع القنوات وجميع التجارب . إن الاقتصاد السياسي يرى فيها نهاية ، وإن الفلسفة الاجتماعية ترى فيها ثُفلاً :

البالغة ضمير المدينة . إن الأشياء كلها تتجه إليها ، وتنقابل فيها ؛ في ذلك الوطن المكفر ظلمات ، ولكن ليس فيه أسرار . إن لكل شيء شكله الحقيقي ، أو على الأقل شكله الحاسم . فمن حسنان ركام الزبالة أنه ليس كذلك . لقد التجأت الصراحة إليه . إننا نجد ثمة قناع ببسيل ، ولكننا نستطيع أن نرى الورق المقوى ، والخيوط ، والباطن والظاهر ، وإن وحلا أميناً ليوكده . إن أنف سكانين .. على مقربة منه . وجميع قدرات الحضارة تقع ، حالما يستغنى عنها ، في حفرة الحق هذه ، حيث يوضع حد للانزلاق الاجتماعي المائل . إنها تُبتلع ، ولكنها تتجلى هناك . وهذا الاختلاط هو اعتراف . فهمنا تendum المظاهر الكاذبة ، ويتغير كل تجصيص ، ويخلع القدر قميصه ؛ عري مطلق ، وإنزام للأوهام وضروب السراب ؛ لا شيء غير ما هو كائن ، متخدناً صورة الشيء الآفل الكالحة . الحقيقة والزوال . هنا ، يعرف قعر الزجاجة بالمسκر ، وتروي يد السلة قصة الحياة المتزللة . هنا ، يعود قلب التفاحة الذي كانت له آراء أدبية قلب تفاحة من جديد ، وتتغطى الصورة التي على الـ «سو» الكبير بالزجاج على نحو صريح ، وتلتقي بصقة قيافا ... في فالستاف .... ، وتصدم اللرة اللويسيّة الذهبيّة

\* بطل «حلاق أشبيلية» *Barbier de Séville* ، كوميدية بومارشيه الشهيرة ، وهو يعتبر  
مثال المرأة المتصف بالملائفة والمرس على المال .

٥٠ Scapin أحد ابطال موليير وهو مثال الخادم المخادع ، الخبيث ، الماكر .

Caliph \*\*\* الكاهن اليهودي الذي حكم بالموت على يسوع المسيح .

..... اعلى شخصيات شكيه ، وهو يمثل الرجل الداعر الواقع .

الخارجية من نادي القمار المسمار الذي يتللى منه جبل الانتحار القصدير ، ويتدحرج جنباً ازرق ضارب إلى السواد مغلفاً بالترتر البراق الذي رقص في الاولى يوم ثلاثة المرفع الاخير ، وتمرغ فلسفة حاكمت الناس إلى جانب ثانية كانت تنورة لمارغوتون . إنه أكثر من إخاء ؛ إنه غاية الغايات في الألفة والود . إن كل ما ترجم يتسع . إن الحجاب الاخير ليُسترع . البالوعة بذريعة . إنها تروي كل شيء .

ان أمانة القذارة هذه لترضينا ، وإنها لتوقع الطمأنينة في النفس ٥ فحين يقضى الإنسان أيامه على الأرض في احتفال سيفاً التظاهر والتتكلف التي تقتضيها ضرورات الحكم ، والقسم ، والحكمة السياسية ، والعدالة الإنسانية ، والتزاهة المهنية ، وحراجة الموقف ، والاثواب التي لا سبيل إلى إصلاحها ، يكون من العزاء له ان يدخل إلى بالوعة ، ويرى الوحل الذي يلامها .

إنها لتلقى درساً في الوقت نفسه . فالتأريخ ، كما قلنا اللحظة ، يمر من خلال البالوعة . إن المذايحة الشبيهة بعنجهة القديس بارتليماوس ترشح هناك ، قطرة ، عبر حجارة الارضفة . والاغتيالات العمومية الكبرى ، والمجازر السياسية والوطنية تجتاز قبو الحضارة هذا ، وتدفع صراعها إليه هناك يتبدى لعين الفكر جميع القتلة التاريخيين راكعين في الظلمة الرهيبة ، وقد اخذوا من اكفانهم مآزر لهم وراحوا ينطفون فعلاً لهم على نحوِ حدادي . ان لويس الحادي عشر ليقيم هناك معه تريستان ٦ ؛ وان فرنسوا الأول ليقيم هناك مع دوبراء ٧ ؛ وان شارل التاسع هناك مع أمه ٨ ؛ وان ريشيليو هناك مع لويس الثالث عشر ٩ ؛ إن

• Tristan كبير مارشالات فرنسة في عهد شارل الثامن ولويس الحادي عشر .

• Duprat القاضي الكبير في فرنسة أيام الملك فرنسوا الأول . كان كرديتالا ، وقد عقد كونكوردا بولونيا (١٥١٦) بين فرنسوا الأول وبالبابا ليوبولو العاشر .

لوفوا \* هناك ؛ وان لوتوليه \*\* وهبيه \*\*\* ومايار \*\*\*\* هناك ، يكتسرون الحجارة وحاولون ان يمحوا آثار أعمالهم . وتحت هذه الاقية نسمع مكنسة هذه الاشباح . انا نستروح هناك ثناة الكوارث الاجتماعية المائلة . انا نرى انعكاسات ضاربة إلى الحمرة في الزوايا . هناك تجري مياه فظيعة غسلت فيها أيد دامية .

إن على المراقب الاجتماعي ان يدخل هذه الظلال . إنها جزء من مختبره . الفلسفة مجهر الفكر . كل شيء يرحب في الفرار منها ، ولكن شيئاً لن يفلت من بين ايديها . إن التردد غير مجد . اي وجه من وجوه شخصيتك تجلوه بالتردد ؟ الوجه الشائن . إن الفلسفة تتعقب الشر بانتظارها التزيمة ، ولا تجيز له ان يتزلق إلى العدم . ففي انحاء الاشياء التي تخفي ، وفي صغر الاشياء التي تتلاشى تدرك كل شيء . إنها تعيد انشاء الارجون من الخرق ، والمرأة من المزقة . وبالبواقي تعيد تكوين المدينة ، وبالوحش تعيد تكوين عاداتها . إنها تستخرج من الكسرة القارورة أو الابريق . إنها تدرك من أثر قلامة الظفر على رق من الرقوق الفرق ما بين الحسي اليهودي « الجودنفام » والحسي اليهودي « الغيتو » . إنها تجد في الذي تبقى ما كان : الخبر ، والشر ، والباطل ، والحق ، ولطخة الدم في القصر ، وبقعة الخبر في القبو ، ونقطة الشحم في الماخور ، والتجارب

\* رجل دولة فرنسي ، اعاد تنظيم قوات الملك لويس الرابع عشر Louvois ( ١٦٣٩ - ١٦٩١ ) .

\*\* رجل دولة فرنسي ، والد لوفوا المذكور في الماشية السابقة ، وقد ساعد حل إبطال بrama نانت ( ١٦٠٣ - ١٦٨٥ ) .

\*\*\* سياسي وصحفي فرنسي وافق على مذابح ايلول وكان له في مجلسي كومون باريس نفوذ طاغ ، وقد مات على المفصلة مع عدد من رفاقه « الهايريين » ( ١٧٥٧ - ١٧٩٤ ) .

\*\*\*\* ثوري فرنسي ، حاول ان يخفف من وطأة مذابح ايلول Maillard ( ١٧٦٢ - ١٧٩٤ ) .

المتحمّة ، والاغراءات المرحب بها ، والتّحّمّ المتّقّيّة ، والتجاعيد التي تلقتها الشخصيات باتّضاع ، واثر البغاء في نفوس جعلتها خشونتها الخاصة قادرة عليه ، وتجد على صُدرات حمالي روما سمة مرفق ميسالينا \*

### ٣

#### برونيسيو

كانت بالوعة باريس ، في القرون الوسطى ، اسطورية . وفي القرن السادس عشر حاول هنري الثاني القيام بعملية سر ما لبست ان اخفقت . ومنذ أقل من مثي عام ، بشهادة ميرسييه \*\* ، تركت وشأنها ، فاصبحت ما كان في ميسورها أن تصبحه .

كذلك كانت باريس القدعة ، المسلمة إلى المنازعات ، والتردد ، والتحسّن في الظلام . لقد انفتحت في الحماقة دهرًا طويلاً . وبعد ذلك اظهرت سنة ١٨٩ \*\*\* كيف يلم الذكاء بالمدن . أما في الايام الخالية الصالحة فقد كان للعاصمة رئيس صغير ، كانت لا تستطيع ان تدبر شؤونها لا معنويًا ولا ماديًا ، ولم تكن تحسن كنس اقدارها إلا بمقدار ما تحسن ازالة عاداتها السيئة . كان كل شيء عقبة ، وكان كل شيء يثير مشكلة . كانت بالوعة ، مثلاً ، متربدة على كل دليل خاص بالسفر أو السياحة . كان الناس عاجزين عن أن يعرفوا وجهتهم في طرقها كما عجزوا عن ان يفهموا انفسهم في المدينة . الم لهم ، فوق . والمعقد ، تحت . وتحت

\* مسالين Messaline اول زوجات الامبراطور الروماني كلود الاول ، وكانت منسقة في الفسق والتعجر .

\*\* اديب فرنسي ( ١٧٤٠ - ١٨١٤ ) Mercier

\*\*\* يقصد سنة ١٧٨٩ ، عام الثورة الفرنسية .

اختلاط الالسن كان اختلاط الاقيية . إن « ديدال » . فقد  
بطن بابل .

وفي بعض الأحيان كان يخترق للبالغة باريس ان تفيف ، فكان  
هذا «الليل» المجنوح فضله قد استبد به الغضب فجأة . كانت ثمة  
ـ وهو شيء فاضح ـ فيضانات بالوعة . بين الفينة والفينية كانت معدة  
الحضارة هذه تهضم على نحو شيء ، فتفيف البواليع مرتدة إلى حنجرة  
المدينة ، وتتدفق باريس خلفاً ، وحلها . وهذه المشابه بين البالوعة  
ووخر الضمير كانت لها حسناها . كانت ضرباً من التحذير ، ولكنها  
لم تكن تستقبل إلا اسوأ استقبال . كانت المدينة تسخط إذ ترى إلى  
وحلها وقد تكشف عن هذه الجراعة كلها ، ولم تكن ترتضي عودة  
الاقدار ، اطردوها على نحو افضل ـ

إن ذكرى فيضان ١٨٠٢ لا تزال ماثلة في اذهان الباريسين الذين  
بلغوا الشهرين . لقد انتشر الوحل على شكل صليب في « ساحة  
الانتصارات » حيث يقوم تمثال لويس الرابع عشر . ودخل إلى شارع  
« سان هونوريه » من مصبّي بالوعة الـ « شان زيليزيه » ، وإلى شارع  
« سان فلورتين » من بالوعة « سان فلورتين » ، وشارع « بير  
آبواسون » من بالوعة الـ « سونيري » ، وشارع « بوينكور » من  
بالوعة « الطريق الأخضر » ، وشارع الـ « روكيت » من بالوعة شارع  
الـ « لاب » . لقد غطى قناة شارع الـ « شان زيليزيه » حتى ارتفاع  
خمسة وثلاثين سنتيمتراً . وفي الجنوب ، بواسطة خرج الـ « بين » ،  
المؤدي مهمته بطريق معكوسة ، تفدى إلى شارع « مازارين » ، وشارع  
« ايشيديه » ، وشارع الـ « مارييه » ، حيث وقف بعد أن بلغ امتداده

\* مهار يوئاني أقام تي كريت الذي ترجم الاسطورة ان المينتور ( الكائن المفارق الذي نصفه انسان ونصفه ثور) قد حُبس فيه .

• التلف ، بضم النون ، آخر طَّعْمَ الطعام ( arrière — goût )

مئة وتسعة مترات ، على بعض خطوات بالضبط من المتر الـ الذي كان  
 راسين يسكنه ، محترماً — في القرن السابع عشر — الشاعر أكثر من  
 الملك . ولقد بلغ عمقه الأعظم في شارع سان بيير حيث ارتفع ثلاثة  
 أقدام فوق بلاطات الميزاب ، وبلغ امتداده الأقصى في شارع « سان  
 سابين » ، حيث انتشر على رقعة طوها مئتان وثمانية وثلاثون متراً .  
 وفي مطلع هذا القرن ، كانت باللوحة باريس لا تزال موطنًا خفياً .  
 ان الوحل لا يمكن ان يكون حسن الصيت ، ولكن سوء السمعة انتهى  
 هنا إلى حد الروع . لقد ادركت باريس ، ادراكاً غامضاً ، أن تختها  
 كهفاً فظيعاً . ولقد تحدث الناس عنه كما يتحدثون عن مستنقع ثيبة  
 الريب حيث احتشدت حُرُشٌ طول الواحدة منها خمسة عشر قدماً ،  
 والذي كان جديراً به ان يكون مفطساً لـ « بيموت » . . . إن أحذية  
 رجال البواليع الضخمة لم تغامر قط في الذهاب إلى أبعد من نقاط معينة .  
 كان الناس لا يزلون قريبي عهد بذلك العصر الذي كانت عربات رافعي  
 الوحل — حيث تآخى على قمتها سانت فوا مع المركزيز كريكيي —  
 تفرّغ فيه بكل بساطة في باللوحة . أما مهمة التنظيف فكان يُعهد بها  
 إلى سبول المطر التي كانت تعيق أكثر مما تحرّف . وتركت رومه ، مع  
 ذلك ، شيئاً من الشعر لبواليعها ، فخلعت عليها اسم « جيموني » . . .  
 أما باريس فأهانت بواليعها فدعتها « الثقب النتن » . وكان العلم والخرافة  
 على اتفاق من حيث الرعب . فلم يكن « الثقب النتن » ينافق علم  
 الصحة بأكثر مما ينافق الخرافة . كان « الراهب الشكس » تحت  
 قوس « بالوحة موفtar » الآسن ، وكانت جثث الـ « مارموزيه » . . .

• مفرداتها حريش ، وهي ام اربعة واربعين .

• Béhémoth حيوان ذكر في التوراة ، ويظن أنه فرس البحر .

• Gemoniae وهي سلم كان الرومان يعرضون عليها جثث المذنبين .

• Marmousets اسم اطلق على مستشاري شارل الخامس الذين استمروا في

القيام بوظائفهم في عهد الملك شارل السادس ( كلبيسون ، مونتاغو ، لوميرسييه الخ . )

قد طرحت في بالوعة باريليري . وكان فاغون ، قد عزا حمى عام ١٦٨٥ الخبيثة الرهيبة إلى الثغرة الكبيرة التي في بالوعة الد «ماريه» والتي ظلت فاغرة فاها حتى عام ١٨٣٣ ، في شارع سان لويس ، تجاه لافنة «الرسول الشهم» تقريراً . وكان مصب بالوعة شارع الد «مورتييري» شهيراً بالطواحين المنبعثة منه . فشبكة قضبانه الحديدية المروسة التي بدت أشبه بصف من الأسنان ، برب هذا المصب في ذلك الشارع مثل شدق تين تنفس الجحيم على الناس . وتبيل الخيال الشعبي بالوعة الباريسية الكالحة بمزيج من اللامهابة رهيب إلى حد يمتنع على الوصف . كانت بالوعة عدمة القرار . كانت بالوعة هي البراتروم .. ولم تخطر فكرة رיאدة هذه المناطق المجدومة حتى لرجال البوليس انفسهم . ومن ذا الذي كان يجرؤ على اقتحام ذلك المجهول ، وسر تلك الظلمة ، والقيام برحلة استكشاف في تلك الهاوية ؟ كانت مروعة . ومع ذلك . فقد برب شخص ما . إن للبالوعة كولومبسها .

ذات يوم ، من عام ١٨٠٥ ، وخلال احدى الزيارات النادرة التي كان الامبراطور يقوم بها لباريس مثلـ وزير الداخلية ، رجل من مثل دوكريه أو كريتيه ، بين يدي الصيد لدن نهوضه من الفراش . وفي ساحة الفوارس كان يسمع صليل سيف جميع الجنود الاستثنائيين الذين أطلعتهم الجمهورية العظيمة ، والامبراطورية العظيمة . كان ثمرة جمهرة من الابطال عند باب نابوليون : رجال شهدوا الراين ، والأيسكوا ..

Fagon \* (١٦٣٨ - ١٧١٨) الطبيب الاول للملك لويس الرابع عشر .

Barathrum \*\* لفظ لاتيني يعني جهنم .

Escut \*\*\* نهر مشترك بين فرنسة والبلجيكي وهولندة .

والآديج \* والنيل . رفاق الج - سوبر \*\* ودوسيكس \*\*\*  
 ومارسو \*\*\*\* وهوش \*\*\*\* وكليبر \*\*\* . منطاديو  
 فلوروس ، ورماة قنابل في ميائس ، وبناء جسور في جنوا ، وفرسان  
 نظرت اليهم الأهرام ، ومدفعيون لطختهم قذيفة جونو \*\*\*\* ، ودارعون  
 أغروا على الاسطول الملاقي مراسيه في « زوديرزي » . كان هناك  
 جماعة لحقت بونابرت عبر جسر لودي . وثانية كانت مع مورا \*\*\*\* في  
 خنادق مانتو ، وثالثة تقدمت لأن \*\*\*\* في طريق مونتييلو المغيرة .  
 كان جيش ذلك العصر كله هناك ، في بلاط التوليري ، مثلاً بفرقة أو  
 بفرزة ، حارساً نابوليون المخلد إلى الراحة ؛ وكان ذلك في الفترة البهية  
 يوم كانت مارنغو وراء « الجيش العظيم » ، واوسترليتز أمامه . وقال  
 وزير الداخلية لنابليون : « مولاي ، لقد رأيت أمس أشجع رجل في  
 امبراطوريتك » فقال الامبراطور على جناح السرعة : « من هذا

\* نهر في إيطالية Adige

\*\* قائد فرنسي لمع نجمه في حملة إيطاليا ( ١٧٦٩ - ١٧٩٩ )

Desaix \*\*\* جنرال فرنسي تبع نابوليون إلى الشرق وأحتل مصر العليا .

( ١٧٦٨ - ١٨٠٠ ) .

Marceau \*\*\*\* جنرال فرنسي لمع نجمه في الفانديه و « فلوروس » ( ١٧٩٦ - ١٧٦٩ )

Hoche \*\*\*\*\* جنرال فرنسي يعتبر من أعظم وجوه الثورة وانقلبها ( ١٧٦٨ - ١٧٦٩ ) .

( ١٧٩٧ ) .

Kléber \*\*\*\*\* جنرال فرنسي أسلم في الحملة النابولينية على مصر ( ١٧٥٣ - ١٧٥٤ ) .

( ١٨٠٠ ) .

Juno \*\*\*\*\* قائد فرنسي حارب في إيطالية ومصر ، واستول على لشبونة عام

( ١٧٧١ - ١٨١٢ ) .

Murat \*\*\*\*\* آخر زوجة نابوليون ، وقد نصب ملكاً على نابولي من عام

( ١٨١٥ - ١٨١٨ ) .

Lannes \*\*\*\*\* مارشال فرنسي ، لمع نجمه في معركتي مونتييلو ومارنغو .

( ١٧٦٩ - ١٨٠٩ ) .

الرجل ، وما الذي فعله ؟ » - « إنه يريد أن يصنع شيئاً يا مولاي . »  
- « ما هو ؟ » - « إن يزور بواليع باريس . »  
كان ذلك الرجل حياً يرزق ، وكان يدعى برونيسو .

## ٤

### تفاصيل مجهولة

ونمت الزيارة . كانت حملة رهيبة ، معركة ليلية ضد الطاعون والاختناق . وكانت في الوقت نفسه رحلة استكشاف . بل إن أحد الذين خرجوا من هذه الزيارة أحياء ، وهو عامل ذكي كان آنذاك غض الشباب ، قد روى منذ بضع سنوات تفاصيل اعتبر برونيسو أن من واجبه ان يحذفها في تقريره إلى مدير البوليس ، بوصفها غير لائقة بلغة الدواوين : كانت العمليات التطهيرية بدائية جداً في ذلك العهد . فما إن اجتاز برونيسو أولى شُعب الشبكة تحت الأرضية حتى رفض ثمانية من العمال أن يذهبوا إلى أبعد من ذلك : وكانت العملية معقدة . وانطوت الزيارة على مهمة التنظيف . وهكذا كان على العمال أن ينطفوا ، وأن يقيسوا الأبعاد في وقت معاً . كان عليهم أن يعيثوا مدخل الماء ، وأن يمحضوا الشبكة الحديدية والمصابب ، وأن يضعوا بياناً مفصلاً بالشعب ، وأن ينصروا على مجاري الماء عند نقاط الانفصال ، وأن يفحصوا الحدو النسبية للحواض المختلفة ، وأن يسرروا بواليع الصغرى المفرعة فوق البالوعة الرئيسية ، وأن يقيسوا ارتفاع كل متر تحت الغلق ، والعرض أيضاً سواء عند مستهل العقد أو عند سطح الأرض ، وأن يحددوا أخيراً نقاط تسوية الأرض على زاوية قائمة عند كل مدخل من مدخل الماء ، سواء من أرضية البالوعة أو من سطح الشارع . لقد تقدمو في عسر .

ولم يكن نادراً ان تغوص السلام في الوحل إلى عمق ثلاثة أقدام وحشرت الفوانيس في الأغذرة الوبية . وبين الفينة والفينية ، كانوا يخرجون عاملاً من عمال البواليع أغضى عليه . وفي بعض المواطن كان العمال يقعون على هاوية . كانت الأرض قد غارت ، وكان بلاط الشارع قد انهار ، وكانت البالوعة قد تحولت إلى بئر ذات قعر رملي . إنهم لم يعودوا يجدون أرضاً صلبة . وفجأة احتفى رجل ، ولم يوقفوا إلى انتشاله إلا بشق النفس . وبناء على نصيحة فور كروا اضاءعوا ، بين مرحلة واخرى ، في المواطن المطهرة تطهيراً كافياً ، اقفاصاً كبيرة ملأى عشاقة الكتان ومشبعة بصمغ الصنوبر . وكان الجدار مغطى ، في بعض الأماكن ، بقطريات شائهة ، بل لقد كان في وسع المرء ان يقول انه مغطى بالدمامل . لقد بدا الحجر نفسه مريضاً في هذا الوسط الذي لا يصلح للتنفس .

ونقدم برونيسو ، في رriadته تلك ، من عالية التهر إلى سافتنه : وعند مفترق أنبوبي مياه الـ « غرات هورلير » قرأ في عسر ، فوق حجر ثانٍ ، هذا التاريخ : ١٥٥٠ . وكان هذا الحجر يشير إلى الحد الذي انتهى إليه فيليب دولورم الذي عهد اليه هنري الثاني بأن يزور قنوات باريس تحت الأرضية . كان ذلك الحجر هو طابع القرن السادس عشر على البالوعة . كذلك وجد برونيسو اثر يد القرن السابع عشر العاملة في قناة شارع « بونسو » وقناة شارع « فيبي دو تامبل » اللتين بُنيتا ما بين عام ١٦٠٠ وعام ١٦٥٠ ، واثر يد القرن الثامن عشر العاملة في الجزء الغربي من القناة المجمعة ، التي جُسِّرت وفُنِّطرت عام ١٧٤٠ . وكان هذان العقدان ، وبخاصة العقد الأقل عمقاً ، عقد ١٧٤٠ ، أكثر تشققاً وتهاماً من البالوعة المطروفة التي ترقى إلى عام ١٤١٢ ، يوم رُفعت مياه ينبوع مينيلمونتان إلى مقام بالوعة باريس العظمى ، وهو تقدم تمثل لتقدم فلاح

يصعب كبير فراثي الملك ، شيء من مثل « غرو جان » ، وقد تحول إلى « لوبيل » . . .

وحسروا أنهم تبینوا هنا وهناك ، وبخاصة تحت قصر العدل ، بعض حجرات السجون الضيقة المظلمة المبنية في البالوعة نفسها . سجن ديري تحت ارضي رهيب . كان غل حديدي يتسلى في احدى تلك الحجرات . لقد سُدت كلها بالجدران . ووجدوا ثمة أشياء غريبة ، من بينها هيكل عظمي لفرد من نوع « اورانغ - اوتابغ » كان قد اختفى من « حدائق النبات » عام ١٨٠٠ ، وهو اختفاء لعله ان يكون ذا صلة بظهور الشيطان ذلك الظهور الشهير الذي لا يقبل الجدل ، في شارع الد « بيرناردين » في السنة الأخيرة من القرن الثامن عشر . لقد انتهى الشيطان المسكين إلى الغرق في البالوعة .

وتحت المر الطويل المقنطر الذي ينتهي عند « آرش ماريون » نالت اعجاب المعارضين سلة ملقط خرق كانت لا تزال مصوّنة اتم الصون . وفي كل مكان كان الوحل - الذي كان العمال قد أخذوا يمسكون به في جسارة - حافلا بالأشياء الفنية : بالحلالي الذهبية والفضية ، والحجارة الكريمة ، والقطع النقدية . ولو قد صفت عملاق هذه البالوعة اذن لفاز في منخله بكوزز القرون . وعند مفترق شعبتي شارع التاميل وشارع سانت آفوا التقاطوا مدالية بروتستنوية نحاسية فريدة تحمل على احد وجهيها خنزير آ يعتمر بقبعة كاردينال ، وتحمل على وجهها الآخر ذئباً على رأسه التاج البابوي .

وكان الكشف الأدعى إلى العجب هو مدخل البالوعة العممي . كان هذا المدخل موصداً ، في ما مضى ، بشبكة حديدية لم يبق منها غير رزاتها . وكانت تتسلى من احدى تلك الرزات خرقة قنطرة شائهة

---

\* اسم يطلق في اللهجة الفرنسية العامية على الأبله المتظاهر بالعلم .  
\*\* ضابط فرنسي كانت له خبرة خاصة بصناعة البنادق ( ١٨٣٨ - ١٨٩١ ) .

علقت هناك في طريقها من غير شك ، فأنشأت تطفو في الظلام حتى  
أمست آخر الأمر مِزَقاً . وقرب برونيسو فانوسه إلى هذه الخرقة ،  
وفحصها . كانت من نفس القماش الكتاني الأبيض الناعم ، ولقد تبين  
عند أحدي الروايات الأقل بليّ تاجاً نسياً أو شعارياً طرز فوق هذه الحروف  
السبعة « لافيبسب » *LAVBESP* . وكان التاج تاج مركيز . وكانت الحروف  
السبعة تعني لوبيسبين *Laubespine* . وادركوا أن إمام اعينهم قطعة من  
كفن مارا . فقد كانت ملارا ، في صباح ، غراميات . وكان ذلك حين كان  
يُولف جزءاً من منزل الكونت دارتوا ، بوصفه طيباً للاصطبات . ومن  
هذه الغراميات ، المثبتة تاريخياً ، مع سيدة نبيلة كبيرة لم يبق له غير  
غطاء السرير هذا . لقبة أو ذكرى . حتى إذا قضى نحبه كفنه به بوصفه  
قطعة القماش ، الأبيض الناعم بعض الشيء ، الذي لم يكن غيرها في منزله .  
لقد جهزت بعض النساء العجائز « صديق الشعب » الفاجع ، بجهاز القبر  
هذا الذي كان ينطوي على لذة .

وابتع برونيسو تقدمه . لقد تركوا هذه الخرقة حيث كانت . إنهم لم  
يجهزوا عليها . أكان ذلك ازدراء أم احتراماً ؟ كان مارا يستحق الاثنين  
جميعاً . ثم إن القدر كان منطبقاً عليها إلى حد جعلهم يتربدون في مسها .  
وإلى هذا ، فيتعين علينا أن نترك أشياء القبر في الموطن الذي تختاره .  
وعلى الجملة ، فقد كانت تلك الذخيرة غريبة . لقد نامت عليها مركيزة :  
ولقد انتن عليها مارا . لقد احتازت البانتيون لكي تصل آخر الأمر إلى  
جرذان البالوعة . كانت خرقة المخدع تلك ، التي كان خليقاً بها « واتو » .  
في ما مضى أن يرسم كل طبة من طياتها ، قد انتهت إلى أن تصبح  
جلدية بنظرة من نظرات ذاتي المحدثة .

واستغرقت الزيارة الكاملة لشبكة البواليع الباريسية تحت الأرضية سبع  
سنوات ، من عام ١٨٠٥ إلى عام ١٨١٢ . وفيها كان برونيسو لا يزال

يقوم بها ، عين كثيرةً من الأعمال ، وادارها ، وانجزها . ففي سنة ١٨٠٨ خفض مستوى قناة بونسو ، واذ أنشأ خطوطاً جديدة في كل مكان ، مدد باللوحة ، عام ١٨٠٩ ، تحت شارع سان دونيز ، حتى «ينبوع الابرياء» . وفي عام ١٨١٠ مددتها تحت شارع «فروامانتو» وشارع الـ «سالبيتيرير» ، وفي عام ١٨١١ مددتها تحت شارع «رو نوف دي بيتيت بير» ، وتحت شارع «ميل» وشارع الـ «ايسارب» ، وتحت القصر الملكي . وفي عام ١٨١٢ مددتها تحت «شارع السلام» ، وتحت الـ «شوسيه دانتين» . وفي الوقت نفسه ، ظهر وأصلاح الشبكة كلها . ومنذ السنة الثانية ساعد برونيسو صهره نارغو .

وهكذا نظر المجتمع القديم ، منذ مطلع هذا القرن ، قعره المزدوج ، وقام بتجميل بالوعة . ولم يزد تنظيفها في يوم من الأيام عن ذلك المقدار . كانت بالوعة باريس القديمة ملتوية ، متصدعة ، مقلعة البلاط ، مقلعة ، معرضة بالمستنقعات ، محطة لمعنطفات غريبة ، مرتفعة ومنخفضة على غير منطق ، آسنة ، وحشية ، ضاربة ، غارقة في الظلمة الرهيبة ، تعلو الندوب حصباها والجراح جدرانها . تفرعات في كل اتجاه ، خنادق مهجونة ، تشعبات ، مفارق طرق ، صدوع كالي تنشأ عن الالغام ، أزمة غير نافذة ، دروب مسلودة ، عقود مغطاة بملح البارود ، بوالسيع تنفس ، ترشح قobi على الجدران ، قطرات ساقطة من السقف ، ظلام ؛ إن شيئاً لم يكن يعدل هول هذا السردايا العتيق المفرغ ، جهاز بسائل المضي ، الكهف ، القبر ، الماوية التي تخترقها الشوارع ، التل الخلدي العملاق الذي يتراهى للعقل فيه وكأنه يرى ذلك الخلد الأعمى الهائل — الماضي — يتلمس سبله وسط الظلام ، في القدر الذي كان زهواً وسناء . تلك كانت — ونكر ذلك — بالوعة العهود الماضية .

## النقدم الحالي

أما اليوم فالبالوعة نظيفة ، باردة ، مستقيمة ، مضبوطة . إنها تكاد تتحقق مثل الأعلى لما يفهم في انكلترة بكلمة « موفر ». إنها لائقة رصينة ؛ عخططة بخيط البناء ، بل نكاد نستطيع أن نقول إنها مفرقة في الثانق . إنها تشبه ملتزم موئن أصبح مستشاراً للدولة . وفي مستطاع المرأة أن يرى فيها بوضوح ، أو يكاد . وسلك الوحل مسلكاً لائقاً . وللوهلة الأولى لا بد أن تخسبها توأً أحد تلك المجازات تحت الأرضية التي كانت في ما مضى شائعة جداً ومفيدة جداً ل Herb الملوك والامراء في تلك العهود السالفة الصالحة يوم « كانت الشعوب تحب ملوكها ». بالبالوعة الحالية بالوعة جميلة ؛ إن الأسلوب الصافي ليهيمن هناك . ويبدو وكأن الوزن الالكتندرى الكلاسيكي المستقيم . وقد طُرُد من الشعر ، التحجا إلى فن العمارة ، وامتزج بكل حجر من حجارة ذلك العقد الطويل المظلم الضارب لونه إلى البياض . إن كل قناة مفرغة هي قنطرة . إن شارع ريفولي ليُستخدم قلوةً حتى في البلاليع . وعلى أية حال . فإذا كان للخط المندسي إن يوجد في إما مكان فليس من ريب في أنه يوجد في الخنادق البرازية الخاصة بالمدن الكبيرة . هناك . يتبعن على كل شيء أن يكون خاصعاً للطريق الأقصر . لقد اتخذت بالبالوعة الآن مظهراً رسمياً . وحتى تقارير البوليس التي تعالج في بعض الأحيان موضوعها : لم تعد يعوزها الاحترام لها . ن الكلمات التي تميزها في لغة الدواوين قد ارتفت وشرفت . فما كان يدعى هرماً ضيقاً أمسى يدعى دهليزاً . وما كان يدعى ثقباً أمسى يدعى عيناً . لقد أصبح من المتعذر على فيبيون \* أن يعرف مأواه القديم عند

\* شاعر فرنسي قديم سبق التعريف به .

الحاجة . صحيح ان هذه الشبكة من الأقية كانت لا تزال محفوظة بسكنها العريقين من القواصم المتکاثرة أكثر من ذي قبل ؛ فين الفينة والفيينة كان احد الجرذان - شاربان عجوزان - يخاطر برأسه عند نافذة البالوعة ويتأمل الباريسين . ولكن هذه الهواة نفسها كانت قد أمست ألفة ، راضية بحالها ذاك في قصرها القائم تحت الأرض . لم يعد للبالوعة شيء من ضراوتها البدائية . ان المطر ، الذي كان يوشخ بالوعة العصور الماضية ، ليغسل بالوعة العصر الحاضر . ولكن حذار ان تدق بها أكثر مما ينبغي . إن الأئمحة الوبية لا تزال تقطنها . أنها مرأة أكثر منها كاملة خلواً من العيب . فقد ذهبت جهود مديرية الشرطة ومفوضية الصحة أدراج الرياح . إنها على الرغم من جميع عمليات التطهير تطلق رائحة غامضة مرتبطة مثل تارتوف<sup>\*</sup> ، بعد الاعتراف :

ولنسلم بأن تنظيف الشوارع . إذا أخذنا جميع الاشياء بعين الاعتبار ، طاعة تقدمها البالوعة إلى الحضارة . وما كان ضمير تارتوف ، من وجهة النظر هذه ، يمثل تقدماً على أصطبان أو غياس<sup>\*\*</sup> ، فهما لاريب فيه أن بالوعة باريس قد تحسنـت .

إنه أكثر من تقدم . انه تحول . إن بين البالوعة القديمة والبالوعة الحاضرة ثورة . من الذي قام بهذه الثورة ؟  
الرجل الذي ينساه الناس جميعاً . والذي أمحنا اليه . برونيسو .

\* بطل احدى ملاهي مولير ، وقد سبق التعريف به .

\*\* ملك ايليدا وكانت له اصطب (اصطبات) تضم ثلاثة آلاف ثور . وقد ظلت هذه الاصطب ثلاثين عاماً من غير تنظيف فأرسل «أوريستيه» هرقل للقيام بهذه المهمة .

## التقدم الم قبل

إن شق بالوعة باريس لم يكن عملاً ضئيلاً . فقد اشتغلت القرون العشرة الماضية في حفرها من غير أن تقدر على اتمامها إلا بمقدار ما أكملت باريس . والواقع أن بالوعة تستقبل جميع العواقب الناشئة عن نمو باريس . فهي ، في باطن الأرض ، شبه اخطبوط مظلم ينمو تحت ، كلما نمت المدينة فوق . فما إن شق المدينة شارعاً ، حتى تبسط بالوعة ذراعاً . وكانت الملكية القديمة قد انشأت ثلاثة وعشرين الفاً وثلاثمائة متر من البواليع ليس غير . وكانت باريس آنذاك في مطلع كانون الثاني عام ١٨٠٦ . وابتداء من ذلك العهد ، الذي سنتكلم عليه في الحال ، استؤنف العمل وأكمل في جدوى ونشاطه : فقد انشأ نابوليون - وهذه الارقام ممتعة - أربعة آلاف واربعمائة متر ؛ وانشأ لويس الثامن عشر خمسة آلاف وسبعمائة وتسعة أمتار ؛ وانشأ شارل العاشر عشرة آلاف وثمانمائة وستة وثلاثين متراً ؛ وانشأ لويس فيليب تسعة وثمانين شتاً وعشرين متراً ؛ وانشأت جمهورية ١٨٤٨ ثلاثة وعشرين الفاً وثلاثمائة وواحداً وثمانين متراً ؛ وانشأ النظام الحالي سبعين الفاً وخمسة متر . ومجموع ذلك كله ، في الساعة التي نحن فيها ، مثثان وستة وعشرون الفاً وسبعين وعشرين متراً ؛ ستون فرسخاً من البواليع . احشاء باريس الهاائلة . تشغّل مظلماً هو أبداً قائم على قدم وساق ؛ إنشاء هائل وغير ملحوظ : وهكذا نرى أن تيه باريس تحت الأرضي هو اليوم عشرة أضعاف مـ كـنـ عـلـيـهـ فـيـ مـسـتـهـلـ الـقـرـنـ أـوـ يـزـيدـ . وـمـنـ عـسـيرـ عـلـىـ الـمـرـءـ أـنـ يـدـرـكـ يـقـيـعـ مـنـ الـمـواـظـبـةـ وـالـجـهـدـ كـانـ ضـرـورـيـاـ لـلـانتـهـاءـ بـتـلـكـ الـبـالـوـعـةـ إـلـىـ نـقـطـةـ تـحـكـيـقـ الـقـسـيـ الـذـيـ بـلـغـتـهـ الـيـوـمـ . فـالـادـارـةـ الـمـلـكـيـةـ ، ثـمـ الـادـارـةـ الـبـلـدـيـةـ

في السنوات العشر الأخيرة من القرن الثامن عشر لم تستطعوا إلا في صعوبة بالغة أن تشقوا البوالىع البالغ طولها خمسة فراسخ والتي كانت موجودة قبل عام ١٨٠٦ . إن جميع ضروب العقبات كانت تعيق هذا العمل ، بعضها خاص بطبيعة التربة ، وبعضها متاحم باهواء سكان باريس المجد يسن واوهامهم نفسها . إن باريس مشيدة على طبقات معدنية في باطن الأرض متبردة تمرداً فريداً على المعلول ، والمساحة ، والمسبار ، والسيطرة الإنسانية . وليس ثمة ما هو أعنصر من أن تشق وتتفند إلى هذا التكون الجيولوجي الذي تُضْدِد فوقه ذلك التكوّن التاريخي الرائع انسعو باريس .

فما ان يبدأ العمل ، تتحت أي شكل من الاشكال ، ويغامر في ذلك الشارع الغربي حتى تتعاظم المقاومة تحت الارضية . إن ثمة صلصالاً مائعاً، وبنابيع ماء ، وصخوراً قاسية ، وهذه الوحوش الرخوة التي يدعوها العلم التقني « خرداً » . والمعلول إنما يتقدم بعناء إلى هذه الطبقات الكلسية التي يتراوح خلاها عروق من الصلصال البالغ الرقة وطبقات مُضْدَدَة ورقية مطعمَة بأصداف من محار عاصرت الاوقيانوسات السابقة لعهد آدم . وفي بعض الاحيان كان جدول يصدع على نحو مفاجيء عقداً شُرع في تشييده ، ويغمز العمال ، أو يتحرك ذاتب من السُّجَيْل فيندفع ساقطاً بمثل جيشان شلال ، ساحتاً أعظم عوارض التدريم الخشبية وكأنها زجاج . وفي فييت ، منذ عهد قريب جداً ، يوم تعين على القوم – من غير ان يوقفوا الملاحه أو يُفرِّغوا القناة – ان يُمْرُّوا بالبالوعة المجمعة تحت قناة سان مارتن نشا صدع في حوض القناة . وفاقت المياه فجأة في المشغل القائم تحت الأرض على نحو تجاوز طاقة مضخات الترح كلها . فاضطروا إلى التهام الصدع ، الذي كان في مدخل الحوض الكبير ، بواسطة غطاس ما ، ولم يُرَأِب إلا بشق النفس . وفي مكان آخر ، قرب الـ « سين » ، بل وعلى مسافة ما من النهر ، كما في « بيلفيل » و « غراند رو » و « هير لوينير » مثلاً ، نجد رملاً لياناً تغوص فيه اقدامنا ، وقد

يغيب المرء وسطه عن العيان . أضف إلى ذلك الاختناق بالاخغرة الوبية ، والتکفن تحت الاتربة المنهارة ، والخساف القعر فجأة . أضف التيفوس ، الذي يتشربه العمال في بطء . وفي ايامنا هذه ، بعد أن شقوا « دھلیز کلیشی » ، مع طريق جسری لاستقبال انبوب مياه رئیسي من الـ « الأورك » ، وهو عمل ذُمِّدَ في خندق يبلغ عمقه عشرة مترات ؟ وبعد ان قنطروا الـ « بینفر » من « جادة المستشفى » إلى الـ « سین » ، على الرغم من الانهيارات ، وبواسطة الحفریات التي كانت عفنة في كثير من الاحيان ، وبواسطة الدعائم ؟ وبعد ان عمدوا . رغبة في انقاد باريس من مياه موئلات السیلیة ولفتح منفذ للذک المستنقع النہری البالغة مساحتها تسعه هكتارات والذي رکدت مياهه قرب « باب الشهداء » — نقول بعد ان الشی خط البوالیع من « الباب الأیض » إلى « طريق اوبرفیلیه » ، في اربعة أشهر ، بلياليها ، على عمق احد عشر متراً ؛ بعد أن تم وهو عمل لم نر له مثيلا من قبل — شق بالوعة كاملة تحت الأرض ، في شارع « بار دو بیک » ، من غير خندق ، على عمق ستة مترات تحت سطح الأرض ، بعد ذلك كله قضى مراقب الأعمال ، مونو ، نحبه . وبعد أن قنطر ثلاثة آلاف متر من البوالیع فوق مختلف أنحاء المدينة ، من شارع « ترافرسیر — سان — انطوان » إلى شارع لورسین ؛ وبعد ان انقض مفرق « سانسیبیه موفتار » ، بامتداد آربالیت الفرعی ، من فيضانات الأمطار ؛ وبعد ان بني بالوعة سان جورج على حجارة مرصوفة واستمنت في الرمل الاین ؛ وبعد ان اشرف على التخفیض الرهیب لسطح امتداد « سیدة الناصرة » ، بعد ذلك كله قضى المهندس دولو نحبه . وليس ثمة على اية حال سجل لاعمال البطولة هذه ، أكثر فائدة ، من سفك الدماء في ميدان المعركة .

إن بوليف باريس كانت في عام ١٨٣٢ مختلفة جداً عما هي عليه اليوم. كان برونيسو قد أثار المسألة ، ولكن الأمر احتاج إلى الكوليرا لסקי

تقرر السلطة إعادة إنشاء البوالىع على نحو واسع ، هذه الإعادة التي بدئ بها منذ ذلك الحين . ومن المثير للدهش أن نقول ، مثلا ، انه في عام ١٨٢١ كان جزء من البالوعة المطوقة ، المدعومة القناة العظمى . شائعا في البندقية (فينيسيا) ، لا يزال متينا راكدا ، مكشوفا في وجه السماء ، في شارع الـ « غورد » . ولم تجد مدينة باريس في جيبيها مثيلين وستة وستين ألفاً وثمانين فرنكاً وستة سنتيمات ، وهو المبلغ الضروري لتغطية هذا العار ، إلا في عام ١٨٢٣ . وآبار الـ « كومبا » والـ « كونيت » و « سان مانديه » المتصلة ، بأفواها المصرفية ، واجهزتها ، وبوليعها ، وامتداداتها المتقدمة لا ترقى إلى أبعد من عام ١٨٣٦ . لقد أعيد بناء قناة باريس الموعية من جديد ، وتعاظمت كما قلنا أكثر من عشرة أضعاف خلال ربع قرن .

منذ ثلاثين عاماً ، أيام ثورة الخامس والسادس من حزيران ، كانت البالوعة القديمة لا تزال في كثير من المواطن هي هي تقريباً . إن عدداً كبيراً من الشوارع ، المقنطرة اليوم ، كانت آنذاك طرفاً جسرية جوفاء . وكثيراً ما كنت ترى ، عند النقطة المنحدرة التي تنتهي فيها قنوات شارع أو مفرق طرق ، شيئاً مستطيلة كبيرة ذات أعمدة ضخامة يلتمع حديدها وقد صقله وطء أقدام الجاهير ، شيئاً خطراً تزلق عليهما العربات ، وتجعل الخيل تكتو . وكانت اللغة الرسمية الخاصة بالطرق والجسور تطلق على هذه المنحدرات والشباك لفظة *Coude* \* المعبرة . وفي سنة ١٨٣٢ ، في كثير من الشوارع - شارع النجمة . وشارع سان لويس . وشارع التامبل ، وشارع فيفي دو تامبل ، وشارع سيدفع الناصرة ، وشارع فولي ميريكور ، وشارع الـ « كي أو فلور » ، الـ « بيتي موسك » ، وشارع نورماندي ، وشارع « بون أو بيش » وشارع الـ « مارييه » ، وضاحية سان مارتين ، وشارع سيدة الانتصارات ،

---

\* وتعني قناة تعبّر طریقاً .

وضاحية مونمارتر ، وشارع غرانج باتولير في الشان زيلزيه ، وشارع جاكوب ، وشارع تورنون — كانت البواليع القوطية القديمة لا تزال تفتح شدقيها في سخرية . كانت فجوات حجرية ضخمة متبدلة ، محاطة في بعض الأحيان بأنصاب حجرية ، ذات قحة بالغة .

كان لباريس ، عام ١٨٠٦ ، عدد البواليع نفسه تقريباً المحقق في نوار عام ١٦٦٣ : خمسة آلاف وثلاثمائة وثمانين وعشرين قامة . وحسب ارقام برونيسو ، كان ثمة في مطلع كانون الثاني عام ١٨٣٢ أربعون ألفاً وثلاثمائة متر . ومن عام ١٨٠٦ إلى عام ١٨٣١ بني سنوياً ، في العدل الوسطي ، سبعمائة وخمسون متراً . ومنذ ذلك الحين انشئ في كل عام ثمانية آلاف بل عشرة آلاف متراً من الدهاليز ، بماء بنائية صغيرة ثُبُتت بكلس من ذلك الضرب الذي يتصلب في سرعة تحت الماء على أساس من الاسمنت .

وإذا اعتبرنا نفقات المتر الواحد مئي فرنك تكون بواليع باريس الحالية البالغ طولاها ستين فرسخاً قد كلفت ثمانية واربعين مليوناً . وإلى جانب التقدم الاقتصادي الذي اشرنا إليه في البداوة ، تتصل بهذا الموضوع الهائل — بالوعة باريس — بعض قضايا « علم الصحة العامة » الخطيرة :

تقع باريس بين ملاعتين اثنتين : ملاعة ماء ، وملاعة هواء . فاما ملاعة الماء ، التي تنسط على عمق غير يسير تحت الأرض ، والتي وفقنا إلى بلوغها من ثقبين ، فمزودة بطبيقة من رمل أحضر قائمة بين الطباشير والكلس الجوراسي ، وفي ميسورنا أن نتصور هذه الطبيقة على شكل قرص نصف قطره خمسة وعشرون فرسخاً . إن جميرة من الانهار والمداول لترush فيها . فتحن شرب الـ « سين » ، والـ « مارن » ، والـ « يون » ، والـ « واز » ، والـ « إين » ، والـ « شير » ، والـ « فين » والـ « لوار »

\* القامة مقياس طوله مئة اقدام.

في كأس ماء من بئر غرونيل . إن ملأة الماء نافعة للصحة ؟ إنها تُثْبِت  
من السماء أولاً ومن الأرض بعد ذلك . أما ملأة الهواء فغير صحية ؛  
إنها تُنْبَعُ من البالوعة . فجميع الآخرين الوبية المتبعة من البواليع تمرج  
بتنفس المدينة ، ومن هنا ذلك النفس الكريه . والهواء الذي يتشقه المرء من  
فوق مزبلة — وهذا ثابت علمياً — أظهر من الهواء الذي يتشقه من فوق  
باريس « وفي فترة من الزمن بعينها ، حين يسْعُ التقدم ، وتبلغ الآلة  
كماها ، ويتعااظم النور سوف يكون في ميسورنا أن نصطعن ملأة الهواء .  
يعني لغسل البالوعة . ونحن نقصد بغسل البالوعة طبعاً : ارجاع الوحل  
إلى الأرض ، وإعادة الزيل إلى التربة ، والقدر إلى الحقول . ولسوف  
يفيد المجتمع كلها ، من هذا العمل البسيط ، إنقاضاً للشقاء وزيادة في  
الصحة . وفي الساعة التي نحن فيها يمتد إشعاع أمراض باريس إلى خمسين  
فرساً حول اللوفر ، بوصفه مركزاً هذا الدولاب الوبائي .

وفي ميسورنا أن نقول إن البواليع كانت ، طوال عشرة قرون ، داء  
باريس . إن البالوعة هي الآفة التي تحملها المدينة في دمها . والغريزة  
الشعبية لا تخطيء أبداً . فقد كادت صناعة البواليع أن تكون في الأيام  
الماضية خطرة وكريهة إلى الناس كصناعة الفصّاص تقربياً ، هذه الصناعة  
التي ظلت مرهوبة زمناً والتي تُرْكَت للجلاد . ولقد كانت السلطة تضطر  
إلى دفع راتب عالٍ لكي تقنع بناء ما ، بالاختفاء في هذا الخندق النّن ؛  
وكانت سلم حافر الآبار تتردد في العوص فيه . وكان يقال في الأمثال :  
نزول المرء إلى البالوعة كنزوله إلى القبر . وكانت جميع ضروب الغرائب  
الرهيبة تغطي بالذعر ، كما قلنا ، هذه البالوعة المائمة ؛ بالوعة مروعة  
تحمل آثار ثورات الكرة الأرضية كما تحمل آثار ثورات الناس ، وتفتح  
فيها على آثار للفيضانات العظيمى كلها منذ محارة الطوفان حتى خرقه  
مساراً .



الكتاب الثالث

وَخَلَ، وَلَكِنْ رُفِحَ

البادرة و مفاجأتها

وفي بالوعة باريس بالذات وجد جان فالجان نفسه .  
وشه آخر بين باريس والبحر . إن الفاطس يستطيع أن يغيب فيها  
كما يستطيع أن يغيب في الاوقيانوس .

كان الانتقال خارقاً : فمن وسط المدينة ذاته كان جان فالجان قد  
غادر المدينة ؛ وبطريقة عين . الوقت الضروري لرفع غطاء واعادته إلى  
مكانه ، كان قد انتقل من وضح النهار إلى الظلمة الكاملة ، من الظهر  
إلى منتصف الليل ، من الضوضاء إلى الصمت ، من هزيم الرعد إلى

ركود القبر . ويتحوال أكثر إعجازاً من تحول شارع بولونسو نفسه ،  
من أقصى حدود الخطر إلى أقصى حدود الأمان .

سقوط مفاجئ في قبو ؛ اختفاء في حبس باريس المظلم . كانت  
لحظة مذهلة تلك التي تعين عليه فيها ان يغادر ذلك الشارع المائل فيه  
الموت في كل مكان الى هذا الضرب من القبر الذي تسرى فيه الحياة . وظل  
بعض ثوان وكأنه مصعوق ، وانشأ يصغي متشدهاً . كان فخ السلامة قد  
انفتح تحته فجأة . وكان اللطف السماوي قد غدر به بمعنى من المعاني .  
أشراك رائعة تنسبها العناية الالهية !

مع فارق واحد هو ان الرجل الجريح لم يتحرك قط ؛ ولم يدر جان  
فالجان ما إذا كان هذا الذي حمله في ذلك القبر حياً أو ميتاً .

كان احساسه الأول هو العمى . إنه لم يعد يرى شيئاً . فجأة .  
وبدا له أيضاً انه قد أمسى أصم - في دقيقة واحدة . انه لم يعد يسمع  
شيئاً . وعاصفة التقنيل المسورة التاثرة على مسافة بضعة اقدام فوقه  
لم تصل اليه ، كما قلنا ، بفضل سماكة الارض التي تفصله عنها . إلا  
مختوقة وغير واضحة ، مثل ضجة على عمق كبير . لقد استشعر ان  
الأرض صلبة تحت قدميه . ذلك كان كل شيء . ولكنه كان كافياً . وبسط  
احدى يديه ، ثم بسط الاخرى ، ومسن الجدار من الجانبين ، وادرك  
ان المجاز كان ضيقاً . وزلت قدمه ، وادرك ان البلاط مبلل . وقدم  
رجل في حذر ، خائفًا ان تصادف ثقباً ، او بالوعة ، او هوة .  
واستيقن أن البلاط متصل . وأنباته هبة من ثانية اين كان .

وبعد بعض لحظات عاودته القدرة على الابصار . لقد سقط ضياء قليل  
من المنفذ الذي انزلق منه ، واحتدت عينه تألف هذا الكهف . وببدأ  
يتبين شيئاً . كان المجاز الذي ووري فيه - إن ايمًا كلمة أخرى لا تصور  
الوضع تصويراً أفضل - موصدًا خلفه بجدار . كان واحداً من تلك الدروب  
غير النافذة التي تدعى في اللغة الفنية امتداداً فرعياً . وأمامه كان جدار

آخر ، جدار الليل . لقد تلاشى الضياء الواحد من المنفذ على بعد عشر خطوات أو اثنى عشرة خطوة من النقطة التي كان جان فالجتان واقفاً فيها ، ولم يكدر يحدث على بضعة أمتار من جدار البالوعة الرطب غير بياض شاحب . ووراء ذلك المكان كانت اللاشافية كثيفة . وبدا اختراقها رهيباً ، وبذا الدخول إليها أشبه شيء بذهب المرء ضحية التهام اللجة . بيد أنه كان في مسورة المرء أن يشق طريقه عبر جدار الضباب هذا ، وإن عليه أن يفعل . بل إن عليه أن يعدل . وفكرة جان فالجتان ان تلك الشبكة الحديدية ، المنظورة من جانبها تحت بلاط الشارع ، يمكن ان يلاحظها الجنود أيضاً ، وإنما كان ذلك كله رهناً بالمصادفة . وكان في استطاعتهم أيضاً أن يبطوا إلى هذه البئر ويفتشوا فيها . لم تكن ثمة دقة يمكن ان تضاع . كان قد وضع ماريوس على الأرض ، فجمع شتاته . وهذا أيضاً هو التعبير الصحيح – واعاد حمله على كتفيه ، وببدأ ميره . لقد دخل تلك الظلمة في عزم .

والحق أنها لم يكونوا في نجوة من الخطر إلى الحد الذي خاله جان فالجتان . لعل مخاطر من نوع آخر ، ولكنها ليست أقل شأناً ، كانت تنتظرهما . وبعد إعصار المعركة الساطع جاء كهف الاخبار الوبية والأشراك . وبعد العماء والاختلاط جاءت البالوعة . كان جان فالجتان قد سقط من احدى دوائر الجحيم إلى أخرى .

وعند نهاية الخطوات الخمسين اضطر إلى التوقف . لقد برق سؤال . كان المجاز ينتهي إلى معبر آخر ضيق يلتقي به بالعرض . وهكذا كان أمامه طريقان . فماهما يسلك ؟ أجب عليه ان يستدير إلى الشمال أم إلى اليمين ؟ كيف يتوجه في هذا التيه الاسود ؟ كان لهذا التيه . كما اشرنا من قبل ، مفتاح هو منحدره . وكان الترام المنحدر يعني الذهاب إلى النهر .

وفهم جان فالجتان ذلك في الحال .

وقال في ذات نفسه انه ، غالباً ، في بالوعة الاسواق ، وانه إذا اختار الاتجاه إلى اليسار وتابع سيره في المنحدر ، فعندئذ يصل في أقل من ربع ساعة إلى مصبِّ ما على الـ «سين» بين «جسر الشانج» و«الجسر الجديد» ، يعني انه سيعاود الظهور في وضع النهار في أحمل اجزاء باريس بالسكان . انه قد ينتهي إلى تجتمع ما البعض المتسكعين في الشوارع . ويصادف عابرو السبيل بالذهول لرؤيتهم رجلين مخضبين بالدم يتبثثان من باطن الأرض تحت أقدامهم . ويصل رجال الشرطة ، ويدعى الجندي في مركز الحراس المجاور إلى تقلد السلاح . ويلقى عليه القبض قبل ان يتمكن من الخروج . كان من الأفضل أن يغوص في التيه ، أن يشق بهذه الظلمة ، وان يتكل على العناية الإلهية في هذه المسألة .

واختار الاتجاه إلى اليمين ، وراح يصعد في المرتفقى .

حتى إذا انعطف حول زاوية الدهلizer ، اختفى ضوء المنفذ الضئيل القصي ، وعاد حجاب الظلمة يحفله من جديد . وغداً أعمى كرة أخرى ؛ ومع ذلك فقد واصل تقدمه ، وبأقصى ما استطاع من السرعة . كانت ذراعاً ماريوس تحيطان بعنقه وكانت قدماه تتسللان خلفه . وامساك ذراعي ماريوس بأحدى يديه ، وتحسن الجدار بالآخرى . ومن خدٌ ماريوس خده والتتصق به . بوصفه داماً . لقد احس بليل حار ، منتشق من ماريوس ، يجري فوقه ويخترق ثيابه . ومع ذلك ، فان دفناً رطباً عند أذنه ، التي مست فم الرجل الجريح ، كان يؤذن بالتنفس ، ويؤذن من ثم بالحياة . كان المجاز الذي تحرك جان فالجان فيه الآن أقل ضيقه من المجاز الأول . لقد مشى جان فالجان فيه بصعوبة فلم تكن امطار اليوم السابق قد صرَّفت كلها ، وكانت قد أنشأت سيلاً صغيراً وسط المبالغة ؛ وكان مضطراً إلى الالتصاق بالجدار لكي يقي قدميه خارج الماء . وهكذا مضى لسبيله في الدجنة . لقد أشبه مخلوقات الليل المتلمسة طريقها في اللامنظور ، الضائعة تحت الأرض في عروق الظلام .

و مع ذلك . ف شيئاً بعد شيء ، عاودته القدرة على بعض الإبصار الغامض - سواء بسبب من أن بعض المanford بعثت بقليل من الضوء الطاف في هذا الضباب الكثيف ، أو بسبب من أن عينيه أصبحتا تألفان الظلمة - وبدأ يلم الماماً غامضاً بالجدار الذي كان يمسه ، حيناً . وبالعقد الذي كان يعيش تحته ، حيناً آخر . إن الحدقة تتسع في الظلام ، ثم تجد النهار فيه ، كما تتسع الروح في الشقاء وتنتهي باكتشاف الله فيه .  
وكان اهداوه إلى السبيل عيراً .

إن تحطيط البواليع يردد . إذا جاز التعبير ، صدى تحطيط الشوارع القائمة فوقها . كان في باريس ذلك العهد ألفان ومئتا شارع . فليتخيل كل أمريء ، تحتها ، تلك الغابة من التشعبات المظلمة التي ندعوها باللوعة . ولو أن البواليع التي كانت موجودة في ذلك العهد وصلت اطرافها في خط مستقيم إذن لبلغ طولها أحد عشر فرسخاً . ولقد سبق منا القول إن الشبكة الحاضرة لا يقل طولها ، بفضل النشاط الاستثنائي الذي تم في السنوات الثلاثين الأخيرة . عن سبعين فرسخاً

وببدأ جان فالجان بغلطة . لقد ظن انه تحت شارع سان دونيز . وكان من سوء طالعه انه لم يكن هناك . ان تحت شارع سان دونيز بالوعة حجرية عتيقة ترقى إلى عهد لويس الثالث عشر ، وتمضي في خط مستقيم إلى بالوعة المجمعة ، المسماة بالوعة العظمى . وهي ذات منعطف واحد ، إلى اليمين ، على ارتفاع « فناء العجائب » القديم ، وفرع واحد ، بالوعة سان مارتين ، تتقاطع أذرعه الاربعة على شكل صليب . ولكن دهليز الد « بيتت تروواندرى » الذي كان المدخل إليه قرب حانة كورنث لم يتصل قط بالجزء القائم تحت الأرض من شارع سان دونيز : إنه ينتهي إلى بالوعة مونمارتر ، وفي هذه بالوعة بالذات كان جان فالجان قد تورط . هناك كانت امكانيات الملائكة موفرة . وبالوعة مونمارتر من أعقد بواليع الشبكة القديمة وادعاها إلى الصلال . ومن حسن حظ

جان فالجان انه كان قد خلف وراءه بالوعة الاسواق التي يمثل مخططها الهندسي جمهورة من سواري البيغاء المتشابكة . ولكن كان أمامه اكثراً من لقاءُ مربك ، واكثراً من زاوية شارع – لأن هذه هي شوارع – تمثل في الظلام مثل علامة تعجب . كان إلى يساره . اولا ، بالوعة الـ « بلاطير » العريضة ، ضرب من الاحجية الصينية ، « مطيلة » ومشوّشة عباءها المؤلف من اشكال تشبه حرف T و Z تحت الـ « اوتيل دي بوست » وتحت البناء المدور المقبب الخاص بسوق القمح حتى الـ « سين » حيث تنتهي بما يشبه حرف Z . وكان إلى عينه ، ثانياً . رواق شارع « كادران » الملتوى بأستانه الثلاث التي تتألف من جمهرة من الطرق غير النافذة . وكان إلى يساره ، ثالثاً ، امتداد الـ « ميل » المشتبك منذ مدخله تقريباً بضرب من امتداد المذراة ، المتقدم في خطوط متعرجة إثر خطوط متعرجة ، لينتهي آخر الأمر إلى سرداد الملوفر المفرغ الضخم ، المقطوع والمشعب في جميع الاتجاهات . وأخيراً ، كان إلى عينه مجاز شارع « الجوتور » غير النافذ ، عدا المواطن المنعزل هنا وهناك ، قبل أن يصل إلى البالوعة المركزية التي تستطيع وحدتها ان تقوده إلى منفذ ما قصي إلى درجة تبعاه آمناً :

ولو قد كان لجان فالجان أي معرفة بما ذكرناه الاحظة اذن لادرك في سرعة ، من مجرد مس الجدار ، انه لم يكن في الدهليز تحت الأرضي من شارع سان دونيز . وببدلاً من الحجر العتيق المنحوت ، وببدلاً من الهندسة المعمارية القديمة ، المتعجرفة والملوكية حتى في البالوعة ، ذات الارضية والمداميك الفرانتية والملاط الكثيف الكلس ، التي تكلف الياردة الواحدة منه ثمانية ليرة ، بدلاً من هذا كله كان خليقاً به أن يستشعر تحت يده الرُّخْص المعاصر والتَّدِبِير الاقتصادي ، وحجارة الرَّحْى المشورة فوق ملاط مائي على طبقة من الاسمنت يكلف المتر الواحد منها مائتي فرنك ، وهندسة المعمار البورجوازية المعروفة بمواد البناء الصغيرة . ولكنه

ما كان يعرف شيئاً من ذلك كله .

وتقديم إلى أمام ، في حصر ، ولكن في هدوء ، غير مبصر شيئاً ، غير عارف شيئاً ، غالباً في المصادفة ، يعني مغموراً بالعناية الالئية ؛ وشيئاً بعد شيء - ويتعين علينا ان نقول ذلك - ساورة شيء من الربع . لقد دخل الظلام الذي غلّفه إلى عقله . كان يعيش في الحجية . ان قناة البالوعة هذه لرهيبة ، إنها تتشابك على نحو يوقع الدوار في الرأس . وإنه شيء كثيف أن يقع المرء في شرك باريس الظلمة هذه . واضطرر جان فالجان إلى أن يكتشف ، بل إلى أن يختبر تقريراً ، طريقه من غير أن يراها . وفي ذلك المجهول كان من العجائز ان تكون كل خطوة يغامر في القيام بها هي الخطوة الأخيرة . كيف السبيل إلى خروجه من هناك ؟ أيعين عليه ان يجد مخرجاً ؟ وهل سيوفق إلى اكتشافه في الوقت المناسب ؟ هل ستتجزئ له هذه الأسفنجية ، تحت الأرضية ، الهائلة ذات الخلايا الحجرية ان ينفذ إليها ويخترقها ؟ هل يواجه عقدة ظلام غير متوقعة ؟ هل يلقي ما هو مستعرض وما لا يمكن تجاوزه ؟ هل يموت ماريوس من نزف الدم ، ويموت هو من الجوع ؟ هل يهلكان كلاهما ، هناك ، آخر الأمر ، ويصبحان هيكلين عظميين في زاوية من زوايا ذلك الليل ؟ لم يكن يدرى . لقد طرح على نفسه هذه الأسئلة كلها ولكنه عجز عن الجواب . ان مصران باريس هاوية . لقد كان جان فالجان ، شأن النبي ، في جوف المولدة .

وفجأة استبد به الدهش . فلحظة كان أقل ما يكون توقعه لذلك ، «من غير ان يكفي عن السير في خط مستقيم ، اكتشف انه لم يعد يصعد البتة . لقد اخذت مياه الجدول تصدم عقبيه بدلاً من ان تصدمه عند أعلى قدميه . لقد انخفضت البالوعة ، الآن . ماذا ؟ هل يصل تقريراً إلى الآسين » ؟ كان هذا الخطر عظيماً ، ولكن خطر الارتداد كان اعظم؛ وواصل تقطمه .

إنه لم يكن يتوجه نحو الـ «سين» . والستان الذي تشكله طوبوغرافيا باريس على الصفة اليمى يُفرغ أحد منحدريه في الـ «سين» ، والآخر في البالوعة العظمى . وقمة هذا السنان التي تعين انقسام المياه تتبع خطأً قليلاً إلى حد بعيد . أما الذروة ، التي هي نقطة انقسام السيل ، فهي في بالوعة سان آفوا ، وراء شارع ميشيل دو كونت ، في بالوعة الاوفر، قرب الجادات ، وفي بالوعة موغارتر ، قرب الاسواق . وإلى تلك الترورة كان جان فالجان قد وصل . كان يتخذ سبيله نحو البالوعة المطروقة ، كان يسلك الطريق الصحيح . ولكنه لم يعرف من ذلك شيئاً . كان كلما انتهى إلى تشعب جديد تلمسَ الروايا ، فإذا وجد الفتحة أقل عرضًا من الرواق الذي كان فيه لم يدخل ، وتتابع طريقه ، مقدراً بحق أن كل طريق أضيق لا بد أن تنتهي إلى زقاق غير نافذ ، وإن تبعده عن المدف ، يعني عن المخرج . وهكذا اجتنب الوقوع في الشرك الرابع الذي نصبه له في الظلام تلك المتاهة الأربعة التي عدناها منذ لحظة .

وفي احدى اللحظات ، استشعر أنه يبتعد من تحت باريس التي حجرتها الفتنة ، حيث عطلت المدارس حركة المواصلات ، وأنه كان يعاود الدخول إلى ما تحت باريس الناشرطة السوية . وفجأة ، سمع فوق رأسه صوتاً كالرعد ، قصياً ولكنه موصول . تلك كانت اصداء العربات المطلقة .

كان قد سلخ نحواً من نصف ساعة وهو يمشي ، وفقاً لحسابه على الأقل ، ولم يكن قد فكر بعد في الراحة . كل ما في الأمر أنه غير اليدين التي كانت تحمل ماريوس . كانت الظلمة احلك منها في أي لحظة مضت ، ولكن هذا العمق أعاد الثقة إلى نفسه . وفجأة رأى خياله أمامه . لقد بُرِزَ فوق احرمار واهن يكاد يكون غير واضح ، خُضب الأرض عند قدميه والعقدَ فوق رأسه بالارجون

خضياً غامضاً ، وانزلق إلى يمينه وإلى يساره على جداري الرواق الدبقين .  
واستدار في ذهول :

وراءه ، في ذلك الجزء من الدهلiz الذي اجتازه ، وعلى مسافة  
بدت له هائلة . توهيج — مرسلاً اشعته إلى الظلمة الكثيفة ، شبه كوكب  
رهيب بدا وكأنه ينظر اليه .

كانت نجمة البوليس القائمة هي التي اخذت تطلع في الالوعة .  
وخلف هذه النجمة كان يتحرك ، في غير نظام ، ثمانية أو عشرة  
أشكال سوداء ، مستقيمة . فظيعة ، غير واضحة .

## ٣

### تفسير

في اليوم السادس من حزيران كانت السلطة قد أصدرت أوامرها  
بتغيير البوليس . لقد خشيت أن يفزع إليها المخلوبون ، فكان على مدير  
الشرطة جيسكيه أن يفتح باريس المستورة ، وكان على الجنرال بوغو أن  
يكنس باريس العمومية ؛ عملية متشابكة مزدوجة اقتضت استراتيجية  
مزدوجة من القوات العامة الممثلة في المحل الأعلى بالجيش وفي محل  
الادنى بالبوليس . ورادت ثلاثة مفارز من رجال الشرطة وعمال البوليس  
شارع باريس تحت الأرضية : الأولى رادت الضفة اليمنى . والثانية  
رادت الضفة اليسرى ، والثالثة طوقت في المدينة .

كان رجال الشرطة مسلحين بالبنادق القصيرة الخفيفة . والنبأيت ،  
والسيوف ، والمخابز .

وكان الذي وُجه في هذه اللحظة إلى جان فالجان هو فانوس العسس  
المطوفين في الضفة اليمنى .

وكان هؤلاء العسس قد زاروا ،منذ لحظة ، الدهليز الملتوي والدروب الثلاثة غير النافذة الممتدة تحت شارع «كادران». وفيها كانوا يجربون مشعلهم في قعر هذه الدروب غير النافذة ، كان جان فالجان قد صادف في طريقه مدخل الدهليز ، وكان قد وجده أضيق من المجاز الرئيسي ، فلم يدخله . كان قد تجاوزه ، وكان رجال الشرطة قد ظنوا ، عند دهليز «كادران» ، انهم سمعوا وقع اقدام في اتجاه البالوعة المطروقة . كان ذلك في الحق وقع خطوات جان فالجان . ورفع قائد العسس فاتوسه وشرع في الفرقة تحدق في الظلام إلى حيث انبعث الصوت :

تلك كان لحظة لا سبيل إلى وصفها ، بالنسبة إلى جان فالجان :  
وإذا كان قد رأى القانونس جيداً ، فإن القانونس لم يره ، لحسن حظه ، إلا على نحو رديء . كان القانونس ضياء ، وكان هو ظلاماً : كان بعيداً جداً ، يغمره سواد المكان . وازوى في جانب الجدار ، ووقف .

ومع ذلك ، فإنه لم يكن فكرة عما كان يعني خلفه هناك . كان الأرق والجوع والانفعال قد القت به ، هو أيضاً ، في الحالة الوهمية . لقد رأى الشاعراً ، ورأى حول ذلك الالتباع بعض البرقانات . أي شيء كان ذلك ؟ إنه لم يفهم .

حتى إذا وقف جان فالجان انقطعت الضجة :  
وأصغى العسس ، فلم يسمعوا شيئاً ، ونظروا ، فلم يروا شيئاً . وتشاوروا .

وكان على هذه النقطة من بالوعة مونمارتر ، آنذاك ، شبه مفرق طرق يدعى «دو مرفيس» الذي منذ ذلك الحين بسبب من البحيرة الداخلية الصغيرة المنشكلة فيه نتيجة لانحسار مياه الامطار وسيولها ، هناك ، اثناء العواصف القوية : وكان في ميسور العسس ان يتجمعوا في مفرق

\* البرقانة ، دودة تتحول الى حشرة .

الطرق ذاك .

ورأى جان فالجان هذه البرقانات تشكل شبه دائرة . وتفاوتت رؤوس هذه الكلاب الكبيرة ، وتهامست .

وكانت نتيجة هذا المؤتمر الذي عقدته كلاب الحراسة ان القوم كانوا مخدوعين ، وانه لم تكن ثمة ضجة ، ولم يكن ثمة احد ، وان من العبث الذي لا طائل تحته ان يتورطوا في البلوغة المطروقة ، وان ذلك مضيعة للوقت ، ولكن عليهم أن يسرعوا في اتجاه سان ميري ، وانه إذا كان ثمة ما يُعمل واذا كان ثمة « قبعة بحرية » يجب ان يُفَتَّصَ اثراها فينبغي ان يتم هذا في ذلك الحي .

في بين الفينة والفينية تضع فرق الجندي نعالا جديدة لاهاناتها العتيقة . وفي عام ١٨٣٢ كانت كلمة « قبعة بحرية » *bousingot* تمثل مرحلة الانتقال بين كلمة « يعقوبي » *jacobin* التي كانت قد بليت ، وكلمة « ديماغوجي » *demagogue* التي كانت قد أمست غير مستعملة تقريباً والتي كانت قد أدت منذ ذلك الحين خدمة ممتازة ضخمة جداً .

واصدر الضابط أمره بالانحراف يساراً نحو منحدر الد « مين » . ولو قد خطر لهم ان ينقسموا فرقتين ويضموا في كلا الاتجاهين اذن لوقع جان فالجان في الاسر . كان ذلك متوقعاً على هذا الخليط الواهي . واغلبظن ان تعليمات مديرية البوليس ، وقد توقعت نشوب معركة وقدرت ان يكون عدد المتمردين كبيراً ، حظرت على العسس ان يتفرقوا . واستأنفت الدورية سيرها ، مخلفة جان فالجان وراءها . ومن هذه الحركات كلها لم يحس جان فالجان إلا بكسوف الفانوس الذي استدار في الحال .

ولكي يريح الضابط ضميره البوليسي اطلق نار بندقيته القصيرة ، قبل مغادرته المكان ، في اتجاه النقطة التي كانوا يغادرونها ، اي نحو جان فالجان . وذكر الdoi من صدى إلى صدى في العقد مثل قرقرة ذلك المعي المائل . وكان في بعض الجسيمين الذي تساقط في السيل فأهاج المياه

هياجاً خفيفاً على بعض خطوات من جان فالجان ما جعله يدرك ان الرصاص كان قد اصاب العقد فوق رأسه .

وتصادت خطوات بطيئة موزونة على ارض الشارع فترة من الزمن ، وكانت تلك الاصداء تزداد وهنأ على وهن كلما تعاظم تباعد المسافة التدريجي ، وغاب الجمع ذو الاشكال السوداء ، وتذبذب ويمض " وانشأ يطفو ، محدثاً في العقد قوساً ضارباً إلى الحمرة تضاءل ثم اختفى ، وامست الظلمة عميقة كرها اخرى ، وعاد العمى والصمم فاستبدوا بالعتمة من جديد . وظل جان فالجان ، ولم يكن قد جرؤ بعد على الحركة ، واقفاً فترة طويلة مولياً الجدار ظهره ، مرحف الاذنين ، متسع الحدقتين ، مراقباً نلاشي دورية الاشباح تلك .

### ٣

## المطاردة المترقبة

وينبغي ان نعرف لشرطة ذلك العهد بأنها كانت توئي واجبها الحراسية والصحية ، حتى في أشد الازمات الشعية خطرأ ، في هلوء ورباطة جأش . انها ما كانت لترى في نشوب الفتنة ذريعة لالقاء حبل الاشرار على غواربهم ، او لأهمال المجتمع لأن الحكومة في خطر . كان الواجب الاعتيادي يوئي على احسن وجه بالإضافة إلى الواجب الاستثنائي ، ولم يكن هذا الاخير ليعرف الاول . ففي غمرة من وقوع حدث سياسي ضخم ، وتحت ضغط من ثورة قد تتشب ، كان ضباط الشرطة يطاردون اللصوص في تربص ، غير مميزين للفتنة وللمتراس ان يصرفاهم عن مهمتهم .

إن شيئاً مثل ذلك بالضبط حدث بعد ظهر اليوم السادس من حزيران

حل شاطئه الـ « مين » ، منحدر الفضة اليمنى ، وراء جسر الانفاليد بقليل .

وليس ثمة اليوم منحدر لتلك الضفة ، فقد تغيرت معالم المكان لقد بدا وكأن رجلين ، تفصل ما بينهما مسافة ما ، كانا يتحالسان النظر ، عند ذلك المتعدد ، ويحاول كل منها أن يجتذب الآخر . كان الرجل المتقدم يحاول أن يوسع الشقة الفاصلة ، وكان الرجل المتخلف يحاول أن يتقصها .

كان ذلك أشبه بلعبة شطرنج تلعب من بعيد ، وعلى نحو صامته ان ايّاً منها لم يهد سرعاً ، ولقد مشيا كلاهما في ببطء ، وكان كلاً منها كان يخشى ان يكون في مبالغته في الاسراع ما يضاعف سرعة خطوات ملائمه .

كان في ميسور المرء ان يقول أنها شهوة إلى الطعام تطارد فريسة ما ، من غير أن يedo وكأنها تفعل ذلك عن عمد ؛ وكانت الفريسة مخادعة ، وكانت تتلزم الحذر .

وروعيت النسب المطلوبة بين التمس المطارد والكلب المطارد . كان لذلك الذي يحاول ان يفر مشية واهنة ومحباً مهزول . وكان ذلك الذي يحاول المطاردة — وهو رجل فارع الطول — قاسي المظهر ، ولا ريب في انه كان قاسي المخبر .

كان الأول ، وقد استشعر انه اضعف الرجلين ، يحاول التخلص من الثاني ، ولكنه كان يفعل ذلك على نحو ضار جداً . ولو قدر لأحد ان يلاحظه اذن لرأى في عينيه ضغينة الفرار القاتمة ، وجميع ما في الخوف من توعد .

كان الشاطيء مهجوراً . لم يكن ثمة احد من عابري السبيل . بل لم يكن ثمة ربابنة زوارق أو ناقلو بضائع من السفن إلى البر فوق القوارب

المسطحة المربوطة بالأقلام . هنا وهناك .

ولم يكن في الامكان رؤية هذين الرجلين في يسر إلا من رصيف النهر المقابل . ولقد كان خليقاً بذلك الرجل ، الماشي في المقدمة ، ان يسدو ملن قدر له ان يراه من تلك المسافة ، وكأنه مخلوق شائك ، ممزق الثياب ذليل ، قلق مرتعد تحت دراءة بالية ، وخليقاً بذلك الرجل الآخر ان يبدو مثل شخص كلاسيكي رسمي يرتدي معطف السلطة مزرياً حتى الذقن .

ولعله كان في ميسور القاريء ان يعرف هذين الرجلين لو رآهما من مسافة أقرب .

ما كانت غابة الرجل الآخر ؟  
لعلها كانت إلباسَ الأول ثياباً أكثر دفناً .

فحين يطارد رجل يرتدي ملابسه باسم الدولة رجلاً يرتدي اسمه بالية فهو إنما يفعل ذلك لكي يلبسه هو أيضاً ملابس من عمل الدولة . إن اللون وحده هو الذي يقرر المسألة كلها : فالملابس الزرقاء تضفي عليك المجد ، والملابس الحمراء تثير كراهيتك .  
إن ثمة ارجواناً أعمق .

ولعل الرجل الأول كان يرغب في اجتناب مكروه ما ، أو الفرار من مثل هذا الضرب من الارجون .

وإذا كان الآخر يميز له ان يتبع سبيله من غير أن يلقي القبض عليه فقد كانت جميع المظاهر تدل على انه كان يفعل ذلك املاً في ان يراه ينتهي إلى موعد ذي شأن ، أو إلى عدد من المغائم السمينة . وهذه العملية الدقيقة تدعى «المطاردة المترقبة» .

والذي يرجح هذا الظن هو ان صاحب السترة المحكمة التزرير ، وقد لمح من الشاطئ عجلة كراء نهر بالرصيف فارغة ، اشار إلى السائق :

---

\* القلس : حبل ضخم للسفينة من خوص او غيره .

وفهم السائق ، مدركًا من غير شك من الذي كان يخاطبه ، وادار حصانه ، وشرع يتبع الرجلين في القسم الأعلى من الرصيف بأكثر ما تستطيعه العربة من بطء . إن الشخص المبهم الرث الثياب ، الماشي في الجهة الامامية ، لم يلحظ ذلك ؟

وكررت العجلة بعذاء اشجار الشان زيليزيه . كان في امكان المرء ان يرى جذع السائق يتحرك فوق الحاجز ، والسوط في يده .

إن تعليمات الشرطة السرية لرجالها تنطوي على هذه المادة : « ليكن في متناولكم دائمًا عربة تستطيعون امتطاؤها عند الحاجة . »

وفيما كان هذان الرجالان يناوران ، كل من ناحيته ، باستراتيجية خلو من العيب ، اقتربا من احد منحدرات الرصيف المابطة حتى الشاطيء ، والتي كانت تساعد سائقي العربات القادمة ، في ذلك العهد ، من « باسي » ، على الذهاب إلى النهر لاطفاء ظماً خيولهم . ولقد ازيل هذا المنحدر ، منذ ذلك الحين ، ابتغاء الانسجام . إن الخيل لتموت ظماً ، ولكن العين قريرة .

لقد بدا أن المتوقع أن يصعد الرجل ذو الدراعة في هذا المنحدر لكي يحاول الفرار إلى الشان زيليزيه ، وهو موطن مزدان بالأشجار ، ولكنه غاص برجال الشرطة ، حيث كان في إمكان الرجل الآخر أن يقبض عليه بيد قوية .

وهذه النقطة من الرصيف قريبة جداً من المنزل الذي حمله الكولونييل براك من موريه إلى باريس ، عام ١٨٢٤ ، والمدعو بيت فرنسيس الأول . كان ثمة مركز للحراسة قائم على مقربة دائنة من هناك .

ولكن الرجل المطارد لم يتخذ سبيل منحدر المنهل ، مثيراً بذلك دهشة المراقب البالغة . لقد واصل تقدمه على الشاطيء في محاذة الرصيف .

كان وضعه قد أمسى حرجاً على نحو واضح .

واذا لم يكن يقصد إلى القاء نفسه في الـ « بين » مما الذي يتغنى

أن يفعله ؟

لم يعد ثمة ، منذ الآن ، إما وسيلة لارتفاع الرصيف . لم يكن هنالك لا منحدر ولا سلم . وكانت جد قريين من تلك البقعة التي ينبعطف إلى « سين » عندها نحو جسر إلينا ، حيث يضيق الشاطيء شيئاً بعد شيء لينتهي بلسان طويل ، ويغيب تحت الماء . وهناك كان لا بد من أن يجد نفسه محصوراً بين الجدار الشديد الانحدار ، إلى عينه ، والنهار إلى يساره وتجاهه ، والسلطة وراءه .

صحيح أن أقصى الشاطيء هذا كان محبوباً عن النظر بركام من الردم يتراوح ارتفاعه ما بين ستة أقدام أو سبعة أقدام ، نتيجة لتخريب ما . ولكن أكان هذا الرجل يطمع في الاختباء ، على نحو مفید ، خلف ركام الردم هذا الذي لم يكن على الرجل الآخر إلا أن يستدير حوله ؟ لقد كان خليقاً بتلك الحيلة أن تكون صبيانية . وليس من ريب في أنه لم يفكر بها الفتاة . إن براءة النصوص لا تبلغ هذا الحد . واحدث ركام الردم ضرباً من الرابية ، عند حافة الماء ، تطاول مثل رأس أرضي حتى جدار الرصيف .  
وبلغ الرجل المطارد هذه التلة الصغيرة ، وتجاوزها بحيث لم يعد في ميسور الآخر أن يراه .

واذ لم يعد في ميسور الرجل الآخر أن يرى فانه ما عاد يرى . وأفاد من هذا الوضع لكي يتخل عن المواربة كلها ، ولكي يغدو السير . وما هي إلا بضع ثوان حتى انتهى إلى ركام الردم واستدار حوله . وهناك ، وقف في انشداه . كان الرجل الذي طارده قد اختفى :

لقد ألم بالرجل ذي الدراعة كسوف كامل .

ولم يكن طول الشاطيء المتمد خلف ركام الردم ليزيد على ثلاثة خطوة ، ليغوص بعد ذلك في المياه المتلاطمـة على جدار الرصيف .  
لقد كان من المتعذر على الآبق ان يقذف بنفسه في الـ « سين » ، أو

ان يتسرور رصيف النهر من غير ان يراه ذلك الذي كان يتعقبه . ما الذي حل به ؟

ومشي الرجل ذو السترة الطويلة المحكمة الازرار إلى أقصى الشاطيء ، ووقف هناك لحظة مفكراً ، وقد تشنج جمعاً كفيه ، وشرعت عيناه تبختان . وفجأة ضرب جيئه براحة يده . كان قد لاحظ في النقطة التي انتهت اليابسة عندها وببدأ الماء ، شبكة حديدية عريضة منخفضة ، مقوسة ، ذات قفل ثقيل وثلاث رزات ضخام . وكانت هذه الشبكة الحديدية ، وهي ضرب من الباب اقيم في قعر الرصيف ، تنفتح على النهر بقدر ما تنفتح على الشاطيء . وجرى من تحتها جدول ضارب إلى السواد . وكان هذا الجدول يصب في نهر السين .

وخلف قضبانها الثقيلة الصدئة كان في استطاعته ان يتبعن ضرباً من الرواق المقتطع المظلم .

وطوى الرجل ذراعيه ، ونظر إلى الشبكة الحديدية نظرة توبيخ . واذ كانت هذه النظرة غير كافية فقد حاول أن يدفع الشبكة . ثم انه هزها ، فقاومت في ثبات . كان من الراجح أنها فُتحت منذ لحظة ، على الرغم من ان صوتها ما لم يُسمع ، وتلك ظاهرة فريدة بالنسبة إلى شبكة حديدية على مثل هذا الصداً كلها . ولكن كان من الثابت أنها قد أوصدت كثرة اخرى . وهذا ما يوْذن بأن الشخص الذي افتح هذا الباب في وجهه منذ لحظة لم يكن يحمل كلاماً صغيراً ولكن مفتاحاً .

لقد التمعت هذه الحقيقة الواضحة فجأة في ذهن الرجل الذي كان يبذل قصارى جهده لتحريرك الشبكة الحديدية ، وانتزع منه هذه الخاتمة الحكيمية :

— « شيء رائع ! مفتاح من مفاتيح الحكومة ! »  
ثم انه هدأ نفسه في الحال ، وعبر عن عالم كامل من الفكريات الباطنية بهذه النفحة من الكلمات الوحيدة المقطع ، الموجعة نوقيعاً يكاد يكون

تهكمياً :

- « حسن ! حسن ! حسن ! حسن ! »

حتى إذا قال ذلك ، وقف على قدم الحذر خلف ركام الردم ، بمثيل السورة الصبور التي يتكتشف عنها كلب من تلك الكلاب التي توقف قرب الطرائد بانتظار وصول الصياد ، وإن كان أحد لا يدرى أكأن يرجو من وراء ذلك أن يرى الرجل يخرج من هناك أم أن يرى رجالا آخرین يدخلون .

أما عجلة الكراء ، التي تابعت حركاته جميعاً ، فكانت قد وقفت فوقه قرب الحاجز . وأذ توقع السائق انتظاراً طويلاً فقد ادخل خطأمي فرسبيه في كيس الشوفان الرطب الذي يعرفه الباربيسون جيداً ، والذى تصطعنه الحكومات - ولنقل ذلك بين معتبرتين - معهم في بعض الأحيان . وأدار بعض عابري السبيل فوق جسر أينما رؤوسهم . قبل أن يبتعدوا ، لكي يروا لحظة إلى هذين المنظرتين الطبيعيين الجامدين : منظر الرجل على الشاطيء ، ومنظر عجلة الكراء على رصيف النهر .

٤

## وهو أيضاً يحمل صليبه

كان جان فالجان قد استأنف تقدمه ، من غير ان يقف كرة أخرى . وغدا هذا التقدم أكثر إجهاداً . إن مستويات هذه العقود لتفاوتوت . وإن ارتفاعها المتوسط ليبلغ نحو من خمسة أقدام وست بوصات ، مقدراً على أساس من قامة رجل من الرجال . واضطرب جان فالجان إلى الانحناء لكي لا يصيب ماريوس من العقد أذى ما . كان عليه ان يطأطيء رأسه كل لحظة ، ثم يتصدر من جديد ، ويتمس الجدار من غير انقطاع :

وكان رطوبة الحجارة ولزوجة الأرض قد جعلت منها نقاط ارتكاز  
ديئة ، سواء لليد أم للقدم . كان يترنح في مزبلة البلد الرهيبة . وكانت  
انعكاسات النور المتقطعة المتبعثة من منافذ الضوء لا تبدي إلا في فرات  
متباudeة جداً ، وعلى نحو خاب إلى درجة جعلت نور الظهيرة يسلو  
أشبه بضوء القمر . وكان كل ما عدا ذلك ضباباً ، والخنزير وبئته ، وعدم  
شفافية ، وسوداداً . كان جان فالجان جائعاً وظمآن . وكان ظماً بوجهه  
خاص؛ وهذا الوطن ، كالبحر ، مليء بال المياه التي لا يستطيع المرء ان  
يشربها . وكانت قوته ، الاعجوبية كما نعرف ، والتي لم توهن منها  
السن ، بفضل حياته العفيفة الزاهدة ، كانت قوته هذه قد بدأ رغم  
ذلك تضعف وتتراجع . واستبد به التعب ، وكان في تنافص قوته ما زاد  
في نقل حمله . كان وزن ماريوس — ولعله قد قضى نحبه — ثقلاً كسائر  
الاجسام التي لا حياة فيها . لقد حمله جان فالجان على نحو يقي صدره  
من الضغط ، ويجعل نفسه حراً ، دائمًا ، جهد الطاقة . لقد انتشر  
انسال الجرذان السريع بين رجليه . وكان احدهما قد دُعِر إلى حد  
إقدامه على عضه . وكانت تَفَدُّ عليه ، بين الفينة والفينية ، من خلال  
ما زر افواه البالوعة ، نسمة هواء جديد تتعشه .

ولعلها كانت الساعة الثالثة بعد الظهر عندما وصل إلى البالوعة المطوية .  
ودهش ياديء الامر لهذا الاتساع المفاجئ . وفجأة ، وجد نفسه في  
دهليز ما كانت يداه المسوطتان لتبلغا جدرانه ، وتحت عقد ما كان رأسه  
ليمته . إن البالوعة العمظيم ليبلغ عرضها ، في الحق ، ثمانية أقدام ،  
وعلوها سبعة .

وحين تتصل بالوعة مونمارتر بالبالوعة العمظيم كان دهليز ان تختر ضيابان آخران ، دهليز شارع بروفانس ودهليز شارع الآباتوار ، يلتقيان  
فيشكلان مفرق طرق . ولقد كان خليقاً بما رجل أقل حكمة من جان

---

\* اي متدان تحت الأرض .

فالجان ان يتردد امام هذه الطرق الأربع . ولكن جان فالجان ملك السبيل الاعرض ، يعني بالبالوعة المطوقة . ولكن السؤال ما لبث ان نشأ، هنا ، من جديد : أبيبط ، أم يصعد ؟ وفكراً أن الوضع حرج ، وان عليه ان يبلغ الى « سين » منها تكن المخاطر . وبكلمة اخرى ، كان عليه ان بيبط . وانعطف إلى اليسار .

وحسناً فعل . ذلك ان من الخطأ ان نحسب أن للبالوعة المطوقة منفذين أحدهما نحو بيرسي ، والآخر نحو باسي ، وأنها كما يوحى اسمها الحزام التحراري لباريس الضفة اليمنى . ان البالوعة العظمى التي لا تعدو ان تكون ، كما ينبغي ان تذكر ، جدول مينيلمونتان العتيق ، تنتهي حين نصعد فيها إلى زقاق غير نافذ ، يعني إلى منطلقها القديم ، الذي كان ينبعُّها ، عند سفح تل مينيلمونتان . وليس ثمة اتصال مباشر يربطها بالامتداد الذي يجمع مياه باريس تحت حي بوينكور ، والذي يصب في الى « سين » من طريق بالوعة آميлю فوق جزيرة لوفيه القديمة . وهذا الامتداد ، الذي يتمم البالوعة المجمعة مفصول عنها ، تحت شارع مينيلمونتان نفسه ، بجدار صلب يعين نقطة انقسام الماء إلى مياه عليا ومياه سفل . ولو قد صعد جان فالجان في ذلك الدهليز اذن لانتهى بعد ألف جهد ، وقد هذه الاعباء واشرف على الهالك وسط الظلام - إلى سور . لو قد فعل اذن لكان الهالك مصيره .

وبكلمة دقيقة ، فالنكورص على عقبه قليلاً ، والدخول إلى بجاز « بنيات كالغبار » ، إذا لم يتردد عند مفرق بوشيرا ، وباحتياز رواق سان لويس ، ثم - إلى اليسار - مر سان جيل ، وبعد ذلك بالانعطاف إلى اليمين واجتناب المرور في دهليز سان سيباستين كان من الممكن ان يبلغ بالوعة آميлю ، ومن هناك - شرط ان لا يضل في ذلك الضرب من حرف الـ F الذي تحت الباستيل - كان من الممكن ان يبلغ المنفذ الذي على نهر السين قرب « دار الصناعة » . ولكن كان يتبع عليه ، حتى يتم

له ذلك ، ان يكون على احسن العلم بذلك البالوعة الهايلة المشععة تشعب  
المرجان ، بجميع امتداداتها وجميع منافذها . بيد أنه ، كما يجب ان  
نكرر ، ما كان يعرف شيئاً من شبكة السبل الرهيبة هذه التي كان يشق  
طريقه خلاها . ولو ان امرأةً سأله اين كان ، اذن لكان خليقاً به أن  
يجب : « في الليل . »

وخدمته غريزته خدمة صالحة . كان المبوط ، في الواقع هو السبيل  
الوحيدة إلى الخلاص .

لقد ترك عن عينيه المجازين اللذين يتسببان على شكل خلب تحت شارع  
« لا فيت » وشارع سان جورج ، ورواق الد « شوبه داتين » الطويل  
المتشعب :

ووراء احد السواعد بقليل ، وكان هذا الساعد في أغلب الظن امتداداً  
لل « مادلين » ، كف عن المسر . كان متعباً جداً . وتسرب نور يكاد  
يكون ناضراً من احدى نوافذ الضوء ، لعلها الثقب الذي في شارع آنجوه  
ووضع جان فالجان ، بمثيل رفق اخ بأخيه الجريح ، ماريوس على حافة  
البالوعة . وبدا وجه ماريوس المضرج بالدم ، على ضوء النافذة الابيض ،  
وكأنه في قعر قبر . كانت عيناه مغمضتين ، وكان شعره ملتتصقاً بصدغيه  
مثل فرشاة جففت في الصبغ الاحمر ، وكانت يداه متخلتين في غير  
حياة ، وكانت رجلاه باردين ، وكان على زوايا فمه دم متختز . كانت  
جلطة دم قد اجتمعت في عقدة رباط رقبته . كان قميصه قد انغرس في  
الجراح ، وكان قماش سترته يمس الجراح الفاغرة فاها في اللحم الحي .  
وازاح جان فالجان الملابس باطراف أصابعه ، ووضع يده على صدر  
ماريوس . كان القلب لا يزال يخفق . ومزق جان فالجان قميصه ،  
وضمد الجراح أحسن ما استطاع ان يضمدها ، ووقف الدم المتدق .  
ثم انه انحنى في ذلك الغسق فوق ماريوس ، الذي كان لا يزال غائباً  
عن الرشد فاقداً الحياة تقريراً ، ونظر اليه في كراهية لا سبيل إلى التعبير عنها .

وكان قد وجد ، حين فتح ثياب ماريوس ، شيئاً اثنين في بعض  
جيوبه : قطعة الخبز التي نسيت هناك منذ البارحة ، وحافظة أوراق  
ماريوس . فأكل قطعة الخبز ، وفتح حافظة الأوراق . وعلى الصفحة  
الأولى ، وجد الاسطر الاربعة التي خطها ماريوس . إن القاريء ليذكرها .  
— « أسمى ماريوس بونيرسي . احملوا جثي إلى منزل جدي ،

مسيو جيلنورمان ، شارع بناط كالفير ، رقم ٦ ، في الماريه . »  
وعلى ضوء منفذ النور ، قرأ جان فالجان هذه الاسطر الاربعة ، ووقف  
لحظة وكأنه مستغرق في ذات نفسه ، مكرراً في همس : « شارع بناط  
كالفير ، رقم ٦ ، مسيو جيلنورمان . » واعصاد حافظة الأوراق  
إلى جيب ماريوس . كان قد أكل ، وكانت القوة قد عاودته . وحمل  
ماريوس على ظهره كرة أخرى ، واضعاً رأسه في عنابة فوق كفه  
اليمني ، واستأنف هبوط البالوعة .

ويبلغ طول البالوعة العظمى ، إذا سلك المرء طريق وادي مينيلمونتان ،  
فرسخين تقريرياً . وإن جزءاً كبيراً منها لمعبأ .

إن مشعل اسماء الشوارع الباريسية التي نضيء به للقاريء تقدم جان  
فالجان تحت الأرضي ، إن هذا المشعل لم يكن جان فالجان علمه . إن  
 شيئاً ما لم يخبره باي منطقة من المدينة كان يجتاز ، ولا أني طريقة  
كان قد سلك . كل ما في الأمر أن الشحوب المتعاظم الذي أصاب  
ومضات الصباء ، تلك الومضات التي كان يلمعها بين الفينة والفينية ،  
آذن بأن الشمس كانت تنسلب من حصباء الطريق ، وإن الليل يوشك  
أن يهبط . ومن جري العربات فوق رأسه . ذلك الجري الذي تحوال من  
موصول إلى متقطع والذي انتهى إلى أن ينقطع انقطاعاً كاملاً تقريرياً ،  
استثنى أنه لم يعد تحت باريس المركزية ، وأنه يقترب من  
أحدى المناطق المنعزلة ، في جوار الجادات الخارجية أو ارصفة  
النهر القصبة . وحيث تكون المنازل قليلة ، والشوارع قليلة ، تكون

منافذ الضياء أقل في البالوعة . وتكاثفت الظلمة حول جان فالجان . ومع ذلك ، فقد واصل تقدمه ، متلماً سبيلاً في الظلمة .  
وفجأة ، أمست هذه الظلمة فظيعة .

## ٥

### ان للرمل ، كما للمرأة ، رقة خادعة

لقد استشعر أنه يلتج الماء ، وأنه لم يعد تحت قدميه حجارة ، ولكن وحل .

وقد يتفق أحياناً ، في بعض شواطئ بريطانياً أو اسكنندة ، أن يكون المرء - رحالة كان أو صياد سمك - ماشياً على الشاطئ ، في فترة العَجْزَر ، بعيداً عن الضفة ، فيلاحظ فجأة أنه مشى منذ بعض لحظات بشيء من العسر . إن الشاطئ تحت قدميه أشهب بالزفت ؛ إن نعله ليتتسق به . إنه لم يعد رملاً ، لقد أصبح ديناً . إن الشاطئ جاف كل الجفاف ، ولكن ما ان يرفع الماشي قدمه ، في كل خطوة من خطاه ، حتى يمتليء الاثر الذي تختلفه بالماء . ان العين لم تلاحظ تغيراً ما ، على اية حال ، وإن الشاطئ الرحب أملس هاديء ، وللرمل كله مظهر واحد ، فليس ثمة ما يميز السطح الصلب عن السطح الذي لم يعد كذلك . وتواصل سحابة براغيث الرمل الصغيرة البهيجية وثوبها الصاخب على رגלי العابر . ويتابع الرجل طريقه . ويتقدم إلى أمام ، وينعطف نحو اليابسة ، ويحاول ان يزداد قرباً من الساحل . إنه ليس قلقاً . قلقاً من اي شيء ؟ كل ما هناك انه يحس بطريقة ما ، وكان نقل قدميه تزايد اثر كل خطوة يخطوها . وفجأة تغوص قدماه . أنها تغوصان إلى عمق يتراوح ما بين بوصتين وثلاث بوصات . وليس من ريب في انه

لا يسلك الطريق الصحيح . ويقف لكي يحدد اتجاهه . وفجأة . ينظر إلى قدميه . لقد اختفت قدماه . ان الرمل يغطيها . ويسحب قدميه من الرمل ، ويرغب في النكوص على عقبيه ، ويستدير إلى الوراء . فلا تزداد قدماه إلا غرضاً . إن الرمل يرتفع إلى كاحليه ، ويترنح نفسه وينظر إلى اليسار ، ويرتفع الرمل إلى متصف رجله ، وينظر إلى اليمين . ويرتفع الرمل إلى باطن ركبتيه . وعندئذ يدرك . في ذعر ممتنع على الوصف ، أنه وقع في شرك الرمل الخاسف . وان تحته ذلك الوسط الرهيب الذي لا يستطيع المرء ان يسر فيه إلا بقدر ما تستطيع السمسكة ان تسبح خلاله . ويطرح حمله إذا كان مثقلًا بحمل ، ويتخفف كما تتحفف السفينة في ساعة الشدة . ولكن الاوان يكون قد فات ؛ ان الرمل قد انتهى إلى ما فوق ركبتيه .

وينادي ، ويلوح بقعته أو مendiله ، وينهر الرمل أكثر فأكثر . وإذا كان الشاطيء مهجوراً ، وإذا كانت اليابسة نائية أكثر مما ينبغي ، وإذا كانت كومة الرمل ذات شهرة بعيدة أكثر مما ينبغي ، وإذا لم يكن في الجوار بطلٌ ما . فعندئذ ينتهي كل شيء . ويقضى عليه بالغوص في الرمل المتحرك . إنه مقتضي عليه بذلك الدفن الرهيب ، الطويل ، الحقود ، المتعذر ابطاؤه أو تعجيله ، الدفن الذي يدوم ساعات ، والذي لا ينقضي ، والذي يستحوذ عليك وانت قائم ، حر ، وفي كامل عافيتك ، والذي يحرك من قدميك إلى أعمق بعض الشيء ، كلما بذلت جهداً وكلما اطلقت صيحة ، والذي يedo وكأنه يعاشك على مقاومتك بشدید قبضته على نحو مضاعف . والذي يعيد المرء ثانية ، في بطء . إلى التربة تاركاً إياه طوال الوقت ينظر إلى الأفق . والأشجار . والحقول الخضراء . ودخان القرى في السهل ، وأشعة السفن في البحر . وال المصايف الطائرة المفردة ، وأشعة الشمس ، والسماء . ان الغوص في الرمل المتحرك هو القبر الذي يتحول إلى مد ، والذي يرتفع في اعماق الأرض نحو كائن

حي . إن كل دفقة تكفين لا يعرف الرحمة . ويحاول الضحية ان يجلس ، ان يتعدد ، ان يزحف . إن كل حركة يأنها تدفعه ، وينتصر ، ويغوص ، ويستشعر ان الارض تتلعم . ويولول ، ويتسل ، ويختار الى السحب ، ويلتاع توجعاً ، ويأس . انظر اليه غائضاً في الرمل حتى الخصر ؛ إن الرمل ليبلغ صدره ، فهو لا يعود ان يكون تمثلاً نصيفاً . ويرفع ذراعيه ، وبطريق أنات حانقة ، وينشب اظافره في الشاطيء ، راغباً في التعلق بتلك القشة ، ويتکى على مرقيه ليخرج نفسه من ذلك الغمد المائع ، وينهد ، في صعر ؛ ويرتفع الرمل . إن الرمل ليبلغ منكبيه ، إن الرمل ليبلغ عنقه ؛ وإن وجهه وحده هو المنظور الآن . ويصبح الفم ، فيما لاه الرمل ؛ ويرين الصمت . وتظل العينان تحدقان . فيغلقهما الرمل ؛ ويسود الظلام . ثم يتناقص الجبين ، ويصفق شعر قليل فوق الرمل ، وتبنق يد ، وتخرق سطح الشاطيء ، وتحرّك وتلوّح ، وتحتفي . احياء مشوّوم ينتهي به رجل .

واحياناً يغوص الفارس مع فرسه ؛ واحياناً يغوص السائق مع عربته ؛ كل شيء مظلم تحت الشاطيء . إنه الفرق في مكان آخر غير الماء . إنها الأرض تفرق الإنسان . إن الارض ، وقد تحملها الاوقيانوس ، لتصبح شركاً . إنها تقدم نفسها وكأنها سهل ، وتغير فاما وكأنها مغاره . ان للهوة مثل هذه الخيانات .

وهذه الكارثة المشؤومة ، المكن حدوثها دائماً في هذا الشاطيء أو ذلك من شواطئ البحر ، كانت ممكنة ايضاً ، منذ ثلاثين سنة ، في بلوغه باريس .

فقبل أن تبدأ الأعمال الحامة عام ١٨٣٣ كانت شبكة باريس تحت الأرضية عرضة لانكسارات فجائية .

لقد نفذ الماء إلى بعض البقاع التحتية ، وبخاصة إلى التربة السريعة التفتت . ولقد انطوت الأرضية ، التي كانت من حجارة مرصوفة ، كما

هي الحال في البوالىع القديمة ، أو من كلس سريع التصلب على اسمه ، كما هي الحال في الدهاليز الجديدة ، بعد أن فقدت مسادها . والانطواء في أرضية من هذا الضرب هو صدع ، هو انهيار . وانهارت الأرضية في مسافة بعينها . وهذا الانصدام ، انفلاق لجة من الوحل ، كان يدعى في اللغة الخاصة الخسف *fontis* . ما الخسف ؟ انه رمل الشواطئ المتحرك يلقاء المرء فجأة تحت الأرض ؛ إنه شاطئ « جبل سان ميشيل » في بالوعة . إن التربة المتقوعة تكاد تكون ذاتية . وإن جميع جزيئاتها لتتدلى في وسط مائع . إنها ليست جزءاً من اليابسة ، وإنها ليست جزءاً من البحر . وقد يكون عمقها عظيماً جداً في بعض الأحيان . وليس ثمة ما هو أدعى إلى الرعب من مثل هذه المصادفة . وإذا هيمن الماء فعنده يكون الموت رشيق الحركة ؛ إن هناك ابتلاءاً . وإذا هيمنت اليابسة فعنده يكون الموت بطيناً ؛ إن ثمة غوصاً في الرمل المتحرك .

هل تستطيع ان تتصور مثل هذه الميتة ؟ وإذا كان الغوص في الرمل المتحرك رهياً على شاطئ البحر ، فكيف يكون في بالوعة ؟ فبدلاً من الهواءطلق ، والضياء الساطع ، ووضوح النهار ، وذلك الأفق الصافي ، وتلك الأصوات الرحبة ، وتلك السحب الحرة التي تنسكب منها الحياة ، وتلك القوارب المرئية في المدى البعيد ، وذلك الأمل المتخذ مختلف الأشكال ، وعابري السبيل الممكثين ، والتتجدة الممكثة حتى اللحظة الأخيرة – بدلاً من ذلك كله تقع هناك على الصنم ، والعمى ، وعلى عقد أسود ، وجوف قبر معد " سلفاً ، وعلى الموت في الوحل تحت غطاء ! وعلى الاختناق البطيء بالقفر ، وعلى صندوق حجري حيث ينشب الموت اختناقاً مخلبه في الحمام ويأخذ بخناقله ، وعلى التنانة ممزوجة " بخشقة الموت . وحل بدلاً من الرمل ، هيدروجين مُسْكُرَّاتٌ بدلاً من الأعصار ، واقذار بدلاً من الاوقيانوس ! هناك تصرخ متادياً ، وتتصدر على استانك ، وتتلوي توجعاً ، وتناضل ، وتخسرج ، وقد جهلت تلك المدينة المائة" القائمة فوق

وأَسْكِنْ كُلَّ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ بَلَاءٍ .

إن الموت على هذا النحو هولٌ لا سبيل إلى وصفه ! وفي بعض الأحيان يكفر الموت عن قسوته البالغة ببعض الشرف الرهيب . فعل الخاوزق ، وفي السفينية الغارقة ، قد يكون المرء عظيماً . في اللهب ، كما في الزبد ، يكون الوضع الباهي ممكناً . إنك لتسأله وانت تسقط في تلك الهاوية . ولكن "ليس هنا البتة . إن الموت هنا قاتل . وان العار من تلفظ انفاسك . إن آخر الروى الطافية لحقيقة" . ال محل مرادف للعار . إنه وضيع ، بشع ، مرذول . الموت في برميل خمر يوناني ، مثل كلارنس ، قد يكون مقبولاً . أما الموت في حفرة رافع ال محل ، مثل ايسكوبيلو ، فذلك شيء رهيب . إن النصال في جوف تلك الحفرة لفظيع . ففيما انت تخسرج بصيتك ال محل . ان فيها لظلمة كافية لجعلها جحيناً ؛ وان فيها لوحلاً كافياً لجعلها حماة ليس غير ، ولا يسلري الرجل المحتضر هل سيفتح شبحاً أم علجموماً . . . القر مظلوم في كل مكان ، أما هنا فهو شأنه .

وكان عمق الخسف يتفاوت ، كما يتفاوت طوله وغلاظته ، تبعاً لمدى الرداءة التي يتسم بها باطن الأرض . ففي بعض الأحيان كان عمق الخسف ثلاثة أقدام أو أربعة ، وفي بعضها الآخر كان ثمانية أقدام أو عشرة . وأحياناً لم يكن للخسف قرارٌ ثابتة . كان الوحل هنا صليباً أو يكاد ، وكان هناك مائعاً أو يكاد . ففي خسف لونير كان اختفاء الماء يقتضيه يوماً كاملاً ، على حين كان في ميسور حمأة «فيليبي» ان تبتلعه في خمس دقائق . وصمود الوحل رهن بكثافته ، إن «قليلة» فقليل ، وإن «كثرة

\* Clarence أخوه ادورد الرابع ملك انكلترة . ولقيانه هذا الاخير حكم عليه بالموت . ويقولون انهم تركوا له حق اختيار وسيلة الموت ، فاختار الاغراق في بحر مليل ملء بالخمر البوذانية malvoie ( ١٤٤٩ - ١٤٧٨ )

\*\* المترجم : ضفدع الجيل .

لـكثير . وقد ينجو الطفل حيث يهلك الرجل . وأول قواعد السلامة ان تجرد نفسك من كل حمل . واطراح كيس الادوات ، أو السلة ، أو حوض الملاط ، هو أول ما يفعله عامل البواليع عندما يستشعر أن الأرض تنخسف تحت قدميه .

وكانت للخسف اسباب مختلـفات : سهولة<sup>١</sup> تفتـر التربـة ، وانصـداع<sup>٢</sup> ما على عـمق يعـجز المرء عن بلـوغـه ، وامـطار الصـيف الغـزيرـة العـنـيفـة ، وعواـصف الشـتـاء المـوصـولة ، والرـذاـذ الرـقـيق الطـوـيل . وفي بعض الأحيـان كانت وـطـأـةـ الـبـيـوتـ المـجاـوـرـةـ عـلـىـ تـرـبـةـ سـجـيـلـيةـ أوـ رـمـلـيـةـ تـضـغـطـ عـلـىـ عـقـودـ الـدـهـالـيـزـ تـحـتـ الـأـرـضـيـةـ وـتـلـوـيـهاـ ، وـقـدـ يـتـفـقـ أـنـ تـتـشـقـقـ أـرـضـيـةـ الـدـهـالـيـزـ وـتـتـصـدـعـ تـحـتـ هـذـاـ الضـغـطـ الـمـاـحـقـ . وـوـاقـعـ أـنـ ثـاقـلـ وـطـأـةـ الـبـانـيـوـنـ ، بـهـذـهـ الـطـرـيـقـ ، قـدـ عـاـ ، مـنـذـ قـرـنـ ، جـزـءـاـ مـنـ كـهـوـفـ جـبـلـ «ـ سـانـتـ جـانـفـيـفـ »ـ ؛ وـحـينـ كـانـتـ أـحـدـىـ الـبـوـالـيـعـ تـهـارـ تـحـتـ ضـغـطـ الـبـيـسـوـتـ كـانـ الـخـلـ يـتـكـشـفـ أـحـيـانـاـ ، فـوـقـ ، فـيـ الشـارـعـ ، بـضـرـبـ مـنـ الـاـنـفـصـالـ بـيـنـ بـلـاطـاتـ الـطـرـيـقـ شـبـيـهـ بـأـسـنـانـ الـمـشـاـرـ . وـكـانـ هـذـاـ التـشـقـقـ يـتـكـونـ فـيـ خـطـ لـوـلـبـيـ يـمـتدـ عـلـىـ طـوـلـ الـعـقـدـ التـصـدـعـ ؛ وـاـذـ كـانـ الـعـلـةـ مـلـحوـظـةـ فـانـ فـيـ مـيـسـورـ الـعـلـاجـ أـنـ يـكـوـنـ عـاجـلاـ . وـكـثـرـاـ مـاـ يـتـفـقـ اـيـضاـ اـنـ لـاـ يـتـكـشـفـ الـعـطـلـ الدـاخـلـيـ مـنـ طـرـيـقـ ايـ نـدـبـةـ خـارـجـيـةـ . وـالـوـلـبـلـ لـعـالـ الـبـوـالـيـعـ فـيـ هـذـهـ الـحـالـ . أـنـهـمـ قـدـ يـهـلـكـونـ بـسـبـبـ مـنـ دـخـولـهـمـ إـلـىـ الـبـالـوـعـةـ الـغـائـرـةـ ، فـيـ غـيـرـ ماـ حـذـرـ . وـالـسـجـلـاتـ الـقـدـعـةـ تـذـكـرـ بـعـضـ الـعـمـالـ الـذـيـ دـفـنـواـ فـيـ الـخـسـفـ ، عـلـىـ هـذـاـ النـحـوـ . أـنـهـاـ تـذـكـرـ عـدـةـ أـسـاءـ . وـمـنـ بـيـنـ هـؤـلـاءـ ذـلـكـ الـعـاـمـلـ الـذـيـ هـلـكـ فـيـ حـمـأـةـ غـائـرـةـ تـحـتـ قـناـةـ شـارـعـ «ـ كـارـيمـ بـرـونـانـ »ـ ، وـالـذـيـ كـانـ يـدـعـيـ بـلـيزـ بـوـتـرـينـ . وـكـانـ بـلـيزـ بـوـتـرـينـ هـذـاـ أـخـاـ لـفـوـلـاـ بـوـتـرـينـ الـذـيـ كـانـ آـخـرـ حـفـارـ قـبـورـ فـيـ الـجـبـانـةـ الـمـدـعـوـةـ «ـ شـارـتـيـهـ دـيـزـيـنـوـسـانـ »ـ عـامـ ١٧٨٥ـ ، وـهـوـ الـتـارـيـخـ الـذـيـ مـاتـ فـيـ هـذـهـ الـجـبـانـةـ .

وـكـانـ ثـمـةـ اـيـضاـ الـفـيـكـوـنـتـ دـيـسـكـوـبـلـوـ ، الشـابـ الـفـاتـنـ ، الـذـيـ تـحـدـثـاـ

عنه ، وهو أحد أبطال حصار ليريدا ، حيث كان المهاجمون مرتدلين للجوارب الحريرية ، يتقدمهم عدد من الكهانات . . وتفصيل ذلك ان ديسكوبلو بوغت ذات ليلة عند ابنة عمه الكوتنس دو سورديس ، ففرق في مَوْحِلٍ من مواحل بالوعة بوتربيسي كان قد فزع اليه فراراً من وجه اللوق . وحين وُصف موته لدام دو سورديس طلب زجاجة الشم ، ونسى ان تبكي لكثره ما استنشقت من الاملاح . . فليس ثمة غرام يقصد في مثل هذه الحال . البالوعة نطفنه . إن هيرو . . ترفض ان تنسل جثة لياندر . وان تيسبيه تسد انفها امام بيرام . . وتقول : «أف» :

## ٦

### الخسف

لقد وجد جان فالجان نفسه أمام خسف ما .  
وكان هذا الضرب من الانهيارات مأولاً آنذاك في تحريبة الشان زيليزيه ، شبه المتنعة على الاعمال المائية ، والقليلة الصيانة للمنشآت تحت الأرضية ، بسبب من ميوعتها المفرطة . وهذه الميوعة تفوق حتى ميوعة رمال حي الشان جورج التي ما كان من الممكن التغلب عليها إلا برصيف الحجارة في الماء على طبقة من الاسمنت ، وميوعة التربة الطينية الممتدة بالغاز في

« جمع كمان ، الآلة الموسيقية المروقة .

» يقصد املاح الشم ، وهي التي تستعمل للتخلص من الأغذاء والصداع .

» هيرو Hero ولياندر Léandre ماشقان تروي قصة غرامها قصيدة اغريقية متأنثرة . وكانت هيرو كاهنة لفيتون ، وقد فرق حبيبها لياندر في الدرديل .

Pyrame شاب بابل اشتهر بحبه لتيسيه Thisbée وتروي الاسطورة ان بيرام قتل نفسه حين رأى دماً توهם انه دم تيسبيه ، حتى اذا علم تيسبيه بالأمر انصرت بدورها .

« حي الشهداء » ، تلك التربة المائعة إلى درجة جعلت شق المعبر تخت  
دهليز الشهداء غير مُجد إلا باصطدامه بانبوب معدني . حتى إذا هدموا ،  
عام ١٨٣٦ ، ابتعاد إعادته بناها ، بالالوعة الحجرية العتيقة تحت ضاحية  
سان أونوريه ، التي نرى جان فالجان في هذه اللحظة متورطاً فيها ،  
شكل الرمل المتحرك ، الذي يوّلـف التجربة المتداة من الشان زيلزيـه إلى  
الـ « سين » ، عقبة كأدء إلى حد جعلت العمل يستمر ستة أشهر تقريباً ،  
ما أثار اعترافات شديدة من أصحاب الأملكـ القائمة على ضفة النهر ،  
وبخاصة من أصحاب الفنادق والعربات الفاخرة . كان العمل أكثر من  
عسـير ، كان خطـراً . ولقد كان ثـمة ، في الحقـ ، أربـعة شهر ونصف  
من المطر ، وثلاثـة فيضـانات لنـهر السـين .

وكان الخسف الذي صادف جان فالجان ناشـتاً عن أمـطار الـيـوم  
الـسابـق ، الغـزـيرة : وكان الانـسـاف بلاـط الشـارـع ، بعد أن خـذـله الرـمل  
الـتـحـخيـ ، قد أـدـى إلى اـحـتـجـاز مـياه الـامـطـار . حتى إذا حـدـث الـاـرـتـشـاح ،  
تبـعـه الانـسـاف . وكانت الأرضـية ، المـفـكـكة ، قد اـخـتـفت في الـوـحلـ :  
إـلـى أـيـة مـسـافـة ؟ من المـتـعـدـر على المـوـءـ أـنـ يـخـزـرـ . كانت الـظـلـمـةـ أحـلـكـ  
مـنـهاـ فيـ ايـماـ مـكـانـ آخرـ : كانت حـفـرةـ منـ وـحـلـ فـيـ مـغـارـةـ  
مـنـ لـيلـ ؟

واـسـتـشـعـرـ جـانـ فالـجـانـ البـلاـطـ يـغـورـ تـحـتهـ . وـوـلـجـ هـذـهـ الـحـمـأـةـ . كـانـتـ  
مـاءـ عـلـىـ السـطـحـ ، وـوـحـلـاـ فـيـ الـقـعـرـ . إـنـ عـلـيـهـ أـنـ يـجـتـازـهاـ بـأـيـةـ حـالـ . فـقـدـ  
كـانـ الـاـرـتـدـادـ مـسـتـحـيـلاـ . كـانـ مـارـيوـسـ مـشـرـفـاـ عـلـىـ الـمـوـتـ ، وـكـانـ جـانـ  
فالـجـانـ خـائـرـ الـتـوـىـ . وـإـلـىـ أـيـ مـكـانـ غـيـرـهـ يـسـتـطـيـعـ أـنـ يـذـهـبـ ؟ وـتـقـدـمـ  
جانـ فالـجـانـ . وـإـلـىـ هـذـاـ ، فـأـنـ الـمـوـحلـ بـدـاـ عـرـ عـمـيقـ فـيـ الـخـطـوـاتـ الـأـولـىـ ؛  
وـلـكـنـ قـدـمـيـهـ كـانـتـاـ تـعـنـانـ فـيـ الـغـوـصـ كـلـمـاـ أـمـعـنـ فـيـ الـتـقـدـمـ . وـسـرـعـانـ مـاـ  
وـصـلـ عـمـقـ الـوـحلـ إـلـىـ مـتـصـفـ سـاقـيـهـ ، وـاـنـتـهـيـ المـاءـ إـلـىـ أـعـلـىـ مـنـ رـكـبـيـهـ ؛  
وـتـابـعـ سـيـرـهـ ، حـامـلاـ مـارـيوـسـ بـذـرـاعـيـهـ أـعـلـىـ مـاـ اـسـتـطـاعـ حـمـلـهـ فـوـقـ المـاءـ ؛

وانتهى الوحل الآن إلى ركبتيه ، وبلغ الماء خصره . ولم بعد في طوفه أن يرتد . وغاصت قدماه أعمق فأعمق . كان واضحاً أن هذا الوحل ، الكافية كثافته لنقل رجل واحد ، عاجز عن احتيال رجلين اثنين . ولو قد كان كل من جان فالجان وماريوس منفرداً أذن لكان لهأمل في النجاة . وواصل جان فالجان تقدمه ، حاملاً ذلك الرجل المختضر ، الذي ربما كان جثة هامدة .

وارتفعت المياه إلى إبطيه ؛ واستشعر أنه يغرق ؛ ولم يوفق إلى التحرك في أعماق الوحل الذي كان فيه إلا في مشقة . فالكثافة ، التي كانت السناد ، كانت هي العقبة أيضاً . كان لا يزال رافعاً ماريوس . وفي بذلك للقوة لم يُسبق إلى مثله ، تقدم إلى أمام ، ولكن قدميه غاصتاً أكثر . كان رأسه وحده ، الآن ، خارج الماء ، وكذلك ذراعاه الرافتان ماريوس . إن بين صور الطوفان القديمة أمّا ترفع طفلهما على هذا النحو .

وغاص أعمق فأعمق ، ورد وجهه إلى الوراء اجتناباً للماء ، ولكي يكون في مقدوره أن يتنفس . ولو قدر لأحد أن يراه في تلك الظلمة أذن لخيل إليه أنه يرى قناعاً عائماً في الظلام . ولم يلمع فوقه رأس ماريوس المنكس ووجهه الشاحب ، إلا على نحو غامض . وبذل جهداً يائساً ، ودفع قدمه إلى أمام ؛ ووَقْت قدمه على شيء صلب . كانت نقطة ارتكاز . وكان ذلك في الوقت المناسب .

ونهض ، وتلوى متوجعاً ، وثبت نفسه فوق هذا المرتكز في ضرب من الشعر . واحس وهو يفعل ذلك وكأنه يضع قدمه على أولى درجات من سلم يصعد به ثانية إلى الحياة .

وهذا المرتكز ، المكتشف في اللحظة الأخيرة وسط الوحل ، كان مستهلك منحدر الأرضية الآخر ، تلك الأرضية التي كانت قد التوت من غير أن تنحط ، وتحدب مثل لوح خشبي وبوصفها قطعة واحدة .

إن الأرضيات المحكمة البناء لتشكل عقداً ، وإن لها مثل هذا الرسوخ . وكانت تلك القطعة من أرضية الدهليز ، المعمورة جزئياً ، ولكن الصلبة ، منحدراً حقيقةً ، فما يكادان يبلغان هذا المنحدر حتى ينجوا . وارتقي جان فالجان هذا السطح المنحدري ، وانتهى إلى الجانب الآخر من الوحل .

وفيما كان يخرج من الماء تعرّت قدمه بحجر ، فخرّ على ركبتيه وبدأ ذلك الحادث ملائماً في نظره ؛ وظلّ على هذا الوضع فترة ، واستغرقت روحه في صلاة للرب غير ملفوظة .

ونهض ، مرتعداً ، مثولاً ، آسأً ، محدوداً تحت هذا الرجل المحضر الذي كان يجره ، وقد سال الوحل من اقطار جسمه كلها ، وأمتلأّت روحه بضياء عجيب .

## ▼

### قد نجح إلى الشاطئ . أحياناً حيث نظن أننا نبطى إلى اليابسة

واستأنف سيره كرة أخرى .

ييد أنه إن يكن لم يترك حياته في ذلك الخسف فالذى ييدو انه ترك قوته . كان هذا الجهد الفائق قد أثّرّكه . وكان خوره من الشدة بحيث امسي مضطراً إلى أن يأخذ نفسها ، كل ثلاث خطوات أو أربع ، ويستند إلى الجدار . وذات مرة ، تعين عليه ان يجلس على الحافة لكي يغير وضع ماريوس ، وخيل له أن عليه ان يبقى هناك . ولكن إذا كانت قوته قد ماتت ، فإن عزيمته لم تتم . ونهض .  
ومشى في يأس ، وفي سرعة تقريباً ، طوال مئة خطوة ، من غير

ان يرفع رأسه ، ومن غير ان يتنفس تقريراً : وفجأة ارتفع بالجدار .  
كان قد انتهى إلى زاوية الباب الوعرة ، واذ وصل إلى المتعطف منكس الرأس  
الثقى الجدار . ورفع عينيه . وعند أقصى الدهليلز ، هناك أمامه ، بعيداً  
بعيداً جداً ، لمع ضوءاً . وهذه المرة ، لم يكن الضوء الرهيب . كان  
الضوء الخبر الأبيض . كان ضوء النهار :  
لقد رأى جان فالجان المخرج .

ان النفس المالكة التي يقدر لها ، من وسط الاتون ، ان تلمع فجأة  
خرجًا من جهنم خليق بها ان تشعر بما شعر به جان فالجان . إنها تطير  
في سرع ، بالبقية الباقية من جناحيها ، نحو الباب المتشع . ولم يعد جان فالجان  
يستشعر الاعياء ، ولم يحس بثقل ماريوس ، ووجد ركبته الفولاذيتين  
كرة أخرى ، وانطلق راكضاً أكثر منه ماشياً . وفيما هو يقترب ، كان  
المخرج يتخذ شكلاً أوضعاً فأوضح . كان قوساً دائرياً ، أقل ارتفاعاً  
من العقد الذي غار شيئاً بعد شيء ، وأقل عرضًا من الدهليلز الذي ضاق  
كلما انخفض العقد . وانتهى التفق ، من داخل ، على شكل قمع .  
تضييق سقيم ، منقول من بوييات السجون . تضييق معقول في سجن ،  
ولكنه غير معقول في الوعرة ، وقد صُحيح منذ ذلك الحين .  
ووصل جان فالجان إلى المخرج .  
وهناك وقف .

كان هو المخرج حقاً ، ولكن جان فالجان لم يستطع الخروج منه .  
كان القوس موصدًا بشبكة حديدية قوية . وكانت الشبكة الحديدية —  
التي لم تكن تدور ، كما تدل جميع المظاهر ، على رزانها الصدقة ،  
إلا نادراً — مشدودة إلى إطار حجري بقفل غليظ بدا ، وقد أحمر من  
الصدأ ، وكأنه آلة ضخمة . كان في ميسور المرء ان يرى ثقب المفتاح  
ولسان القفل القوي مغموراً غمراً عميقاً في الرزة الحديدية . كان القفل  
مغلقاً ، على نحو منظور ، غالباً مزدوجاً . كان واحداً من أقسام الباسينيل

التي كانت باريس العتيقة شديدة السخاء بها .

ووراء الشبكة الحديدية ، كان الهواء الطلق ، ولنهر ، وضوء النهار ، والشاطيء - الضيق جداً ولكن الكافي لتمكن المرء من المرور - وارصفة لنهر النائية ، وباريس - تلك الماء التي يستطيع المرء الاختفاء فيها بسهولة - والأفق العريض ، والحرية . وتبين إلى يمينه ، في سافلة النهر ، جسر أينا ، وإلى يساره ، في عالية النهر ، جسر الانفاليد . كانت البقعة ملائمة للترصد في الليل وللفرار . كانت أحدي نقاط باريس الأكثر انزلاً ؛ الشاطيء المواجه للـ « غرو كايو » . ودخل الذباب وخرج من خلال قضبان الشبكة الحديدية .

لعلها كانت الساعة الثامنة والنصف مساء . كان الليل قد هبط .

ووضع جان فالجان ماريوس على أرضية الدهلizer في حماذة المجدار ، ثم مضى إلى الشبكة الحديدية ، وأمسك بقضبانها بكلتا يديه . كان المز سعوراً ، ولكن الاهتزاز كان صفرأً . إن الشبكة الحديدية لم تتحرك . وقبض جان فالجان على القضبان الحديدية ، واحداً بعد آخر ، راجياً أن يوقف إلى انتزاع أقلها صلابة ، وأن يتخد منه مخلأً يمكنه من رفع الباب أو كسر القفل . ولكن أيّاً من القضبان لم يتحرك . إن أسنان التمر ما كانت أكثر صلابة في مغارزها . لا محل ، لا جهد قادرًا على الرفع . كانت العقبة عصية لا تقهـر . ولم تكن ثمة وسيلة لفتح الباب .

أيّـبعـنـ عـلـيـهـ ، اـذـنـ ، اـنـ مـوتـ هـنـاكـ ؟ مـاـ الـذـيـ يـجـبـ اـنـ يـفـعـلـهـ ؟ أـيـنـقـلـبـ عـلـيـهـ ؟ أـيـرـتـدـ سـالـكـأـ نـحـتـ الطـرـيقـ الرـهـيـةـ الـتـيـ اـجـتـازـهـ مـنـذـ لـحظـاتـ ؟ لـمـ تـكـنـ لـهـ القـوـةـ الكـافـيـةـ لـذـلـكـ . وـإـلـىـ هـذـاـ ، كـيـفـ السـيـلـ إـلـىـ عـبـورـ ذـلـكـ الـمـوـحلـ ، كـرـةـ أـخـرىـ ، وـهـوـ الـذـيـ لـمـ يـنـجـعـ مـنـ إـلـاـ بـعـجـزـةـ ؟ وـبـعـدـ الـمـوـحلـ أـلـمـ تـكـنـ ثـمـةـ دـوـرـيـةـ الشـرـطـةـ الـتـيـ لـاـ يـسـتـطـعـ الـمـرـ ، مـنـ غـرـ رـيـبـ . اـنـ يـنـجـوـ مـنـهـ مـرـتـبـنـ ؟ وـفـوقـ هـذـاـ كـلـهـ ، إـلـىـ أـيـنـ يـذـهـبـ ؟ أـيـ اـتـجـاهـ يـتـخـذـ ؟ إـنـ هـبـوـتـ الـمـنـحـدـرـ مـاـ كـانـ لـيـلـهـ هـدـفـهـ . وـلـوـ اـنـهـ اـنـتـهـىـ

إلى مخرج آخر ، إذن لوجده مسدوداً بباب أو بشبكة حديدية . كانت جميع المخارج موصدة على هذا النحو من غير شك . كانت المصادفة قد انتزعت الشبكة الحديدية التي دخلا منها ، ولكن مخارج البالوعة الأخرى كانت موصدة من غير جدال . إنه لم يوفق إلى غير الفرار إلى سجن .

لقد قضي الأمر . كان كل ما فعله جان فالجان عقيماً . إن الله لم يشا .

كانا كلاهما قد علقا في نسيج الموت المظلم الهائل ، وأحسن جان فالجان بالعنكبوت الرهيبة تمشي فوق تلك الخيوط السوداء المرتعدة في الظلام .

وادر ظهره إلى الشبكة الحديدية ، وخرّ على الحصى ، مكمباً على وجهه أكثر منه جالساً ، إلى جانب ماريوس الذي كان ما يزال فاقداً للحركة ؛ وغار رأسه بين ركبتيه . لا مخرج . تلك كانت آخر قطرة من قطرات الألم النفسي المريض .

فيمن فكر وهو ينوء تحت ذلك الخور البالغ ؟ إنه لم يفكر لا في نفسه ولا في ماريوس . لقد فكر في كوزيت .

## ٨

### ذيل السترة المزع

وفي غمرة من هذا الاعباء مست كفه يدًّا ، ومخاطبه صوت مهوس قائلاً :

ـ « أعطني النصف ! »  
شخص في الظلام ؟ ليس كالباس ثيـ يشبه الحلم ؟ وخيل لجان

فالجان أنه يعلم . إنه لم يسمع وقع خطى ما . أكان ذلك هكنا ؟  
رفع عينيه .  
كان أمامه رجل .

وكان الرجل يرتدي دُرّاعه ؛ كان حافي القدمين . وكان يمسك نعليه  
بيده اليسرى . كان من الواضح انه خلعهما لكي يكون قادرًا على الوصول  
إلى جان فالجان من غير ان يحس به .

ولم يتردد جان فالجان لحظة . ولتن كان ذلك اللقاء غير متوقع  
البنة ، فقد كان هذا الرجل معروفاً عنده . كان هذا الرجل هو  
تينارديه .

وعلى الرغم من ان جان فالجان أو قظ ، إذا جاز التعبير ، في إجفال  
فانه — وهو المتعود ان يكون يقظاً وعلى حذر من الضربات غير المتوقعة  
التي يتبعن عليه ان يتقيها بسرعة — استعاد حضور ذهنه الكامل في الحال ؛  
ولى هذا ، فان الاحوال لا يمكن أن تكون اسوأ من ذلك ، فهناك درجة  
من الشدة تمتنع على الزيادة . وتينارديه نفسه لم يكن في ميسوره ان  
يضيف شيئاً إلى سواد ذلك الليل .  
وكانت لحظة توقع .

ورفع تينارديه يده اليمنى إلى ارتفاع جبينه ، وظلل عينيه بها ، ثم  
زوى ما بين حاجبيه بينما غمزَ عينيه على النحو الذي يميز ، مع فرط طفيف  
للضم ، ذلك الانتباه الثاقب الذي يتكشف عنه رجلٌ يحاول ان يتبعن شخصاً  
آخر . ولم يوفق الى ذلك البنة . لقد أدار جان فالجان ظهره للضوء ، كما  
قلنا من قبل ، وكان فوق هذا مشوه الصورة ، ملطخاً بالوحش ، مضرجاً  
بالدم إلى حد خليق بأن يجعل تعرّفه متذمراً حتى في قلب الظهيرة . أما  
تينارديه — وكان الضوء المنبعث من الشبكة الحديدية . وهو ضوء شاحب  
من غير شكل ولكنه دقيق في شحوبه ، ينير وجهه — أما تينارديه هذا  
ففقر ، كما تقول الصورة المجازية المبتلة ، إلى عيني جان فالجان في

الحال . وكان في هذا التفاوت بين الوضعين ما ضمن لجان فالجتان شيئاً من الامتياز في تلك المبارزة الخفية التي كانت على وشك أن تتشبّع بين الوضعين والرجلين . لقد تم اللقاء بين جان فالجتان محبّاً وبين تينارديه متزوجَ القناع .

وأدرك جان فالجتان ، في الحال ، أن تينارديه لم يعرفه . وحدق أحدهما إلى الآخر ، لحظة ، في ذلك الفسق ، وكأنما كان كل منها يقيس صاحبه . وكان تينارديه أسرع إلى قطع حبل الصوت .

— « ما الذي ستعمله من أجل الخروج ؟ »  
ولم يجب جان فالجتان .

وابع تينارديه :

— « من المستحيل فتح القفل بكلمات . ومع ذلك ، فإن عليك أن تخرج من هنا . »

فقال جان فالجتان :

— « هذا صحيح . »

— « حسن . أعطني النصف . »

— « ماذا تعني ؟ »

— « لقد قلت الرجل . هذا حسن . أما أنا ، فمعي المفتاح . »  
واشار تينارديه إلى ماريوس . وتابع كلامه :  
— « أنا لا أعرفك ، ولكني أود أن اساعدك . لا شئ انسك صديق . »

وبدأ جان فالجتان يفهم . لقد حسبه تينارديه سفاحاً . وعاد تينارديه إلى القول :

— « اسع ، إها الرفيق ، انت لم تقتل هذا الرجل من غير أن تنظر إلى ما في جيوبه . أعطني حتى في النصف . سوف افتح الباب لك . »

وسحب من تحت دراعته الملائكي بالثقوب مفتاحاً كبيراً وأبرزه ابرازاً نصفياً ، ثم أضاف :

ـ « أتحب أن تعرف شكل مفتاح المهر ؟ دونك إيه . . »  
ـ « وظل جان فالجان أبله » ، - والتعبير لكورناي العجوز - إلى حد الشك في أن ما رأه كان حقيقةً . كانت العناية الالهية في قناع من المول ، والملائكة الخير منبتقاً من باطن الأرض على صورة تينارديه . واقحم تينارديه جمع كنه في جيب ضخم مخبئ تحت دراعته ، واخرج جلا ، وقدمه إلى جان فالجان .

وقال :

ـ « خذ . لقد أعطيتك الجبل بالإضافة إلى ذلك . . »  
ـ « جبل ؟ ولأي غرض ؟ »  
ـ « وتحتاج إلى حجر أيضاً ، ولكنك ستجد حجراً في الخارج .  
إن هناك رداً . »

ـ « حجر ؟ ولأي غرض ؟ »  
ـ « ما دمت ستختلف بجنة الرجل في النهر فانت تحتاج إلى حجر وجبل . وإلا عامت على سطح الماء . . »  
ـ « وأخذ جان فالجان الجبل . وليس ثمة شخص لم يتقبل بعض الأشياء على مثل هذا النحو الميكانيكي . »

وفرق تينارديه أصابعه وكأنما خطرت له فكرة مفاجئة :  
ـ « والآن ، أيها الرفيق ، ما وسيلتك إلى الخروج من ذلك المدخل الذي هناك ؟ أنا لم أجزئ على المغامرة بنفسى فيه . أف ! انت لا تشم جيداً . »

وبعد فترة ، أضاف :

ـ « أنا أوجه إليك أسئلة ، ولكنك على حق في عدم الاجابة عنها .  
إن هذا تدرّب على ربع الساعة اللعينة التي ستفصّلها مع قاضي التحقيق . »

وإلى هذا ، فانك بعدم الكلام بتاتاً تجتنب مغامرة التحدث بصوت أعلى مما ينبغي . وانك لتخطئ على كل حال إذا حسبت ، لمجرد اني لا ارى وجهك ولا أعرف اسمك ، اني لا أعرف من أنت وماذا تريده . معروف . لقد سحقت هذا الرجل ، بعض الشيء . والآن تريده ان تخفيه في مكان ما . انت في حاجة إلى النهر ، مغنا الحماقة الكبير . ولسوف اخلصك من ورطتك . ان مساعدة قى طيب نزلت به مخنة تلبسي حذائي . »

وفيما كان يقر جان فالجان على اعتقاده بالصمت ، راح يعمل بصورة واضحة على إغرائه بالكلام . لقد دفع منهكه لكي يحاول أن يرى صورته الجانبية ، وهتف ولكن من غير أن يرتفع إلى ما فوق النبرة المعتدلة التي احتفظ بها صوته :

— « وعلى ذكر الموجل ، يبدو في انك حيوان فحور . لماذا لم تقدر بالرجل هناك .؟ »

واعتضم جان فالجان بالصمت .

واستأنف تينارديه كلامه ، رافعاً إلى جوزة حلقه تلك الخرقة التي قامت عنده مقام رباط الرقبة ، وهي حركة تتمم سيا الخصافة عند الرجل العجمي :

— « لعلك ، في الواقع ، تصرفت بحكمة : إن العمال حين يحيثون غداً لكي يسدوا الثقب لا بد ان يجدوا الجهة مناسبة هناك ، وعندئذ يكون في استطاعتهم ، خطأ خطيراً ، وقشة قشة ، أن يتقطعوا الاثر ، ويصلوا إليك . هل اجتاز أحد البالوعة ؟ متى ؟ من أين خرج ؟ هل رأه أحد يخرج ؟ ان للبوليس دماغاً كبيراً . والبالوعة غادرة ، وهي تشيبك . ومثل هذا الاكتشاف نادر ، وهو يلفت الانتباه ، فقليل من للناس يستخدمون البالوعة في اعمالهم ، على حين أن النهر في خدمة الناس جميعاً . ان النهر هو القبر الحقيقي . وفي نهاية الشهر يصيدون الرجل

بشبكات سان كلوب . حسن ، ما محصول ذلك ؟ جيفة ، من غير شك ! من قتل ذلك الرجل ؟ باريس . والعدالة لا تكلف نفسها عناء السؤال عن ذلك . لقد احست صنعاً .

وكلما ازداد تيارديه ثرثرة ازداد جان فالجان بكمأ . ودفع تيارديه كف جان فالجان كرفة أخرى .

- « والآن دعنا نجز الصفة . فلنفترض . لقد رأيت مفتاحي فأرني دراهمك ..

كان تيارديه شكساً ، ضارياً ، مبهماً ، متوعداً بعض الشيء . ومع ذلك فقد كان ودياً .

وكان ثمة شيء غريب . فقد كان مسلك تيارديه غير طبيعي ، إنه لم يهدِّ مطمئناً كل الأطمئنان . صحيح أنه لم يصطمع سيراً خفية ، ولكنه تكلم في صوت خفيض . وبين الفينة والفينية كان يضع اصبعه على فمه ويغمض : « صه ! » وكان من العسر على جان فالجان أن يخزى لماذا . فلم يكن هناك أحد غيرهما . وفكرة جان فالجان أن من الجائز أن يكون بعض قطاع الطرق الآخرين مختبئين في أحدى الزوايا الممحورة غير بعيد عنهما ، وإن تيارديه لم يكن مهتماً بأن يقاسمهم ما يطعم في الحصول عليه .

وعاد تيارديه إلى الكلام :

- « فلتختم . كم كان في جيوب الرجل ؟ »  
وبحث جان فالجان في جيوبه هو .

كان من عادته دائماً ، كما يذكر القاريء ، إن يحمل بعض المال . ذلك أن حياة الحيل المظلمة التي حُكم عليه بأن يجبيها جعلت هذا قانوناً بالنسبة إليه . ييد أنه هذه المرة أخذ على حين غرة . فجبن ليس ، أمس ، ثوب الحرس الوطني كان قد نسي ، في استغراقه الحدادي ذاك ، إن يأخذ حافظة نقوده معه . لم يكن معه غير بعض القطع النقدية في جيب

صدرته ، وكان ذلك يبلغ نحوً من ثلاثة فرنكاً . وجعل داخل جيوبه خارجها ، وكانت كلها منقوعة بالوحش ، وعرض على حافة البالوعة ليرة لويسية ذهبية ، وقطعتين من فئة الفرنكات الخمسة ، وخمس قطع أو ست قطع من فئة الـ «سو» انكبيـر .

ومد تينارديه شفته السفلـى ، وصعر خده على نحو ذي مغزى .

وقال :

— « لقد قتلتـه بـثـمن بـخـس . »

وبدأ بخـس جـيـوب جـان فالـجان وـمارـيوـس في دـالـة بالـغـة . ولم يـعـارـضـه جـان فالـجان ، فقد كان يـهمـه في المـحـلـ الأول أن يـدـير ظـهـرـه للـنـور . وفيـها كان تـينـارـديـه يـتحـسـس سـتـرة مـارـيوـس ، وـجـدـ — بمـثـلـ حـذـاقـة مشـعـوذـ — الوـسـيـلـةـ ، من غـيرـ أن يـلـفـت نـظـر جـان فالـجان ، لأنـتزـاع مـزـقـةـ منها اـخـفـاـهـا تحتـ درـاعـتـهـ ، مـعـتـقـداـ في أـغـلـبـ الـظـنـ انـ مـزـقـةـ القـهاـشـ هـذـهـ قد تـسـاعـدـهـ في ما بـعـدـ عـلـىـ التـعـرـفـ إـلـىـ القـتـيلـ وـالـقـاتـلـ . بـيدـ أنهـ لمـ يـجـدـ أـكـثـرـ منـ ثـلـاثـةـ فـرنـكـاـ ؟ »

وقـالـ :

— « هـذـاـ صـحـيـحـ . انـكـماـ مـعـاـ لاـ تـمـلـكـانـ أـكـثـرـ منـ ذـكـ . »

واـخـذـ كـلـ شـيـءـ ، نـاسـيـاـ قـولـهـ : « اـعـطـيـ النـصـفـ . »

وـتـرـدـ قـلـيلـاـ أـمـامـ قـطـعـ الـ«سوـ» الـكـبـيرـةـ . وـبـعـدـ تـفـكـيرـ ، اـخـذـهـ اـيـضاـ مـلـمـدـمـاـ :

— « لـاـ بـأـسـ ! ذـكـ يـعـنيـ قـتـلـ النـاسـ بـالـخـنـجـرـ بـسـعـرـ وـخـبـصـ أـكـثـرـ مـاـ يـنـبـغـيـ . »

قالـ ذـكـ ، وـعـادـ اـخـرـاجـ المـفـتـاحـ منـ نـحـتـ درـاعـتـهـ .

— « وـالـآنـ ، اـبـاـ الصـدـيقـ ، يـجـبـ انـ تـخـرـجـ . هـذـاـ أـشـبـهـ بـالـسـوـقـ الـمـوـسـمـيـ حيثـ يـدـفعـ الـمـرـءـ عـنـ خـرـوجـهـ . وـلـقـدـ دـفـعـتـ اـنـتـ ، فـاخـرـجـ . وـشـرـ يـضـحـكـ . »

هل كان ينتوي ، بتقدیمه مساعدةً هذا المفتاح لرجل مجهول وبتمکینه شخصاً آخر غيره من الخروج من ذلك الباب - هل كان ينتوي بذلك على نحو خالص وتزیه انقاد سفاح من السفاحين ؟ ذلك شيءٌ يجیز المرء لنفسه الشك فيه .

ومساعد تینارديه جان فالجان لحمل ماریوس على كتفيه كرمه اخرى . ثم مضى على رؤوس أصابعه نحو الشبكة الحديدية ، وأشار إلى جان فالجان بأن يتبعه ، ونظر إلى الخارج ، ووضع إصبعه على فمه ، ووقف بضع ثوان وكأنه نهبُ التردد . حتى إذا اتّم مراقبته هذه ، وضع المفتاح في القفل . وانزلق لسان القفل ، ودار الباب . لم يكن ثمة لا قرفة ولا صرير . لقد تم ذلك في سکينة بالغة . وكان واضحاً أن هذه الشبكة الحديدية برزاتها ، المزينة في عناية ، كانت تُفتح على نحو متواتر أكثر مما يُظنه . وكانت هذه السکينة مشوّومة . كنت تستشعر الروح والمجيء السريين ، ودخول رجال الليل وخروجهم الصامتين ، وخطوات الجريمة التي لا صوت لها . لا ريب في أن البالوعة متواطئة مع عصابة خفية ما . كانت تلك الشبكة الحديدية الصمود مخبثةً للمسروقات .

وفتح تینارديه الباب نصف فتحة ، بحيث يمكن جان فالجان من المرور مجرد تمکین ، وأغلق الشبكة الحديدية من جديد ، وادار المفتاح في القفل مرتين ، وغاص كرمه اخرى في الظلام ، من غير أن يحدث من الصجيج شيئاً أكثر من نفس . لقد بدا وكأنه يمشي بمثل رجلي النمر المخليتين ؟

وبعد لحظة ، كانت تلك « العناية » الرهيبة قد ولجت اللامنظور من جديد .

ووْجَدْ جان فالجان نفسه في الخارج :

## ماريوس يبدو ميتاً في عيني خبير

وترك ماريوس يتزلق فوق الشاطئ .

كانا في الخارج .

كانت الابخرة الوبية ، والظلمة ، والهول ، خلفهما . وكان الهواء الصحي النقي ، الحي ، البهيج ، المستنشق في حرية يغمره من أقطاره . وفي كل مكان حوله كان صمت ، ولكنه الصمت الفاتن المرافق لغروب الشمس في ساء صاحبة . كان الغسق قد ران ، وكان الليل قد هبط — الليل ، ذلك المحرر الكبير ، وصديق جميع أولئك الذين يحتاجون إلى رداء من اردية الظلام لكي ينجوا من الألم المريض . وانبسطت النساء من كل ناحية مثل هدوء هائل . واقبل النهر إلى قدميه بمثل صوت قبرة . وسمع محاورة الاعشاش الاثيرية وهي تتبادل التمنيات بقضاء ليلة سعيدة في شجرات الدردار به « الشان زيلزيه » . وكانت بضع نجوم متفرقة على نحو باهت زرقة سمت الرأس الشاحبة ، ومنظورة بالتخيل ليس غير — كانت هذه النجوم قد أحدثت تألقات صغيرة لا سهل إلى ادراكها في الفضاء الربح . كان المساء ينشر فوق رأسCHAN فالجان جميسع ملاطفات الاممية .

كانت تلك الساعة الحائرة البدعة التي تخرج الصمت عن لا ونعم . كان ثمة قدر من الليل كاف لأن يجعل المرء يضيع وسطه على مسافة قصيرة ، وكان لا يزال ثمة قدر من النهار كاف لأن يجعل العين تتبع المرء عن كثب .

وطوال بضع ثوان استبد كل هذا الصفاء الجليل الملطف بضم لحظات بجان فالجان استبداً لا سهل إلى مقاومته . إن ثمة مثل لحظات

النسوان هذه . فالآلم يرفض إبرام البائس ، وكل شيء ينكشف في الفكر . ويلف السلامُ الحالَ وكأنه ليل ، وتحت الغسق الذي يرسل أشعته ، وتقلیداً للسماء التي تنهل ، تشرق النفس اشراق النجوم . ولم يتهمك جان فالجان ان يخدق في ذلك الظل الربب الصافي المنبسط فوقه . وخلال استغراقه في التفكير اخذ – في صمت السماء الابدية العجليل حماماً من الصلاة والنشوة الروحية . ثم انحنى فجأة ، وكأن شعوراً بالواجب قد عاوده ، فوق ماريوس ، وغرف قليلاً من الماء في باطن يده ونصح وجه ماريوس في رفق ببعض قطرات منه . ولم تنفصل اجفان ماريوس ، ولكن فمه نصف المفتوح تنفس .

وكان جان فالجان يعاود غمس يده في النهر ، ككرة اخرى ، عندما استشعر شيئاً مختلفاً على الوصف كذلك الضيق الذي تستشعره حين يكون امروءاً واقفاً خلفنا ، من غير ان نراه .

لقد سلفت هنا الاشارة إلى هذا الاحساس الذي يعرفه الناس جميعاً . واستدار .

وكشأنه منذ فترة ، كان شخص ما واقفاً خلفه حقاً .

كان رجل فارع الطول ، ملتف بمعطف طويل ، متصالب الذراعين ، يحمل بيده اليمنى هراوة في ميسور المرء ان يلمع الكرة المعدنية التي في رأسها – نقول كان هذا الرجل واقفاً منتصب القامة خلف جان فالجان الذي كان منحنياً فوق ماريوس .

كان ذلك ، بمساعدة من الظلام ، ضرباً من الشبح . ولقد كان خليقاً بالرجل البسيط ان يخافه بسبب من الغسق ، كما كان خليقاً بالرجل المفكر ان يرهبه بسبب من الهراء .

وعرف جان فالجان جافير .

ولا ريب في ان القاري قد حذر ان متعقب تينارديه لم يكن غير جافير . وكان جافير قد قصد ، بعد ان فارق المتراس على نحو غير

متوقع ، إلى مديرية الشرطة ، فرفع تقريراً شهياً إلى مدير الشرطة نفسه  
اثناء مقابلة قصيرة ، ثم انقلب في الحال لأداء مهمته التي انطلقت -  
والقارئ يذكر تلك الورقة التي وجدت في جيبيه - على مراقبة لشاطئ  
الضفة اليمنى من الد «شان زيليزيه» الذي أثار انتباه البوليس منذ فترة  
من الزمان . هناك ، كان قد رأى نيناردIEEE ، وكان قد تعقبه . أما البقية  
فمعروفة .

ومفهوم أيضاً أن فتح تلك الشبكة الحديدية بكثير من التفضل في وجه  
جان فالجان كان عملاً صدر فيه تبادلية عن دماء . لقد استشعر تبادلية  
ان جافر كان لا يزال هناك ، فللرجل المراقب قوة شم لا تكذبه ،  
ان عظماً ينبغي ان يُطرح لذلك الكلب . سفاح ، يا لها من نعمة غير  
متوقعة ! كان ذلك السفاح هو الفداء الذي لا سبيل إلى رفضه . إن  
تبادلية ، باخراجه جان فالجان بدلاً عنه ، قدم إلى رجال الشرطة  
ضحية ، وأبعدهم من طريقه ، وجعلهم ينسونه في غمرة قضية أعظم ،  
وأثاب جافر على انتظاره ، وهو ما يرضي المjosais دائماً ، وكسب  
ثلاثين فرنكاً ، وتعلقت آماله من غير ريب - من ناحيته هو - بالغرب  
مستعيناً بهذا الاتهام .

كانت هاتان المصادفاتان الموصلتان ، وكان وقوعه من تبنارديه على جافر ، أمراً بالغ القسوة .

ولم يتبن جافير جان فالجان الذي لم بعد ، كما قلنا ، يشبه نفسه ؟  
لقد ظل متصالب النراعن ، ولكنه سارع بحركة غير ملحوظة إلى الأمساك  
بهراته بجمع كفه ، وقال في صوت هاديء موجز :

- من انت ؟

४ - ८७ -

- من أنت؟

- « جان فالجان . »

ووضع جافير افراوة بين اسنانه ، وطوى ركبتيه ، ووضع يديه القويتين على كتفي جان فالجان ، وتشبتا به مثل كلابتين ، وحدق اليه فاحصاً ، وعرفه . كاد وجهاهما أن يتهاسا . وكانت نظرة جافير فظيعة .

وقف جان فالجان جامدا تحت قبضة جافير مثل أسد قدر له ان يستسلم لبرائنه وشق . .  
وقال له :

- « أيها المقتش جافير ، لقد القتني القبض علي . وإلى هذا ، فقد اعتبرت نفسي ، منذ هذا الصباح ، أسبرك . أنا لم أعطك عنواني لكي أحارول الفرار منك . قدني حيث شاء . ولكن تكرّم علي بشيء . »  
وبدا جافير وكأنه لم يسمع . وسمّر عينيه على جان فالجان . كانت ذقنه المتجمهة قد دفعت شفتيه نحو أنفه ، علامه الاستغراق في التفكير على نحو ضار . وأخيراً أفلت جان فالجان ، ونهض في مثل استقامه عصا ، وعاود إمساك هراوته بجمع كنه في قوة ، وطرح هذا السؤال ، مغمضاً وكأنه في حلم أكثر منه ناطقاً :

- « ماذا تفعل هنا ؟ ومن هذا الرجل ؟ »

وأجاب جان فالجان ، وقد بدا وكأن جرسه أبيض جافير :

- « ذلك بالضبط ما أردت ان أحدثك عنه . تصرف بي كما شاء ، ولكن ساعدني أولاً على ان أحمله إلى منزله . أنا لا اسألك شيئاً غير ذلك . »

ونقلص وجه جافير ، كما يقع له كلما بدا وكأنه مخاطبه يعتقد أن في مقدوره - هو جافير - التسليم بشيء . ومع ذلك فلم يقل لا .  
وانحنى كرة اخرى ، وانحرج من جيده متذلا ، فمسه في الماء ،

---

\* الرشك حيوان يشبه الفهد .

ومسح به جبين ماريوس المضرج بالدم .

وقال في همس ، وكأنه يخاطب نفسه :

— « هذا الرجل كان في المتراس . انه ذلك الذي دعوه ماريوس . جاسوس من الطراز الأول ، لاحظ كل شيء ، وأصنف لك كل شيء » . وسمع كل شيء ، والتقط كل شيء ، وقد اعتقد انه على وشك ان يموت ؛ جاسوس قام بمهنته حتى في حشرجة الموت ، ودون ملاحظاته وقد توکأ على الدرجة الأولى من درجات القبر . وأمسك بيده ماريوس ، مستطلاً نبضه .

وقال جان فالجان :

— « إنه جريح . »

فقال جافير :

— « إنه ميت . »

فأجابه جان فالجان :

— « لا . لم يمت بعد . »

ولاحظ جافير :

— « لقد حملته ، اذن ، من المتراس إلى هنا ؟ »

ولا ريب في ان قلقه كان عظيماً اذ لم يلح قط في التساوؤل عن ذلك الفرار المربيك من خلال البالوعة ، بل لم يلاحظ مجرد صمت جان فالجان بعد سؤاله .

وبدا جان فالجان — من ناحيته — وكأن فكرة وحيدة استبدت به .

وأضاف :

— « انه يسكن في الماريه ، شارع فتيات كالفيه ، في منزل جده — لقد نسيت اسمه . »

ويبحث جان فالجان في سترة ماريوس ، واخرج منها حافظة الأوراق وفتحها عند الصفحة الخامدة خط ماريوس بقلم رصاصي ، وقدمها

إلى جافير .

كان لا يزال في الماء قدر من النور الطافي يمكن المرء من القراءة .  
والي هذا ، فقد كان في عين جافير ذلك الوجه السنوري الذي تميز به  
طيور الليل . وحل الغاز الأسطر القليلة التي خطها ماريوس ، وغمغم :  
«جيلورمان ، شارع بنات كالفيرا ، رقم ٦ . »

ثم صاح : « سائق ! »

والقاريء يذكر عجلة الكراء التي كانت تنتظر لوقت الحاجة .  
واحتفظ جافير بحافظة أوراق ماريوس .

وبعد لحظة كانت العجلة ، الهابطة من منحدر المنهل ، قد أمست على  
الشاطيء . ومدد ماريوس على المقعد الخلفي ، وجلس جافير إلى جانب  
جان فالجان في المقعد الأمامي .

وحين أغلق الباب ، انطلقت العجلة في سرعة . مصعدة في الرصيف  
باتجاه الباستيل .

وغادروا الرصيف ودخلوا إلى الشارع . وألهب السائق — وكان في  
مقعده اشبه بصورة ظلية — ألهب بالوسط فرسيه المهزولين . وران الصمت  
المثلوغ على العربة . وبدا ماريوس — الفاقد الحراك ، المستند جسده إلى  
زاوية العربة ، المنكس رأسه فوق صدره ، التنهي التراugin ، المتصلب  
الرجلين — بدا وكأنه لا يتضرر إلا التابوت . وبدا جان فالجان وكأنه  
ُخلق من ظلام ، وبدا جافير وكأنه خلق من حجارة . وفي تلك العربة  
المفعمة بالليل ، والتي تراءى داخليها كلما مرت بأحد المصايف وقد  
شجب شحوباً شديداً ، وكان ذلك بفعل و MIPS متقطع — في تلك العربة  
جمعت المصادفة وبدت وكأنها الفت على نحو حدادي ما بين ضروب  
الجمود الفاجعة الثلاثة : الجنة ، والشبح ، والتمثال .

## عودة الابن الباذل حياته

وعند كل رجة فوق حصبة الطريق كانت قطرة من الدم تسقط من  
شعر ماريوس .

ولم تصل العجلة إلى رقم ٦ في شارع فتيات كالغir إلا بعد متصف  
الليل .

وترجل جافير أولاً ، وثبتت بنظرة من الرقم المدون فوق باب  
العربات ، ورفع القارعة الثقيلة المصنوعة من حديد مطاوع ، والزينة على  
الطريقة العتيقة بتيس وساطير ، يتحدى أحدهما الآخر ، وخفق الباب  
خفقاً عنيفاً . وفتح مصراع الباب على نحو جزئي ، ودفعه جافير . وبرز  
الباب ، متبايناً ، نصف يقطان ، وفي يده شمعة .

كان كل من في البيت نائماً . فالناس يأون إلى فراشهم باكراً في  
الـ «ماريه» ، وبخاصة في أيام الفتنة . إن ذلك الحي العتيق الصالح ،  
الذي اذهله الثورة ، ليفرغ إلى الرقاد ، كما يسارع الأطفال إلى الخفاء  
رؤوسهم تحت الدثار كلما أحسوا بأن «النول» قد جاء ...  
وفي غضون ذلك رفع جان فالجان والسائق ماريوس ، وأخرجاه من  
العربة . لقد حمله جان فالجان من إبطيه ، وامسكت به السائق من  
ركبيه .

وفيما كانا يحملان ماريوس على هذا النحو دس جان فالجان يده تحت  
ثيابه ، التي كانت ممزقة ، وتلميس صدره ، واستيقن أنه ما يزال يخفق ؛  
بل لقد خفق خفقاتاً أقل وهناً ، وكأن حركة العربة قد قبضت له  
انبعاثاً جديداً .

---

\* للساطير في المراجفات ، إنسان ذو وجليين كرجلين ليس كمثلهما كان يمكن النبات .

وصاح جافير في وجه الباب بتلك النبرة التي تلائم الحكومة ، أمام  
باب رجل متسرد :

— شخص ما ، يدعى جيلنورمان ؟

— إنه هنا . ماذا تريده منه ؟

— نحن نحمل إليه ابنه .

فقال الباب في انشداته :

— ابنه ؟

— لقد مات .

وأومأ جان فالجان — الذي أقبل خلف جافير رث الثياب وسخا ،  
والذي نظر إليه الباب في رعب — أومأ إليه برأسه أنه لم يكن شيئاً .  
وبدا وكأن الباب لم يفهم لا كلمات جافير ، ولا إيماءة جان فالجان .

وقال جافير كلامه :

— كان قد ذهب إلى المراس . وها هو ذا .

وصاح الباب :

— إلى المراس ؟

— لقد جلب على نفسه القتل . اذهب وأيقظ أبياه .

ولم يتحرك الباب .

واندفع جافير يقول :

— لماذا لا تذهب ؟

وأضاف :

— سوف تكون هنا جنازة غداً .

ذلك ان احداث الشارع العام الاعتيادية كانت مصنفة ، عند جافير ،  
تصنيفاً مطلقاً ، هو أساس التبصر والخبر ، ولقد كان لكل طاريّ عنده خانته  
الخاصة . كانت الحقائق المحتملة شبه منضودة في أدراج ، فهي تخرج  
منها ، وفقاً للمناسبة ، في مقادير متفاوتة ؛ كان في الشارع لغط ، وفتنة ،

وكرنفال ، وجنازة .

واجترأ الباب بايقاظ باسلك . وأيقظ باسلك نقوليت ، وايقظت نقوليت العمة جيلنورمان . أما الجد ، فتركوه نائماً معتقدين أنه سوف يعرف النبا وشيكاً ، على أية حال .

وحملوا ماريوس إلى الدور الأول ، ولكن من غير أن يلمح ذلك أحد في أقسام المترف الآخرى ، ووضعوه على مقعد عتيق في غرفة الانتظار الخاصة بمسيو جيلنورمان . وفيما ذهب باسلك لاستدعاء أحد الأطباء ، وراحت نقوليت تفتح خزائن الملابس التحتية ، أحس جان فالجان بأن جافير يمس كفه . وفهم ، وهبط السلم ، تتبعبه خطى جافير .

ورآهما الباب ينصرفان كما رآهما يصلان ، في نعاس مذعور .

وامتنعيا العربة من جديد ، وجلس السائق في مقعده الخاص .

وقال جان فالجان ..

- « أيها المفترش جافير . تكرّم عليّ ، بعد ، بشيء واحد ..

فأسأله جافير في خشونة :

- « ما هو ؟ »

- « دعني أذهب إلى متولي لحظة . ثم افعل بي بعد ذلك ما تريده . »

واعتصم جافير بالصمت ببضع ثوان ، وقد أحفى ذقنه في قبة صدرته الطويلة ، ثم انزل زجاج النافذة الامامي .  
وقال :

- « أيها السائق ، إلى شارع الرجل المسلح ، رقم ٧ .

## ارتفاع في المطلق

ولم يعود اي منها فتح فمه طوال الطريق .  
 ما الذي كان يريده جان فالجان ؟ أن يتم ما كان قد بدأه ؛ ان  
 يخبر كوزيت ، ان يقول لها اين ماريوس ، وربما ان يعطيها بعض  
 المعلومات المفيدة الاخرى ، ان يتخد - إذا استطاع - بعض التدابير  
 النهائية . أما في ما يتصل به ، أما في ما كان يعني شخصياً ، فكان كل  
 شيء قد انقضى . لقد قبض عليه جافير ، ولم يقاوم . ولعل امرءاً غيره  
 كان جديراً بأن يفكر ، في تلك الحال ، تفكيراً غامضاً بذلك الجبل الذي  
 اعطاه إياه تيارديه وبالقصبان الحديدية الخاصة بأول حبس مظلم ضيق  
 سوف يدخله . ولكن منذ ان تعرف إلى الاسقف ، كان قد نشأ في ذات  
 نفس جان فالجان ، تجاه اي محاولة عنفية ، ولو كانت ضد حياته -  
 ولنكرر ذلك - تقول كان قد نشأ في ذات نفسه تردد خشوعي عميق .  
 كان الانتحار ، ذلك الهجوم الخفي على المجهول ، والذي قد ينطوي  
 إلى حد ما على موت النفس ، شيئاً متعدلاً على جان فالجان .  
 وعن مدخل شارع الرجل المسلح ، وقفت العربة ، فقد كان ذلك  
 الشارع أصيق من أن تلجه العربات . وترجل جافير وجان فالجان .

وفي اتضاع أبان السائق « للسيد المفتش » ان سحمل عربته الموسوم  
 بمحمل او ترخت قد تلوث كله بدم القتيل ، ووصل القاتل . ذلك ما كان  
 قد فهمه . وأضاف قائلاً إنه يستحق تعويضاً . وفي الوقت نفسه ،  
 اخرج دفتره من جيبه ورجا السيد المفتش ان يتكرم بأن يكتب له « شهادة  
 صغيرة بهذا المعنى » .

ورد جافير الدفتر الذي قدمه السائق اليه وقال :

— «كم ينبغي ان تأخذ بما في ذلك انتظارك ورحلتك ؟»  
فأجاب السائق :

— «لقد مضت سبع ساعات وربع ، ولقد كان معملي جديداً تماماً.  
ثمانون فرنكاً ، يا سيدي المفتش ..»

واخرج جافير من جيده اربع ذهبيات نابوليونية ، وصرف العربة .  
وظن جان فالجان ان في نية جافير ان يقوده مشياً على الاقدام  
إلى مخفر «بلان مانتو» او إلى مخفر «الأرشيف» القريبين جداً .  
ودخلا الشارع . كان مقرضاً كشأنه دائمًا . وتبع جافير جان فالجان .  
ووصلما إلى رقم ٧ . وقرع جان فالجان . وفتح الباب .  
وقال جافير :

— «حسن . أصعد ..»

وأضاف في نبرة غريبة ، وكأنما كان يبذل جهداً في الكلام على  
هذا النحو :

— «سوف أنتظرك هنا ..»

ونظر جان فالجان إلى جافير . كان هذا الاسلوب قليل الانسجام مع  
عادات جافير . ومع ذلك ، فلم يتعجب جان فالجان كثيراً لأن يكون  
جافير يستشعر ضرباً من النفة المتعرجة فيه ، ثقة الهرة التي تمنع الفارة  
حرية بطول برثتها ، برغم صدق عزيمته على الاسلام ولاته كل شيء .  
وفتح الباب ، ودخل المترزل ، وخطاب البواب الذي كان في فراشه ،  
والذي كان قد جذب الحيل من غير ان ينهض بقوله : «هذا أنا» ،  
وارتفى السلم .

وعند وصوله إلى الدور الأول ، وقف . إن لجميع المرات الأليمة  
مواقفها . وكانت النافذة المطلة على المبسط — وهي نافذة متزلقة —  
مفتوحة ، وكانت السلم تستقبل الضوء ، شأنها في كثير من البيوت القديمة ،  
وكانت تطل على الشارع . وكان مصباح الشارع ، القائم تجاه السلم

مباشرة ، بلقي عليها شيئاً من الضوء ، مما كان يحدث اقتصاداً في الانارة .

وأطل جان فالجان من هذه النافذة ، إما لكي يأخذ نفساً أو على نحو آلي . وانحني مشرقاً على الشارع . إنه شارع قصير ، ولقد كان المصباح يضيئه من أقصاه إلى أقصاه . واستند الذهول بجان فالجان . لم يكن ثمة أحد هناك .

كان جاifer قد مضى لسيله .

## ١٢

### الجد

كان بأسك والبواب قد حمل ماريوس إلى حجرة الاستقبال ، وكان طوال تلك الفترة ممدداً على المهد الذي وضع عليه عند مجيئه . وكان الطبيب الذي استدعي قد وصل . وكانت العمة جيلنورمان قد استيقظت .

وذرت العمة جيلنورمان الغرفة جية وذهوباً ، مذعورة ، شابكة يديها ، غير قادرة على ان تعمل شيئاً إلا القول : « يا الآهي ، أهذا يمكن ؟ » وكانت تضييف بين الفينة والفينية : « كل شيء سوف يغطي بالدم ! » وحين زايلها الذعر الأول ، اشرقت على عقلها فلسفة الحادث ، وعبرت عن نفسها بهذه الصيحة : « كان لا بد لذلك من ان ينتهي على هذا الشكل ! » ولم يبلغ بها ذلك إلى حد القول . « هذا ما كنت أقوله دائمًا » ، وهي العبارة المألوفة في مثل هذه المناسبات .

وبناء على أمر الطبيب ، كان سرير ذو سبور قد وضع قرب المهد . وفحص الطبيب ماريوس . وبعد ان قرر ان قلبه ما يزال ينبض ، وأن

الجريح لم يكن مصاباً بأي جرح بلين في صدره ، وان الدم الذي حول زوايا شفتيه اتبقى من تجويف الانف ، مدده على السرير ، من غير وسادة ، ورأسه على مستوى واحد مع جسده ، بل أكثر انخفاضاً بعض الشيء ، وقد عُرِّي صدره ، لكي يسهل التنفس . وانسحبت الآنسة جيلنورمان عندما رأتهم يتزعون ثياب ماريوس . وراحت تصلي في غرفتها مستعينة بالسبحة .

ولم يكن الجسد قد أصيب بجرح باطني . كانت الرصاصة قد انحرفت بعد ان اوهنتها حافظة الاوراق ، واستدارت حول الضابع محدثة خرقاً فظيعاً ، ولكنه غير عميق ، وبالتالي غير خطير . وكان السير الطويل تحت الارض قد أتم اخراج لوح الكتف المكسورة ، وكانت اختلالات خطيرة هناك . كانت ثمة جراحات سيف على الذراعين . ولم تشوه ندبة ما وجهاً . ييد ان رأسه بدا وكأنه مغطى بجزوز وفروض . اي اثر سوف تركه هذه الجراح على الرأس ؟ هل وقت عند جلدته الرأس ؟ هل اثرت في الجمجمة ؟ ذلك ما لم يكن ثمة سبيل إلى الاجابة عنه وكان من الاعراض الخطيرة انها سببت الاغماء ، والناس لا يتذوبون إلى رشدهم ، عادة ، من مثل هذه الغيبوبة . وإلى هذا ، فقد كان نزف الدم قد استنفذ قوى الجريح . وابتداء من الخصر ، كان القسم الأدنى من الجسد مصوناً خلف المتراس .

ومرق باسل ونيقوليت الاقمشة البيضاء وصنعا منها ضمادات . كانت نيكوليت تخيطها ، وكان باسل يطويها . واذ لم يكن ثمة نسالة ، فقد اوقف الطبيب تدفق الدم من الجراح ، مؤقتاً ، بلفافات من القطن المندولف . وإلى جانب السرير ، كانت ثلاثة شمعات تضيّق فوق طاولة نشرت عليها الادوات الجراحية . وغسل الطبيب وجه ماريوس وشعره بماء بارد . واستحال دلو الماء المملوء أحمر ، في الحال . ووقف البواب ، والشمعة في يده ، يهدى بها الظلام .

وبدا الطبيب وكأنه يفكر في كابة . وكان يهز رأسه بين الفينة والفينية ، وكأنما يجرب عن سؤال ما ، كان قد طرحته على نفسه باطنياً . وهذه المحاورات الخفية التي تدور بين الطبيب وبين ذاته نذير للمربيض بسوء .

ولحظة كان الطبيب يمسح الوجه ويعس بأصبعيه ، وفي رفق ، الاجفان التي ما تزال مغمضة ، فتح باب في الطرف الاقصى من حجرة الاستقبال ، وبرزت صورة طويلة شاحبة .  
كان هو الجد .

كانت الفتنة قد اثارت مسيو جيلنورمان إلى ابعد الحدود وأسخطته واستأثرت بتفكيره كله طوال يومين اثنين . إنه لم يتم الليلة الماضية ، وكانت الحمى تستبد به طوال النهار . وفي المساء ، كان قد أوى إلى فراشه في ساعة مبكرة جداً ، موصياً بأن توصى جميع أبواب البيت بالحديد ، واستسلم للرقاد بعد أن هدأ الأعياه .

ان رقاد الرجال العجائز ميسور الانقطاع . كانت حجرة مسيو جيلنورمان محاذية لغرفة الاستقبال . وكانت الصبح قد أيقظته برغسم الاحتياطات التي اتخذوها . واذ ادهشه النور الذي رأه من خلال شق الباب ، نهض من فراشه ، وانشأ يلتمس طريقه تلمساً .

كان على العتبة ، واصعاً احدى يديه على تفاحة الباب نصف المفتوح ، ناكس الرأس بعض الشيء متذبذباً ، متلفعاً بعنامة يضاهي مستقيمة ليس فيها ثبات فهي أشبه ما تكون بالكفن . كان مشدوداً ، وكانت تبدو عليه سبها شبح ينظر إلى قبر .

ولمع السرير ، ولمع على الحشية ذلك الفن الدامي ، ايضـ بلون للشمع ، مغمض العينين ، فاغر الفم ، شاحب الشفتين إلى حد بعيد ، عارياً حتى الخصر ، مشخناً جسده كله بالجراح الحمراء ، جامداً لا حرراك به ، مضاء على نحو ساطع .

وسرت في جسم الجد ، من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، ورعدة  
كانت أعنف ما يمكن للأوصال التي استحالت إلى عظم أن تعرفه . وكانت  
عيناه ، اللتان اصفرتا قرنبيتها بالشيخوخة ، محجوبتين بضرب من المعاشر  
الزجاجي . وفي لحظة ، انحدر وجهه تلك الزوايا التراوية التي تميز رأس  
الهيكل العظمي ، وتذلت ذراعاه وكأن نابضاً قد كسر فيها ، وتجلى  
انشاداه بتباين أصابع يديه العجوزين المرتعشتين ، والتوت ركبتهما إلى إمام  
كاشفتين من خلال فتحة منامته ، عن رجله العاريتين المهزولتين الشائكتين  
بالشعر الأشيب . وغمغم :

— « ماريوس ! »

فقال باسلك :

— « سيدى ، لقد جيء اللحظة بسidi إلى المترجل . كان قد ذهب  
إلى المراس ، و ... »

وصاح الرجل العجوز في صوت فظيع :

— « ومات ! آه ، يا لقاطع الطريق ! »

ثم ان ضرباً من التحول القبرى جعل هذا الرجل العجوز منتصب  
القامة مثل فقى في ريق الشباب .

وقال :

— « سيدى ، أنت الطبيب . قل لي شيئاً واحداً . لقد مات ، أليس  
كذلك ؟ »

واذ كان يستبد بالطبيب حصر نفسى بالغ ، فقد اعتصم بالصمت .

والتاع مسيبو جيلنورمان أملأ وانفجر ضاحكاً على نحو رهيب :

— « لقد مات ! لقد مات ! لقد عرض نفسه للقتل في الماريس .

لكرهه اياي . لقد فعل ذلك برغمي ! آه ، يا لشارب الدماء ! تلك

هي الطريقة التي يرجع بها الي ! يا لشقاء حياتي ، لقد مات ! »  
ومضى إلى نافذة ، وفتحها على مصراعيها وكأنه يختنق . لقد وقف

أمام الظلام ، وانشاً يتكلم موجهاً الخطاب إلى الشارع والليل .

- « إنه مثقب ، مثخن بضربات السيف ، ذييع ، مستاصل ، ممزق ، مقطوع إرباً ارباً . هلرأيتموه ، المتشرد ! لقد عرف جيداً اني سوف اكون في انتظاره ، واني قد اعددت غرفته لاستقباله ، واني قد علقت رسمه الراجع إلى عهد طفولته فوق سريري ! لقد عرف جيداً أن ليس عليه إلا أن يعود ، واني سلخت سنوات وانا أناديه ، واني قد قعدت في الليالي امام الموقد ويداي على ركبتي ، غير عارف ماذا أعمل ، واني أصبحت بالعنة من أجله ! كنت تعرف جيداً انه ليس عليك إلا ان تدخل وتقول : « هذا أنا » ، وانك سوف تصبح سيد البيت ، واني سوف اطيعك ، وانك تستطيع ان تعمل ما تشاء بهذا الجد العجوز البليد . لقد عرفت ذلك جيداً ، وقلت : « لا ، إنه ملكي ، لن اذهب ! » وذهبت إلى المداريس ، وعرضت نفسك للقتل بسبب من عناد الأولاد ! لكي تنقم لنفسك مما قلته لك عن الدوق دو بيري . هذا شيء معيب . اذهب إلى فراشك ، اذن ، ونم نوماً هادئاً . لقد مات . وهذه هي يقظتي ..»

فلم يكن من الطيب ، الذي امسى قلقاً من ناحيتين ، إلا ان ترك ماريوس لحظة ، ومضى إلى مسيو جيلورمان ، وأمسك بذراعه . واستدار الجد ، ونظر اليه بعينين بدتا متخفتين داميتين ، وقال في تؤدة :

- « اشكرك يا سيدي . أنا رابط الجأش ؛ أنا رجل ؛ لقد شهدت موت لويس السادس عشر ؛ أنا اعرف كيف اتحمل المصائب . ولكن هناك شيئاً واحداً فظيعاً ، ان تفكك ان جرائدك هي التي تسبب الاذى كله . سوف نحصل على مؤلفين مكررين في اسفاف ، وعلى محدين ، ومحامين ، وخطباء ، ومتنابر ، ومناقشات ، وتقديم ، وانوار ، وحقوق الانسان ، وحرية الصحافة ، وهذه هي الطريقة التي يحملون بها أولادك إلى بيتك . آه ! ماريوس ! هذا فظيع ! أينطرح قبلاً ، ميناً أمام ناظري ! متراس ! آه ، يا لقاطع الطريق ! ابها الطيب ، أنت تقطن

في الحي ، على ما أظن . اوه ، أنا اعرفك جيداً . أنا ارى عربتك تمر تحت نافذتي . سوف اقول لك . إنك تخطئ إذا اعتقدت اني غاضب . إن المرء لا يغضب من ميت ، تلك حماقة . ان هذا طفل أنا نشأته . لقد كنت عجوزاً عندما كان لا يزال صغيراً جداً . وكان يلعب في التوينلي بمحركه الصغيرة وكرسيه الصغير . ولاجتناب توبيخ المراقبين كنت املأ بعصاي تلك الحفر التي أحدثها في الارض بمحركه . وذات يوم صاح : « فليسقط لويس الثامن عشر ! ومضى نسيله . انه لم تكن غلطني . كان شديد تورّد الوجنتين ، شديد الشقرة ، وكانت امه قد ماتت . هل قدر لك ان تلاحظ ان جميع الاطفال الصغار شقر ؟ ما سبب ذلك ؟ إنه ابن واحد من قطاع طرق اللوار ، ولكن الاطفال ابراء من جرائم آبائهم . أنا اذكر حين كان على مثل هذا الطول . انه لم يكن يحسن النطق بحرف الدال . كان كلامه ناعماً جداً وغامضاً جداً حتى لقد كان يخيلي اليك انه عصفور . واذكر انهم تحلقوا حوله ، أمام الا « هيركول فارنيز » وانشاؤا بحدقون اليه في اعجاب ودهش ، لقد كان طفلاً جميلاً ! كان له رأس كذلك الذي نراه في اللوحات الفنية . كنت اتحدث اليه بصوتي الخشن ، وكانت اروعه بعصاي ، ولكنه يعرف جداً اني كنت امزح . وفي الصباح ، حين كان يدخل إلى غرفتي ، كنت أوبخه ، ولكن ذلك كان أشبه بأشعة الشمس بالنسبة الي . انك لا تستطيع ان تدافع عن نفسك أمام هؤلاء الصغار . انهم يغضبون عليك ، انهم يتسبّبون بك ؛ انهم لا يفلتونك ابداً . والحق أقول ، اني لم اعرف حباً كمثل حبي لذلك الطفل . والآن ، ما الذي ينبغي ان أقوله في لافايت ، وبنجمان كونستان ، وتيركوير دوكورسيل الذين قتلوه ! ان الرفع لا يمكن ان يستمر هكذا .

واقرب من ماريوبس ، الذي كان لا يزال شديد الشحوب جاماً لا حرّاك فيه ، والذي كان الطبيب قد رجع اليه ، وبدأ يتلوى ألمًا .

وتحركت شفنا الرجل العجوز البيضاوان وكأنها تتحرّك ان اوتوماتيكياً ، وأطلقتا كلمات تكاد تكون غير واضحة ، كلمات اشبه بهمسات في حشارة ، كانت لا تسمع إلا بثق النفس : « آه ، يا عديم القلب ! آه ، يا عضو التوادي ، آه ، ايها الأئم ! آه ، ايها الأيلول ! » تفريغات يهمسها رجل مختضر في أذن جثة باردة .

وشيئاً بعد شيء - إذ لا بد للتغيرات الباطنية ان تنطلق دائمًا - استعادت كلماته تسلسلها ، ولكن الجد بدا وكأنه فقد القدرة على النطق بها . وكان صوته تخافناً مخنوقةً إلى درجة بدا معها وكأنه ينبعث من الجانب الآخر من احدى الحفر .

- « سيان عندي ، أنا سوف أموت أيضًا . وأن يقال انه لم يكن في باريس مخلوقة صغيرة كان يسعدها ان تجعل هذا المسكين سعيداً ! وُغدْ ذهب إلى القتال ، بدلاً من ان يعيش ويستمتع بالحياة ، وعرض نفسه لقذائف المدفع مثل بقية من البهائم . ومن أجل من ؟ ومن أجل ماذا ؟ من أجل الجمهورية ! بدلاً من ان يذهب ليُرقص في الـ « شومير » كما ينبغي للشباب أن يفعلوا . ان كون المرء في العشرين من العمر لأمر يستحق العناء . الجمهورية ، تلك الحماقة الجميلة اللعينة . ايتها الامهات المسكينات ، أتمنى اذن اولاداً وسيمين . ولكن ، لقد مات . ذلك يعني جنائزتين تمران بباب العربات . واذن ، فقد قمت بذلك كله اكراماً لعنيي الجنرال لامارك الجميلتين ! ما الذي صنعه من اجلك ، الجنرال لامارك هذا ؟ جندي لا يفقه شيئاً من فنون الحرب ! ثرثار ! تعرض نفسك للقتل من أجل رجل ميت ! اذا لم يكن في هذا ما يحبل المرء بما الذي يحتبه ! فكر في ذلك ! في العشرين من العمر ! ومن غير ان يدير رأسه لكي يرى ما إذا كان يترك وراءه شخصاً ما ، أم لا ؟ ها هم العجائز المساكن الذين كتب عليهم ان يموتونا وحيدين . مت في زاويتك ، ايها البومة ! حسناً ، نعم هذا في الواقع . ذلك ما

كنت أرجوه ، إنه سوف يقضي علي قضاء كاملا . أنا هرم أكثر مما ينبغي . إن عمري مئة عام ، إن عمري مئة الف عام . ولقد كان من حقي أن أموت منذ عهد بعيد . وبهذه الضربة ، ينتهي كل شيء . لقد قضي الأمر اذن ، يا للسعادة ! أي فائدة من حمله على تنشق محلول النشادر وجميع هذه الكومة من العقابير ؟ إنك تصيغ تعبك ، إبها الطبيب الأحمق ! تابع ؛ انه ميت ، ميت مثل صخر . أنا أفهم ذلك ، أنا الميت أيضا . إنه لم يقم بالأمر على نحو جزئي . أجل هذه الأيام شائنة ، شائنة ، وهذا هورأيي فيك ، وفي افكارك ، وفي انظمتك ، وفي سادتك ، وفي حكمائك ، وفي أطبائك ، وفي كتابك الادنياء ، وفي فلاسفتك الشحاذين ، وفي جميع الثورات التي روّعت طوال ستين عاماً أسراب الغربان في التوليري ! ولما كنتَ من عدم الرحمة بحيث تعرض نفسك للقتل على هذه الشاكلة ، فلن أستشعر ولو مجرد حزن على وفاتك ، أفهمت ، أبها السفاح ؟ »

وفي هذه اللحظة ، رفع ماريوس جفنه في بطء ، واستقر نظره ، الذي ما يزال محجباً بدبهشه السباتي ، على مسيو جيلورمان .

وصاح الرجل العجوز :

- « ماريوس ! ماريوس ! يا صغيري ماريوس ! يا ولدي ! يابني الحبيب ! انت تفتح عينيك ، انت تنظر الي ، انت حي ، شكرأ . وخرّ مغشياً عليه .

## الكتاب الرابع

### جا فيريستنگب الطريق

كان جافير قد ابتعد في خطى وئيدة ، عن شارع الرجل المسلح .  
لقد مشى ناكس الرأس ، للمرة الأولى في حياته ، ويداه خلف  
ظهره ، للمرة الأولى في حياته أيضاً .

فحلى ذلك اليوم كان جافير قد اصططع من مسلكىٰ نابوليون الاثنين ،  
ذلك الذي يعبر عن العزم ليس غير : شبُّك النراعن على الصبر . أما  
ذلك الذي يعبر عن التردد - شبُّك النراعن خلف الظهر - فلم يكن  
معروفاً عنده . والآن ، كان ثمة تغير قد حدث ؛ كان شخصه كله ،

شخصه التباطئ الكالع ، يحمل طابع المحصر النفسي .  
وغاص في الشوارع الصامدة .  
ومع ذلك ، فقد اتخذ اتجاهًا واحداً .

لقد اتخذ الطريق الأقصر نحو الـ «سين» ، وبلغ الـ «كي ديزورم» ،  
وسار في محاذاة رصيف النهر ، واجتاز الـ «غريف» ، ووقف على  
مسافة قصيرة من مخر ساحة الـ «شاتيليه» ، عند زاوية جسر «نوتر  
دام» . إن الـ «سين» يشكل هناك بين جسر «نوتر دام» وجسر الـ  
«شانج» من ناحية ، وبين رصيف الـ «ميجيستري» وـ «رصيف  
الازهار» من ناحية ثانية — نقول إن الـ «سين» يشكل شبه بحيرة مربعة  
يحيط بها تيار مائي سريع .

هذه النقطة من نهر الـ «سين» يرهبها الملحون . إن شيئاً ليس  
أكثر خطراً من هذا التيار ، الذي حصر في تلك الحقبة واستشر غبيظه  
بالأوتاد المدعمة لطحنة الجسر ، التي لم يهد لها وجود اليوم . والجران ،  
القريب أحدهما من الآخر إلى أبعد حدود القرب ، يزيدان الخطير  
حدة ، وقد اخذت المياه تسرع تحت العقود على نحو رهيب . إنها  
تتدحرج في ثنيات عريضة مروعة . إنها تتجمع وتتراكم . ويفرغ الفيضان  
جهده عند دعائم الجسر وكأنما يريد أن يقتلها بمحال ضخمة مائعة .  
إن من يسقط هناك لا تراه العين بعدً أبداً . إن خبر الساخطين ليغرقون  
في تلك اللبيج .

وأسند جافير كلا مرافقه إلى الحاجز ، مطوقاً ذقنه بيديه ، وفيما  
كانت أصابعه منتبة ميكانيكياً في لحية عارضته ، انشأ يفك .  
كان يتعمل في أعماق وجوده شيءٌ جديد ، ثورة ، كارثة . وكان  
فيها ما يدعو إلى فحص الضمير .

كان جافير يقاسي آلاماً رهيبة .

فمنذ بعض ساعات وجافير في حال غير طبيعية . كان قلقاً مشغول

البال . وكان ذهنه ، الشديد الصفاء في عماه ، قد فقد مثاقفته . كان ثمة سحابة في هذا البلور . لقد استشعر جافير ان الواجب كان قد شرع يضعف في ضميره ، ولم يكن في ميسوره ان يخفى ذلك عن نفسه . فحين التقى جان فالجان ، في كثير من عدم التوقع ، فوق شاطئ الـ «سين» ، كان في ذات نفسه شيء من الذئب ، الذي يمسك بفريسته من جديد ، والكلب الذي يعبر على سيده كرها اخرى :

لقد رأى أمامه طريقين مترافقين في الاستفادة . ولكنه رأى طريقين ، وقد روّعه ذلك — روّعه هو ، هو الذي لم يعرف قط في حياته غير طريق مستقيم واحد . وكان ما اورثه الألم المضّ ان هذين الطريقين كانوا مترافقين . إن واحداً من هذين الطريقين الاثنين ينفي الآخر . اي الطريقين هو الطريق الصحيح ؟  
كانت حالته تمتنع على الوصف :

كان الذي جندله ان يكون مديناً بحياته لشريك ، وان يرتضي ذلك الدين وفيه ؛ وان يكون ، بالرغم منه ، على مستوى واحد مع هارب من العدالة ؛ وأن يقاده خدمة بخدمة ؛ وان يعجز له ان يقول: «امض لسيلك !» ويقول له هو ، بدوره ، «أنت مطلق السراح !» ؛ وان يضحي بالواجب ، تلك الفريضة العمومية ، على مذبح الدوافع الشخصية ؛ وان يستشعر في هذه الدوافع الشخصية شيئاً عمومياً أيضاً ، وربما شيئاً ساماً ؛ وان يخون المجتمع لكي يكون وفياً لضمه ، وان تتحقق هذه الاستحالات كلها ، وان تراكم عليه هو .  
كان شيء قد أثار دهشه : أن يكون جان فالجان قد غفر له ؛ وكان شيء قد حجره : أن يكون هو ، جافير ، قد غفر لجمان فالجان .

أين كان ؟ والنفس نفسه ، فلم يجد نفسه .  
ما الذي يتعين عليه ان يفعله الآن ؟ أسلم جان فالجان إلى السلطات ؟

ان ذلك شر . أينك جان فالجان طليقاً ؟ ان ذلك شر أيضاً . ففي الحال الأولى يهبط رجل السلطة إلى أحط من درك الرجل المحكوم عليه بالاشغال الشاقة ، وفي الحال الثانية يرتفع الرجل المحكوم عليه بالاشغال الشاقة إلى مستوى أعلى من مستوى القانون ويدوسه بقدمه . وفي كلتا الحالين عار عليه ، هو جاifer . وأياً ما كانت الطريق التي سيسلكها فشمة زلة . إن للإقدار بعض الحدود القصوى المتحدرة على المستحيل ، والتي لا تعدو الحياة ان تكون ، وراءها ، هوة ليس غير . كان جاifer قد بلغ واحداً من تلك الحدود القصوى .

وكان من أسباب حصره النفسي انه كان مكرهاً على التفكير . كان مجرد عنف هذه العواطف كلها يعبره على ذلك . وكان التفكير شيئاً غير مألف عنده ، فهو أليم إلى حد فريد .  
إن ثمة دائماً قدرآً معيناً من الثورة الباطنية في الفكر . ولقد هاجه ان يجد ذلك في ذات نفسه .

كان التفكير في ايام موضوع ، منها يكن ، خارج نطاق وظيفته الضيق – كان هذا التفكير ، في جميع الاحوال ، حماقة في نظره ومدعاة للتعب . ولكن التفكير في اليوم الذي تصرّم منذ فترة بسيرة كان عذباً ونكالاً . ويتبعن عليه ، مع ذلك ، ان يلتقي نظرة على ضميره بعد صدمات مثل هذه ، وان يقدم حساباً عن نفسه إلى نفسه .

كان ما قد صنعه اللحظة قد أوقع الرعدة في أوصاله . كان قد ارتى هو جاifer ، ان من الخبر ان يقرر ، برغم أنظمة الشرطة جمعياً ، وبرغم التنظيم الاجتماعي والقضائي كله ، وبرغم القانون كله ، إطلاق سراح متهم . كان ذلك قد أرضاه ، لقد قدم مصالحة الخاصة على المصالح العامة . أليس هذا شرآً لا سبيل إلى وصفه ؟ كان كلما واجه هذا العمل الذي لا اسم له ، هذا العمل الذي ارتكبه ، يرتعد من قمة رأسه إلى اخimus قدميه . ما الذي ينفي له ان يقرره الآن ؟ لم تبق أمامه غير

سييل واحدة : أن يرجع في الحال إلى شارع الرجل المسلح ، ويلقي القبض على جان فالجان . كان واضحًا أن ذلك هو ما يتبع عليه فعله . ولكنه لم يستطع .

لقد سد شيء ما ، الطريق في وجهه من هذه الناحية .  
شيء ما ؟ ماذا ؟ وهل ثمة في العالم شيء غير المحاكم ، وأحكام  
القضاء ، والشرطة ، والسلطة ؟ واضطرب ذهن جافير .  
محكوم مقدس بالاشغال الشاقة ! محكوم تقصير يد العدالة عن  
الوصول إليه ! ومن المسؤول عن ذلك ؟ هو جافير !

أليس فظيعًا أن ينتهي جافير وجان فالجان ، الرجل الذي خلق للقصوة  
والرجل الذي خلق للخضوع ، أليس فظيعًا أن ينتهي هذان الرجالان ،  
اللذان كان كل منها شيئاً من أشياء القانون ، إلى نقطة يضعان فيها تفسيرها  
كلبها فرق القانون ؟

ماذا إذن ؟ أتفع مثل هذه الفواحش ولا يعاقب أحد ؟ أمن الجائز  
أن يتبعن عليه تحرير جان فالجان ، وقد أمسى أقوى من النظام الاجتماعي  
كله ، ثم يواصل هو ، جافير ، أكل خبز الحكومة !  
وشيئاً بعد شيء غدت هذه الأفكار رهيبة .

وكان في ميسوره ، من خلال هذه التأملات أيضًا ، ان يقرع نفسه  
قليلًا في ما يتصل بذلك التمرد الذي حمل إلى شارع فتیات كالغیر .  
ولكنه لم يفك في هذا . لقد ضاعت الخطية الصغرى في الخطية الكبرى.  
وإلى هنا ، فقد كان واضحًا أن ذلك التمرد رجل ميت ، والموت — في  
عرف الشرع — يحمد الملاحة .

واذن فجان فالجان كان هو الحمل الذي يُثقل عقله .  
لقد أذهله جان فالجان . إن جميع الحقائق البدوية التي تنهض عليها  
حياته كلها قد انهارت أمام هذا الرجل . لقد ارتهن إحسان جان فالجان  
إليه ، هو جافير . وعاودته بعض الاعمال ، التي تذكرها والتي كان

يعتبرها حتى ذلك الحين أكاذيب وحمقىات ، وتبعدت له بوصفها حفائق . وبيرز مسيو مادلين ، كردة أخرى ، خلف جان فالجان ، والثقت الصورتان حتى شكلتا صورة واحدة ، صورة جليلة جديرة بالاحترام . وامتنع جافير أن شيئاً رهياً كان ينفع إلى روحه . الاعجاب بمحكم عليه بالأشغال الشاقة . الاحترام لعبد من عبيد سجن الأشغال الشاقة ... هل هذا معقول ؟ وارتعد لتلك الفكرة ، ومع ذلك فلم يستطع أن يردها . كان النضال عبئاً لا طائل تحته ، وكان قد اضطر إلى الاعتراف أمام محكمته الباطنية الخاصة بسمو هذا الرجل البائس . وكان ذلك بغضاً إليه .

Shirir محسن ؛ محكم عليه بالأشغال الشاقة علاً قلبه الخنان ، عذب ؛ معوان ؛ حليم ؛ يقابل الشر بالخير ؛ ويرد على البعض بالغفو ؛ حب للرأفة أكثر من حبه للانتقام ؛ يوثر تحظيم نفسه على تحظيم خصمه ؛ ويتفقد ذلك الذي طعنه ، ويرکع على قمة الفضيلة ؛ أقرب إلى الملائكة منه إلى البشر . لقد اضطر جافير إلى الاعتراف بأن هذا الكائن الجبار موجود .

وما كان لهذه الحال أن تستمر هكذا .

وليس من ريب - ونحن نصر على ذلك - في أنه لم يستسلم من غير ما مقاومة لذلك الجبار ، لذلك الملاك المرذول ، لذلك البطل الشنيع ، الذي كان جافير مشمتاً ساخطاً عليه بقدر ما كان مشدوهاً به تقرباً . فعشرين مرة ، فيما كان في تلك العربية وجهاً لوجه مع جان فالجان ، زعم النهر التشريري في ذات نفسه . وعشرين مرة سوت له نفسه ان ينقض على جان فالجان ، وينشب اظفاره فيه ، ويلتهمه ، يعني ان يلقي القبض عليه . وهل ثمة ما هو أبسط من ذلك حقاً ؟ أن يصبح لدن وصوله إلى أول مخفر اجتازاه : « هو ذا هارب من وجه العدالة ، مخالف للحكم الصادر بحقه ! » ، ان ينادي رجال الدرك ويقول لهم :

هذا الرجل ملك لكم ! » ويعضي لسيله ، ان يختلف هذا الرجل المالك هناك ، وان يتتجاهل البافى ، ويقطع كل صلة له به . إن هذا الرجل هو أسر القانون إلى الأبد ، ولسوف يفعل القانون به ما يشاء . اي شيء أكثر عدالة من ذلك ؟ كان جافير قال ذلك كله في ذات نفسه « كان قد رغب في ان يذهب إلى أبعد من هذا ، ان يعمل ، ان يلقي القبض على الرجل ؛ وفي ذلك الحين ، شأنه الآن ، عجز عن ذلك . وكلما ارتفعت يده على نحو متسلق نحو عنق جان فالجان ارتدت وكأنها مشقة بحمل هائل . وكان قد سمع في أعماق عقله صوتاً ، صوتاً غريباً يخاطبه بقوله : « حسن . اطلق سراح منقذك . وجيء بخوض بيلاطس البنطي » ، واغسل برائك . »

ثم ارتد تفكيره إلى نفسه . وإلى جانب جان فالجان ، المعظم ،رأى نفسه ، هو جافير ، مهيناً ذليلاً .

كان المحسن اليه رجلاً محكوماً عليه بالأشغال الشاقة .

ولكن لماذا اجاز لهذا الرجل ان ينقد حياته ؟ كان من حقه ، في ذلك المتراس ، ان يُقتل . ولقد كان ينبغي له ان يفید من هذا الحق . ولقد كان خيراً له لو دعا التمردين الآخرين إلى مساعدته على جان فالجان ، وان يحصل بالقوة على رصاصة يموت بها .

وكان ألم الأعظم ناشئاً عن فقدانه اليقينَ كله . لقد استشعر انه مقتلع من جذوره . لم بعد القانون غير أرومة في يده . ولقد كان عليه ان يواجه وساوس من نوع مجهول . لقد أهْمِ إحساساً مختلفاً كل الاختلاف عن توكيده القانونِ ، مقاييسِ الوحيد حتى ذلك الحين . إن التزامه فضليته

---

\* هو حاكم « اليهودية » من قبل الرومان ، وقد أسلم يسوع المسيح الى قضاكه المدينين بالرغم من عدم افتتاحه ، بأنه اقترف جريمة ما . ولكن يفهم اليهود انه يحملهم تبة موت يسوع طلب شهاداً من الماء ، وعمل يديه وقال : « انا بريء من دم هذا البار » .

القديمة لم يكن كافياً . لقد نشأ نظام كامل مؤلف من حفارات غير متوقعة ، وهيمن عليه . لقد تبدى لروحه عالم جديد بالكلية . إحسان يُتعَبِّل وُيُرَدّ ؛ تفانٍ ؛ حنان ؛ رأفة ؛ أعمال عنف تشتها الشفقة على الصرامة ؛ احترام الأشخاص ؛ لا قضاء نهائياً بعد الآن ؛ لا لعنة أبدية ؛ إمكانية ترقق الدمعة في عين القانون ؛ عدالة خفية وفقاً للرب متناقضة مع العدالة وفقاً للبشر . لقد لمح في الظلام الاشراق الرهيب لشمس اخلاقية عجولة . لقد روته واصابت عينيه بالجهر . يوماً تضطر إلى ان تنظر نظرات نسر .

وقال لنفسه ان ذلك صحيح اذن ، وان ثمة شواذ ، وان السلطة قد تصاب بالقلق ، وان القاعدة قد تتغطى فجأة امام عمل من الاعمال ، وان نص القانون لا ينتظم كل شيء ، وان غير المتوقع قد يفرض سلطاته حتى الخضوع ، وان فضيلة احد المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة قد تنصب شركاً لفضيلة الموظف ، وان الرهيب قد يكون إلهياً ، وان للقدر مكان كهذه ، وفكّر في يأس أنه نفسه ليس في نجوة من الحيرة والانشاد .

واكره على الاعتراف بوجود الرفق . لقد كان هذا المحكوم عليه بالاشغال الشاقة رجلاً رفيقاً ، وكان هو نفسه - وهو أمر غريب - رفيقاً أيضاً . وإن فقد فسداً .

وأنهى نفسه نذلاً خسيساً . كانت نفسه توقع الربع في نفسه . لم يكن مثل جافير الأعلى أن يصبح انسانياً ، ان يصبح عظيماً ، ان يصبح ساماً . كان مثله الأعلى ان يصبح خلواً من العيب .  
وها هو ذا الآن قد اخفق :

كيف انتهى إلى هذه النقطة ؟ كيف حدث ذلك كله ؟ لقد عجز عن ان يحب نفسه : وطوف رأسه بكلتا يديه ، ولكن على غير طائل هـ انه لم يستطع ان يفسر ذلك لنفسه .

وكان يعتزم دائمًا ، من غير شك ، أن يعيد جان فالجان إلى القانون الذي كان أسيره ، والذي كان هو جافير عبداً رقيقاً له . ولم يكن قد أقر بنفسه ، لحظة واحدة ، فيما كان مسكاً به ، أنه فكر باطلاق سراحه . لقد اتفق لديه بطريقة ما ، وعلى غير علم منه ، ان افتتح وأطلقته . وترافقست أمام عينيه علامات الاستفهام على اختلاف ضروبها . لقد طرح على نفسه ، ولقد أجاب ، عن تلك الاسئلة ، وروعيه أجوبته تلك . لقد سأله نفسه : « هذا المحكوم عليه بالاشغال الشاقة ، هذا الرجل اليائس ، الذي لاحقته حتى الاضطهاد ، والذي وجدني مرة تحت قدميه ، والذي كان في ميسوره ان ينتقم لنفسه ، والذي كان يتبعن عليه ان يفعل ذلك لارواه لانتقامه وضماناً لسلامته في وقت معـاً - هذا الرجل ، ما الذي فعله عندما منحني الحياة ، عندما عفا عنـي ؟ واجبه ؟ لا . شيئاً اكـثـر . والآن ، بعفوي عنه مقابل ذلك ، ما الذي فعلته ؟ واجبـي ؟ لا . شيئاً اكـثـر . واذن ، فشـمـة شيء اكـثـر من الواجب . » وأجفلـه ذلك . لقد اختلت موازينـه . إن أحـدـى الكـفـتـينـ قد هـبـطـتـ فيـ الـهـاوـيـةـ ، وـانـ الـآخـرـ قد صـعدـتـ فيـ السـيـاءـ ، واستـشـعـرـ جـافـيرـ منـ تـلـكـ المصـعـدةـ بـقـدـرـ مـنـ الـذـعـرـ مـنـكـافـءـ مـعـ ذـكـ الـذـيـ اـسـتـشـعـرـهـ مـنـ تـلـكـ الـهـابـطـةـ . وـمـنـ غـيـرـ انـ يـكـونـ بـحـالـ مـنـ الـاحـوالـ مـاـ يـدـغـيـ فـولـتـيرـياًـ ، اوـ فـيـلـوسـفـاًـ ، اوـ زـنـديـقاًـ ، وـعـلـىـ الرـغـمـ مـنـ اـنـهـ كـانـ عـلـىـ عـكـسـ ذـكـ شـدـيدـ الـاحـترـامـ ، بـالـغـرـيـزةـ ، لـلـكـنـيـسـةـ الرـاسـخـةـ ، فـلـقـدـ عـرـفـهـ بـوـصـفـهـ جـزـءـاًـ فـخـيـماًـ مـنـ الـكـلـ الـاجـتـمـاعـيـ لـيـسـ غـيـرـ . كـانـ النـظـامـ عـقـيـدـتـهـ الـجوـهـرـيـةـ ، وـكـانـ تـلـكـ الـعقـيـدـةـ تـكـفـيـهـ . فـمـنـذـ اـنـ بـلـغـ مـبـلـغـ الرـجـالـ وـالـمـوـظـفـينـ ، كـانـ قـدـ وـقـفـ دـيـنـهـ كـلـهـ عـلـىـ الشـرـطةـ . وـذـكـ بـأـنـهـ كـانـ جـاسـوسـاًـ - وـنـخـنـ نـسـتـعـمـلـ الـكـلـمـاتـ هـنـاـ فـيـ أـحـفـلـ مـعـانـيـهـ بـالـجـدـ ، وـمـنـ غـيـرـ اـيـمـاًـ أـثـارـةـ مـنـ السـخـرـيـةـ - كـمـاـ يـكـونـ النـاسـ كـهـاـنـاًـ . كـانـ لـهـ رـئـيـسـ ، هـوـ مـسـيـوـ جـيـسـكـيـهـ . وـكـانـ نـادـرـاًـ مـاـ فـكـرـ ، حـتـىـ تـلـكـ الـلحـظـاتـ ، بـذـكـ الرـئـيـسـ الـآخـرـ : اللهـ .

هذا الرئيس الجديد ، الله ، أحس به جافر بعنة . واربكه ذلك  
الاحساس .

وأوقعه ذلك الوجود غير المتوقع في حيرة : ولم يدر ما الذي يتبع  
عليه ان يفعله بهذا الرئيس ، هو الذي لم يكن يجهل ان المروّوس مضطـرـ  
دائماً إلى الخضوع ، وان عليه ان لا يعصي ، أو يلوم ، أو ينافق ،  
وانه ليس للمرؤوس من سبيل – في حضرة رئيس يثير دهشهُ أكثر مما  
ينبغي – غير الأذعان .

ولكن أني له ان يبعث باستقالته إلى الله ؟

وكيفما كان ذلك ، وكان يرجع إلى هنا على نحو موصول ، فأن  
 شيئاً واحداً سيطر عنده على كل شيء ، وهو انه ارتكب منذ لحظات  
خريفاً رهيباً للقانون . كان قد غض طرفه عن آخر صادر في حقه  
حكمٌ ما لبث ان نقضه . كان قد اطلق سراح عحكوم عليه بالاشغال  
الشاقة . لقد فعل ذلك . ولم يستطع ان يفهم نفسه . إنه لم يكن وائقاً من  
ان شخصيته ما تزال هي هي . لقد غابت عنه اسباب عمله نفسها . ولم  
يبق له منها غير دوارها . كان قد عاش حتى تلك اللحظة بذلك الامان  
الاعمى الذي تتجبه التراهمة المظلمة . ولكن هذا الامان كان قد زايله ،  
ولكن هذه التراهمة كانت قد أعزته . كان كل ما سبق له ان آمن به  
قد تبدل . وحاصرته حقائق لم يكن راغباً فيها حصاراً لا يعرف الرحمة .  
ولا ريب في أنه قد أمسى منذ ذلك الحين رجلاً آخر . وعانياً تلك  
الآلام الغريبة التي يقاسيها ضمير اجريت له ، فجاءه ، جراحة لانتراع  
الماء الازرق . لقد رأى ما اشمارز من روئته . لقد أحس انه مستنزف ،  
عديم الفائدة ، مقتلع من حياته السالفة ، مخلوع ، منحلٌ . لقد ماتت  
السلطة فيه . ولم يبق ثمة ما يبرر وجوده .

حالة رهيبة ! أن تحررك العاطفة .

ان تكون صواناً ، وأن تشک ! ان تكون تمثال العقاب مفرغاً بمحفلك

قطعةً مفردةً في قالب القانون ، ثم تلمع فجأةً ان تحت صدرك البرونزي شيئاً مستحيلاً ، عصياً يكاد يشبه قلباً من القلوب ! وان يقودك ذلك القلب الى أن تجزي الخبر بالخبر ، على الرغم من انك ربما اعتدت ان تقول ، حتى ذلك اليوم ، ان هذا الخبر كان شرّاً ! ان تكون كلب الحراسة ثم تداهن ! ان تكون ثلجةً ثم تذوب ! ان تكون كلابةً وتتقلب إلى يد ! ان تستشعر اصابعك تفتح على نحو مفاجئ ! ان تُرخي قبضتك ، شيءٌ رهيب ! أن لا يعرف « الرجل القذيفة » سبيله بعد الآن ، وان ينكص على عقيبه .

أن يضطر إلى الاعتراف بهذا : أن العصمة من الضلال ليست مخصوصة ؟ وأنه قد يكون في العقيدة الجوهرية خطأ ما ؛ وان القانون حين يتكلم لا يقول كل شيء ؛ وان المجتمع ليس كاملا ؛ وان السلطة مشووبة بالتردد ؛ وأن التتصدع في ما هو غير قابل للتغير ممكن ؛ وان القضاة ناس من الناس ؛ وان القانون قد يخندع ؛ وأن المحاكم قد تخطئ ! أن يرى صلدةً في بلور القبة الزرقاء المائل .

ان ما كان يجري في ذات نفس جافير كان تخلخل ضمير مستقيم ، واقصاء نفس عن طريقها ، وسحق صلاح أطلق ، على نحو لا يقاوم ، في خط مستقيم وانكساره عند الله . وليس من ريب في ان ذلك كان عجياً : أن تجندل وقاد النظام ، مهندسـ السلطة ، الممتطي من فرس الطريق الصلب الحديدية العميماء ، بضم خيوط من الضباء ! أن يكون في إمكان المسع ، المباشر ، القويم ، الهندسي ، السلبي ، الكامل ، أن يلتوي ! ان يكون ثمة طريق تنتهي بالقاطرة إلى دمشق !

الله ، النفسي دائمًا بالنسبة إلى الإنسان ؛ المستعصي ، وهو الضمير الحق ، على الضمير الباطل ، المحرّم على الشرارة أن تنطفئ ، الأمر الشعاع بأن يذكر الشمس ؛ الموصي النفسي بـ“أن تعرف بالملائكة الحقيقي

حين تواجه المطلق الوهمي ؛ الله الذي هو الانسانية<sup>\*</sup> خالدة ، والقلب البشري باقيا ؛ هذه الظاهرة السنية — ولعلها أجمل احاجينا الباطنية — هل فهمها جافير ؟ هل نفذ اليها جافير ؟ هل تكون جافير فكرة عنها ؟ لا ، من غير ريب . ولكن<sup>\*</sup> تحت ضغط من هذا الممتع على الفهم ، غير المماري فيه ، استشعر جافير ان جمجمته تكاد تنفجر .

كان صحيحة هذه المعجزة أكثر منه متحولا بواسطتها إلى شخص أكثر سموا . لقد خضع لها ، ساخطاً . إنه لم ير فيها غير صعوبة وجود هائلة . لقد بدا له أن تنفسه سوف يكون منذ اليوم مُعوقاً إلى الأبد . إنه لم يألف أن يُصلَّت المجهول فوق رأسه .

فحتى تلك اللحظة كان كل ما فوق سطح أملس ، بسيط ، رائق في نظره . لا شيء مجهولا هناك ، لا شيء غامضاً . لا شيء مما هو غير محدود ، غير متسق ، غير منظم ، غير مضبوط ، غير دقيق ، غير واضح الحدود ؛ غير مقيد ، غير منغلق ، غير متباً به كله . كانت السلطة شيئاً مسطحاً ، لا تعثر فيه ، ولا دوران أمامه . إن جافير لم يقدِّر له من قبل أن يرى المجهول إلا تحت . كان الشاذ ، وغير المتوقع ، ومتند العباء « غير المتسق ، وإمكان الانزلاق إلى هاوية — كان ذلك كله خاصاً بالمناطق الدنيا ، بالتأثيرين ، بالاشتارات ، بالبوئساء . أما الآن فقد انقلب جافير إلى الوراء ، ولقد رُوع فجأة بهذه الرويا الرهيبة : هوة فوق .

ماذا إذن ؟ لقد دمرت أسواره تدميراً كاملاً ! لقد أُسقط في يده بالكلية ! بأي شيء يتعين عليه أن يثق ؟ لقد انهار ذلك الذي كان مقتناً به !

ماذا ؟ أيمكن ان يكتشف بائس شهم نقص المجتمع ؟ مَاذا ؟ أيمكن

\* chaos

لخادم مخلص من خدم القانون ان يجد نفسه فجأة بين جريمتين : جريمة اطلاق سراح رجل ، وجريمة القاء القبض عليه ! إن كل شيء لم يكن بقيينا في الأمر الذي تصدره الدولة إلى الموظف ! قد يكون ثمة في الواجب دروب غير نافذة ! ماذا إذن ؟ أكان ذلك كله حقيقة ؟ أكان صحيحاً أن يوفق لص عتيق ، مثقل بالأحكام القضائية ، إلى أن ينهض وإلى أن يكون آخر الأمر على حق ؟ أكان ذلك ممكناً التصديق ؟ أكان ثمة ، إذن ، حالات يتبع فيها على القانون ان يتراجع أمام جريمة محلية بالسناء ، وهو يغمغم بالمعاذير ؟

أجل ، كان ثمة حالات مثل هذه ! ولقد رآها جافير ! ولقد منها جافير ! إنه لم يكن عاجزاً عن إنكارها فحسب ، بل لقد كان له فيها دور أيضاً . كانت حفاظات . وكان من المقيت ان يكون في ميسور الحقائق الفعلية أن تبلغ هذا المبلغ من الشناعة .

ولو ان الحقائق أدتْ واجبها اذن لاجترأت بأن كانت براهن القانون : الحقائق ، إن الله هو الذي يرسلها . أكانت الفوضوية اذن على وشك ان تهبط من الأعلى ؟

وهكذا – وتحت قوة الألم المريض المصمم ، وفي وهم الانشداد البصري ، تلاشى كل ما كان في ميسوره أن يقيد انتباعه ويصححها ، ومنذ ذلك الحين اختصر المجتمع ، والجنس البشري ، والكون في عينيه في مظهر واحد بسيط وفظيع – وهكذا فان العقاب ، والشيء المحاكم ، والقوة الجديرة بالقانون ان يتمتع بها ، وقرارات المحاكم السيدة ، والقضاء ، والحكومة ، والاحتياط والقمع ، والحكمة الرسمية ، والعصمة التشريعية ، ومبدأ السلطة ، وجميع المعتقدات الجوهرية التي تستند إليها السلامة السياسية والمدنية ، والسيادة ، والعدالة ، والمنطق المنبثق من القانون ، والمطلق الاجتماعي ، والحقيقة العمومية ، كل هذه هي فوضى ، واختلاط ، وعماء . وأنه ، هو جافير ، شرطي النظام ،

العامل بتراة في خدمة البوليس ، دروامن العناية الالهية المسر  
لصالح المجتمع ، قد قُهر وُهزم . وكان يقف فوق هذا الدمار كله رجل  
يعتمر بقلنسوة خضراء وتحيط بجسنه حالة من نور . ذلك هو الانقلاب  
الذي كان قد انتهى اليه . تلك كانت الرواية الرهيبة التي كانت في ذات  
نفسه .

هل كان في الامكان الصبر على ذلك ؟ لا .

حالة غير طبيعية ، اذا كان ثمة شيء مثل ذلك . ولم يكن هناك غير  
سبعين اثنين للخروج منها . الأول ان يمضي في حزم إلى جان فالجان  
ويبعد الرجل المحكوم عليه بالاشغال الشاقة إلى المحبس المظلم . والثاني...  
وغادر جافير الحاجز . واتخذ طريقه ، في خطى ثابتة ، غير منكس  
الرأس هذه المرة ، نحو المخفر الذي كان احد المصايح يشير إليه في بعض  
زوايا ساحة الـ « شاتيليه » .

حتى إذا بلغه ، رأى من خلال النافذة شرطياً ، ودخل . إن رجال  
الشرطة يعرف بعضهم بعضاً من مجرد الطريقة التي يدفعون الباب بها .  
واعلن جافير عن نفسه ، وابرز بطاقة الشرطي ، وجلس إلى طاولة  
المخفر ، حيث كانت تشتعل شمعة . كان على الطاولة ريشة ، ومحبرة  
من رصاص ، وبعض الورق المعد للتقارير الطارئة ، والأوامر الموجهة  
إلى العسس .

وهذه الطاولة ، المصحوبة دائمًا بكرسيها القشبيّ ، هي في الواقع  
مؤسسة . إنها موجودة في جميع مخافر الشرطة . وهي مزданة على نحو  
لا يتغير بصفحة من خشب البقس ملأى بالشارات ، وصناديق من الورق  
المقوى مليء برسامات حمراء للختم ، وهي الدرجة الدنيا من الأسلوب  
الديواني .. إن أدب الدولة إنما يبدأ فوقها .

---

\* الدوامن : الكلب الظيم الرأس .

وأمسك جافير بالريشة وبقصاصة من الورق ، وبدأ يكتب . ودونك  
هذا الذي كتبه :

## بعض الملاحظات لخير المصلحة

« أولاً ، أرجو سيدي مدير الشرطة أن يلقي نظرة على هذا .  
« ثانياً : إن السجناء ، عند عودتهم من الاستنطاق ، يتذمرون  
أحديثهم ويظلون واقفين حفاة ، على البلاط ، ريشا يفتّشون . إن كثيراً  
منهم ليسعلون حين يرجعون إلى السجن . وهذا يكلف الدولة نفقات  
مستشفى .»

« ثالثاً : الملاحظة المترصدة حسنة ، على أن محل بعض رجال الشرطة  
عمل بعضهم الآخر بين الفينة والفينية . ولكن يجب أن يكون ثمة ، في  
الحالات الخطيرة ، شرطيان لا يرفع أحدهما بصره عن الآخر ، بحيث  
إذا ما ألمَّ الضعف بوحد منها ، لأيٍّ ما سبب منها يكن ، راقبه الآخر  
وقام مقامه .»

« رابعاً : من العسير على المرء أن يفهم لماذا يحظر النظام الخاص  
بسجن المادلوينيت اعطاء السجين كرمياً ، ولو دفع أجرآ على ذلك .»

« خامساً : في سجن المادلوينيت لا يوجد غير قضيبين حديسيين  
لنافذة محل الخاص يبيع المأكولات للسجناء ، مما يمكن البائعة من أن  
تلدع السجناء بمسون يدها .»

« سادساً : إن السجناء ، الذين يدعونهم الناجين ، والذين ينادون  
للسجناء الآخرين إلى حجرة الاستقبال ، يُكرهون السجين على أن يدفع  
البيه درهرين ثمناً لرفع صوتهم باسمه في وضوح . إن هذه سرقة .»

« سابعاً : لأنهم يستبقون عشرة « سو » من أجر السجين ، في دكان الحياكة ، مقابل الخيط المهمل . وهذا ظلم من جانب المعهد ، لأن جودة القماش لم تتأثر »

« ثامناً : من المزعج ان يضطر زائرو سجن لا فورس إلى ان يعبروا « ساحة الاطفال » لكي يصلوا إلى حجرة استقبال « القديسة مريم المصرية » .

« تاسعاً : من الثابت ان رجال الدرك يسمعون كل يوم وهم يقصتون في فناء مديرية الشرطة ، استطلاقات او لثك الذين سيقوا للمثول بين يدي القضاة . إن الدركى الذي يكرر ما سمعه في حجرة الاستنطق – والذي كان ينبغي له ان يصون هذه الاقوال بوصفها مقدسة – إنما يرتكب خطأ خطيراً .

« عاشراً : إن مدام هنري امرأة أمينة . ان نافذة دكانها الخاص ببيع المأكولات للسجناء نظيفة جداً ، ولكن من غير الحسن أن تحرس امرأة بوبت الباب المسحور الخاص بمحجرات السجن السرية . ان ذلك غير لائق بسجين أمة ذات حضارة عظيمة . »  
كتب جافير هذه الأسطر بخطه الاكثر هلوءاً وضيطاً ، غير مهملاً فاصلة ، جاعلاً الورقة تصوت في قوة ، تحت ريشته . وتحت السطر الأخير وقع :

« جافير

« منتشر شرطة من الدرجة الاولى

« مخفر ساحة الشاتيليه

« ٧ حزيران ، ١٨٣٢ حوالي الساعة الواحدة صباحاً .

وجفف جافير حبر الورقة الطريء ، وطواها كما تطوى الرسالة ، وختمها ، وكتب على ظهرها : « مذكرة للادارة » ، وتركها على الطاولة وغادر المخفر . وانطلق الباب المزدوج المق>p بالحديد خلفه .

واجتاز ساحة الـ «شانيليه» ، على نحو قطري ، كرها اخرى ، وانتهى إلى رصيف النهر ، وعاد في دقة آلية إلى النقطة نفسها التي غادرها قبل ربع ساعة ، واتكاً هناك ، فألفى نفسه في الوضع ذاته ، على بلاطة الحاجز نفسها . لقد بدا وكأنه لم يتحرك قط .

كانت الظلمة كاملة . وكان ذلك في اللحظة القبرية التي تعقب منتصف الليل . لقد حجب التحوم سقف من السحب . ولم تكن السماء غير عمق مشوّم . لقد أطفئت جميع بيوت المدينة . وخلت الشوارع من عابري السبيل . كان كل ما استطاع أن يراه من الشارع ومن رصيف النهر مهجوراً . وبدت نوتردام وأبراج قصر العدل وكأنها ملامع الليل . وحمر مصباح حافة الرصيف . وتشوّهت صور الجسور الظلية في الضباب ، بعضها خلف بعض . وكانت الأمطار قد ضخمت النهر .

وكان الوطن الذي اتكاً جافير عنده ، كما يذكر القاريء ، واقعاً فوق تiarات السين تماماً ، على خط عمودي فوق تلك الدوامة الرهيبة التي تنحل ثم تتعقد ثانية مثل لوب لا نهاية له .

وحنى جافير رأسه ، ونظره كان كل شيء أسود ، ولم يكن في ميسوره ان يتبن شيئاً . وسمع صوت الزبد ، ولكنه لم ير النهر . وبين الفينة والفينية ، في ذلك العمق الذي يوقع الدوار في الرأس ، تبدى وميض وتتعجل على نحو غامض ، اذ ان للماء هذه القوة التي تمكنه في أشد الليلي حلقة ، من اقتباس الصياء – وليس يدرى احد من أين – وتحويله إلى أفوان . وتلاشى الوميض ، وعاد كل شيء غامضاً من جديد . وبذا الالامحدود مفتوحاً هناك . إن ما كان تحته لم يكن ماء ولكن هاوية : وبذا جدار الرصيف – موجزاً ، مختلطًا : ممزوجاً بالبخار ، وقد غاب عن البصر فجأة – وكأنه منحدر الالاهية .

لم ير شيئاً ، ولكنه استشعر بروادة الماء البعيدة ، ورائحة المجارة الندية التافهة . لقد انبعثت ريح ضاربة من تلك المرة . وكان تضخم

النهر ، المهزور حزراً بأكثر مما كان ملموحاً لمحـا ، وهـمُ الفيضان الفاجع ، واتساع قنطر الجسر على نحو حدادي ، والسقوط المتخيـل في ذلك الفراغ الكالـح - كان ذلك الظلام كله مفعماً بالمول .

وظل جافـير بضع دقائق جامداً من غير حراك ، مـهدقاً إلى فتحة الظلام تلك . لقد تأمل في اللامـنظور بـتركيز يـشبه الانتـباه . وـخرـ الماء . وفجـأة ، رفع جـافـير قـبـعـته ، ووضعـها على حـافة الرصـيف . وبعد لـحظـة ، بدا واقـفاً على الحـافـة شـكـل "أسـودـ" كان خـليـقاً بـعاـبرـ سـبيلـ متـأخـرـ انـ يـحبـه عنـ بـعـدـ شـبـحاًـ منـ الاـشـباحـ . وـانـحـىـ ذلكـ الشـكـلـ نحوـ الدـهـنـ ، ثـمـ اـنـتـصـبـ ، وـسـقـطـ فيـ الـظـلـمـاتـ عـلـىـ نـحـوـ عمـودـيـ . وـسـمـعـ هـدـيرـ مـوجـ خـافـتـ . وـكانـ الـظـلـامـ وـحـدهـ فـيـ مـكـنـونـ تـشـنجـاتـ ذـلـكـ الشـكـلـ المرـبـدـ الـذـي اـخـضـىـ تـحـتـ المـاءـ .

## الكتاب الخامس

### أَخْفِي دُرَجَّاتَهُ

١

حيث نرى الشجرة ذات صفيحة الزنك

كرة اخرى

بعد فترة وجيزة انقضت على الاحداث التي رويناها منذ لحظات  
استشعر السيد بولاتروويل افعالا عارماً .

ولعل القاريء يذكر ان بولاتروويل كان رجلا منهكآ في اشياء  
كدرة متباعدة . كان يكسر الحجارة وينزل الاذى بالمسافرين على الطريق  
العام . وبوصفه حفاراً ولصاً كان يراوده حلم . كان يؤمن بالكنوز  
المدفينة في غابة مونفيرماني . وكان يرجو ان يجد المال ذات يوم ، في

بطن الأرض ، عند سفح شجرة من الاشجار . وفي انتظار ذلك ، كان يرغب في البحث عن ذلك المال في جيوب عابري السبيل . ومع ذلك ، فقد اصطنع الحكمة مؤقتاً . كان قد نجا ، منذ قريب ، من موقف حرج . فتحن نعرف انه كان اصطيد في كوخ جوندريت المثير مع قطاع الطرق الآخرين . وتلك جدوى الرذيلة : كان سُكره قد انقذه . فلم يكن في ميسور الشرطة ان تجزم أكان سارقاً أم مسروقاً . كان قد أطلق سراحه أمرٌ يمنع المحاكمة بني على حالته الشملة المثبتة اثباتاً واضحاً ليلة الكمين . لقد استعاد حرية الغابات . ورجع إلى طريقه الموصلة بين غانيبي ولانيبي لكي يكسر الحجارة لحساب الدولة ، تحت الاشراف الاداري ، منكس المحيا ، مستغرقاً في التفكير ، وقد خمد شوشه بعض الشيء للسرقة ، التي كادت تُنزل الخراب بساحتها ، وانصرف في شغف أشد نحو الخمر ، التي انقذته منذ فترة يسيرة .

أما الانفعال العارم الذي ألمَ به بُعيد عودته إلى الاستظلال بسطح كوكبه الخاص بعمال الطرق ، المصنوع من العشب ، فهو هذا :

ذات صباح ، فيما كان بولاترووبيل ماضياً إلى عمله وفقاً لعادته ، ولعله كان يترصد أحداً ، لمح وسط الأغصان رجلاً لم يكن في ميسور عامل الطرق ان يرى غير ظهره ، ولكن مشيته ، في ما بدا له ، منه خلال بعد والقصت ، لم تكن غريبة عنه بالكلية . فقد كان بولاترووبيل ، برغم ادمانه الخمر ، ذاكرة دقيقة جلية ، وهو سلاح دفاعي لا يستغني عنه كل من كان على صراع ضئيل مع النظام الشرعي .

وسائل نفسه :

ـ «أين رأيت ، بحق الشيطان ، شيئاً مثل هذا الرجل؟» ولكنه لم يستطع أن يحجب نفسه إلا بالقول إنه يشبه شخصاً انطبع له في ذاكرته صورة غامضة . وأجرى بولاترووبيل ، خارج نطاق الهوية التي لم يستطع ان يتذكرها

أجيد ، بعض المقارنات والحسابات . ان هذا الرجل لم يكن من ابناء تلك الديار . كان قد وفد اليها . سعياً على قدميه ، من غير شك . فليس من عربة عمومية تجتاز مونفيير ماي في تلك الساعة . كان قد مشى طوال الليل . من أين كان قد جاء ؟ من مكان غير بعيد جداً . إذ انه لم يكن يحمل لا جراباً ولا صرة . من باريس ، بلا شك . لم كان في تلك الغابة ؟ لم كان هناك في مثل هذه الساعة ؟ ما الذي جاء به إلى هناك ؟

وذكر بولاتروويل في الكثر . وبفضل التقىب العميق الذي اجراه في ذاكرته تذكر أنه استشعر ، منذ بضع سنوات ، مثل هذا الرعب فيها يصل شخص بدهه انه قد يكون هذا الرجل نفسه . وفيها كان يتأمل حتى رأسه ، تحت وطأة ذلك التأمل نفسه ، وهو امر طبيعي ، ولكنه ليس أريياً جداً . حتى اذا رفع رأسه من جديد لم يعد منه شيء . كان الرجل قد اختفى في الغابة والفسق .  
قال بولاتروويل :

— « يا للشيطان ! سوف أجده من جديد . سوفاكتشف أبشرية هذا الأبشرى . إن لهذا الرجل سراً ، ولوسوف اهتدي إلى ذلك . لن يكون لأحد سر في غبائي من غير ان يكون لي اصبع فيه . »  
وتحمل معوله الذي كان حاداً جداً .

وغمغم :

— « هنا شيء تخفيه الأرض به ، ورجل .. »  
وكما يصل امرؤ خيطاً بخيط ، ظالماً جهده في الطريق الذي لا بد ان يكون الرجل قد سلكه ، اتخذ سبيله خلال الغابة .  
وما إن تقدم نحواً من مئة خطوة حتى ساعدته الفجر الذي كان قد أخذ بالانبهاج . كانت آثار الاقدام المنطبعة على الرمل هنا وهنناك ، والعشب المدوس ، والخليج المسحوق ، والأفنان الملوية في الدغل والمتضبة من

جديد في بطة لطيف ، مثل ذراعي امرأة جميلة تتعطى عند النهوض من  
النوم — كان ذلك كله يدل على طريق ما . واتبع هذه الطريق ، ثم  
ضل عنها . كان الوقت ينقضي . وتابع تقدمه في الغابة ، وانتهى إلى  
شبة راية . وأوحى إليه قناص صباحي يحتاز من بعيد همراً ويصفر  
لعن الـ « غويلاري » ، بفكرة تسلق شجرة . وعلى الرغم من شيخوخته ،  
فقد كان رشيقاً . كانت على مقربة منه شجرة مُرّان فارعة الطول جديرة  
بتبيروس \* وبولاتروويل . وتسلق بولاتروويل شجرة المران أعلى ما  
يستطيع ان يتسلقها .

كانت الفكرة جيدة . فمن طريق زيارة المكان الموحش من الناحية  
التي كانت الغابة متشابكة فيها إلى أبعد الحدود ، ضاربة إلى أبعد الحدود ،  
لمح بولاتروويل الرجل فجأة .  
ولم يكدر يلمعه حتى غاب عن بصره .

ودخل الرجل ، أو على الأصح ، انزلق إلى بقعة جرداء نائية ،  
محجبة باشجار باسقة ، ولكن بولاتروويل كان يعرفها جيداً ، إذ كان  
قد لاحظ هناك ، قرب ركام كبير من حجارة الرحي ، شجرة كثناة  
جريحة ومعصوبة بصفحة من الزنك مسمرة على لحائتها . وهذه البقعة  
الجرداء هي تلك التي كانت تدعى في السابق ارض بلا رو . ان ركام  
الحجارة ، المعد لأمر لا يعرفه أحد ، والذي كان في ميسور المرء ان  
يراه هناك قبل ثلاثين سنة ، لا يزال ثمة من غير ريب . وليس في العالم  
ما يضاهي ركام الحجارة طول عمرِ ، إلا ان يكون ركام حجارة خاص  
بسياج خشبي . إنه هناك إلى حين . واي داع إلى البقاء !

وفي رشاشة البهجة ، سقط بولاتروويل عن الشجرة ، ولا نقول هبط  
منها . لقد اكتُشف جحرُ الأرب ، وكانت المسألة تقتضيه الآن  
الامساك بالطريدة . لعل كثر أحلامه الشهير كان هناك .

---

\* Tityra أحد دافين ورد ذكرها في أول قصائد فيرجيل للرعائية .

ولم يكن الوصول إلى تلك البقعة الجرداء أمراً هيناً . فمن طريق المرات المهدة ، والمشكّلة ألف خط متعرج مناكسد ، كان بلوغها يقتضيه ربع ساعة تماماً . أما إذا سار في خط مستقيم ، من خلال الأجمة ، التي كانت هناك كثيفة جداً ، شائكة جداً ، وعدوانية جداً ، فكان الوصول إليها يقتضيه نصف ساعة ببطولها . وتلك كانت غلطة بولاترووبل . لقد آمن بالخط المستقيم . وهم بصرى جليل ، ولكنه يقضي على كثير من الناس . لقد بدت الأجمة في نظره ، برغم أنها كانت شائكة جداً ، وكأنها الطريق الفضلي .

وقال :

— « فلتسلك شارع ريفولي الخاص بالذئاب » .  
وارتكب بولاترووبل ، المتused ان يسير في انحراف ، غلطة السير في خط مستقيم هذه المرة .  
وادفع في عزم نحو اكتف الأدغال .  
كان عليه ان يواجه آسيا برياً ، وقُرّاصاً ، وزعوراً ، ونسرينأ ،  
وشوكَ جِمال ، وعوسجاً قوياً سريع الغضب . وُخدش جلده  
تخيلاً .

وفي قعر المسيل ، وجد جدولًا يتعين عليه عبوره .  
واخيراً وصل ، بعد اربعين دقيقة ، إلى بقعة بلا رو الجرداء ، راسحاً  
بالعرق ، مبلل الثياب ، لاهثاً ، ممزقاً ، ضارياً .  
ولم يكن في البقعة الجرداء احد .  
وركض بولاترووبل إلى ركام الحجارة . كان الركام لا يزال في مكانه :  
إن أحداً لم يكن قد نقله .

أما الرجل ، فكان قد اختفى في الغابة . كان قد فر . إلى أين ؟  
من أية ناحية ؟ في أي دغل ؟ كان من المتعذر عليه ان يخفر .  
وزاده مضاضة أن وجد خلف ركام الحجارة ، أمام الشجرة ذات

صفيحة الزنك ، تربة نُبشت منذ قريب ، ومعولاً منسياً أو مهجوراً ،  
وخرفة .

كانت هذه المخرة فارغة .

وصاح بولاتروويل ، وهو يهز كلتا قضبيه في وجه الأفق :  
— « اللص ! »

## ٢

### ماريوس ، وقد نجا من الحرب الأهلية ، يستعد للحرب المنزلية

ظل ماريوس فترة طويلة متأرجحاً بين الموت والحياة . لقد استبدت به طوال بضعة أسابيع حمى مصحوبة سهيان ، وأعراض دماغية خطيرة نشأت عن الارتجاج الذي أحدثه جراحات رأسه أكثر مما نشأت من الجراحات نفسها .

وكسر اسم كوزيت ليالي بطولة في ثرثرة الخنمي الحدادية وعناد الحشرجة الكالح . وكانت ضخامة بعض الجراح تشكل خطراً عظيماً - لأن تقييم الجراح البليغة معرض دائماً للامتصاص ثانية ، ومن ثم إلى قتل المريض - بفعل بعض العوارض الجوية . فعند كل تغير في حالة الجو ، وعند هبوب أضال العواصف ، كان القلق يستولي على الطبيب ، فهو يكرر : « عليكم ، فوق كل شيء ، أن تجنحوا المريض الاهتياج والانفعال .» كانت الضمادات معقدة صعبة ، اذ لم يكن ربط العصائب باللزوق قد ابتدع في تلك الحقبة . وقالت نيكوليت أنها اصطدمت نسالة من غطاء سرير « ضخم كالسقف ». ولم تتمكن ضروب الغسول المتكلّورة

ونترات الفضة من ان تضع حداً للقنفرينة إلا بشق النفس . وطوال مدة الخطر كان مسيو جيلنورمان ، الشارد الـب أمام سرير حفيده ، مثل ماريوس : لا هو بغيت ، ولا هو بجي . وكل يوم ، وفي بعض الاحيان مرتبن كل يوم ، كان رجل حسن البزة . أبيض الشعر - ذلك هو الوصف الذي أعطاه الباب - يفدي لسكي يطمئن على صحة الجريح ، ويترك رزمة كبيرة من النسالة للضيادات .

واخراً ، وفي السابع من أيلول ، بعد اربعة اشهر انقضت على ذلك اليوم الذي حُمِّل ماريوس فيه وهو يختضر إلى بيت جده ، أعلن الطبيب زوال الخطر عنه . وبدأ دور النقاوه . ومع ذلك ، فقد تعين على ماريوس ان يظل أكثر من شهرين ممدداً على كرمي طويل ، بسبب من الطوارئ الناشئة عن انكسار لوح الكتف . ان ثمة دائماً جرحاً اخراً مثل هذا يأبى ان يندمل ، وبخلد الضيادات ، مثيراً اعظم السخط في نفس المريض .

وعلى أية حال ، فان هذا المرض المتطاول ، وهذه النقاوه المتطاولة ، انقداه من الملاحة . فسي فرنسي ، ليس ثمة غصب ، ولو حكومياً ، لا تخده اشهر ستة . إن القتن ، في أوضاع المجتمع الحاضرة ، تقع تبعتها على الناس جميعاً بحيث تعيث حاجه ما إلى اغماض العينين .

ولنضيف ان قرار غيسكيه الشائن ، الذي فرض على الاطباء أن يلغوا السلطة عن المرضى ، كان قد أثار سخط الرأي العام ، بل ونفقة الملك قبل غيره من الناس . وتدرع الجرسى واحتموا بهذا السخط ه وباستثناء أولئك الذي أسرروا على ارض المعركة نفسها لم تجرؤ المحاكم العرفية على ازعاج احد . وهكذا ترك ماريوس في سلام .

وعرف مسيو جيلنورمان بادى الأمر صنوف الألم المريض جميعاً ، ثم صنوف الانحطاف جميعاً . لقد وجدوا عسراً شديداً في منه من قضاء

الليل كله ، يومياً ، مع الرجل الجريح . كان يطلب اليهم ان ينقلوا  
 كرسيه الكبير ذا النراعن إلى جانب سرير ماريوس . وكان يصر على  
 أن تأخذ ابنته من أنفس ما في البيت من أقمشة عصائب وضمادات .  
 والتمست الآنسة جيلنورمان - بوصفها الشخص الأرشد الحكيم -  
 الوسيلة إلى توفير تلك الأقمشة التفيسة ، فيها اوقعت في نفس الجد ان  
 اوامرها قد نفذت . ولم يسمح مسيو جيلنورمان لامرئ بأن يشرح له  
 أن القماش القصبي ليس اجود ، في صنع النساء ، من الكتان الخشن ،  
 وان القماش الجديد ليس اجود من القماش العتيق . لقد أشرف بنفسه  
 على وضع جميع الضمادات ، وهو ما كانت الآنسة جيلنورمان ترأى  
 بنفسها عنه في حياء . وحين كان اللحم الميت يقطع بالقص ، كان يقول :  
 « آبي ! آبي ! » ولم يكن ثمة ما هو أدعى إلى التأثير من رؤيته يقدم  
 إلى الجريح ، بارتعاشته العذبة الهرمة ، كأساً من مغلي ماء الحشائش .  
 لقد أثقل كاهل الطبيب بالاسئلة . ولم يكن ينتبه إلى أنه كان يسأل دائمًا  
 الاسئلة نفسها .

ويوم أعلنه الطبيب ان ماريوس اجتاز مرحلة الخطير ، أصيب الرجل  
 المعجوز بهذيان . لقد أنعم على بوابه بإشارة مقدارها ثلاثة لوبيسات  
 ذهبية . وفي المساء ، حين أوى إلى غرفته ، رقص رقصة الـ «غافوت»  
 جاعلاً من إيهامه وسبابته صناجتين ، وراح ينشد هذه الأغنية :

جانَّ مولودة في فوجير  
 مشَّ حقيقي لرامية  
 أنا أعبد تنورتها  
 المناجَ .

ايها الحب ، انت تحيا فيها ؛  
 ذلك انك تensus في  
 حديقها ، هي ، كنانتك .

أنا أنا ، فاني أغنى  
وأحب أكثر من دهانا نفسها ،  
جان وثديها  
البر وقانين .

ثم الحنى على أحد الكرامي ، وكان باسلك - الذي راقبه من خلال  
الباب نصف المفتوح - واثقاً من انه يصلى .  
وكان حنى تلك اللحظة لا يؤمن بالله البتة .

ومع كل وجه جديد من وجوه التحسن ، الذي ازداد تجلياً يوماً  
بعد يوم ، كان الجد يهدي . لقد قام بعشرات من الاعمال الميكانيكية  
المفعمة بالجذل . كان يرتقي السلم ويهبطها من غير أن يدرى لماذا .  
ودهشت احدى جاراته ، وكانت امرأة جميلة ، اذ تلقت ذات صباح  
باقية من الزهر ، كان مسيو جيلنورمان هو الذي ارسلها اليها . وعصفت  
الغيرة بالزوج فغضب وثار . وحاول مسيو جيلنورمان ان يُقعد نيكوليت  
على ركبتيه . واطلق على ماريوس لقب « السيد البارون » . وهتف :  
« فلتتحي الجمهورية ! »

وفي كل لحظة كان يسأل الطيب : « لم يبق من خطر ، أليس  
ذلك ؟ » ونظر إلى ماريوس بعيتين جدد . كان محضنه وهو يأكل .  
ولم يعد يعرف نفسه ، ولم يعد يتكل على نفسه . كان ماريوس هو  
سيد البيت . وكان في ابتهاجه تنازل . كان حفيده حفيده .

وفي هذا الظرب الذي عراه ، كان أكثر الأطفال توقيراً . فلخوفه  
من ان يتعب الشاب الناقه أو يزعجه كان يقف خلفه لكي يبتسم له .  
كان سعيداً ، مبتهجاً ، منترياً ، فاتناً ، غض الأهاب . وخلع شعره  
الاشيب جلاً عندياً على الضياء البهيج الطافح به وجهه . وحبي

تجمعت الطلاوة والتجاعيد يصبح الوجه ساحراً حتى العبادة . إن نعمة فجرأً عجياً في الشيخوخة السعيدة .

أما ماريوس فكانت تستحوذ على ذهنه ، فيما كان يعنده من أن يضمنوا جراحه ويعسوا بحاله ، فكرة مسلطة : كوزيت .

ومنذ ان زايلته الحمى والهدب ، لم يكن قد نطق بذلك الاسم . ولعلهم قد حسروا انه ما عاد يفكر فيه . لقد اعتمد بالضبط لسبب واحد ، هو ان روحه كانت هناك .

انه لم يدر ما الذي حل بكوزيت . كانت قضية شارع الـ « شانفريري » كلها أشبه بسحابة في ذاكرته . كانت ظلال ، غامضة تقرباً . تطفو في ذهنه : ايونين ، غافروش ، مابوف ، تيناردييه وزوجته ، وجميع اصدقائه وقد امتنعوا على نحو حسديدي بدخان المتراس . وكان مرور مسيو فوشلو凡ان الغريب في تلك المأساة الدامية قد خلّف في ذات نفسه مثل أثر الاحميمة في عاصفة . إنه لم يفهم شيئاً في ما يتصل بحياته هو . انه لم يدر كيف ، وبفضل من ، نجا . وما كان أحد من الذين حوله يعرف ذلك . كل ما استطاعوا ان يقولوه إنه حُمل ليلاً إلى شارع فنيات كالفير في عربة كراء . كان الماضي ، والحاضر ، والمستقبل لا يعني كلها ، عنده ، غير ضباب فكرة غامضة . ولكن كان في هذا الضباب نقطة غير متحركة ، ملمّع واضح دقيق : شيء من صوان ، عزم ، إرادة : أن يجد كوزيت من جديد . كانت فكرة الحياة عنده غير منفصلة عن فكرة كوزيت . كان قد قرر في فواده ان لا يقبل احداًهما بدون الآخر ، وكان قد وطد العزم اقوى ما يكون التوطيد على ان يطلب إلى كل من قد يرغب في اكراهه على الحياة سواء أكان المكره جده ، أو القسر ، أو الجحيم - ان يبعد إليه فرسمه الصائع .

ولم يخف عن نفسه ما في ذلك من مصاعب .

ولنوكد نقطة واحدة هنا : إن عنابة جده كلها ولطف جده كله لم يعطها قلبه ولم ياطفا من حاشيته إلا قليلا . إنه لم يكن ، في محل الأول ، جاهلا ذلك كله . ثم إنه ، في استغراقه وهو على فراش المرض ، في التفكير ، الذي ربما كان لا يزال مموماً ، كان قليل الثقة بهذا اللطف ، بوصفه شيئاً جديداً وغريباً ، الغرض منه إخضاعه . وظل بارداً . لقد أتفق الجد ابتسامته المسكينة العجوز على غير طائل . وقال ماريوس في ذات نفسه إن كل شيء حسن ما دام هو ، ماريون ، لم يتكلم ولم يبدِ مقاومة ما . ولكن ما إن تُبحث مسألة كوزيت حتى يجد معي آخر ، وحتى يتزع القناع عن مسلك جده الحقيقي . وعندها سوف يشهد انتكاساً رهيباً إلى المسائل العائلية ، وسوف يواجه ضروب التهمكم كلها ، وضروب المعارضة كلها دفعة واحدة : فوشلوفان ، كوبلوغان ، البروة ، الففر ، البوس ، والانتقال في العنق ، والمستقبل . مقاومة عنيفة . والنتيجة ، الرفض . وتواترت أعصاب ماريوس مقدماً .

ثم إنه ، كلما رسخت قدمه أكثر في الحياة ، عاودته الاحزان القديمة ، وفتحت قروح ذاكرته العتيقة ، وفك في الماضي كرة أخرى . وبرز الكولونييل بونيرسي ، مرة ثانية ، بين مسيو جيلنورمان وبينه هو ، ماريوس . ومع الصحة ، عاوده ضرب من الخشونة نحو جده . واحتمل العجوز ذلك في دعة .

ولاحظ مسيو جيلنورمان ، من غير أن يظهر ذلك بأية حال ، أن ماريوس ، منذ أن حُمل إلى البيت واستعاد وعيه لم يقل له مرة « يا أبي » . إنه لم يقل « مسيو » ، هذا صحيح ، ولكنه وجد الوسيلة إلى أن لا يقول هذه أو تلك من طريق ادارة الجمل على نحو ما .

كان واضحاً أن أزمة توشك ان تعصف .

وكما يحدث دائمًا ، تقريباً ، في مثل هذه الاحوال ، قسم ماريوس ، لكي يختبر نفسه ، ببعض المناوشات قبل أن يقاتل . وذات صباح ، انقى مسيو جيلنورمان ، بعد أن وقعت صحبة بين يديه ، أهـ تحدث في استخفاف عن « المؤتمر الوطني » ، وقدف دانتون ، وسان جوست ، وروبيسيير ، بخاتمة حكمية ملوكية . فقال ماريوس في قسوة : « لقد كان رجال ١٧٩٣ عمالقة » . واعتصم الشيخ بالصمت ، ولم يهمس بقية النهار .

ورأى ماريوس ، المثلثة في ذهنه أبداً صورة العجد العنيد الذي عرفه في السنوات الخالية — رأى في هذا الصمت تركيزاً للغضب كثيفاً ، وتوقع أن يعقبه صراع حاد ، وضاعف استعداداته للمعركة ، في زوابيا فكره الخلفية .

وقرر ، في حال الرفض ، أن يعزق ضماداته ، ويتحمّل كتفه ، ويعري سائر جراحه ويفتحها ، ويرفض كل غذاء . كانت جراحه هي عتاده الحربي . فأما كوزيت ، وإنما الموت .  
وانظر اللحظة الملائمة في آناء المريض المدارية .  
وسنحت اللحظة .

### ٣

## ماريوس يهاجم

وذات يوم انحنى مسيو جيلنورمان — فيما كانت ابنته ترتب القناني والكونوس على ظهر الخران الرخامى — فوق ماريوس وقال له في جرسه الاكثر رقة :

— « أترى ، يا صغيري ماريوس ، لو كنت مكانك لآثرت ان

٢ كل اللحم بدلا من السمك . إن سماكة موسى مقليسة " استهلال " ممتاز للدور النقاوه . ولكن المريض يحتاج ، لكي يقف على قدميه ، إلى ضلوع جيد مشو .

واستجمع ماريوس ، الذي كان قد استعاد كامل قواه تقريباً ، جميع هذه القوى ، واتخذ في سريره جلسة مستقيمة ، واسند قضييه المتشنجتين إلى غطاء الفراش ، وحدق النظر إلى وجه جده ، وغلبت عليه سبأ رهيبة ، وقال :

- « هذا يقودني إلى أن أقول لك شيئاً . »

- « ما هو ؟ »

- « هو أني أريد ان أتزوج . »

- « موافق . »

قال الجد ذلك ، وانفجر ضاحكاً .

- « موافق ؟ كيف ؟ »

- « أجل ، موافق . إنك سوف تفوز بفتاتك . »

وذهل ماريوس ، وغلب عليه الانشاده ، وارتعدت اوصاله جمبيعاً.

وابع مسيو جيلنورمان :

- « أجل سوف تفوز بفتاتك الصغيرة ، الحلوة الوسيمة . إنها نجبي كل يوم في شكل رجل عجوز لتطمئن عنك . ومنذ ان جرحت ، وهي تتفق وقتها في البكاء وصنع النسالة . لقد تقصيت حالها . أنها تسكن في شارع الرجل المسلح ، رقم سبعة . آه ، إننا على استعداد ! حسناً . سوف تفوز بها ! هذا يوعلك في الشرك . لقد بَيْت موآمرتك الصغيرة ؟ لقد قلت في ذات نفسك : سوف اقذف بهذا ، بعزم ، في وجه ذلك الجد ، في وجه مومياء عهدَي الوصاية والادارة تلك ، في وجه ذلك الوسيم العتيق ، في وجه دورانت الذي أمسى جبرونت ؛ لقد كان له هو أيضاً طيشه ، وغرامياته الموقته ، ومحبواته

المحتاجات ، و « كوزيتاته » . كان له عهد تباهي فيه بنفسه ، عهدٌ  
كان له فيه جناحان ، عهد أكل فيه خنزير بيعه ، إن عليه أن يذكر ذلك  
جيداً . سوف نرى . معركة . آه ، إنك تمسل الخنفساء من قرنيها .  
هذا حسن ، أنا اقترح ضلعاً محشوأ ، فتجيب أنت : « بالمناسبة ، أريد  
أن أتزوج . » هذا ما أدعوه انتقالاً . آه ، لقد اعتمدتَ على شيءٍ من  
الخصام الطفيف . إنك لم تعرف اني كنت جباناً عجوزاً . ما قولك في  
ذلك ؟ أنت مفتاظ . إنك لم تتوقع أن تجد جدك أكثر بلاهة منه  
نفسك ؛ إنك تخسر الخطاب الذي اعدته لي ، يا سيدى المحامي . ذلك  
پير السخط . حسناً ، لا بأس ، إستشط غضباً . أنا أفعل ما ترغبه  
فيه ، فذلك يفهمك ، أنها المحبول . اسمع . لقد قمت ببعض  
التحقيقات ؛ أنا ماسكر أيضاً . إنها فاتنة ؛ إنها حسنة السيرة ؛ الرماع  
غير مصيب . لقد صنعتْ أكوااماً من النسالة ؛ إنها جوهرة ؛ إنها تعبدك  
ولو إنك مت ، اذن لك ثلاتة . وعندئذ يصاحب نعشها نعشى . ولقد  
عزمت ، منذ ان تمثلت للشفاء ، ان اركزها بكل بساطة أمام سريرك ،  
ولكنْ في الروايات فحسب يقدمون الفتيات ، في غير احتفال ، إلى  
سرير الجرحى الوسيمين الذين بهم شأتم . هذا غير ممكن . اي شيء كان  
خليقاً بعمتك ان تقوله ؟ لقد كنت عارياً تماماً ، ثلاثة اربعاء الوقت ،  
يا صاحبى . اسأل نيكوليت ، التي لم تفارقك دقيقة ، ما اذا كان بإمكان  
امرأة أن تكون هنا . وإلى هذا ، فأي شيء كان خليقاً بالطيب ان  
يقوله ؟ ان الفتاة الجميلة لا تشفي من الحمى . وأخيراً ، هذا حسن ،  
فللقطع عن الكلام على هذا الموضوع . لقد تم كل شيء ؛ لقد قضى  
الامر ؟ لقد أنجز . خذها . تلك هي قساوتي . أترى ؟ لقد ادركتُ  
إنك لم تخبني . قلتُ : ما الذي استطيع ان أفعله اذن لكي احمل هذا  
الحيوان على حببي ؟ وقلتُ : اسمع ! إن كوزيت الصغيرة تحث يدي .  
ولسوف أعطيه اياها وعندئذ لا ريب في انه سوف يحبني بعض الشيء ،

أو يخبرني لماذا . آه ، لقد حسبتَ ان الرجل العجوز سوف يثور ، ويصطنع الصوت الغليظ ، ويصرخ « لا » ، ويرفع عصاه فوق هذا الفجر كله . على الاطلاق . كوزيت ؟ فليكن . الحب ؟ فليكن . انا لا اطمع في ما هو أفضل . انهض بعبء الزواج ، يا سيدى . كن سعيداً ، يا طفلي الصغير . »

حتى إذا قال ذلك ، عصفت بالعجز عاصفة من التحبيب . وأمسك برأس ماريوس ، وشده بين ذراعيه إلى صدره العجوز ، وانخرط كل منها في البسکاء . ذلك شكل من اشكال السعادة العليا .

وهتف ماريوس :

— « أبي ! »

فقال العجوز :

— « آه ، انت تخبني اذن ! »  
وتصرت لحظة لا سيل إلى وصفها . وخنقتهما الدموع ، ولم يستطيعا  
كلاماً .

واخيراً غغم العجوز :

— « كفى ! لقد انحللت العقدة . لقد ناداني يا أبي ! »

وحرر ماريوس رأسه من بين ذراعي جده ، وقال في رقة :

— « ولكن أما وقد استعدت صحتي الآن ، يا أبي ، فسان في  
استطاعتي ان اراها . »

— « موافق أيضاً . سوف تراها غداً . »

— « أبي ! »

— « لماذا ؟ »

— « ولم لا يكون ذلك ، اليوم ؟ »

— « حسن ، اليوم . ليكن ذلك ، اليوم . لقد ناديتني « يا أبي » ثلاثة  
مرات ، وهذه المناداة تستحق ذلك . سوف أتولى ذلك . سوف ننجيء

بها اليك . قلت لك اني موافق . لقد صبيخ ذلك شعراً قبل اليوم . انه خاتمة مرثية اندريه شينيه الموسومة بـ «المريض الفقى» ، اندريه شينيه الذي قتله الآثم ... أعني عالقة عام ١٧٩٣ »

وبحسب مسيو جيلنورمان أنه لمح على جبين ماريومس عبوساً طفيفاً ، على الرغم من ان الفقى في الواقع - كما ينبغي ان نقول - لم يعد يصفي اليه ، بعد ان استحوذ عليه الانحطاط الروحي ، واستغرق في التفكير بكوزيت أكثر من استغراقه في التفكير بعام ١٧٩٣ . وسارع الجد ، مرتعشاً لأفعاله اسم اندريه شينيه إقحاماً غير موقن ، إلى القول مسن جديداً :

- «إن «قتله» ليست هي الكلمة المناسبة . الواقع ان العبريات الثورية الكبيرة ، والذين لم يكونوا اشراراً - هذا امر لا خلاف فيه - والذين كانوا ابطالاً ، وحق الاته ، وجدوا ان اندريه شينيه ازعجهم بعض الشيء ، فساقوه إلى المصا ... يعني ان اولئك الرجال العظام ، في اليوم السابع من تيرمبدور ، ومن اجل السلامة العامة ، قد توسلوا إلى اندريه شينيه ان يتفضل بالذهاب ... »

وغض مسيو جيلنورمان بجملته نفسها ، وعجز عن متابعة الكلام . واذ لم يستطع ان يتم الجملة أو ان يستدركها ، فيما كانت ابنته تسوي الوسادة خلف ماريومس ، فقد قذف الرجل العجوز بنفسه - وقد غمرته ضرب من الانفعالات كثيرة - إلى خارج حجرة النوم ، باسرع مما مكتبه شيخوخته ، من ذلك . ورد الباب خلفه ، ارجوانى الوجه ، مختنقًا ، مزبدًا ، جاحظ العينين ، فوجد نفسه وجهاً لوجه أمام باسلك الامين الذي كان يصقل الاحدية في غرفة الانتظار . وأخذ يخناق باسلك ، وصرخ في وجهه بأعلى صوته ، في سُرّع : « وحق نساء الشيطان الثراثات للكف ، إن قطاع الطرق اولئك قد قتلوا ! »

- « من ، يا سيدي ؟ »

— « اندرية شيئاً ! »  
فقال باسك ، في ذعر :  
— « نعم ، يا سيدى . »

## ٤

الانسة جيلنورمان تنتهي بان لا تجد غضاضة في دخول  
مسيو فوشلوفان الى البيت متأبطة  
شيئاً ما

وكحل كل من كوزيت وماريوس عينيه ، كرفة اخرى ، برومية  
الآخر .

أما اللقاء فتحجم عن وصفه . إن ثمة اشياء يتبعن على المرء ان لا  
يحاول تصويرها . والشمس في عداد هذه الاشياء .  
كانت الاسرة كلها ، وفيها باسك ونيقوليت ، مجتمعة في حجرة  
ماريوس ، عندما دخلت كوزيت .  
لقد برزت على العتبة . ولقد بدا وكأنها هالة من نور .  
وفي تلك اللحظة بالضبط كان الجد على وشك ان يتمخط . وكفَّ  
عن ذلك في الحال ، ممسكاً بأنفه خلف منديله ، ونظراؤاً إلى كوزيت من  
فوقه .

وهتف :

— « فاتنة ! »  
ثم تمخط في صوت مرتفع .  
كانت كوزيت نشوى ، مسلوبة الفؤاد ، ذاهلة ، في الجنة . كانت

مذعورة بقدر ما يصاب المرء بالذعر بسبب من السعادة . وتمت ، شديدة الشحوب ، شديدة التورد ، راغبة في ان تلقي نفسها بين ذراعي ماريوس ، غير متجرئة على ذلك . لقد استحيت أن تظهر حبها أمام هؤلاء الناس جميماً . اتنا لا نعرف الرحمة للمحبين السعداء ، اتنا نبقى هناك حين يكونون على اشد الرغبة في ان يخلو احدهم إلى الآخر لانهم ، مع ذلك ، في غير حاجة إلى الناس ، على الاطلاق .

ومع كوزيت ، ووراءها ، دخل رجل أشيب ، وقور ، يبتسم بوجه ذلك ، وإن تكن ابتسامته غامضة ممضة . كان هو « مسيو فوشوفان » ، كان هو جان فالجان .

كان حسن البزة جداً ، كما سبق للباب ان قال ، وكان يرتدي بدلة سوداء جديدة ، ورباط رقبة ابيض .

وكان الباب على بعد الف فرسخ من ان يتبعن في هذا البورجوازي القديم ، في الكاتب العدل المحتمل هذا ، حامل الجثة الرهيب ذاك الذي ترجحل عند بابه ليل السابع من حزيران ، رث الثياب ، ملطخاً بالوحل ، مروعاً ، شرساً ، مقنعاً وجهه بالدم والقفر ، حاملاً ماريوس الفاقد الوعي بين ذراعيه . ومع ذلك فقد أوقف عنده ذكاء الباب . فحين أقبل مسيو فوشوفان مع كوزيت لم يت halk الباب ان يسر هذه الملاحظة إلى زوجته : « لست أدرى لماذا يخبل الي أني رأيت ذلك الوجه في مكان ما . »

وفي غرفة ماريوس ، ظل مسيو فوشوفان قرب الباب ، وكأنه عازل . كان يتأنط رزمة شبيهة مجلد من قطع الشمن ، ملفوف بورقة . كانت ورقة الظرف ضاربة إلى الخضراء ، ولقد بدت عفنة .

وفي صوت خفيض وجهت الآنسة جيلنورمان ، التي لم تكن تحب الكتب فقط ، هذا السؤال إلى نيكوليت :

- هل يتأنط هذا الرجل الكتب على هذا النحو دائمًا؟

وبالنيرة نفسها أجاب مسيو جيلنورمان الذي كان قد سمعها :

- « حسناً ، إنه عالم . ثم ماذا ؟ أهي غلطته ؟ إن مسيو بولارد الذي عرفته ، ما كان يغادر بيته ، هو الآخر ، من غير كتاب ، وكان من دأبه أن يضم إلى فواده على هذه الصورة مجلداً عتيقاً . »

وانحني ، وقال في صوت عال :

- « مسيو ترانشلو凡 ..... »

ولم يفعل الأب فوشلو凡 ذلك عن عمد ، ولكن الغفلة عن اسماء العظام كانت عنده احدى العادات الارستقراطية .

- « مسيو ترانشلو凡 ، يشرفني أن اطلب منك يد الآنسة ليفيدي السيد البارون ماريوس بونيرسي . »

وانحني مسيو ترانشلو凡 .

وقال الجد :

- « قضي الأمر . »

واللفت نحو ماريوس وكوزيت ، بذراعين مبوسطتين مباركتين ، وهتف :

- « في ميسور كل منكم أن يعبد الآخر . »

ولم يترك له مجالا لأن يقولها مرتين . وبدأت الزفقة . لقد تحدثا في صوت خفيض ، وقد اتسكاً ماريوس على كرسيه الطويل ، ووقفت كوزيت إلى جانبه . وغمضت كوزيت : « آه ، يا الله ! أنا أراك كرهاً أخرى ! هذا أنت ! هذا أنت ! وذهابك إلى القتال على هذا النحو ! ولكن لماذا ؟ ذلك شيء رهيب ! لقد كنت مينة طوال أربعة أشهر . أوه ، كم كان قبيحاً منك أن تشارك في تلك المعركة ! اي ذنب اقترفته نحوك ؟ أنا اغفر لك ، ولكنك لن تعود إلى مثلها ثانية . وفي هذه اللحظة ، حين جاءوا يدعونا إلى الحضور اعتقادت كرهاً أخرى انني سوف اموت ، ولكن الموت كان من شدة الفرح . كنت عزونة جداً .

أنا لم اضع اي وقت في ارتداء ملابسي . لا شك ان منظري يوقع الرعب في الفوسن . ما الذي سوف يقوله اقرباؤك حين يرونني وقد ارتديت طوق عنق باليأ . ولكن تكلم الآن . انت تتركتي انكلم وحدى . نحن لا نزال نسكن في شارع الرجل المسلح . ييدو أن كتكلك ... كان ذلك فظيعاً . لقد اخبروني انه كان في استطاعتهم ان يضعوا جُمِعَ كفهم في داخليها . ثم ييدو انهم قطعوا لحمك بالمقراص . ان هذا هو الامر الرهيب . لقد بكيت ؛ أنا لم تبق لي عينان . من المضحك أن يكون في ميسور المرء ان يتالم على هذه الشاكلة . إن لجذك مظهراً يدل على طيبة بالغة . لا تزعج نفسك ، لا تتذكر على مرفقك ، حذار ، انك سوف تؤذني نفسك . اوه ، ما أعظم سعادتي ! واذن فقد انقضى البلاء كله !انا بلهاء إلى ابعد الحدود . كنت لوداً ان اقول لك اشياء ، ولكنني فسستها نسبائناً كاملاً . الا تزال تخبني ؟ انا نسكن في شارع الرجل المسلح . ليس هناك حدائق ، أنا أتفق وفقي كله في صنع النسالة . انظر يا سيدى ، إنها غلطتك ، لقد تصلبست اصابعى . ، فقال ماريوس :

« ملاك ! »

ان كلمة « ملاك » هي الوحيدة التي لا تبلى بين كلمات اللغة كلها . إن أنها كلمة اخرى لا تستطيع أن تصمد لاستعمال العشاق لها على نحو لا يعرف الشفقة .

وإذ كان ثمة أناس في الغرفة ، فقد كفأ عن الكلام ، ولم ينطقا بايما لفظة اخرى ، مكتفين بلمس احدهما بد الآخر في رقة بالغة . والتفت مسيو جيلورمان نحو كل من كان في الغرفة وصاح :

— « تكلموا ، انتم الآخرون ، بصوت عال . أحذثوا بعض الصجة ، خلف الكواليس . هيا ، شيئاً من الضجة ، يا للشيطان ! حتى يستطع هذان الطفلان ان يتطارحا الحديث من غير انزعاج . » واقترب من ماريوس وكرزيت ، وقال لها في صوت خفيض جداً :

— « تغازلا . لا ترتبكا . »

وشهدت العمة جيلنورمان ، في ذهول ، هذا الغزو الذي قام به الضياء لباطنها العجوز . ولم يكن هذا الذهول عشوائياً بالمرة . إنه لم يكن ، بأية حال ، تلك النظرية المكلومة الحاسدة التي تلقبها بومة على عامتين . كانت نظرة بلدية تلقبها فتاة بريئة مسكينة في السابعة والخمسين من العمر . كانت هي الحياة الناقصة ناظرة إلى ذلك النصر : الحب .

وقال لها أبوها :

— « أيتها الآنسة جيلنورمان الكبرى ، لقد قلت لك في وضوح أن ذلك سوف يحدث . »

وظل صامتاً لحظة ، ثم أضاف :

— « انظري إلى سعادة الآخرين . »

ثم التفت نحو كوزيت ، وقال :

— « ما أجملها ! ما أجملها ! إنها لوحة من لوحات « غروز » .  
واذن فسوف تنعم بها وحدك ، إنها الولد الطائش ! آه ، إنها الوعد ،  
لقد تجوت من موقف حرج معندي ؛ إنك لمحظوظ ؛ ولو لم أكن أكبر  
ما ينبغي بخمسة عشر عاماً لتبارزنا بالسيف لنرى إنها يجب أن يفوز بها .  
اسمي ! أنا متيم بك ، أيتها الآنسة . هذا طبيعي جداً . هذا حفل .  
آه ، يا للعرس الصغير الجميل الفاتن الذي سوف يتبع عن هذا الحب !  
إن « سان دونيز دو سان ساكريمان » هي ابرشيتنا ، ولكنني سوف انتزع  
إعفاء يمكنكم من الزواج في « سان بول » . الكنيسة أفضل . لقد شيدها  
اليسوعيون . ذلك أكثر دلالاً . إنها تقع تجاه نبع الكاردينال دو بيراغ .  
إن رائعة فن العمارة اليسوعي هي في نامور . إنها تدعى « سان لو » .  
يجب أن تذهب إلى هناك حين تتزوجن . إن تلك الكنيسة تستحق الرحلة  
أيتها الآنسة ، أنا من رأيك تماماً . أنا أريد من الفتيات أن يتزوجن ،

---

\* Grause رسام فرنسي امتاز برسم صور الاشخاص ( ١٧٢٥ - ١٨٠٥ )

العصر او الغروب وإنشاد «السور العاجي» !  
*Tritis eburnea*

- « وبالمناسبة ! »
  - « ماذا ، يا أبي ؟ »
  - « ألم يكن لك صديق حميم ؟ »
  - « نعم . كورفيراك . »
  - « ما الذي حل به ؟ »
  - « لقد مات . »
  - « حسن . »

وجلس قربها ، وأجلس كوزيت ، وأمسك أيديها الأربع بيديه  
العجزين المتعددين .

— « إنها لذيلة ، هذه الفتاة اللطيفة . ان كوزيت هذه رائعة ! إنها فتاة صغيرة جداً ، وسيدة عظيمة جداً . إنها لن تصبح إلا بارونة ، هذا ترول عن مرتبتها الخاصة ، فقد ولدت مركبزة . يا ولدي » ثبتنا في رئيسكما انكما على صواب . ليحب احدكما الآخر . كونا نخبولين في ذلك . الحب هو حماقة الناس ، وحكمة الله . ليعبد كل منكما الآخر . ولكن » — اضاف الجد وقد اغتم فجأة — « يا للمصيبة ! هذا ما أفكر فيه ! إن أكثر من نصف ما أملاك هو رقبى أنتع بها ما دمت حياً . فما دمت على قيد الحياة ، فسوف يكون كل شيء على ما يرام . ولكن عقب موتي ، بعد عشرين عاماً ، آه ، يا ولدي المسكين ، لن تنالا دافقاً واحداً . ان يديك الجميلتين البيضاوين ، يا سيدتي البارونة . سوف يكون لها شرف شده من ذنبه . . . »

— « إن عند الآنسة اوفراري فوشلو凡 ستمنة الف فرنك . . .  
كان ذلك الصوت صوت جان فالجان .

لم يكن قد نطق بعد بكلمة ، بل ان احداً لم يهد وكأنه كان يعرف انه هناك ، وانه كان واقفاً من غير حرراك خلف هؤلاء الناس السعداء جمِيعاً .

وتساءل الجد ، مثليوها :

— « ومن هي الآنسة اوفراري هذه ؟ »

فأجابت كوزيت :

— « أنا . . . »

واضاف مسيو جيلورمان :

— « ستمنة الف فرنك ! »

فقال جان فالجان :

— « ناقص اربعة عشر الف فرنك أو سبعة عشر الف فرنك ،  
ربما »

ووضع على الطاولة تلك الرزمة التي حسبتها العمة جيلنورمان كتاباً .  
وفتح جان فالجان الرزمة بنفسه . كانت حزمة اوراق نقدية .  
وتصفحوها ورقة ورقة ، وأحصوها . كانت تتألف من خمسة ورقة  
من ذوات الالف فرنك ، ومئة وثمانين وستين ورقة من ذوات الخمسة  
فرنك .

وقال مسيو جيلنورمان :

— « هذا كتاب ثمين . »

وغمضت العمة :

— « خمسة واربعة وثمانون الف فرنك ! »

ثم إن العجed أضاف :

— « هذا سوف يسوي الأمور أحسن تسوية ، ليس كذلك ايتها  
الآنسة جيلنورمان الكبرى ؟ لقد وجد لك ماريوس الشيطان مليونيرة  
مغناجة في شجرة الاحلام ! واذن فلتكن لك ثقة في غراميات الجيل  
الطالع ، هذه الأيام ! الطلاب يجدون طالبات يملئن ستة عشر الف فرنك .  
الكريبيم ، يشغل احسن مما يستغل روتشيلد . »

وكررت الآنسة جيلنورمان في همس :

— « خمسة واربعة وثمانون الف فرنك ! خمسة واربعة وثمانون !  
وفي استطاعتك ان تقول أنها ستة عشر الف حقاً ! »  
أما ماريوس وكوزيت فكانا يتبدلان النظارات طوال تلك الفترة .  
لأنهما لم يوليا هذه النقطة إلا أقل الاهتمام .

---

\* من الملائكة الوارد ذكرها في الكتاب المقدس .

## لأن تستودع مالك غابة ما ، خير لك من ان تستودعه كتاباً عدلاً ما

لا ريب في ان القاريء قد ادرك ، من غير أن يحتاج إلى شرح مسهب ، ان جان فالجان استطاع ، بعد قضية شانغاتيو - وبفضل هربه الأول الذي استمر بضعة أيام - ان يشخص إلى باريس ، وان يسحب المال الذي كسبه باسم مسيو مادلين ، في مونتروي سور مير ، من مصرف لافت في الوقت المناسب . وأنه ، كان قد خبا - خشية ان يقبض عليه من جديد ، وهو ما حدث فعلا بعد فترة قصيرة - ودفن ذلك المال في غابة مونفيرماي ، في الموطن المعروف بأرض بلا رو . وكانت تلك الثروة ، البالغة ستمئة وثلاثين الف فرنك ، والمؤلفة كلها من اوراق نقدية ، ذات حجم صغير ، وكانت موضوعة ضمن علبية . ولكي يقي العلبة من الرطوبة ، وضعها في صندوق من خشب البلوط ، مليء بنشارة الكستناء . وفي الصندوق نفسه ، كان قد وضع كنزه الآخر : شمعدانَي الاسقف . والقاريء يذكر انه كان قد حمل هذين الشمعدانين عند هربه من مونتروي سور مير . وكان الرجل الذي لمحه بولاتروروبل ذات مساء ، أول مرة ، هو جان فالجان . وفي ما بعد ، كان جان فالجان كلما احتاج إلى مال ، قصد إلى بقعة بلا رو الجرداء التیأساً لشيء منه . ومن هنا غيابه المتكرر الذي تحدثنا عنه . كان عنده معلم في ناحية ما من الدغل ، في مخبأ ليس يعرفه أحد غيره . وحين رأى إلى ماربوروس ينعم بالنقاهة ، واستشعر اقتراب الساعة التي قد يصبح فيها ذلك المال ذا فائدة ، مضى التیأساً له أيضاً . وكان هو الذي رأه بولاتروروبل

آنذاك في الغابة ، ولكن صباحاً هذه المرة ، لا مسام . وورث بولاتروويل المoul .

كان المبلغ الحقيقي خمسة واربعة وثمانين الفاً وخمسة فرنك . ولقد أخذ جان فالجان خمسة فرنك لنفسه . وفکر : « سوف نرى في ما بعد . » وكان الفرق بين هذا المبلغ والستة وثلاثين الف فرنك المسحوبة من مصرف لافيت يمثل نفقات عشر سنوات ، من ١٨٢٣ إلى ١٨٣٣ . إن السنوات الخمس التي قضاها في الدبر لم تكلفه غير خمسة آلاف فرنك . ووضع جان فالجان الشمعدانين القضيبين على الوقد ، حيث أضاءا ، مُوقعين في نفس توسيع أعظم الأعجاب .

وإلى هذا ، فقد عرف جان فالجان انه قد أفقد من جافير . كان قد ذُكر على مسمع منه ، وكان قد تثبتت من صحة الواقعه من طريق صحيفة « المونيتور » التي نشرت أن مفتش شرطة يدعى جافير وجد غريباً تحت مركب أحدي الفسالات بين جسر « شانج » ، و « الجسر الجديد » ، وان ورقة تركها هذا الرجل ، الذي كان خلواً من العيب ممتعاً بأعظم التقدير من رؤسائه ، قادت إلى الاعتقاد بأنه انتحر اثر نوبة جنون أصابته . وقال جسان فالجان في ذات نفسه : « الواقع ، انه ما دام قد اطلق سراحه بعد ان قبض علىي ، فلا ريب في أنه كان قد اصيب قبل ذلك بالغبل . »

## ٦

العجزان يصنعان كل شيء ، كل على طريقته ،  
لكي تكون كوزيت سعيدة

وانخذلت جميع الاستعدادات للزواج . وحين استثير الطيب أعلن ان

في الامكان عقده في شباط . وكان القوم آنذاك في كانون الاول .  
وتصرمت بضعةأساييع فاتنة من السعادة الكاملة .  
ولم يكن الجد اقلهم سعادة . كان يقضى بين الفينة والفينية فترة تزيد  
على ربع ساعة وهو يحدق إلى كوزيت .  
وهتف مرة :

— « يا لفتاة الجميلة الرائعة ! ويا ما أعدب اخلاقها وأطبيها !  
وليس ثمة فائدة ، يا حبيبي ، في ان اعبر لك عما يختلي في  
فوادي . إنها اجمل فتاة رأيتها في حياتي . ولل هذا فانها سوف تحمل  
الىك فضائل ذات غير اشبه بغير البنفسج . إنها نعمة ، حقاً . ليس في  
استطاعتك الا ان تحيا ، في نبل ، مع مخلوقه كهذه . ماريوس ، يا بني  
انت بارون ، انت غني ، لا تغرس المحاما بغير نجاح ، اتوسل  
الىك . »

كانت كوزيت وماريوس قد انتقلا فجأة من القبر إلى الجنة . ولم  
يكن في ذلك الانتقال غير حذر ضليل . ولقد كان جديراً بها ، لوم  
يصيّها الجهر ، ان يصابا بدور .

وقال ماريوس لكرزيت :

— « هل تفهمين شيئاً من ذلك ؟ »  
فأجابت كوزيت :

— « لا . ولكن يخيل الي أن الله اللطيف يحيطنا بعاليته . »  
وعمل جان فالجان كل شيء ، وسوى كل شيء ، وأصلاح كل  
شيء ، وسهل كل شيء . لقد اسرع نحو سعادة كوزيت بمثل اللهفة ،  
وفي ما يبدو بمثل البهجة ، التي اندفعت بها كوزيت نفسها .

واذ كان في ما مضى عمدة ، فقد عرف كيف يحل مشكلة دقيقة  
كان هو وحده واقفاً على سرها : مشكلة وضع كوزيت المدنى . فلو  
انه ذكر اصلها في قساوة اذن الحال ذلك — من يدرى ؟ — دون الزواج .

لقد اخرج كوزيت من المصاعب كلها . ولقد نظم لها أسرة من الموتى ، وهي وسيلة مضمونة لعدم إثارة اعتراض ما ؛ وكانت كوزيت هي البقية الباقيه من تلك الاسرة البائدة ؛ إن كوزيت لم تكن بنته ، ولكن بنت فوشلوفان آخر . كان أنموان من آل فوشلوفان قد عملا بستانيين في دير بيكتوس الصغير . وذهب القوم إلى هذا الدير . وكانت الأدلة الفضلي والشهادات الأخفى بالاحترام موفرة هناك . فالراهبات الصالحات لتمتعت بأقل القدرة على سر قضايا الأبوة وأقل الرغبة في ذلك ، واللواتي ما كن يفهمن الخبر على الاطلاق ، لم يعرفن قط على وجه الضبط ابنة ايٌّ من الفوشلوفانيين كانت كوزيت . لقد قلن ما كان مطلوباً منهم ، وقلن ذلك في اندفاع . وحرر محضر بهذا أمام الساكت العدل . وأصبحت كوزيت ، امام القانون ، الآنسة اوفراري فوشلوفان . لقد أعلنت يتيمة الاب والام . ورتب جان فالجان الاشياء بحيث يُنص على انه ، تحت اسم فوشلوفان ، وصي على كوزيت ، وان مسيوجيلورمان وكيل سي عليها .

أما الخامسة والأربعة والثمانون ألف فرنك فكانت هبة بوصية ، تركها لكوزيت شخص ميت كان قد أبدى رغبته في أن يظل مجهولاً . وكانت الهبة الأصلية خمسة واربعة وسبعين ألف فرنك ، ولكن عشرة آلاف فرنك كانت قد انفقت على تعليم الآنسة اوفراري ، منها خمسة آلاف فرنك دفعت إلى الدير نفسه . وكان لهذه الهبة ، المودعة في يلي فريق ثالث ، ان تقدم إلى كوزيت عند بلوغها سن الرشد ، أو عند زواجهما . وكان هذا كله مقبولاً جداً ، كما نرى ، وبخاصة على أساس من نيف ونصف مليون . وكانت هبنا وهنالك ، في الواقع ، بعض الاشياء الغريبة ، ولكن احداً لم يلاحظها . كان احد المعينين بهذا الأمر معصوب العينين بالحب ، وكان الآخر معصوب العينين بالفرنكسات المستمرة الف .

وعلمت كوزيت أنها لم تكن بنت ذلك العجوز الذي دعته أباها طوال فترة مديدة . لقد كان مجرد نسيب من أنسابها ، كان أباها الحقيقي فوشلو凡 آخر . ولقد كان خليقاً بهذا ، في أيامها وقت آخر ، أن يكسر فوادها . ولكنه لم يكن في تلك الساعة ، الممتنعة على الوصف ، غير ظل ، غير اربداد ، ولقد كانت تنعم بقدر من البهجة كبير جعل تلك السحابة قصيرة الأجل . كان لها ماريوس . لقد جاء الرجل الشاب ، وأمعى الرجل العجوز . تلك هي الحياة .

إلى هذا ، فقد اعتادت كوزيت ، طوال سنين عديدة ، ان ترى نفسها محاطة بالاحاجي . وكل من كانت طفولته غامضة خفية يكون أبداً على استعداد لبعض التنازلات .

وعلى كل حال ، فقد ظلت تقول لجان فالجان : « يا أبي » . وكانت كوزيت ، في جنحها البالغ ، كلسبة بالجدعيلنورمان . صحيح أنه أثقلها بالقصائد الغزلية القصيرة وبالمدايا . وبينما كان جان فالجان يبني لكرزيت وضعاً سرياً في المجتمع ، وملكاً لا مرية فيه ، كان مسيو جيلنورمان يسر على هدية العرس . وما كان ليسره شيء بقدر جعلها فخمة رائعة . وكان قد قدم إلى كوزيت ثوباً من البريم المعروف بـ « بريم يتش » تحدر إليه من جدته . وقال : « لقد درجت هذه الزياء من جديد . إن الناس جميعاً يميلون إلى الأشياء العتيقة ، وهكذا فإن فتيات شيخوختي الصغيرات يلبسن مثل عجائز طفولي . »

ونهب خزاناته الجليلة المستديرة الكروش ، المصقوله بلث<sup>١</sup> . كورمنديل والتي لم تفتح منذ سنوات عديدة ، وقال : « فلنتحمل هذه الارامسل على الاعتراف . ولنر ما الذي تنطوي عليه » . وهكذا افترع ، في صخب ، تلك الدرج العميقة الملأى بخل زوجاته جميعاً ، وخليلاه جميعاً ، وجداته جميعاً . وخرج منها منسوجات حريرية موشاة من نوع

<sup>١</sup> اللد leqoo غرب من الصنع كانوا يتظلون به مادة لسد الخزانة الشيبة .

« ييكن » ، ودمقراً ، وانسجة حريرية صينية ، ومسنوجات متموجة مزدانت بالتصاوير ، واثواباً من حرير « تور » المترهل ، ومنديل هندية موشأة بذهب يمكن غسله ، واقمشة من نوع « دوفين » مصنوعة الوجهين لم يبسها مقص ، وتخاريم جنوا وألأنسون ، وحلى عتيقة ، وعلب ملبيس عاجية مزدانت بمعارك ميكروسكوبية ، وملابس ، وعصائب ، وأغدقها كلها على كوزيت . وحلمت كوزيت - المنشدة ، المحبة لماريوس جيا عارماً ، العامر صدرها بعرفان للجميل طاغ نحو مسيو جيلورمان - حلمت بسعادة لا حدود لها مجلبة بالأطلس والمخل . وتراءت لها سلة عرسها وقد حملتها أيدي الساروفيم . لقد حلقت روحها في اللازورد على اجنحة من تخاريم مالين ..

ولم يكن ثمة ما يضارع نشوة العاشقين ، كما قلنا ، غير انفطاف الجد . لكان انقام الابواق كانت تصدع في شارع فتيات كالقبر . وكل صباح كانت كوزيت تتلقى من الجد هدية جديدة من تلك الفائس العربية . ونورت ضروب الخل على اختلافها ، من حولها ، تنويراً برياً .

وذات يوم ، قال ماريوس الذي كان مولعاً بالكلام في رصانة وسط سعادته ، وذلك لمناسبة حادث لست اعرف ما هو :  
— إن رجال الثورة هم عظام إلى درجة جعلتهم ينعمون منذ زمن بتقدير الأجيال ، مثل « كاتون » ، و « فوسيون » ، وكل منهم

\* أرواح سماوية تعتبر في الطبقة الاولى بين الملائكة ، عند اليهود واليسوعيين .  
\*\* مدينة بلجيكية اشتهرت برشتها وتغريمها .  
\*\*\* Caton حد مشاهير الرومان ، وكان معروفاً بعданه لقرطاجة ، حتى لقد كان ينادي دائماً بضرورة تدميرها . ( ٢٢٢ - ١٤٧ ق.م )  
\*\*\*\* Phocion جنرال وخطيب أثيني ، وكان شهيراً بتزاهته وحبه للسلم . وقد حكم عليه أن يشرب الشرکران السام حوالى ( ٤٠٠ - ٣١٧ ق.م )

يبدو وكأنه ذكرى عريقة في القدم . ( *mémoire antique* ) .

فهتف العجوز :

— « منسوجات متموجة عريقة في القدم ! ( *moire antique* ) شكرأ لك ، يا ماريوس . تلك هي ، على وجه الصبط ، الفكرة التي كنت أبحث عنها . »

وفي اليوم التالي أضيف إلى سلة عرس كوزيت ثوب رايع مصنوع من نسيج متوج عتيق شبيه لونه بلون الشاي . واستخرج الجد حكمة من هذه الأسئلة :

— « الحب ، هذا شيء حسن . ولكنه في حاجة إلى هذه . ان السعادة لا تستغني عن غير المفيد . السعادة ليست إلا الضروري ليس غير فتبلوها لي تنبلا هائلا بكل ما هو فضلة . قصر وقلبهما . قلبهما واللوفر . قلبهما ومناهل فرساي الغزيرة . اعطوني راعيني ولكن دونة إذا أمكن . ليتوني بفيليس متوجة بزهورات نبات الجُلِيْجلة ، وأضيفوا إليها مئة الف ليرة من الدخل السنوي . افتحوا لي قصيدة ريفية في نجوة من الانظار تحت صف من أعمدة رخامية . أنا اوافق على القصيدة ، كما اوافق على صنيع الجن في الرخام والذهب . السعادة الجافة اشبه بالخبز المجاف . اتنا نأكل ، ولكننا لا نتعشى . انا ارغب في ما هو زائد ، في غير المفيد ، في الغريب الأهوس ، في المبالغ فيه ، في ذلك الذي لا يصلح لشيء . انا اذكر اني شاهدت في كاتدرائية ستراسبورغ ساعة يبلغ ارتفاعها ارتفاع بيت ذي ثلاثة ادور ، ساعة تعين الوقت ، او تنفصل بتعيين الوقت ، ولكنها لا تبدو وكأنها جعلت مثل ذلك . ساعة ما ان تعلن حلول الظهر أو نصف الليل — الظهر ، موعد الشمس ، ونصف الليل ، موعد الحب — او اي ساعة تشاء انت ، حتى تعطيلك

القمر والنجوم ، والبر والبحر ، والأطiar والأساك ، وفيوس » وفييه » وجمهرة من الأشياء تخرج من كوة ، والرسل الاثني عشر ، والامبراطور شارل الخامس ( شارلكان ) ، وايبونين » وساينوس ، وجموعة من الرجال الضئيلي الأجسام ، المذهبين ، النافخين في البوق ، فضلاً عن ذلك . هذا إذا لم نذكر قرع الاجراس المتأغم الفاتن الذي كانت تبده في الهواء ، في جميع المناسبات ، من غير أن يدرى أحد لذلك سبباً . هل نستطيع القول أن الساعة الشريرة العارية عريأً كاملاً ، والتي تجتزيء بالدلالة على الوقت ، تساوي هذه الساعة ؟ امس أنا ، فاتفاق في الرأي مع ساعة ستراسبورغ الضخمة ، وفضلها على « الساعة الوقاقي » في الغابة السوداء . »

وهذى مسيو جيلورمان في موضوع الزفاف على نحو خاص ، ومرت كيفما اتفق ، جميع مraiya القرن الثامن عشر القائمة بين الكوى ، من خلال مدائنه المغالى فيها .

### وصاح :

— « انتم تجهلون فن الافراح . انتم لا تعرفون كيف تحييون يوماً من أيام البهجة في هذا العصر . ان قرنكم التاسع عشر قرن ضعيف . إن الأفراط يعوزه . وهو ينكسر ما هو غني ، وينكسر ما هو نبيل . إنه مجزوز في كل شيء جزاً مفرطاً . ان طبقتكم الثالثة .... لا طعم لها ، ولا لون ، ولا رائحة ، ولا شكل . أحلام بورجوازيتكم التي

\* Phébus اسم يطلق على ابوابو ، الله الفياء والفنون عند الاغريق والرومان .

\*\* Phébé اسم مستعار للعلامة الاغريقية آرتيميس والقمر .

\*\*\* Eponine بطلة من التالين ( الفرنسيين القدماء ) ، كانت زوجة لساينوس ، الوارد ذكره في المتن أيضاً . وكانت قد هادت نفسها على ان تقذ الفالين من نير الرومان ، ولكنها أخفقت ، فعمت عليها بالموت .

\*\*\*\* المقصود بالطبقة الثالثة ، هنا ، طبقة العوام .

تقىيم بناء ، كما يقولون : به للسيدات صغير وجميل ، مزدان منذ عهد قريب  
 بخشب بنفسجي اللون وبنسيج قطني . أفسحوا ! أفسحوا ! السيد غريغو  
 يتزوج الآنسة غريبيسو . زهو وبهاء ! لقد الصقوا لبرة لويسية ذهبية إلى  
 احدى الشموع . ذلك هو العصر . أنا أرجو ان أفر إلى ما وراء بلاد  
 « السارمات » + آه ، في سنة ١٧٨٧ تبأت بأن كل شيء قد ضاع ، يوم  
 رأيت الدوق دو روهران ، والبرنس دو ليون ، والدوق دو شابو ، والدوق  
 دو مونبازون ، والمركيز دو سوبيز ، والفيكونت دو تووار ، مير  
 فرنسة ، يقصدون إلى لونشان في عربة صغيرة ذات مقعدين ! لقد آتى  
 ذلك ثماره . ففي هذا القرن ، يتاجر المرء ويقامر ، بالبورصة ، ويكسب  
 المال ، ويغلب عليه البخل الشديد . الناس في هذا العصر يعنون بالظاهر  
 ويقصّونه . إنهم يغالون في الثانق ، إنهم يغسلون بشرتهم باللاء ،  
 وبالصابون ، إنهم يكشّطون جلودهم ويخلقون ذقونهم ، ويسرحون  
 شعورهم ، إنهم مشمّعون ، مملسون ، مُفْرَشُون ، منظفون من  
 خارج ، متزهون عن العيب ، مصقولون مثل الحصاة ، أصحاب فطنة ،  
 شديدو النظافة ، وفي الوقت نفسه - وحق خليلي - يحملون في اعياق  
 ضميرهم مزابل ويواليع خليقة بأن تجفل راعية بقر اعتادت أن تتمخّط  
 باصابعها . أنا امنع العصر الحاضر هذا الشعار : نظافة قندة . ماريوس ،  
 لا تخضب ، دعني انكلم ، أنا لا أهين الشعب ، كما ترى ، ان فمي  
 مليء من شبك ، ولكني اجد من الخبر ان اضرب البورجوازية بعض  
 الشيء . أنا واحد منهم . إن من يحب كثيراً ، يضرب كثيراً . وعلى  
 هذا ، فاني اقوطا من غير معاملة : ان الناس يتزوجون اليوم ، ولكنهم  
 لا يعرفون كيف يتزوجون . آه ، هذا صحيح ، أنا آسف على  
 الطرق الجميلة التي كانت متّعة في الايام الخالية . أنا آسف عليها كلها .

---

اسقاط واسة في اوروية الشرقية كان يقطنها في ما مضى شعب يعرف بالشعب  
 الشامي . وقد قضى القوط على قومهم في القرن الثالث الميلاد .

تلك الاناقة ، تلك الفروسيّة ، تلك الاساليب المصوولة الفاتنة ، ذلك الترف البهيج الذي كان ينعم به كل انسان ، والموسيقى وقد ألفت جزءاً من العرس ، السيمفونية فوق ، وقرع الطبول تحت ، وضروب الرقص ، والوجوه المستبشرة الجالسة إلى المائدة ، والقصائد الغزلية المعقدة ، والاغاني ، والاسهم النارية ، والضحك المرسل ، وإيليس وحاشيته ، وعُقد العصائب الكبيرة . أنا آسف على رباط ساق العروس . ان رباط ساق العروس ابن عم لخزام فينوس . ما الذي هاج حرب طروادة ؟ الذي هاجها ، وحق النساء ، رباط ساق هيلانة . لماذا يتقاولون ؟ لماذا يخطم ديوميد <sup>\*</sup> الآلهي تلك الخوذة البرونزية الضخمة ذات الرؤوس العشرة على رأس ميريونس ؟ لماذا يتبدل أخيل وهكتور طعنات حراب بلية ؟ لأن هيلانة مكنت « باريس » من ان يأخذ رباط ساقها . وبرباط ساق كوزيت كان خليقاً به ميروس ان يدع الايادى . كان خليقاً به ان يدخل في قصيده ثرثاراً عجوزاً مثلى ، وان يسميه نسطور . ابها الاصدقاء ، في الايام الخالية ، في تلك الايام الجميلة الخالية ، كان الناس يتزوجون على نحو علمي ، كانوا يوقعون عقداً صالحاً ، ثم علدون مائدة صاحبة صالحة . فما إن يخرج كوجا <sup>\*\*</sup> حتى يدخل غاماش <sup>\*\*\*</sup> . ولكن المعدة هي ، حقاً ! ، حيوان لطيف يطالب بمحفه ، ويرغب في ان يعذر زفاله أيضاً . كانوا يتناولون عشاء دسمأ ، وكانوا يضعون قريباً منهم ، إلى المائدة ، جارة جميلة ، لا ترتدي لباس صدر ، ولا تخفي جيدها إلا باعتدال ! اوه ، يا للافواه الغريبة الفاحشة ، ويا للبهجة البالغة التي

<sup>\*</sup> Diomedes احد المقاتلين الافريق في حرب طروادة . وهو الذي ساعد اوديسيوس على سرقة خيل ريسوس وتمثال البالاديوم .

<sup>\*\*</sup> Cujas متشرع فرنسي شهر ( ١٥٢٢ - ١٥٩٠ )

<sup>\*\*\*</sup> Gamache فلاج غني ورد ذكره في رواية دونكيشوت ، وقد أقام هذه زواجه مأدبة باذخة شرب بها المثل في الاسراف البالغ .

كانت تكشف عنها في تلك الأيام . كان الشاب باقة . كان كل شاب ينتهي بغضن من الليل أو بخزمه من الورود . فإذا كان المرء مقاتلاً ، كان راعياً . وإذا اتفق أن كان قائداً من قواد الفرسان التنانين ، كان مجرد وسيلة لأن يدعى فلوريان . كانوا يصطنعون كل شيء لكي يتخلوا بالجمال . كانوا يوشون أنفسهم ، وكانوا يصبغون أنفسهم بالارجوان . كان للبورجوazi مظهر زهرة ، وكان لامرکيز مظهر حجر كريم . إن المرء ما كان يشد سيوراً تحت حذائه ، انه ما كان يلبس حذاء ذا رقبة . كان المرء أنيقاً ، مصقولاً ، متوجهاً ، اسمع ذهبياً ، مرفقاً ، لطيفاً ، مفتاجراً ، ولكن ذلك لم يكن يعنيه من ان يحمل في جنبه سيفاً . ان للطائر الطنان منقاراً وأظفاراً . كان ذلك عصر « جزر الهند الغزلة » . كان الناعم هو أحد جانبي العصر ، وكان البهسي هو جانبه الآخر . وكان المرء ، وحق الشيطان ، يلهو ويعيث . أما اليوم فالناس جديون . البورجوazi يخجل ، والبورجوازية مغالية في التعسف : إن عصركم منكود الحظ . فالناس قد يطردون آلات الجل .. مجرد ان الثوابين تكشف عن اجيادهن بعض الشيء . واأسفاه ! انهم يخبون الجمال وكأنه قبح . ومنذ الثورة ، أسمى كل شيء برتستدي البنطلون ، حتى الراقصات . ان على الراقصة ان تكون رصينة . إن رقصاتكم مذهبية . ينبغي أن تكون أجلاء . اتنا نغضب إذا لم تكن ذقوننا متحمة في أربطة اعنافنا . والمثل الأعلى الذي يطمح اليه الصبي الذي يتزوج ، وهو في العشرين من العمر ، ان يكون مثل مسيو روایسه كولار . وهل تدري لي مسوف تنتهي بهذا الجلال ؟ لي أن نصبح صغاراً . تعلم هذا : الابتهاج ليس بهيجاً فحسب ; إنه عظيم أيضاً .

\* Florian من الكلمة fleur وتعني الزهر .

\*\* Graces في الميولوجيا اليونانية . وهي ثلاثة : أغلاط Aglat ، وطالی Thalie وأوفروزین Euphrosine .

فكُونوا أذن عاشقين في بُشِّر ، يا للشيطان ! وتزوجوا ، حين تزوجون بحُمَّى السعادة ، ودوارها ، ولقطها ، وفوضاها ! الرصانة فسي الكنيسة ، ليكن ذلك . ولكن ما إن ينتهي القداء ، حتى يتبعنا ان نجعل الحلم يعصف من حول العروس . الزواج ينبغي ان يكون ملوكيًّا وخيارياً . ينبغي ان يسير في موكب من كاندرائية ريمس إلى هيكل اصنام شانتلو . إن الذعر ليلفتني من العرس البليد . كُونوا في الاولب ، ذلك اليوم فحسب على الاقل . كُونوا آلة آه ، في استطاعة المرء ان يكون جنًا ، ان يكون الآه بهجة ، ان يكون آرجيراسييد . انتقم عفاريت . يا اصدقائي ، إن على كل زوج جديد ان يكون البرنس آلدو برانديني . فأفيدوا من هذه اللحظة الفريدة من حياتكم لكي تفروا إلى عليين مع الأوز والنسر ، على ان تبقى لكم حريةكم في ان ترتدوا ، في غد ، إلى بورجوازية الصنادع . لا تقتضوا في الزفاف أبداً ، لا تقلتموا بهاءه ، لا تفتروا اليوم الذي تشعون فيه . الزفاف ليس تدبير منزل . اوه ، لو اردت ان اطييع هواي ، اذن لسكن ذلك أينما ظريفاً ، كنت اسمعكم انغام الكمان تُعزف في الاشجار . ذلك هو برناجي : زرقة سماوية وفضة . لو اردت ان اطييع هواي لأدخلت الالاهات الريفيات في الحفلة ، ولدعوت اليها جنات الاحراج وحوريات البحر . اعراس آمفيريتي ، سحابة وردية ، إلهات مياه رُتب شعرها احسن ترتيب عارية عريأً كاملاً ، وعضو في الاكاديمية يقدم الرباعيات إلى الالاهة ، عربة تجرها هُولات بحرية :

إن سند الماء قد خب قدام ، واستل من حده  
اصواتاً كانت من الفتنة بحيث تفتن كائناً من كان .

إن للحفلات ببرامج ، وهوذا واحد منها ، وإلا لم تكن لي معرفة بها ، وحق الشيطان ! »

\* الامة للسر ، وزوجة نبتون في الميثولوجيا القديمة . Amphitrite

وفيما كان الجد ، المتدفع تدفقاً غنائياً كاملاً ، يصغي لنفسه ، كانت كوزيت وماريوس متثنين بتبادل النظارات في حرية .

وشهدت العمة جيلنورمان ذلك كله في وداعتها المادئة . كانت قد عرفت منذ خمسة أشهر أو ستة أشهر عدداً من الانفعالات . لقد رجع ماريوس ؟ لقد أعيد ماريوس دامي الجراح ؛ لقد حُمل ماريوس من أحد المداريس ؟ ماريوس قد مات ؟ ثم عاش ؟ ماريوس قد استرضي ؟ ماريوس قد خطب له ؟ ماريوس يتزوج شحاذة ؟ ماريوس يتزوج مليونيرة . وكانت السمتة الف فرنك هي آخر مفاجآتها . ثم إن لامايتها التناولية الأولى عاودتها . كانت تذهب على نحو نظامي إلى القدس ؛ وكانت تمرّ حبات سباحتها تحت أصابعها ؛ وتقرأ في كتاب صلواتها ؛ وتهمن بـ «السلام الملائكي» في جانب من المنزل ، بينما كان يُحسن بـ «أحبك» في الجانب الآخر ، وكانت ترى ماريوس وكوزيت وكأنهما طيفان . كانت هي نفسها الطيف .

إن ثمة حالة من النسك العادم الحركة حيث النفس ، العادلة بالمخدر ، الغريب على ما نستطيع ان ندعوه مسألة العيش ، لا تلمع — باستثناء الزلزال والكوارث — أيّاً من الانطباعات البشرية . سواء منها الانطباعات المستحبة ، والانطباعات الالمية . وقال الجد جيلنورمان لابنته : « هذا التّقى يطابق زكاماً في الرأس . انت لا تشم شيئاً من الحياة . لا رائحة كريهة ، ولكن لا رائحة زكية أيضاً . »

وإلى هذا ، فإن السمتة الف فرنك كانت قد حسمت تردد العانس . كان ابوها قد اعتاد ان لا يدخلها في حسابه إلى حد جعله يُغفل استشارتها في موضوع الموافقة على زواج ماريوس . كان قد تصرف في تهور ، وفقاً لطواه ، وقد سيطرت على عقله — وهو الطاغية الذي أمسى عبداً — فكرة واحدة ، هي ارضاء ماريوس . أما العمة ، أما ان العمة كانت موجودة ، وانه قد يكون لها رأي ، فذلك ما لم يفكّر فيه مجرد تفكير . وعلى الرغم من انها كانت نعجة بكل ما في الكلمة من معنى ، فقد غاظها ذلك . واذ ثارت بعض الشيء باطنياً ، ولكنها احتفظت

بامتناعها على التأثير ، خارجياً ، فقد قالت في ذات نفسها : « إن الذي قد بـت في مسألة الزواج بمـزل عنـي ، ولوـف اـبت في مـسألة المـيراث بمـزل عنـه . » كانت موسرة ، في الواقع ، ولم يكن ابوها موسرآ . وهـكـذا كانت قد اـحتـفـظـت بـقـرـارـها فـي شـأنـ ذـلـكـ . وكان من المـحتـملـ ، لوـكانـ الزـفـافـ هـزـيلاـ ، انـ تـرـكـهـ هـزـيلاـ . فـلـأـمـ السـيدـ ، ابنـ اـخـيـ ، المـبـسـلـ ! انهـ يـتـرـوـحـ شـحـاذـاـ ، فـلـيـكـنـ شـحـاذـاـ . ولكنـ نـصـفـ المـلـيـسـونـ الـذـيـ كـانـ تـمـلـكـهـ كـوـزـيـتـ سـرـ العـمـةـ ، وـغـيـرـ مـشـاعـرـهاـ نـحـوـ هـسـدـيـسـنـ الـعـاشـقـنـ . إنـ عـلـيـنـاـ أـنـ نـولـيـ بـعـضـ الـاعـتـبـارـ لـسـمـثـةـ الـفـ فـرـنـكـ ، وـكـانـ وـاـضـحـاـ اـنـهـاـ لـاـ تـسـطـعـ اـنـ تـفـعـلـ شـيـئـاـ غـيـرـ تـرـكـ ثـرـوـتـهاـ إـلـىـ هـذـيـنـ الثـابـنـ ، ماـ دـاماـ قـدـ أـمـسـيـاـ فـيـ غـيـرـ حـاجـةـ إـلـيـهاـ .

وـاتـخـذـتـ التـرـتـيـبـاتـ لـكـيـ يـسـكـنـ الرـوـجـانـ فـيـ مـنـزـلـ الـجـدـ . وـاـصـرـ مـسـيـوـ جـيلـنـورـمـانـ اـصـرـارـاـ شـدـيـداـ عـلـىـ إـعـطـائـهـاـ غـرـفـهـ ، وـهـيـ أـجـمـلـ غـرـفـ المـنـزـلـ . وـأـعـلـنـ قـائـلاـ : « إنـ ذـلـكـ سـوـفـ يـجـددـ شـبـابـيـ . هذاـ مـشـروعـ قـدـيمـ . لـقـدـ كـنـتـ دـائـماـ اـفـكـرـ فـيـ اـقـاـمـةـ عـرـسـ فـيـ غـرـفـيـ . » . وـمـلـأـ هـذـهـ الغـرـفـةـ بـمـجـمـوعـةـ كـبـيرـةـ مـنـ الـاثـاثـ الـقـدـيمـ الـاـنـيقـ . وجـلـلـ الـجـلـرـانـ وـالـسـقـفـ بـقـيـاشـ نـادـرـ كـانـ يـحـفـظـ بـثـوبـهـ كـامـلـ ، وـكـانـ يـعـتـقـدـ أـنـهـ مـنـ أـوـتـرـختـ خـلـفـيـةـ مـنـ أـطـلسـ مـعـ حـوـذـانـ ذـهـبـيـ وـآـذـانـ دـبـ مـخـمـلـيـةـ . » وـقـالـ : « بـعـثـلـ هـذـاـ الـقـيـاشـ جـلـلـ سـرـيرـ دـوـقةـ آـنـفـيلـ فـيـ الـ « رـوـشـ غـويـونـ » . وـوـضـعـ عـلـىـ الـمـوـقـدـ دـمـيـ سـاـكـسـ تـحـمـلـ فـرـوـآـ مـنـ فـرـاءـ الـيـدـيـنـ فـوـقـ بـطـنـهـ الـعـارـيـ .

وـأـمـتـ مـكـتبـةـ مـسـيـوـ جـيلـنـورـمـانـ مـكـتبـ المـحـاـمـةـ الـذـيـ كـانـ مـارـيـوسـ فـيـ حـاجـةـ إـلـيـهـ . وـكـانـ هـذـاـ الـمـكـتبـ ، كـمـاـ يـذـكـرـ الـقـرـاءـ ، شـيـئـاـ تـحـمـمـهـ قـوـاـدـ النـظـامـ الـمـتـبعـ .

\* الحـوـذـانـ وـآـذـانـ الدـبـ نـوـعـانـ مـنـ الـبـاتـ .

## آثار حلم ممزوج بالسعادة

ورأى كل من المحبين صاحبه يومياً . كانت كوزيت تفند مع مسيو فوشلوفان . وقالت الآنسة جيلنورمان : « إنه لعكس طبيعة الأشياء ان تجيء المخطوبة إلى البيت لكي تغازل على هذا النحو . » ولكن نقاوة ماريوس كانت قد قادت إلى نشوء هذه العادة . كما ان الكراسي ذوات الأذرع في شارع فتيات كالفير ، وهي أكثر ملاءمة للحاديـث الطويلة من الكراسي القشـية التي في شارع الرجل المسلح ، كانت قد جذـرتها . واجتمع كل من ماريوس ومسيو فوشلوفان ، ولكنـهما ما كانا يتـبادلان الأحاديـث . وبـدا ذلك أـمراً مـفهـومـاً . فـكل فـتـاة في حاجة إلى رـفيـق حـارـس . وما كانـ في مـيسـورـ كـوزـيتـ ان تـجـيءـ من غـيرـ ان يـصـاحـبـهاـ مـسيـوـ فـوشـلـوفـانـ . كانـ مـسيـوـ فـوشـلـوفـانـ هوـ ، عـندـ مـاريـوسـ ، شـرـطـ كـوزـيتـ . وـقـيلـ ذلكـ الشـرـطـ . وـمـنـ طـرـيقـ التـعرـضـ لـقـضاـيـاـ السـيـاسـةـ ، عـلـىـ نـحـوـ غـامـضـ وـعـامـ ، مـنـ زـاوـيـةـ الرـغـبـةـ فـيـ التـحسـينـ الشـامـلـ لـأـوضـاعـ النـاسـ جـمـيعـاًـ ، وـفـقـدـ إـلـىـ أـنـ يـقـولـ شـيـئـاًـ أـكـثـرـ قـلـيلاًـ مـنـ تـبـادـلـ لـفـظـيـ «ـنـعـمـ»ـ وـ«ـلاـ»ـ . وـذـاتـ يـوـمـ ، وـكـانـ الـمـوـضـوـعـ مـوـضـوـعـ تـبـادـلـ لـفـظـيـ «ـنـعـمـ»ـ وـ«ـلاـ»ـ . وـذـاتـ يـوـمـ ، وـكـانـ الـمـوـضـوـعـ مـوـضـوـعـ الـتـعـلـيمـ ، الـذـيـ اـرـادـهـ مـارـيوـسـ مـجـانـيـاًـ وـالـزـامـيـاًـ ، مـضـاعـفـاًـ تـحـتـ الاـشـكـالـ جـمـيعـاًـ ، مـغـدـقـاًـ عـلـىـ الـجـمـيـعـ كـاـلـهـوـاءـ وـاشـعـةـ الشـمـسـ ، وـبـكـلـمـةـ وـاحـدـةـ ، مـمـكـناًـ تـنـشـقـهـ مـنـ جـانـبـ النـاسـ جـمـيعـاًـ – نـقـولـ فـيـ ذـلـكـ الـيـوـمـ اـنـتـهـيـاـ إـلـىـ الـلـغـةـ ، بـلـ كـادـاـ يـتـطـارـحـانـ حـدـيـثـاًـ . وـلـاحـظـ مـارـيوـسـ فـيـ تـلـكـ الـمـنـاسـبـةـ انـ مـسيـوـ فـوشـلـوفـانـ يـجـيدـ الـحـدـيـثـ ، بـلـ يـجـيدـهـ فـيـ شـيـئـ مـنـ سـمـوـ الـلـغـةـ . وـلـكـنـ كـانـ ثـمـةـ شـيـئـ يـعـوـزـهـ ، عـلـىـ كـلـ حـالـ . كـانـ فـيـ مـسيـوـ فـوشـلـوفـانـ شـيـئـ أـقـلـ مـنـ رـجـلـ مجـمـتـمـعـ ، وـشـيـئـ أـكـثـرـ .

وباطنياً ، وفي أعماق نفسه ، أحاط ماريوس مسيو فوشلواند ملأه  
الذى كان بالنسبة اليه محضاً وبارداً ليس غير ، مختلف ضروب الاستلة  
الصادمة . وبين الفينة والفينية ، كانت تساوره مشكوك حول ذكرهاه هو .  
كان في ذاكرته خرم ، موطن "أسود" ، هوة جوفها أربعة أشهر من  
العذاب الاليم . كانت اشياء كثيرة قد ضاعت فيها . وانتهى إلى ان  
سأل نفسه ما اذا كان صحيحاً ، أنه قد رأى ، حقاً ، مسيو فوشلواند ،  
مثل هذا الرجل ، البالغ الجد والبالغ المدوم ، في المرامي .

ييد أن هذا لم يكن هو الغيبة الوحيدة التي خلفها في عقله متول  
الماضي واحتضاؤه . وينبغي أن لا نفترض انه أتفيد من جميع تلك  
الفكريات المتسلطة التي تكررها ، حتى ونحن في غمرة من السعادة والرضا ،  
على الالتفات إلى وراء في غم وكآبة . إن الرأس الذي لا يلتفت نحو  
آفاق الماضي ، لا ينطوي لا على فكر ولا على حب . وبين حين  
وآخر ، كان ماريوس يغطي وجهه بيديه ، وكان الماضي الغامض  
يخترق ، في صخب ، ذلك الغسق الذي ملا ذهنه . لقد رأى مابوف  
يخرج على الأرض من جديد ، وسمع غافروش يغنى تحت نيران القذائف ،  
واستشعر على شفتيه برودة جبين أيونين ، ونهض آنجولاس ، وكورفيراك ،  
وجان بروفير ، وكومبوفير ، وبوموروبيه ، وغرانتير وجيمع اصدقائه —  
نهضوا امامه ، ثم تبددوا . هذه الكائنات ، الغالية ، المحزونة ، الباسلة ،  
القاتنة أو الفاجعة ، هل كانت أحلاماً ؟ هل وجدت حقاً ؟ كانت  
الفتنة قد لفت كل شيء بدخانها . إن هذه الحميات الكبيرة أحلاماً  
كبيرة . واستجوب نفسه ؛ وتلمس طريقه في ذات نفسه ؛ كانت هذه  
الواقع الملاشية قد أصابته بدوار . أين كانوا كلهم اذن ؟ هل صحيح  
أنهم أمسوا كلهم أمواناً ؟ كان السقوط فيظلمة قد قضى عليهم جميعاً ،  
باستثنائه هو . وبدا له أن كل شيء قد اختفى وكأنه خلف ستار في  
مسرح . إن ثمة مثل هذه الستر التي تُسدل في الحياة . الرب ينتقل إلى

## الفصل الثاني .

وهو ، أكان لا يزال الرجل نفسه ؟ كان — هو الفقر — قد أنسى شيئاً . كان — هو التخل عنـه — ذا أسرة . وكان — هو اليائس — في سيله إلى الزواج من كوزيت . لقد بدا له وكأنه اجتاز قبرأ ، وأنه دخل إلى هذا القبر أسود ، وخرج منه أبيض . وفي هذا القبر كان الآخرون قد بقوا . وفي بعض الأحيان ، كانت جميع كائنات الماضي هذه ، العائدة المثلثة ، تشكل حلقة حوله وتوقع في نفسه الغم . وعندئذ كان يفكر في كوزيت ، فتعاوده بشاشته . ولكن لم يكن في ميسور شيء أقل من هذه السعادة أن يمحو تلك الكارثة .

وكان مسيو فوشلوفان موضع ، تقريباً ، بين هذه الكائنات المتلاشية . وتردد ماريوس في الاعتقاد بأن فوشلوفان المراس كان هو نفسه فوشلوفان هذا ، بلحمه ودمه ، الجالس في كثير من الرصانة قرب كوزيت : كان الأول ، في أغلبظن ، واحداً من تلك الكوابيس التي تروح وتبغي مع ساعات هذيانه : وفوق هذا ، فلما كانت طيعتاهما وعربين ، فها كان من الممكن أن يوجئه إيماناً سؤال من ماريوس إلى مسيو فوشلوفان . بل إن مجرد الفكرة لم تخطر له ببال . ولقد سبقت منا الاشارة إلى هذه الحادثة المميزة .

رجلان يجمعهما سر مشترك ، ولا يتادلان — بضرب من التفاهم المضمر — كلمة واحدة في الموضوع . ان شيئاً مثل ذلك هو أقل ندرة مما يظن المرء .

ومرة واحدة ليس غير ، قام ماريوس بمحاولة . لقد دخل شارع الد « شانفرييري » في المحادثة . التفت نحو مسيو فوشلوفان ، وقال له :

- « هل تعرف ذلك الشارع جيداً ؟ »
- « أي شارع ؟ »

— « شارع الشانفرييري : »  
فأجاب مسيو فوشلوفان بنبرة ليس أكثر منها طبيعية في العالم :  
— « ليس عندي أية فكرة عن اسم ذلك الشارع . . . »  
وبدا الجواب ، الذي دار على اسم الشارع ، لا على الشارع نفسه —  
بذا ماريوس جازماً أكثر مما كان .  
وذكر . « لا ريب في اني كنت أحلم . لقد ألمت بي هلوسة .  
كان ذلك شخصاً آخر يشبهه . مسيو فوشلوفان لم يكن هناك »

## رجلان من المتعذر الاهتمام بهما

ولم تمحُ الرُّؤْبة ، على الرغم من ضخامتها ، شواغلَ أخرى من ذهن ماريوس .

ففي خلال الاستعداد للزفاف ، وفيها كان ينتظر المقات المضروب ، أجرى بعض المباحث الارتدادية العسيرة ، الدقيقة .

كان مديناً بالمعروف من عدة نواحٍ . كان مديناً ببعض ذلك المعروف بسبب من أبيه ، ومديناً ببعضه لحسابه هو .

كان ثمة بيارديه ، وكان ثمة ذلك الرجل المجهول الذي حمله ، هو ماريوس ، إلى منزل مسيو جيلنورمان .

وحرص ماريوس على العثور على هذين الرجلين ، غير معترض أن يتزوج ، ان يكون سعيداً ، ان ينساهمها ، وختاماً ان تلقى ديون الواجب غير المسددة هذه ، ظلا على حياته التي امست مشرقة منذ اليوم . كان من المتعذر عليه ان يخلِّص كل هذا الدين وراءه ، من غير سداد . ولقد اراد ، قبل ان يدخل إلى المستقبل ، ان يبريء ذمته من

## الماضي .

وكون تينارديه مجرماً لا يغير شيئاً من هذه الواقعة ، وهي انه انفذ الكولونيل بونيرسي . كان تينارديه قاطع طريق ، في عني كل انسان ، ما عدا ماريوس .

ثم ان ماريوس ، الجاھل حقيقة ما وقع في ميدان واترلو ، لم يعرف هذه النقطة الفريدة ، وهي ان اباه كان في ما يتصل بتينارديه على هذا الوضع الغريب : كان مديناً له بالحياة من غير ان يكون مديناً له بعرفان الجميل .

ولم ينجح احد من الرجال الذين استخدمهم ماريوس في الاهتداء إلى أثر تينارديه . لقد بدا الامماء كاماً من هذه الناحية و كانت تينارديه الزوجة قد ماتت في السجن خلال التحقيق في الجريمة . وكان تينارديه وابنته آزيلما ، الاثنان الوحيدان اللذان بقيا من هذا المجموع الفاجع ، قد غاصا في الظلام كرة اخرى . كانت لجة « المجهول الاجتماعي » قد أطبقت في صمت على هذين المخلوقين . بل لم يعد في امكان احد ان يرى ، على السطح ، تلك الدوائر المشركة المركز ، المرتعشة ، المرتجفة ، الغامضة ، التي تعلن ان شيئاً قد سقط هناك ، وان في ميسورنا أن نلقى بالمبشار .

واذ ماتت تينارديه الزوجة ، وأبعد بولاتروويل من القضية ، واحتفى كللاكسو ، وفر المتهمون الرئيسيون من السجن ، فان النظر في دعوى كمين بيت غوربو العتيق كان جهيناً تقريباً . لقد تركت القضية في ظلام عميق . واضطررت محكمة الجنائيات إلى الاجتزاء بمشاركة ثانويين في الجريمة ، بانشو المعروف به « برانتانيه » أو « بيفروناني » و دومي لييار المعروف به « دو ميار » اللذين حوكما وحكم عليهم بالحبس عشر سنوات في سجن الاشغال الشاقة . ولفظت المحكمة حكم الاشغال الشاقة مدى الحياة على شركائهما الذين فروا وابوا المثلول بين يدي القضاة .

وحكم على تيارديه ، بوصفه رئيساً للعصابة ، بالموت لانه أبى الملوءة امام المحكمة أيضاً . وكان هذا الحكم هو كل ما بقى من تيارديه و ملقياً على هذا الاسم الدفين وهجه المشؤوم ، مثل شمعة إلى جانب نعش .

ولى هذا فأن ذلك الحكم ، بارجاعه تيارديه إلى الاعماق السفل ، خشية أن يُقبض عليه ثانية ، زاد في كثافة الظلمة التي اكتفت هنا الرجل .

أما الشخص الآخر ، اما الرجل المجهول الذي انقد ماريوس ، فقد انتهت المباحث عنه باديء الامر إلى نتيجة ما ، ثم توقفت فجأة . لقد وفروا إلى العثور على عربة الكراء التي حملت ماريوس إلى شارع فتيات كالفير ليل السادس من حزيران . واعلن السائق انه « جمداً » في اليوم السادس من حزيران ، بأمر من احد ضباط البوليس ، من الساعة الثالثة بعد الظهر حتى الليل ، على رصيف الشان زيليزيه ، فوق منفذ البالوعة العظمى ؛ وان شباكة البالوعة المرئية إلى شاطيء النهر فتحت حوالي الساعة التاسعة مساء ؛ وان رجلا قد خرج منها ، حاملا رجلا آخر على كتفيه كان يبدو وكأنه ميت ؛ وان ضابط البوليس الذي كان يراقب في تلك النقطة ألقى القبض على الرجل الحي وأمسك بالرجل الميت ؛ وأنه استقبل ، هو السائق ، بناء على أمر الضابط ، « كل هؤلاء الناس » في عربته ؛ وانهم شخصوا أولا إلى شارع « فتيات كالفير » ؛ وانهم تركوا الرجل الميت هناك ؛ وان الرجل الميت كان مسيو ماريوس ، وأنه هو - السائق - قد عرفه جيداً ، على الرغم من انه كان حياً ، « هذه المرة » ؛ وانهم امتطوا بعد ذلك من عربته من جديد ، وأنه اهبط خبطه بالسوط ، وانه قد طلب اليه أن يتوقف على بعض خطوات من باب « الارشيف » ؛ وأنه قد قبض اجرته ، هناك في الشارع ، ومضى لسيله ؛ وان ضابط البوليس اقتاد الرجل الآخر ؛ وأنه ما كان يعرف شيئاً

الصانها ؟ وان الليل كان داماً .

ولم يتذكر ماريوس ، كثما قلنا ، شيئاً من ذلك . كل ما تذكره ان يداً قوية أمسكت به من خلاف لحظة سقط على ظهره وسط المتراس ، وبعدها اتى كل شيء بالنسبة اليه . إنه لم يستعد وعيه إلا في منزل مسيو جيلورمان .

وتاه في الاحداس والظنون .

إنه لم يستطع ان يشك في هوبيه . ولكن ، كيف اتفق له ، وهو الذي سقط في شارع الد «شانفريري» ، أن يلتقطه ضابط البوليس ، على ضفة الد «سين» ، قرب جسر الانفاليد ؟ إن شخصاً ما ، قد حمله من حي الأسواق إلى الشان زيليزيه . وكيف ؟ عبر باللوعة . تفان لم يسبق إلى مثله من قبل .  
شخص ما ؟ من هو ؟

كان هذا الرجل هو الشخص الذي يبحث عنه ماريوس .  
ولم يجد من هذا الرجل ، الذي كان منقذه ، شيئاً لم يجد اثراً . لم يجد اقل اشارة تدل عليه .

ودفع ماريوس مباحثه حتى ادارة الشرطة ، على الرغم من انه كان مضطراً إلى اصطناع كبير من الحيلة في هذا المجال . ولكن المعلومات التي حصل عليها هناك لم تكن ادعى إلى اثارته من تلك التي فاز بها من مصادر أخرى . كانت ادارة الشرطة تعرف أقل مما عرفه سائق العربة .  
إنها لم تعرف بأي اعتقال تم في السادس من حزيران عند شباكة باللوعة العظمى . إنها لم تتلق من رجالها ايما تقرير حول هذه الواقعه ، التي اعتبرت - في ادارة الشرطة - مجرد خرافه . وعزرا رجال الشرطة اختراع هذه الخرافه إلى السائق . فالسائق الذي يطمع في مبلغ اضافي فوق الاجرة قادر على كل شيء ، حتى على الخيال . ومع ذلك ، فقد كانت هذه الواقعه ثابتة ، ولم يكن في وسع ماريوس ان يشك فيها ، إلا اذا شك

في هويته ، كما اشرنا منذ لحظة .

كل شيء في هذه الاحجية الغريبة كان ممتنعاً على التفسير .

هذا الرجل ، هذا الرجل الخفي ، الذي رأه السائق ينبعق من شباكه البالوعة العظمى حاملاً ماريوس الغائب عن الوعي على ظهره ، والذي اعتقله ضابط الشرطة المراقب متلبساً بجريدة إنقاذه متمرد من المتربدين ، ما الذي حل به ؟ ما الذي حل بضابط الشرطة نفسه ؟ لماذا اعتصم هذا الضابط بالصمت ؟ هل وفق الرجل إلى القرار ؟ هل رشا ضابط البوليس ؟ لماذا لم يتكشف هذا الرجل عن إيمان أمارة من أمارات الحياة لماريوس المدين له بكل شيء ؟ إن نزاهته لم تكن أقل إثارة للعجب من تقانيه . لم يعاود هذا الرجل الظهور ؟ لعله كان فوق الثواب ، ولكن ليس ثمة أحد فوق عرفان الجميل . هل مات ؟ أي نوع من الرجال كان ؟ ما شكله ؟ لم يكن في ميسور أحد أن يخزر . لقد أجاب سائق العربة قائلاً : « كان الليل داماً ». وكان ياسك ونيقوليت قد اكتفيا ، في غمرة انشدتهاها ، بالنظر إلى سيدتها الشاب مضرجاً بالدم . وكان الباب ، الذي أضاءت شمعته وصول ماريوس الفاجع ، هو وحده الذي لاحظ ذلك الرجل ، وهذا هو الوصف الذي وصفه به : « كان هذا الرجل رهيباً ». »

وكان ماريوس قد احتفظ بملابس الدامية التي كان يلبسها لحظة أبعد إلى منزل جده ، رجاءً أن يستمد منها العون في مباحثته . وعند فحصه السرة لاحظ أن أحد أهدابها كان ممزقاً على نحو عجيب . كان يعوزها قطعة ما .

وذات مساء ، تحدث ماريوس ، أمام كوزيت وجان فالجان ، عن هذه المغامرة الفريدة كلها ، وعن المباحث التي قام بها ، وعن ذهاب جهوده ادراج الريح . وكان في محييا « مسيو فوشلوفان » البارد ما جعله يفقد صبره . وهتف في حيوية كادت تنطوي على ارتياح الغضب :

فقاطعه جان فالجان :

— ( إِنَّهَا لَكَ . )

فاضاف ماریوس :

— « حسن ، اذن لدفعتها ثمناً للعثور على ذلك الرجل ! »

واعتضم جان فالجان بالصمت .



الكتاب السادس

الليلة البَيْضاءُ

١٦ شباط ، عام ١٨٣٣

كان ليل السادس عشر من شباط ، عام ١٨٣٣ ، ليلاً مباركاً .  
فوق ظلمته ، كانت أبواب السماء قد فُتحت . كان موعد زواج ماريوس  
وكوزيت .

كان النهار رائعاً .

إنه لم يكن العيد الساوي للزرقة الذي حلم به الجد : مشهدآً جنبياً  
يختلط فيه الملائكة وألهة الحب فوق رأسه العروسين ، ولكنه كان  
عذباً طروبياً .

إن زи الزواج لم يكن ، عام ١٨٣٣ ، ما هو اليوم . لم تكن فرنسة قد استعارت بعد ، من انكلترة ، تلك الطاقة البالغة التي تجعل الزوج يخطف زوجته ، ويفر عند مغادرته الكنيسة ، وينتسب خجلاً من سعادته الشخصية ، ويخرج ما بين سلوك المفلس وتهلات نشد الاناشيد . إن الفرنسيين لم يكونوا قد تعلموا أي عفة ، واي روعة ، واي ظرف ينطوي عليه رج المرأة فردوسه في عربة بريد ، وتفصيل لغزه بالتكلبات ، وحسبان سرير الحانة سرير العرس ، وأن يترك الإنسان وراءه ، في المخدع المتبدل في كثير من الليالي ، اقدس ذكريات الحياة الفوضوية مع مناجاة سائق العربة العمومية وخادمة الحانة .

في هذا النصف الثاني من القرن التاسع عشر الذي نعيش فيه لم يعد يكفينا العمدة ووشاحه ، والكافن وحلة قداسه ، والشريعة والله ؛ إن علينا أن نتم هوّاً جمِيعاً بساق عربة لونجمو ؛ صدرة زرقاء ذات اطراف حمراء ، وازرار جلاجل ، وصفحة تطوق النراع ، وسروال من جلد أخضر ، وشتائم موجهة إلى خيل نورماندية معقودة الأذىال ، وضفائر زائفة ، وقبعة مشمعة ، وشعر خشن منتصوح بالذرور ، ووسط ضخم ، وحذاء ثقيل . وفرنسا لمَا تذهب بعد بالاناقة إلى حد إمطار عربة العرس ، كما يفعل نبلاء الانكليز ، بعاصفة من البوابيج المثلثة إلى الداخل ، والاحذية العتيقة ، إحياء لذكرى ترشل ، ثم مارليورو ، أو مالبروك ، الذي هو جم يوم زفافه بغصبة من عمدة حملت إليه حظاً سعيداً . إن الأحذية البالية والبوابيج لم تصبح بعد جزءاً من احتفالاتنا الاعراسية . ولكن صبراً ، فما دام النوق الرفيع يواصل انتشاره ، فلا بد أن ننتهي إلى ذلك .

وفي عام ١٨٣٣ لم يكن الزواج يتم على وجه السرعة . كان القوم لا يزالون يتخلبون في تلك الحقبة - وهو أمر غريب

حقاً - ان الزواج عيد حميم واجتماعي ، وان المائدة الأبوية لا تفسد الجلال المتربي ، وأن الابتهاج ، ولو مفرطاً ، شرط ان يكون لافقاً ، لا يؤذى السعادة . واحيراً أن من الجلال والخير ان يبدأ التحام هذين المصيرين ، اللذين سوف تتبثق منهاهما أسرة ، في المنزل ؛ وأن تكون غرفة العرس شاهداً على الزواج منذ اليوم .

وكان عندهم الفحة لأن يتزوجوا في المنزل .

واذن ، فقد تم الزواج ، وفقاً لذلك الزي الذي أصبح الآن مهاناً ، في منزل مسيو جيلورمان .

وبرغم ان مسألة الزواج هذه كانت امراً طبيعياً وعادياً إلى بعد الحدود ، فان الاعلان الذي ينبغي أن ينشر في الكنيسة والصكوك التي ينبغي ان تحرر ، ومقر العمدة ، والكنيسة ، يجعلها دائماً معقدة بعض الشيء . ولم يكن في ميسورهم ان يكونوا على استعداد قبل السادس عشر من شباط .

واتفق - ونحن نذكر ذلك لمجرد الرغبة في الدقة - ان ذلك اليوم السادس عشر كان يوم ثلاثة المرفع . وكان تردد ، ووسوس ، وبخاصة من جانب العمة جيلورمان .

وهتف العبد :

- « ثلاثة المرفع . هذه زيادة في الخبر . ان ثمة مثلاً يقول :

من يتزوج في ثلاثة المرفع  
لا يرزق اولاداً عاقين ابداً .

فلنمض في سيلنا . ليكن ذلك في السادس عشر ! هل تريد ان توجله انت يا ماريوس ؟ »

فأجاب العاشق :

- « لا ، طبعاً .

فقال الجد :

— « فلتتزوج اذن . . . »

وهكذا تم الزواج في اليوم السادس عشر ، برغم الابتهاج الشعبي .  
لقد امطرت السماء ذلك اليوم ، ولكن في السماء دائمًا رقعة صغيرة زرقاء  
في خدمة السعادة ، رقعة يراها العشاق ، على الرغم من ان سائر الخليقة  
قد تكون تحت مظلة من المظلات .

وفي الليلة السابقة ، كان جان فالجان قد قدم إلى ماريوس ، في حضرة  
ميسيو جيلنورمان ، الخامسة والاربعة والثمانين الف فرنك .  
واذ اجري الزواج وفقاً لقانون التعاقد على جعل بعض املاك الزوجين  
مشاعاً بينهما ، فقد كانت الاجراءات بسيطة .

وأمست توسين ، منذ ذلك الحين ، عديمة الفائدة لجان فالجان .  
كانت كوزيت قد ورثتها ، ورفعتها إلى مرتبة وصيفة .  
أما جان فالجان ، فكانت ثمة في منزل جيلنورمان غرفة جميلة أثبتت  
خصوصيتها من أجله ، وكانت كوزيت قد قالت له : « ابني ، أتوسل  
إليك ، وقالتها على نحو لا يقاوم إلى درجة جعلته يعيده ، أو يكاد ، بأن  
يحبني ويختلها .

وقبل بضعة أيام من اليوم المحدد للزواج وقع حادث لجان فالجان .  
لقد سُحق إيهام يده اليمنى بعض الشيء . ولم يكن ذلك خطيراً ، ولم  
يجز لأحد أن يشغل به ، أو أن يضمه ، بل أن يرى إلى الأذى  
النازل به ، حتى كوزيت نفسها . بيد أن ذلك اضطربه إلى أن يلف يده  
بعصابة ، وان يرفع ذراعه إلى صدره ، ومنعه من التوقيع على  
اي شيء .

ولن نقود القاريء لا إلى مقر العمدة ولا إلى الكنيسة . إننا نادرًا ما  
نتبع العشاق إلى ذلك المدى ، ونحن في العادة نولي الرواية ظهرنا حالما تضع  
باقية العريس في عروته . ولوسوف نجتريء بذكر حادثة وسمت ، على

الرغم من ان شهود العرس لم يلاحظوها ، تقدم الموكب من شارع فتيات كالقبر إلى كنيسة القديس بولس . كانوا يبعدون ، في ذلك الوقت ، تعبيد الطرف الشمالي من شارع سان لويس . وكان قسد سُيّج ابتداء من شارع « بارك رو بال » . وكان من المتذر على عربات العرس ان تمضي إلى كنيسة القديس بولس مباشرة . كان من الضروري ان يغروا الطريق ، وكانت أقصر الطرق تقتضيهم أن ينطقووا من ناحية الجادة . ولاحظ أحد المدعوبين أنهم كانوا في ثلاثة المرفع ، وان الجادة خليقة بأن تكون غاصة بالعربات . وتساءل مسيو جيلنورمان : « لماذا ؟ » — « بسبب من الاقنعة » . فأجاب الجد : « ممتاز . فلنمض من هناك . هذان الشابان على عتبة الزواج إنها يوشكان أن يدخلان إلى أشياء جدية في الحياة . وإنه لمن يهبهما لذلك أن يريا شيئاً من المساخر . »

وسلكوا طريق الجادة . كانت اولى عربات العرس تتنظم كوزيت والعمدة جيلنورمان ومسيو جيلنورمان وجان فالجان . أما ماريوم ، الذي كان ما يزال مفصولاً عن خطيبته ، وفقاً للعادة ، فكان يتبعهما في العربة الثانية . وامتزج موكب العرس ، لدن مغادرته شارع بنات كالقير ، في صف العربات الطويل الذي شكل سلسلة لا نهاية لها من الد « مادلين » إلى الباستيل ، ومن الباستيل إلى الد « مادلين » .

وغضت الجادة بالاقنعة . وامطرت السماء ، بين الفينة والفينة ، على غير طائل . كان المهرجون والمجان عنيدين . ففي دماثة شتاء عام ١٨٣٣ ذاك ، كانت باريس قد تقنت بقناع فينيبيا . إننا لا نرى ثلاثة مرفع كهذا ، في هذه الأيام . لأنه بعد ان أصبح كل شيء كرنفالاً شائعاً ، لم يبق ثمة اعما كرنفال .

كانت الازقة الجانبية غاصة بالسابلة ، وكانت التواخذ غاصة بالفضولين ، وكانت السطائح التي تتوح اروقة المسارح المعتمدة مهدبة بالمشاهدين .

وللجانب الآخرة ، لاحظوا صنف العربات المختلفة الأصناف ، ذلك الصنف المميز لثلاثاء المرفع ولوشنان أيضاً : عجلات كراء ، وعربات « سيدادين » ، وعربات نزهة ضخامة ، وعربات صغيرة ذات دولاً بين ومظلة ، وعربات خفيفة ، تمشي كلها في نظام ، وقد ثبتت أحدها خلف الأخرى في قساوة ، نزولاً على أوامر الشرطة ، فكأنها تمشي على خطوط حديدية . وكل من يمتهن أحدى تلك العربات يكون مشاهداً وشاهداً في وقت معاً . وأبقى رجال الشرطة هذين الصفين المتسابقين اللائي تمشي على الجوانب الدنيا من الجادة - أبقوها متتحركين حرفة متعاكسة ، وراقبوهما بحيث لا يعوق شيء هذا التيار المزدوج الممثل في جدول العربات الجارتين : أحدهما نزولاً ، والآخر صعوداً ؛ أحدهما نحو مرتفع آنتين ، والآخر نحو ضاحية سان انطوان . ولزمت عربات نواب فرنسة والسفراء ، تلك العربات المنقوش عليها شعارات الشرف ، متتصطف الطريق ، فهي تروح وتتجيء في حرية . وتنعمت بعض المراكب الفخمة البهيجية ، وبخاصة موكب « الثور السمين » ، بالامتياز نفسه . وفي فرحة باريس هذه ، تعاظمت انكلترة ؛ إن عربة اللورد سيمور ، المغيبة بلقب شعبي ، اجتازت الطريق في جلبة بالغة .

وفي ذلك الخط المزدوج ، الذي يحب رجال الحرس البلدي على طوله مثل كلاب الراعي ، كانت بعض العربات العائلية الأمينة ، المثقلة بالمجدات والجحود ، تعرض عند أبوابها بجموعات طريقة من الأطفال المقنعين ، مهرجين في السابعة من العمر ، ومهرجات في السادسة ، مخلوقات صغيرة فاتنة ، شاعرة بأنها كانت رسمياً جزءاً من الجذل الشعبي ، متأثرة بحملان تهريجها ، ومصطنعة وقار الموظفين .

وبين الفينة والفينة كانت تتعرض موكب العربات عقبة ، وكان لهذا الصنف الجانبي أو ذاك يتوقف ريشها تحمل العقدة . إن عربة معروفة كانت كافية لأن تشل الخط كله . ثم إن العربات كانت تستأنف السير

بعد ذلك .

وكانت عربات العرس في الصف المتوجه نحو الباستيل ، والمحرك في محاذة الناحية اليمنى من الجادة . وعند شارع الـ « بون أو شو » توقف السير قترة . وفي اللحظة نفسها تقريباً ، في الناحية الأخرى من الجادة ، توقف الصف الآخر المتوجه نحو الـ « مادلين » ، أيضاً . كان في هذه النقطة من الخط حِمل عربة من الأقنعة .

وهذه العربات ، أو على الاصح ، أحمال الكارات هذه ، يعرفها الباريسيون جيداً . فاذا لم تظهر في ثلاثة المرفع ، أو متصرف الصوم الكبير ، توقع الناس شيئاً ، وقالوا : « ان وراء الاكمة ما وراءها . لعل الوزارة سوف تتغير . » . رقام من العجائز المضحكتين ، والمزاحين الالاسين اثواباً مخبطة من رقع مختلفة الالوان ، يرتجع فوق عابري السبيل . مختلف ضروب الصور المضحكة ، من التركى إلى التوحش ، هراقلة . تسند مركيزات ، ونساء غليظات الكلام خليقات بأن يجعلن رابليه . يوصد اذنيه ، كما حملت السكيرات الفواجر آريستوفان على ان يغمض عينيه . شعر مستعار من « مشaque الكتاب » ، واقمعة زهراء ، وقبعات متظرفين ، ونظارات متصرعين ، وقبعات « جانو » ثلاثة القرون ترتعجها فراشة من الفراشات ، وصيحات موجهة إلى المشاة ، وأذرع على الخواضر ، وأوضاع غير مختشمة ، واكتاف عارية ، ووجوه مقنعة ، ووقدات متزوعة الكمامات ، وعباء من السفاهة يطوف به سائق متوج بالازهار . تلك هي هذه المؤسسة .

---

\* جمع هرقل ، وهي تغنى هنا الجيايرة .

\*\* ديب فرنسي كبير سبق التعريف به ، وكان معروفاً باسلوبه المقنع المخالف باللغاظ غير المهذبة .

كانت بلاد الأغريق محتاجة إلى مرکبة تبیسیس . . وفرنسة في حاجه  
إلى عربة فادیه . .

كل شيء يمكن ان يزور ، حتى التزوير نفسه . ان أعياد الآلهة الزمان عند الرومان ، تصعّر الجمال العتيق ذاك ، قد تطورت تدريجياً إلى ثلاثة المرفع . وأعياد الآلهة الخمر ، التي كانت متوجة في الأيام الخالية باغصان الكرمة ، مغمورةً باشعة الشمس ، كاشفةً عن اثناء من الرخام في شبّه عري التهبي ، والتي أمست اليوم مائعة تحت أسمال الشمال المبللة ، انتهت بأن تدعو نفسها الـ Chie - en - lie وتقليد عربات الاقنعة يرقى إلى أقدم عهود الملكية . فحسابات الملك لويس الحادي عشر تمنع قاضي البلاط «عشرين سو مضرورة في مدينة تور» من اجل ثلاثة من عربات التكبير في زوايا الشوارع . » وفي أيامنا ، تُعمل هذه الحشود الصاخبة ، عادة ، في عربة عتيقة ما ، يُقلّلون أعلاها ، أو يُبهظون بجمعهم الضاج عربة من عربات الضرائب ذات غطاء مزق . ان عشرين منهم يختلّون عربة تتسع لستة اشخاص . إنهم يمتطون المقعد ، والكرسي الصغير ، وقومي القطاع ، ومحجر العربة . بل انهم يمتطون مصابيح العربة . فانت تراهم واقفين ، منظرحين ، قاعدين ، منطوية معاطف سيقانهم ، متذليلة ارجلهم . إن النسوة ليجلسن على ركب الرجال . وإن المرأة ليرى اهرامهم المجنونة ، من مسافة بعيدة ، فوق تجمهر الروؤس . إن أحمال العربات هذه تحدث جبالاً من الفرح الشديد وسط الحشود . وإن كوليه ، وبانار ، وبلان ، Thespis شاعر يوناني يعتبر مبدع التراجيديا الاغريقية . ( القرن السادس قبل الميلاد ) .

•• شاعر فرنسي يعتبر مبدع النوع المعروف بال poissard اي القصيدة الفاحشة المأذن باللفاظ التي يمزحها الاحتشام .

Colle \*\*\* مؤلف أغاني ، وكاتب مسرحي فرنسي (١٧٨٣ - ١٢٠٩) Panard \*\*\*\* مؤلف أوبيرات وأغانٍ فرنسي (١٧٦٠ - ١٦٧٤)

وبoron ، ليسلون منها ، ولكن على نحو غني بلغة السوق . انهم يصفون التعليم الديني المقنع على رؤوس الناس . ان هذه العربية ، وقد خدلت لانهائية الاتساع بالحمل الرازحة تحته ، سينا الفاتحين . فالمدير في مقدمتها والفووضى في مؤخرتها . انهم يصخبون فيها ، ويفنون ، وينبجون ، وينفجرون ، ويتلدون بالسعادة . ان البهجة تزأر هناك ، وان السخرية تتوهج ، وان المزاج الفرح ليتشر وكأنه داء الحصبة . إن فرسين غير أصيلين يقودان التمثيلية المضحكة المتلهلة بالتمجيد . إنها مركبة الضحك المظفرة .

ضحك مبالغ في السخرية بحيث يتذر عليه ان يكون صريحاً . الواقع أن هذا الضحك موضع الريبة . إن هذا الضحك رسالة . ومهمته ان يثبت الكرنفال للباريسين .

هذه العربات الخالعة العذار ، التي تستشعر فيها ظلمة تنتفع على التحديد ، تدعو الفيلسوف إلى التفكير . فيها نضع اصبعنا على ملامعة خفية بين الرجال الداعرين ، والتسمة العاهرات .

وليس من ريب في انه ملن المحنن ان تقدم هذه القبابات المركومة حاصلا من البهجة ، وان يجتذب الشعب بتقديس الخزي فوق العار ؛ وان يؤدي التجسس العامل في خدمة البغاء وتدعميه إلى إلقاء الحشود فيها هو بعينها ، وان تولع الجماهير بتتبع سير هذه الحكومة الرهيبة من الأحياء ، التي هي أسمال وبمارج في وقت معـا ، والتي نصفها قذر ونصفها ضياء ، والتي تعوي وتغفي فوق عجلات العربية الأربع ؛ وان يصفق الناس لهذا المجد المؤلف من كل ضرب من ضروب العار ؛ وان لا يكون للجماهير عيد إلا إذا عرض البوليس وسطهم هذا الضرب من افعوان الابتهاج ذي المثلة رئيس . ولكن ما العمل ؟ إن عربات الوحـل الموشـح المـزادـان بالازـهـار ليـهـيـنـها الضـحـكـ العـامـ ويـغـفـرـ لهاـ . والـضـحـكـ الـاجـاعـيـ

\* Piron شاعر فرنسي ألف عدداً كبيراً من الأغاني والأهاجي ( ١٦٨٩-١٧٧٣ )

ثريلاك السخط العام في الجريمة . إن بعض الاعياد الوخيمة تفسد الشعب ، وتجعله سوقة . والسوقة ، كالطغاة ، في حاجة إلى مهرجين . إن لملك روکولور ، وللشعب بيايس . وباريis هي المدينة الحمقاء الكبرى ، كلما احافت في ان تكون المدينة الجليلة الكبرى . ان الكرنفال جزء من سياستها . إن باريس — علينا ان نسلم بذلك — تزود نفسها ، مختارة ، بالملهأ من طريق الفحشاء . إنها لا تسأل أسيادها — حين يكون لها أسياد — غير شيء واحد : « زوّقوا لي الوح ! » ورومة كان لها المزاج نفسه . لقد احبت نيرون . كان نيرون ناقلا عملاقا ينزل البضائع من السفينة إلى البر .

وشاءت المصادفة — كما ذكرنا اللحظة — ان تقف احدى هذه الحزم الشائهة ، حزم المقنعين والمقنعات ، المنقوله في عربة ضخمة ذات اربع دواليب ، إلى يسار العجاده فيما وقف موكب العرس إلى بعدها . ومن جانب العجاده إلى جانبها نظرت العربة المحملة بالاقنعة إلى العربة المواجهة ، التي كانت تُقل العروس .

وقال قناع :

— « انظروا ! عرس ! »

فُلَاجِبُ آخِرٌ :

— « عرس زائف . نحن العرس الحقيقي . »

واذ كان القناعان أبعد من أن يقدرا على استجواب المحتفلين بالزفاف ،  
واذ خافا إلى جانب ذلك صيحة رجال الشرطة ، فقد حولا نظرهما إلى  
مكان آخر .

وبعد لحظة قامت العربة المقنعة كلها بأعمال كثيرة جعلت الجماهير تصوّت لها ساخرة ، وتلك هي ملاطفة الرعاع لجماعة المتذمرين . واضطرب القناعان اللذان تكلما اللحظة إلى أن يوجها وجهيهما نحو الشارع ، مع سائر رفاقهما ، ولم يكن عندهم قدر كاف من قذائف الأسواق المدخرة

يمكنهم من الاجابة على ضربات شد الشعب المائة . وتبادلات الاقعنة  
وأفراد الحشد سيلأ رهياً من التعبير المجازية .

وفي الوقت ذاته كان قناعان من اقتحمة العربية نفسها : رجل إسباني ضخم الانف ، ذو محبة مسن بعض الشيء وشاربين اسودين هائلتين ، وامرأة مقدعة باللغة مهزولة — فتاة طرية العود ذات قناع من محمل أسود — كان هذان القناعان قد لاحظا المحتفلين بالزفاف أيضاً . وفيما كان رفاقهم وعابرو السبيل يتبادلون الاهانات ، دار بينهما حوار في صوت خفيض .

وطفت الفضجة على حديثها المنفرد ، فضاع فيها . كان المطر قد  
بلل العربية المكشوفة كشاماً كاملاً ؛ إن ريح شباط ليست حارة ، وحتى  
فيما كانت الفتاة تجوب الاسباني ارتجفت ، في ثوبها الكاشف عن أعلى  
الصلر ، وضحكـت ، وسعلـت .

وكان هذا المخوار :

— ( قوله ، اذن . )

• ماذہ یا ابی؟

- هل ترين هذا الرجل العجوز ؟

- ای رجل عجوز؟ -

- هناك ، في العربة الأولى من عربات العرس الواقفة إلى جانبنا .

— « الرجل ذو اليد المعلقة برباط عنق أسود ؟ »

( - میں )

— ماذما ؟ ثم

- «أنا واثق من أنني أعرفه .»

(! o T ) -

- اواد لو ان احـداً بـعـتـرـهـ حـنـجـرـتـيـ وـانـ اـكـونـ لمـ اـقـلـ

- قط في جيسي أنت أو أنا إن كنت لا اعرف مدا البانطي . . .
- «إن باريس اليوم هي باتين . . .»
- «هل تستطيعين ان ترى العروس اذا انحنيت قليلاً؟»
- «لا . . .»
- «والعرس؟»
- «ليس هناك عريس في تلك العربة . . .»
- «أشك في ذلك . . .»
- «إلا اذا كان هو الرجل العجوز الآخر . . .»
- «انجني جيداً إلى أمام وحاولي ان ترى العروس . . .»
- «لا أستطيع . . .»
- «على كل حال ،انا واثق من انني اعرف هذا الرجل المصاب بشيء في يده . . .»
- «وماذا تفديك معرفته؟»
- «لا احد يدري . أحياناً!»
- «اما أنا فلا ارى متعمدة كبيرة في العجائز من الرجال . . .»
- «أنا اعرفه!»
- «لا اعرفه على مهلك . . .»
- «ما الذي جاء به - يا للشيطان! - إلى العرس؟»
- «وها نحن نفينا فيه أيضاً . . .»
- «من أين أقبل موكب العروس هذا؟»
- «وهل اعرف؟»
- «إسمعي . . .»
- «ماذا؟»
- 
- \* يقدم الباريسى .

- « يجب أن نصنع شيئاً . »
- « ملماذا؟ »
- « اخرجني من عربتنا ، واتبعي موكب العرس . »
- « لماذا؟ »
- « لنعرف إلى أين يذهب وما هو . عجلني في الخروج . اركضي ، يا بنتي ، فأنت صغيرة . »
- « لا أستطيع أن أغادر العربة . »
- « ولم لا؟ »
- « أنا مستأجرة . »
- « آه ، يا للشيطان ! »
- « أنا مدينة بيومي هذا لادارة الشرطة . »
- « هذا صحيح . »
- « إذا غادرت العربة ، فان أول شرطي يرانني يلقى القبض علي . انت تعرف ذلك جيداً . »
- « أجل ، اعرف . »
- « لقد اشتريتني الحكومة اليوم . »
- « سيان . إن ذلك العجوز يضجرني . »
- « الرجال العجائز يضجرونك . انت لست مع ذلك فتاة صغيرة . »
- « إنه في العربة الأولى . »
- « ثم ملماذا؟ »
- « في عربة العروس . »
- « وبعد؟ »
- « اذن فهو أبوها . »
- « واي شأن لي بذلك؟ »

- « أقول لك انه ابوها . »  
 - « ليس هناك أب آخر . »  
 - « اسمعي . »  
 - « ماذا ؟ »  
 - « من ناحيتي ، أنا لا أكاد استطيع الخروج إلا إذا كنت مقتنعاً.  
 أنا مخبوء هنا ؛ ان احداً لا يعرف أني هنا . ولكن غداً ، لن تبقى  
 اقنعة . إنه ارباع الرماد . سوف اعرض نفسي للاعتقال . يجب ان  
 أعود إلى ثقبي . أما انت فظليقة . »  
 - « ليس إلى حد بعيد . »  
 - « أكثر مني ، على كل حال . »  
 - « حسن ، ثم ماذا ؟ »  
 - « يجب ان تناولني أن تعرفي إلى أين يذهب موكب العرس هذا . »  
 - « إلى أين يذهب ؟ »  
 - « نعم . »  
 - « أنا اعرف ذلك . »  
 - « إلى أين يقصد اذن ؟ »  
 - « إلى الكادران بلو . »  
 - « قبل كل شيء ، ان الكادران بلو ليس في هذا الاتجاه . »  
 - « حسن ! إلى لا راييه . »  
 - « أو إلى مكان آخر . »  
 - « إنه حر . الاعراس حرة . »  
 - « هذا ليس كل شيء . أقول لك ان عليك ان تعرفي لي ما هو  
 هذا العرس ، وإلى من ينتمي هذا العجوز ، وain يسكن أصحاب  
 العرس . »  
 - « هذا شيء مضحك على الأغلب ! إنه ملائم ان يعبر الانسان ،

بعد ثمانية أيام ، على موكب عرس مر بباريس في ثلاثة المرفع ! دبوس  
في مستودع هشيم ! هل هذا ممكن ؟

- « مهما يكن ، فإن عليك أن تناولني . هل سمعت ، يا آزيلما ؟ »  
واستأنف صفا العربات حركتها في اتجاهين متراكبين على جانبي  
الجادة ، ولم يسعده في مisor عربة الاقنعة ان ترى عربة  
العروس .

## جان فالجان لا يزال رافعاً ذراعه الى صدره

تحقيق الحلم الذي يدغدغ المرء . من الذي أنهى عليه بذلك ؟ لا شك في أن نهـة انتخابات في السـاء تدور حول هـذا الموضوع . إنـا جميعـاً مرشـحـون غير واعـين ، وإنـ المـلاـثـكـة لـتـقـرـعـ . لـقـد اـنـتـخـبـتـ كـوـزـيـتـ وـمـارـيوـسـ :

وكـانـتـ كـوـزـيـتـ فـيـ مـقـرـ العـدـةـ وـفـيـ الـكـنـيـسـةـ ،ـ سـاطـعـةـ وـمـوـتـرـةـ :ـ كـانـتـ توـسـينـ ،ـ تـسـاعـدـهـاـ نـيـقولـيـتـ ،ـ قـدـ أـلـبـسـتـهـاـ ثـيـابـ العـرـسـ .ـ وـارـتـدـتـ كـوـزـيـتـ ،ـ فـوـقـ تـورـةـ مـنـ نـسـيجـ حـرـيرـيـ أـيـضـ ،ـ ثـوـبـاـ المـخـيـطـ مـنـ بـرـيمـ بـيـنـشـ ،ـ وـحـجـابـاـ مـنـ تـخـرـيمـ انـكـلـتـرـةـ ،ـ وـعـقـدـاـ مـنـ جـواـهـرـ رـقـيقـةـ ،ـ وـتـاجـاـ مـنـ زـهـرـ الـلـيـمـونـ .ـ وـكـانـ ذـلـكـ كـلـهـ أـيـضـ ،ـ وـكـانـتـ هيـ -ـ فـيـ هـذـاـ الـبـيـاضـ -ـ مـتـأـلـقـةـ .ـ كـانـتـ سـلـامـةـ سـرـيرـةـ طـيـبـةـ اـنـبـسـطـتـ وـتـحـولـتـ إـلـىـ سـطـوـعـ .ـ كـانـ خـلـيقـاـ بـكـلـ مـنـ يـرـاهـاـ انـ يـقـولـ انـهاـ كـانـتـ

---

Binche بلدة في بلجيكا .

عناء على وشك ان تصبح إلهة .

كان شعر ماريوس الجميل مصقولاً معطرأً . وهنالك كان في  
ميسور المرء ان يتبن ، تحت كثافة الغدائر ، خطوطاً شاحبة كانت هي  
ندوب المراس .

وكان الجد بياً ، مرفوع الرأس ، مازجاً في زينته ومسالكه ،  
اكثر من أي وقت مضى ، كل ما في عصر بارا \* ، وكأن يقصد  
كوزيت . لقد حل محل جان فالجان الذي لم يستطع ان يعطي يده إلى  
الuros إذ كانت ذراعه مرفوعة إلى صدره .

وتبعد جان فالجان ، مرتدياً ثوباً أسود ، وابتسم .

وقال له الجد :

- « مسيو فوشلوفان ، هذا يوم سعيد . أنا اعطي صوتي لانهاء  
الクロب والحزان . يجب ان لا يبقى ثمة اما حزن في ايما مكان ،  
منذ اليوم . وحق الايه ! أنا اصدر امري بأن يعم الابتهاج ! ليس  
الشر حق في أن يكون . إن وجود أناس باشين هو ، في الحق ، عار  
على السباء الزرقاء . الشر لا يصدر عن الانسان ، الذي هو - في  
الواقع - خير . إن جميع ضروب الشقاء الانساني حاضرها وحکومتها  
المركبة جهنم ، المدعومة بطريقة أخرى «توبيري الشيطان» . حسن .  
ها أنا ذا اقول كلمات دماغوجية الآن ! أما أنا ، فلم تبق لي ايمان  
آراء سياسية . كل ما أطلبه هو أن يكون جميع الناس أغبياء ، يعني ان  
يكونوا سعداء . »

وبعد أن أنتا جميع الطقوس ، وبعد أن لفظاً أمام العمدة  
والكافن كل نعم مكتنة ، وبعد أن وقعا على سجلات البلدية  
والسكرستي ، وبعد أن تبادلا خاتميها ، وبعد ان ركعا - ومرفق احدهما

\* سياسي فرنسي كان عضواً في المؤتمر الوطني ثم في حكومة الادارة .  
وقد وضع مذكرات متعددة . ( ١٧٥٥ - ١٨٢٩ )

إلى مرفق الآخر - تحت النقاب المصنوع من نسيج متوج أبيض ، في دخان المبخرة ، وقد تشابكت يداها ، وأعجب بها القوم كلهم وحسدهما القوم كلهم ، وتقديمهما - ماريوس في ثوب أسود ، وهي في ثوب أبيض - الحاجب المزدان بكتافي كولونيل ، ضارباً الأرض بحربته ، بين سياجين من المشاهدين المنشددين ، ووصل إلى باب الكنيسة المفتوح على مصراعيه ، واستعدا لامتطاء متن العربة كرية ثانية وقد انتهى كل شيء - بعد هذا كله لم يكن في ميسور كوزيت أن تصدق ذلك . لقد نظرت إلى ماريوس ، ونظرت إلى الحشد ، ونظرت إلى السماء . لقد بدا وكأنها كانت تخشى اليقظة . وأضفت عليها تلك السيماء المندھشة الذاهلة فتنة لا سيل إلى وصفها . ولكي يعودوا أدراجهم صعدوا إلى العربة نفسها : ماريوس إلى جانب كوزيت ، ومسيو جيلنورمان وجان فالجان تجاههما . كانت العمدة جيلنورمان قد تراجعت خطوة واحدة ، فهي تختفي العربة الثانية . وقال الجد : « يا ولدي ، ها انتها السيد البارون والسيدة البارونة ، ومعكما ثلاثون ألف فرنك في العام . » وانحنست كوزيت حتى أصبحت أقرب ما تكون إلى ماريوس وداعبت أذنه بهذه الحمسة الملائكية : « صحيح اذن . أنا أدعى ماريوس . أنا قرينته . »

وتألق هذان المخلوقان . كانا في اللحظة المحتومة وغير المكتشفة ، في النقطة المُعْشِيَّة التي يتلاقي عندها الشباب كله والبهجة كلها . لقد حقيقة أبيات جان بروفير . فهما - مجتمعين - لم يكونا قد بلغا الأربعين من العمر . كان الزواج متساماً ، وكان هذان الطفلان زباقتين . ان أحدهما لم ير الآخر ؛ لقد تأمل أحدهما الآخر . ورأت كوزيت ماريوس في حالة من نور ، ورأى ماريوس كوزيت فوق مذبح . وفوق ذلك المذبح ، وفي تلك الهالة ، وقد امترج التمجيدان ، في الخلفية ، على نحو خفي ، وراء سحابة بالنسبة إلى كوزيت ، وفي تلاؤ بالنسبة إلى ماريوس ، كان

المثلُ الأعلى ، الشيء الواقعي ، موعدُ القبلة والحلم ، وسادةُ العرس .

إن جميع الآلام التي ألمت بها عاودتها الآن في نشوة . لقد بدا لها إن الأحزان ، والارق ، والدموع ، والآلام النفسية المريدة ، والذعر ، واليأس ، وقد أمست ملاطفات وإشعاعاً ، قد زادت الساعة الفاتنة التي كانت تقترب سحراً على سحر ، وإن أحزانها كانت خدماً لا يمحضون يشاركون في تزيين فرحتها . يا للآلام التي تنزل بالأنسان في سالفات أيامه ما أحسنها ! لقد أحاط الأسى الماضي سعادتها الحاضرة بهالة من نور . إن آلام جبها النفسية المبرحة قد انتهت إلى سمو : كان في هذين التفسيين التهللُ عينه ، مظللاً باللذة عند ماريوس ، وبالحياء عند كوزيت . وقال أحدهما لآخر في همس : « سوف نذهب ونرى حديقتنا الصغيرة في شارع بلوبيه ، كرة أخرى . » كانت ثنيات ثوب كوزيت فوق ماريوس .

إن يوماً مثل هذا هو مزيج من الحلم واليقين لا سبيل إلى وصفه . إن المرء يملك ، وإنه ليفرض . وإن مجال الخيال لا يزال مفتوحاً أمامه . وإنها لعاطفة تنتفع على التعبير ، في ذلك اليوم ، إن يكون المرء في الظهيرة ، وإن يفكك بمنتصف الليل . ولقد فاضت بهجة هذين القلين على الحشد ، وخلعت المسرة على عابري السبيل .

وقف الناس ، في شارع سان انطوان أمام كنيسة القديس بولس ليروا ، من خلال نافذة العربة ، إلى زهرات البرتقال ترتجف على رأس كوزيت .

ثم انهم رجعوا إلى شارع فتيات كالفير ، إلى بيتهم . وصعد ماريوس - جنباً إلى جنب مع كوزيت ، مظفراً متألقاً - تلك السلالم التي حمل عليها محضراً . وتجمّع القراء أمام الباب ، وباركوهما بعد أن شاركوهما في ما كانوا يحملان من مال . وكانت الازهار في كل

مكان . إن المترجل لم يكن أقل عبقاً بالرائحة الزكية من الكنيسة ، وبعد البخور ، جاء دور الورود . وحسباً أنها سمعاً أصواتاً تنشد في اللاهية ؟ كان الله في قلبها ، وبذا القدر في أعينهما مثل سقف من الكواكب ؟ لقد رأيا فوق رأسها وميض شمس مشرقة . وفجأة دقت الساعة . ونظر ماريوس إلى ذراع كوزيت العارية ، الفاتنة ، وإلى الأشياء الوردية التي لمحها على نحو باهت من خلال الوشي الذي ازدان به النصف الأعلى من ثوبها . وحين رأت كوزيت نظرة ماريوس شاع الدم في وجهها حتى أطراف أذنيها .

كان عدد كبير من أصدقاء أسرة جيلنورمان القدماء قد دعوا . وترافقوا حول كوزيت في لففة . وتتنافسوا في دعوتها « السيدة البارونة ». وكان الضابط ، تيودول جيلنورمان ، وقد أُمسي الآن رئيساً (كابتن) قد وفد من شارتر ، حيث كان مربطاً مع الحامية ، ليشهد عرس ابن عمّه بونميرسي . ولم تعرفه كوزيت .

أما هو ، المتعود أن تراه النساء جميلة الطلعة ، فلم يتذكر كوزيت أكثر من تذكره إبما فتاة أخرى .

وقال الجد جيلنورمان في ذات نفسه : « لقد كنت على حق في عدم تصديق حكاية الرماح تلك .. »

ولم تكن كوزيت في يوم من الأيام أكثر رقة مع جان فالجان . وكانت على تناغم مع الجد جيلنورمان . ففيما كان هو يحسد البهجة في حكم موجزة وجوامع الكلم ، كانت هي تتضوّع بالحب والحنان مثل عطر من العطور . السعادة تزيد أن يكون الناس جميعاً سعداء .

وارتدت ، في حديثها مع جان فالجان ، إلى جرس صوتها الذي كان لها وهي بعد فتاة صغيرة . ولاطفته بابتسامتها .

وكانت مائدة قد مدّت في حجرة الطعام .

والغراف في الأضياع من لوازم البهجة الكبيرة . فالسعادة يرفضون

الحق والظلمة . انهم لا يوافقون على ان يكونوا مظلومين . الليل ، نعم .  
اما الظلمة ، فلا . فاذا لم يكن ثمة شمس ، فيتعين على المرء ان يصنع  
شمساً .

كانت حجرة الطعام بوتقة اشياء بسيطة . ففي الوسط ، فوق المائدة  
للبি�ضاء المتألقة ، كانت ثريا من ثريات فينيسيا ذات صفائح مسطحة ،  
مزدادة بجميع ضروب الطير الملونة ، من زرقاء ، وبنيجية ،  
وحراء ، وخضراء ، جائمة وسط الشموع . وحول الثريا كانت  
شمعدانات مشعوبة ، وفوق الجدار كانت مرايا تزيينية ذات اغصان مثلثة  
وخمسة . وكانت المرايا ، والبلور ، والزجاجيات ، وآنية المائدة ،  
والآنية الصينية ، والخزف المطلبي ، والفالخار ، والآنية الذهبية والفضية .  
كانت كلها تتلاًأ وتبتسم . وكانت المسافات التي بين الشمعدانات المشعة  
ملأى بياقات الزهر ؛ يعني انه حيث لم يكن ضوء كانت زهرة .  
وفي حجرة الانتظار كانت ثلاثة كمائات وم Zimmerman تعزف بعض رباعيات  
هابدين في صوت خفيف .

وجلس جان فالجان على كرسي في حجرة الاستقبال ، خلف الباب ،  
الذى انطوى مصراعاه عليه على نحو يكاد يخفى . وقبل بعض لحظات من  
اتخاذهم مقاعدهم إلى المائدة أقبلت كوزيت ، وكأنما كان ذلك حافظ  
مفاجيئ ، وانحنى له في احترام ، ناثرة ثوبها العرائسي بيديها الائتين ،  
وسائله في نظرة تنضح بالمرح الحنون :

— « أبي ، هل انت راض ؟ »

فقال جان فالجان :

— « نعم ، أنا راض . »

— « حسن ، اذن فاضحك . »

وببدأ جان فالجان يضحك .

وبعد بعض لحظات أعلن باسلك ان المائدة قد مدت .

ودخل الضيوف حجرة الطعام ، يتقدمهم مسيو جيلنورمان متأبطاً  
ذراع كوزيت ، واتخذوا مقاعدهم ، وفقاً للنظام المعين ، حول  
المائدة .

ووضع كرسيان كبير ان ذواً أذرع عن عين العروس وعن يسارها ،  
الأول لمسيو جيلنورمان ، والثاني لجان فالجان . واتخذ مسيو جيلنورمان  
مقعده . وظل الكرسي الآخر ذو الذراعين شاغراً .  
وبخشت الأعين كلها عن جان فالجان .  
إنه لم يكن هناك .

ونادى مسيو جيلنورمان باسك ، وسأله :

— « هل تعرف أين مسيو فوشلوفان؟ »

فأجاب باسك :

— « السيد ، تماماً . السيد فوشلوفان أخبرني ان اقول لسيدي انه  
يتأن قليلاً من يده العليلة وانه لا يستطيع ان يتناول طعام العشاء مع  
سيدي البارون وسيديتي البارونة . وانه يرجوها ان يعتذر ، وانه سوف  
يرجع غداً صباحاً . لقد مضى منذ لحظة . »

هذا الكرسي الشاغر اوقع القشعريرة ، لحظة ، في عشاء العرس . ولكن  
إذا كان مسيو فوشلوفان غائباً ، فان مسيو جيلنورمان كان هناك ، ولقد  
تألق الجد تألق اثنين . لقد أعلن أن مسيو فوشلوفان أحسن صنعاً في  
مضيئه إلى الفراش باكراً ، اذا كان متآلاً ، ولكن ذلك لم يكن غير  
« خدش » . وكان هذا التصریح كافياً . وإلى هذا ، فأی شأن لزاوية  
ظلام واحدة في هذا الطوفان من البهجة؟ كانت كوزيت وماريوس في  
احدى اللحظات الانانية والباركة حين لا تكون لنا غير القدرة على روية  
السعادة ؛ ثم إن جيلنورمان خططت له فكرة . « وحق الاَللَّهِ ، إن هذا  
الكرسي شاغر . تعال إلى هنا يا ماريوس . ان عمتك ، على الرغم من  
ان لها حقاً فيه ، سوف تنجيز لك ذلك . هذا الكرسي ذو الذراعين لك .

هذا شرعي ، وهذا لطيف . السعيد إلى جانب السعيدة » . تصفيق من ارجاء المائدة جميعاً . وحل ماريوس محل جان فالجان قرب كوزيت . واستقامت الامور على نحو جعل كوزيت ، المحزونة باديء الأمر لغبار جان فالجان ، تشعر آخر الامر بالارياح لذلك . فمنذ ان امسى ماريوس بدلاً من جان فالجان لم يكن في ميسور كوزيت ان تتحسر . لقد وضع قدمها الصغيرة النساعمة المغلفة بالاطلس الايض فوق قدم ماريوس .

وما ان احتل ماريوس الكرسي ذا الزراعين حتى مسيو فوشلو凡 . ولم يكن ثمة غائب ما . وبعد خمس دقائق كانت المسائدة كلها تضحك ، من اقصاها إلى اقصاها ، بكامل حميم النسيان .

وحين جاء دور الحلوي والفاكهه وقف مسيو جيلنورمان ، وفي يده كأس من الشامبانيا نصف مليء حتى لا تهرقه ارتعاشات سنين والتسعين ، وشرب نخب العروسين .

وهتف :

— « إنكما لن تقتلنا من عظتين . ففي هذا الصباح سمعتها عظمة الكاهن ، وفي هذه الليلة سوف تسمعان عظة الجد . أصغيوا اليّ ، فلسوف اقدم اليكما نصيحة : تبادلا الحب حتى العبادة . أنا لن آبني ركاماً من الكلمات المزيفة . لاني أسرع إلى الغاية : كوننا سعيدين . ليس في الخلقة من عقلاً غير القماري . الفلسفه يقولون : اقتصدوا في مباحثكم . اما أنا فأقول : أطلقوا لها العنان . كوننا متيمين كالابالسة . كوننا مسحورين . الفلسفه يهدون . اني لاتمنى لو أعيد فلسفتهم إلى حناجرهم . أمن الممكن ان يكون ثمة قدر اكثـر مما ينبغي من العطور ، قدر اكثـر مما ينبغي من الأكمام المنورة ، قدر اكثـر مما ينبغي من العنادل المفردة ، قدر اكثـر مما ينبغي من الاوراق الخضراء ، قدر اكثـر مما ينبغي من الفجر في الحياة ؟

هل يستطيع العاشقان ان يتحابا أكثر مما ينبغي ؟ هل يستطيعان ان يتوادا  
 أكثر مما ينبغي ؟ خذني حذرك ، يا ايستيل ، انت وسمة أكثر مما  
 ينبغي ! وخذ حذرك ، يا نيمورين ، انت جميل أكثر مما ينبغي !  
 يا للبلادة النادرة ! هل يستطيع العاشقان ان يفتن احدهما الآخر أكثر  
 مما ينبغي ، وان يلطف احدهما الآخر أكثر مما ينبغي ، وان يسحر  
 احدهما الآخر أكثر مما ينبغي ؟ هل يستطيع المرء ان يكون متعملاً  
 بالحيوية أكثر مما ينبغي ؟ هل يستطيع ان يكون سعيداً أكثر مما ينبغي ؟  
 اقصدوا في مباحثكم ! آه ، هذا سخيف ! فليسقط الفلسفة ! التهلل  
 هو الحكمة . تهللوا ! تهللوا ! هل نحن سعداء لانتنا صالحون ، ام نحن  
 صالحون لانتنا سعداء ؟ هل دعيت الى « سانسي » باسم « سانسي » لأنها  
 كانت ملكاً هارلي دو سانسي ، أم لأنها كانت تزن مائة وستة  
 ( six-cent ) قراريط ؟ لست ادرى شيئاً من ذلك . الشيء المهم هو  
 ان تملك الملاسة ، والسعادة . كوننا سعيدين من غير محاكمة . أطعما  
 الشمس طاعة عمياء . ما هي الشمس ؟ أنها الحب . ومن قال الحب  
 فكانه قال النساء . آه ! آه ! ان ثمة شيئاً واحداً كلية القدرة ؛ إنه  
 المرأة ، اسألوا ماريوس الدباغوجي هذا أليس هو العبد الرفيق لهذه  
 الطاغية المدعوة كوزيت ؟ وبكمال موافقته ، ياله من جبان ! المرأة !  
 ليس ثمة روبسيير يستطيع ان يصمد ؛ المرأة تربيع على العرش . انا  
 لم أعد ملكياً باستثناء هذا الضرب من الملكية . ما آدم ؟ إنه مملكة حواء .  
 ليس ثمة عام ١٧٨٩ بالنسبة إلى حواء . كان هناك صولجان الملكي  
 المتوج بزهرة الزنبق ؛ كان هناك صولجان الامبراطوري المتوج  
 بكرة أرضية ؛ كان هناك صولجان شارلمان الذي كان من حديد ؛ كان  
 هناك صولجان لويس الرابع عشر الذي كان من ذهب ، ولكن الثورة

---

Harley de Sancy •  
1929 - 1946).

لوطها كلها بين إيمانها وسبابتها مثل قشتين من تين لا تساويان دافنن .  
 لقد انتهت تلك الصوالحة جميعاً ؛ لقد تحطمـت ؛ إنها على الأرض ؛ لم  
 يبق ثمة صولجان ؛ ولكن أعطوني بعض الثورات على هذا المنديل الصغير  
 الموسى العابق برائحة البتشول ! أود أن أراكم تفعلون . جربوا ! ما الذي  
 يجعله وطبيداً ؟ كونه خرقة . آه ، أنتم القرن التاسع عشر ! حسن ، ثم  
 ماذا ؟ نحن القرن الثامن عشر ، ولقد كنا على مثل ما انتم عليه من  
 الحماقة . لا تخيلوا انكم غيرتم شيئاً كثيراً في الكون لأن هواءكم الأصفر  
 غير المعدي يدعى الكوليـرا ، وأن رقصة البوـريـه تدعى عندكم رقصة  
 الكاـشوـشا . لا بد انكم في أعيـاق قلوبكم مقيـمون على حبـ النـاء . أنا  
 أتحـدـاـكم ان نقلعوا عن ذلك . إن هـاتهـ الشـيـطـانـاتـ هـنـ مـلاـتـكـتـاـ . أـجلـ ،  
 الحـبـ ، المـرأـةـ ، القـبـلـةـ ، تلكـ هيـ الـحـلـةـ الـتـيـ أـتـحـدـاـكمـ انـ تـخـرـجـسـواـ  
 مـنـهـاـ . أـمـاـ أـنـاـ ، فـالـحـقـ اـنـيـ شـدـيدـ التـوـقـ إـلـىـ أـنـ أـعـاـودـ الدـخـولـ إـلـىـ  
 مـنـكـمـ رـأـيـ الـكـوـكـبـ الـزـهـرـةـ (ـفـيـنـوـسـ)ـ ، مـغـسـاجـةـ الـهـاـوـيـةـ الـكـبـرـةـ ،  
 «ـسـيـلـيـمـيـنـ»ـ الـأـوـقـيـانـوـسـ ، تـرـتـفـعـ إـلـىـ الـلـاـنـهـاـيـةـ ، مـهـدـهـةـ كـلـ مـاـ تـحـتـهـاـ ،  
 مـحـدـقـةـ إـلـىـ الـأـمـوـاجـ مـثـلـ اـمـرـأـةـ ؟ـ الـأـوـقـيـانـوـسـ الـسـيـتـ «ـجـافـيـةـ»ـ .ـ حـسـنـ ،  
 إـنـهـ يـوـبـخـ عـثـاـ .ـ وـتـرـزـ فـيـنـوـسـ ،ـ فـهـوـ مـضـطـرـ إـلـىـ أـنـ يـتـسـمـ .ـ إـنـ ذـلـكـ  
 الـوـحـشـ لـيـذـعـنـ .ـ نـحـنـ كـلـنـاـ هـكـلـاـ .ـ غـضـبـ ،ـ عـاصـفـ ،ـ رـعـودـ ،ـ وـزـبـدـ  
 حـتـىـ السـاءـ .ـ وـتـدـخـلـ الـمـسـرـحـ اـمـرـأـةـ ،ـ وـيـطـلـعـ كـوـكـبـ ،ـ فـتـغـرـ مـكـبـاـ عـلـىـ  
 وـجـهـكـ !ـ كـانـ مـارـيـوسـ يـقـاتـلـ ،ـ مـنـذـ سـتـةـ اـشـهـرـ ،ـ فـيـ الـمـيدـانـ .ـ اـمـاـ الـيـومـ  
 فـأـنـهـ يـتـزـوجـ .ـ وـلـقـدـ أـحـسـ صـنـعاـ .ـ اـجـلـ ،ـ يـاـ مـارـيـوسـ ،ـ اـجـلـ ،ـ  
 يـاـ كـوـزـيـتـ ،ـ اـنـكـمـاـ عـلـىـ حـقـ ،ـ لـيـعـشـ اـحـدـكـمـ ،ـ بـحـسـارـةـ ،ـ مـنـ أـجـلـ  
 الـآـخـرـ ؛ـ تـبـادـلـ الـغـرـلـ ،ـ وـاجـعـلـنـاـ نـمـوتـ مـنـ الـفـيـظـ لـأـنـاـ لـاـ نـسـطـبـعـ اـنـ  
 نـفـعـ قـلـرـ مـاـ تـسـطـيعـانـ ؛ـ لـيـعـدـ كـلـ مـنـكـمـ الـآـخـرـ .ـ إـنـقـطـاـ بـمـنـقـارـيـكـمـ كـلـ

---

\* Alceste أبنة «ـبـيـلـاـسـ»ـ وـزـوـجـةـ «ـآـدـمـيـتـ»ـ ،ـ وـقـدـ اـرـتـقـتـ الـمـوـتـ اـنـقـاذـاـ لـزـوـجـهـاـ .  
 ثـمـ اـنـ هـرـقـلـ ،ـ كـمـ تـقـولـ الـأـسـطـورـةـ ،ـ دـخـلـ الـجـهـنـ لـكـيـ يـغـرـجـهـاـ مـنـهـاـ .

ما على الأرض من قش السعادة الصغير ، وابنيا لنفسك كما عشاً مدى الحياة . وحق الإله ، لأن يكون الإنسان عاشقاً ، ولأن يكون معشوقاً ، ولأن ينعم بعجزة كونه غض الأهاب ! لا تتصوروا انكم اخترعتم هذا . أنا ، أيضاً ، كانت لي نفس أشبه بضياء القمر . الحب طفل عمره ستة آلاف سنة . الحب يستحق لحية طويلة بيضاء . وميتوشالع ليس غير فتى لا خلاق له أمام كوبيد . ومنذ ستين قرناً والرجل والمرأة يتخالسان من الورطة بتبادل الحب . إن الشيطان ، الذي هو خبيث ، شرع ببغض الرجل ؛ والرجل ، الذي هو أشد خبثاً ، شرع بحب المرأة . وبهذه الطريقة عاد على نفسه بغير يفوق ما أنزله به الشيطان من أذى . وهذه الحيلة إنما اكتُشفت في عهد الفردوس الأرضي . إليها الصديقان ، الاتخراج عتيق ، ولكنه جديد تماماً ، أفيدا منه . كونا دافنيس وكلووبيه ، في انتظار أن تصبحا فيليمون وبوسيس = = وهكذا تصرفًا بخيث لا يعززكم ، حين تلتقيان ، شيء البتة ، وبخيث تكون كوزيت هي الشمس ماريوس ، ويكون ماريوس هو الكون لكوزيت . كوزيت ، ليكن الجو الجميل ، في نظرك ، ابتسامة زوجك . ماريوس ، ليكن مطرك دمع زوجتك . واجتها ان لا يكون ثمة في مترلكما مطر البتة . لقد سرقتما الرقم الرابع في البانصيبي : زواج الحب . لقد فزتما بالجاثرة الكبرى ، فحافظا عليها جيداً . أقفلوا عليها ؛ لا تبعثرها ؛ ليعبد كل منكم الآخر ، ولا تهتموا بالباقي . صدقوا ما أقوله لكم . إنه منطق سليم . والمنطق السليم لا يقوى على الكذب . ليكن أحدكم ديناً بالنسبة إلى الآخر . إن لكل أمرىء طريقته في عبادة الله . وحق الشيطان ، إن خير طريقة لعبادة الله ان يحب المرأة زوجته . أنا أحبك ؛ ذلك هو تعليمي الديني . وكل من يحب هو

\* Daphnis et Chloé بطل رواية عاطفية ريفية تحمل هذا الاسم .

\*\* Philémon et Baucis زوجان شهيران في الميثولوجيا . وقد أصبح اسمها رمزاً

لحب الزوجي .

مستقيم الرأي . إن تجديف هنري الرابع يضع القداسة بين الشراهة والسكن . « مذهب البطن الشمل المقدس » . أنا لست على دين ذلك التجديف . فالنساء منسية فيه . هذا ما يثير عجبني في ما يتصل بتجديف هنري الرابع . أيها الصديقان ، فلتتحي المرأة ! يقولون اني شيخ ؛ ومدهش كيف اشعر اني اعود شاباً من جديد . اني لأحب ان أمضى وأصغي إلى مزامير القراب في الغابات . وان الاطفال الذين ينعمون بالجهاز والسعادة ليفقدوني صوابي . وانه لخليق بي ، انا نفسي ، ان اتزوج إذا ما رغب احد في ذلك . ومن المتعذر علينا ان نتخيل ان الله قد خلقنا لغرض غير هذا : أن نحب ، أن نهدم ، ان نترج ، ان تكون حمائم ، ان تكون ديكة ، أن نلقط حب غرامنا من الصباح إلى المساء ، أن نفتخر بزوجاتنا الصغيرات ، ان تكون مختالين ، ان تكون مظفرات ، ان تكون متعرفات ؛ تلك هي غاية الحياة . ذلك ، ولا يسوّكما ما أقول ، ما كنا نعتقد ، نحن العجائز ، في أيامنا حين كنا شباباً . آه ، وحق الشيطان ، كم كان في تلك الحقبة من نساء فاتنات ، ومن وجوه صبيحة ، ومن فتيات صغيرات ! هناك كنت امارس فساد اخلاقي . وإذا فليحب أحدكم الآخر . وإذا لم يحب بعض الناس بعضاً فعندئذ لا أرى أي فائدة من وجود شيء اسمه الربيع . وعندئذ يكون خليقاً بي ان اصلي لله كي يحزم جميع الاشياء التي يربينا ايها ، ويستردها منا ، ويعيد الازهار ، والطيور ، والفتيات الجميلات إلى صندوقه . يا ولدي ، تقبلاً برقة الرجل العجوز . »

كانت الليلة حية ، بهيجية ، أنيسة . وكانت دماثة الجد المهيمنة قد حددت اللحن للحفلة كلها ، ولقد كيف كل امرء نفسه وفقاً لمحبة الجد القلبية التي يبلغ عمرها قرناً من الزمان أو يكاد . ورقصوا قليلاً ، وضحكوا كثيراً . كان عرساً صالحآ طفلياً . ولقد كان خليقاً بهم ان ان بدّعوا الرجل الطيب القلب « الماضي ». والحق انه كان هناك في شخص

الجد جيلنورمان .

كان ثمة صخب ، ثم صمت .

واختفى العروسان .

وبعد منتصف الليل بقليل أنسى متزل مسيو جيلنورمان هيكله .  
وهنا نقف . إن ملاكاً مبتسماً، واضعاً إصبعه على شفته ، ليقف على  
عتبة ليلي الأعراس .

وتستغرق الروح في التأمل أمام هذا المعبد ، الذي يُختفِلُ فيه  
بعد الحب .

ينبغي أن يكون ثمة أشعة فوق هذه البيوت . إن الابتهاج الذي تتطوّي  
عليه يحب أن يفر في الضياء من خلال حجارة العجران ، ويشع على نحو  
قائم في الظلمة . ومن المستحيل أن لا يبعث هذا العيد المقدس ، المحظوظ ،  
إشعاعاً سحارياً إلى الألآهية . الحب هو البوتفقة السنية التي يتم فيها  
اتحاد الرجل والمرأة . إن الكائن الواحد ، الكائن الثلاثي ، الكائن النهائي ،  
الثالوث البشري ليُنبثق منه . وولادة هذه النفس الواحدة من نفسين الثنتين  
لا بد أن تقع في نفس الظلمة اضطرارياً . إن المحب كاهن ، وإن العزراء  
المستقرة في الانحطاط ليصيّبها الذعر . وبعض هذا الابتهاج يمضي إلى الله .  
فح حيث يكون زواج صحيح ، يعني حيث يكون الحب ، فهناك عترج  
المثل الأعلى به . إن سرير الزفاف يرسم هالة في الظلام . ولو قد قيُضَ  
للعين التي هي من لحم أن ترى المشاهد الرهيبة الساحرة الخاصة بالحياة  
العلياً اذن لرأينا ، في أغلبظن ، اشكال الليل ، والغراء المجنحين ،  
وعابري سبيل اللامتنظور الزرق ، ينحرون — على هيئة حشد من الروؤس  
القاتمة — فوق البيت التّير ، سداء ، مبارِكين ، يدل بعضهم بعضاً على  
العروسان العزاء ، المروءة في رفق ، وقد بدا على وجوههم الالآهية  
انعكاس السعادة البشرية . ولو قدر ، في تلك الساعة السنية ، للعروسين  
الذين أصابتهما البهجة بالجهَر وظناً نفسيهما منفردتين — لو قدر لها أن

يصفيا ، اذن لسمعا في غرفتها حفيظ اجنحة مضطربة . ان السعاد الكاملة تنطوي على تماسك الملائكة . وإن ذلك المخدع الصغير القائم يتخذ من السماء كلها سقفاً له . فحين يقترب فهان ، جعلها الحسب مقدسين ، ابتغاء الخلق والابداع ، فمن المتعذر ان لا يكون فوق تلك القبلة ، التي لا توصف ، قشعريرة في لغز النجوم الهائل .

تلك هي السعادات الحقيقة . ولا بهجة وراء هذه الماجع . الحب هو وحده الانحطاط الروحي ، وكل ما عداه يسكي .  
حسب المرء ان يحب وان يحب . فلا يطلب احد شيئاً اكثراً .  
ليس ثمة جوهرة اخرى يمكن ان يُعْرَى عليها في ثنايا الحياة المظلمة . إن الحب إنجاز .

### ٣

## ممتنة الانفصال

ما الذي كان قد حل بجان فالجان ؟

فيُعيد ضحكته ، نزولاً عند طلب كوزيت الرفيق ، ومن غير ان يلاحظه أحد ، كان قد نهض من مقعده ، وانتهى إلى حجرة الاستقبال . كانت هي الحجرة نفسها التي سبق له ان دخلها قبل ثمانية اشهر ، أسود بالوحش ، والدم ، والبارود ، حاملاً الحفيد إلى منزل الجد . كانت ألوان الجدران الخشبية القديمة مكللة بالأوراق والأزهار ؛ وكان الموسيقيون جالسين على المبعد الذي مدد عليه ماريوس من قبل . وكان باسلك يرتدي سترة سوداء ، وبنطلوناً قصيراً ، وجوربين أبيضين ، وقفازين أبيضين أيضاً . وكان يرتدي تيجان الزهور حول كل من الأطباق التي كانت على وشك أن يُسْكَب فيها الطعام . وكان جان فالجان قد أراه يده المرفوعة

إلى صدره ، وعهد اليه في ان يفسر للقوم سبب غيابه ، ومضى  
لسيله .

كانت نوافذ حجرة الطعام تطل على الشارع . ووقف جان فالجان ،  
بعض دقائق ، من غير حراك ، فيظلمة ، تحت تلك النوافذ المشعة .  
واصغى . لقد انتهت اليه اصداء المأدبة المختلطة . ولقد سمع كلمات الجد  
العالمة ، الامرة ، والحان الكمانات ، وقعقة الاطباق ، ورنين الكوؤس ،  
ودوي الضحك . ومن خلال ذلك الصخب البهيج كله ميّز صوت كوزيت  
الذهب الجذلان .

وغادر شارع بناط كالفيير ، ورجح إلى شارع الرجل المسلع .  
ولكي يرجع ، اخذ سيله من شارع سان لويس ، وشارع « كولتور  
سانت كاترين » وشارع الـ « بلان مانتو » . كانت تلك الطرق أطول  
بعض الشيء ولكنها كانت الطريق التي اعتاد طوال ثلاثة أشهر — ابتغاء  
تجنب العوائق والوحول في شارع « فيبي دو تامبل » — ان يسلكها كل  
يوم في ذهابه من شارع الرجل المسلع إلى شارع فتيات كالفيير ، مع  
كوزيت .

كانت هذه الطريق التي سارت عليها كوزيت قد نفت عنده كل  
طريق اخرى .

ورجع جان فالجان إلى منزله . واضاء شمعته وارتقى السلم . كانت  
الشقة شاغرة . إن توسين نفسها لم تعد هناك . واحدثت خطى جان فالجان  
ضجة في الغرف اعظم من المأثور . كانت جميع الخزائن مفتوحة .  
ومضى إلى حجرة كوزيت . لم يكن ثمة أغطية على السرير . كانت  
الوسادة ، المجردة من غطائهما ومن وشيها ، مطروحة على الأغطية المطاوية  
عند قدم الحشية التي بدا قماشها والتي ما كان لأحد أن يرقد فيها  
بعد . كانت جميع الاشياء الانثوية الصغيرة التي تعلقت بها كوزيت قد  
نُقلت . لم يبق ثمة غير الاثاث التقبيل والجدران الأربع . كان فراش

توصين قد عُرِيَ أَيْضًاً . كان سرير واحد معداً ليس غير ، ولقد بدا وكأنه ينتظر شخصاً ما . وكان ذلك السرير هو سرير جان فالجان .

ونظر جان فالجان إلى الجدران ، وأغلق بعض أبواب الخزان ، وأخذ يروح ويبحيء من غرفة إلى أخرى .

ثم انه وجد نفسه كرها ثانية في غرفته ، ووضع شمعته على الطاولة .

كان قد أطلق ذراعه من رباطها ، وأنشأ يستعين بيده اليمنى وكأنه ما كان يتلم منها .

واقترب من سريره ، ووقعت عينه — اكان ذلك مصادفة ؟ اكان ذلك عن عمد ؟ — على « متنعة الانفصال » التي كانت كوزيت تغار منها ؛ وقعت عينه على صندوق الامتعة ذات الصغير ، الذي ما كان يفارقه أبداً . وفي اليوم الرابع من حزيران ، لدن وصوله إلى شارع الرجل المسلح ، كان قد وضعها على الطاولة المدوره القائمه على عمود في وسطها ، قرب مقدم سريره . لقد مضى إلى تلك الطاولة في ضرب من الرشاقة ، وخرج من جيئه مفتاحاً ، وفتح الحقيبة .

واخرج منها ، في بطء ، تلك الثياب التي غادرت فيها كوزيت ، قبل عشر سنوات ، مونفير ماي ؛ الثوب الصغير الاسود اولاً ، ثم منديل العنق الاسود ، ثم الحذاء الضخم الثقيل التي كانت كوزيت عاجزة تقريباً عن انتعاله لشدة صغر قدميها ، ثم الصدرة المصنوعة من نسيج قطني غليظ ، ثم التورة المسرودة ، ثم المشزر ذا الجيوب ، ثم الجوربين الصوفيين . وكان هذان الجوربان — اللذان ما يزال منطبعاً عليهما ، في رفق ، شكل الرجل الصغيرة — لا يكادان يبلغان طول يد جان فالجان . وكانت هذه الملابس كلها سوداء ، وكان جان فالجان هو الذي حمل لها تلك الثياب إلى مونفير ماي . حتى إذا أخرجها من الحقيبة ،

وضعها على السرير . كان يفكر . لقد تذكر . كان ذلك في الشتاء ، في شهر من شهور ديسمبر القارسة ، ولقد ارتعشت نصف عارية في الأسهال ، وأحمرت قدماتها الصغيرة تان البائستان أحمراراً كاملاً في حذائها الخشبي . وكان هو ، جان فالجان ، قد جردها من تلك الأسهال لكي يلبسها هذا الثوب الحدادي . ولا ريب في أن الأم كانت سعيدة في قبرها لرؤيتها ابنتها مرتدية ثوب الحداد عليها ، وان ترى بخاصة أنها كانت كاسية ، وأنها كانت تنعم بالدفء . وفكّر في غابة مونفير ماي تلك . كانا قد اجتازاها معاً ، كوزيت وهو . وفكّر في الحالة الجوية ، في الاشجار الجرداء ، في الغابة العاطلة عن الطيور ، في السماء التي لا شمس فيها . سيان ؛ فقد كان ذلك كلّه فاتناً . ورتب الاشياء الصغيرة على السرير : منديل العنق إلى جانب التنورة ، والجوربين إلى جانب الحذاء ، والصدرة إلى جانب الثوب ، وانشأ ينظر إليها واحداً بعد آخر ؛ ان كوزيت لم تكن اطول من هذا المقدار ؛ كانت تحمل دميتها الكبيرة بين ذراعيها ؛ وكانت قد وضعت ليرتها اللويسية الذهبية في جيب هنا المتر ؛ لقد ضحكت ، ولقد سارا وقد امسك احدهما بنراع الآخر ؛ لم يكن لها غيره في الوجود .

ثم ان رأسه ، الأبيض الجليل ، سقط على السرير ، وتقطّر ذلك القلب العجوز الثابت ، وغمُر وجهه – إذا جاز التعبير – في ثياب كوزيت ؛ ولو قد مر أحد بالسلم في تلك اللحظة اذن لسمع نحيم رهياً .

## جيڪور الحالد

ومن جديد ، بدأ الصراع المروع القديم ، الذي رأينا عدداً من وجوهه .

لقد تصارع يعقوب والملائكة ليلة واحدة ليس غير . وأسفاه ، كم مرة رأينا جان فالجان وقد أمسك به ضميره - جسداً لجسد - وسط الظلام ، فهو يصارع ذلك الضمير على نحو يائس !

صراع لم يُسبق إلى مثله . في بعض اللحظات تزلّ القدم ، وفي بعض اللحظات تميد الأرض . كم مرة اخذ ذلك الضمير ، المدور أمام الحق ، مخالفة وطروحه أرضاً ! كم مرة ركزت الحقيقة ، التي لا تعرف الشفقة ، قدمها على صدره ! كم مرة صاح ، وقد طرحه التور أرضاً ، ملتمساً منه الرحمة ! كم مرة ، عمد ذلك التور الحقود ، الذي أضرمه الاسقف في ذات نفسه ومن فوقه ، إلى أن يوقع الجهر في عينيه كلما رغب في أن يكون أعمى لا يرى ! كم مرة نهض في ذلك الصراع ، مشلوداً إلى الصخر ، متكتأً على السفطة ، متعرغاً في التراب ، وقد تمكن من أن يقهر ضميره حيناً ، وتتمكن ضميره من أن يقهره حيناً آخر ! كم مرة ، بعد كلام مبهم ، بعد تفكير أثاني غادر مسورة ، سمع ضميره المائج يصبح في اذنه : « زلة ! أنها الشقي ! » ، كم مرة خشrig فكره المتعدد حشرجة متشنجة تحت دليل الواجب ! مقاومة للرب . عرق مأتني ! كم جرحٍ خفي استشعر هو وحده أنها كانت تدمي ! كم خدش لوجوده البائس ! كم مرة نهض من فراشه دامياً ، مشيناً ، محطماً ، مضاءً ، يفعم اليأس قلبه وتملاً الطلاقة روحه ! مهزوماً ، شاعراً أنه هو المتصر . وبعد أن قطع الضمير أوصاله ،

ومزقه ، وحطمه ، وقف فوقه ، رهيباً ، نيراً ، هادئاً ، وقال له : « والآن ، امض في سلام ! »

ولكن أي سلام حدادي هذا الذي واجهه لدن خروجه من ذلك الصراع الكالب إلى هذا الحد ، وأسفاه !

وَمَعْ ذَلِكَ ، فَقَدْ اسْتَشْعَرَ جَانْ فَالْجَانْ أَنَّهُ كَانَ يَخْوْضُ ، تَلْكَ الْلَّيْلَةَ ، مَعْرِكَتِهِ الْآخِرَةِ .

لقد بَرَزَ لِهِ سُؤَالٌ مُمْضِ .

إن التقادير ليست مستقيمة كلها ، أنها لا تكون على صورة شارع مستقيم أمام من كُتبت عليه . أنها دروب غير نافذة ، أمعاء معوجة ، منعطفات مظلمة ، مفارق مربكة تتكشف عن طرق متعددة . كان جان فالجان قد وقف في هذه اللحظة عند أحطر تلك المفارق .

كان قد انتهى إلى التمازن الأخير بين الخير والشر . كان ذلك التقاطع المظلم امام عينه . وهذه المرة أيضاً ، كما قد اتفق له من قبل في أزمان آلية أخرى ، افتتحت أمامه طريقان اثنان : الأولى فاتنة ، والثانية راعية . فـأى الطريق يتعين عليه أن يسلك ؟

لقد نصحه بسلوك الطريق الرابعة ذلك الأصعب الخفي المثير الذي  
تلمحه ، جميعاً ، كلما ركزنا اعيننا على الظلام .  
كان على جان فالجان ان يختار ، كرها اخرى ، بين الملاذ الرهيب ،  
والشرك المتسم :

اذلك صحيح اذن ؟ ان النفس قد تشفى ؟ أما المصير فلا . شيء هب ! قدر عضال !

وكان السؤال الذي واجهه هو هذا :

بأي طريقة يتعين على جان فالجاجن ان يسلك تجاه سعادة كوزيت وماريوس ؟ هذه السعادة كان هو الذي رغب فيها ، وكان هو الذي صنعها . كان قد أقحمها في فواده ، وكان خليقاً ان يستشعر ، في هذه

اللحظة ، وقد نظر إليها ، مثل ارتياح صانع أسلحة يرى طابع مصنوعه على مُسْدِيَّةٍ فيها هو يستلهما ، وقد خضب الدم جسمه كله ، من صدره .

لقد فازت كوزيت بماريوس ، ولقد امتلك ماريوس كوزيت . كانا يمتعان بكل شيء ، حتى بالثروة ، وكان ذلك من صنعه .

ولكن ما الذي كان ينبغي أن يفعله ، هو جان فالجان ، بهذه السعادة ، بعد أن تحققت ، وبعد أن أمست هناك ؟ أيفرض نفسه على هذه السعادة ؟ ايعاملها وكأنها ملك له ؟ لا ريب في أن كوزيت كانت لرجل آخر ؛ ولكن ايتين عليه ، هو جان فالجان ، ان يحتفظ من كوزيت بكل ما استطاع ان يحتفظ به ؟ أينبغي ان يظل ذلك الضرب من الأب ، الذي يُرِى نادراً ولكنه ينعم بالاحترام ، والذي كانه حتى تلك اللحظة ؟ هل يقدم نفسه ، في هدوء ، إلى منزل كوزيت ؟ هل يحمل ماضيه ، من غير ان يقول كلمة ، إلى هذا المستقبل ؟ هل يُشُل هناك بوصفه صاحب حق ، وهل ينبغي له ان ان يفسد ويتخذ مقعده ، محجباً ، في تلك الدار المتألقة ؟ هل يمسك بأيدي هذين المخلوقين البرئين - فيما هو يبتسم لها - بيديه الفاجعين ؟ هل يضع على مساند الخطب الآمنة ، في حجرة استقبال مسبو جيلنورمان ، قدميه اللتين كانتا تجران خفههما ظلمة القانون الشائنة ؟ هل يدخل في مشاركة بالحظوظ مع كوزيت وماريوس ؟ هل يتبعن عليه ان يكشف الظلمة فوق رأسه والسحابة فوق رأسيهما ؟ هل يجعل من نكبته رفقاً لسعادتها ؟ هل يظل معتصماً بالصمت ؟ وبكلمة ، يجوز له ان يكون ، إلى جانب هذين المخلوقين السعيدين ، أبكم القدر المشؤوم ؟

إن علينا ان نكون معودين لقاء القدر لكي نجزء على رفع أعيننا حين تجاها بعض المسائل في عربها الرهيب . ان الخبر أو الشر ليكمن

وراء علامة الاستفهام القاسية هذه . ويسأل أبو المول : « ما الذي سوف تصنعه ؟ »

وكانت لجان فالجان هذه الألفة مع التجربة . لقد حدق إلى أبي المول على نحو موصول .

وقلب المشكلة القاسية على اختلاف وجهها .

وكانت كوزيت ، ذلك الوجود الفاتن ، هي قارب النجاة في ذلك الغرق . ما الذي ينبغي أن يفعله ؟ ايتثبت بالقارب ، أم يفلته ؟ إذا تثبت به نجا من الكارثة ، وارتفع كرة أخرى إلى الشمس ، وترك الماء يرشح من ثيابه وشعره ، ونجا ، وعاش . أما إذا أفلته ؟

فتدنىذ ينتهي إلى الماوية .

وهكذا راح يستثير أفكاره ، في مرارة . أو على الأصح ، بتصارع معها . لقد عصفت في ذات نفسه ثورة ، وانشأ يتقضى على ارادته حيناً ، وعلى يقينه حيناً آخر .

وكان من حسن حظ جان فالجان أنه استطاع البكاء . لعل ذلك قد أضفى عليه شيئاً من النور . ومع ذلك ، فقد كانت البداعة ضاربة . لقد انطلق في صنيعه بإصرار أشد عنفاً من ذلك الذي كان قد ساقه في وقت مضى إلى آراس . لقد عاوده الماضي وجهاً لوجه مع الحاضر . وقارن ، واتسحب . وما إن فتح سد الدموع ، حتى تلوى الرجل اليائس المأساة وحسرة .

لقد شعر أنه قد أوقف .

وأسفاه ! ففي هذه الملاكمـة المستحبـة بين أناـينـنا وواـجـبـنا ، حين نراجع هـكـذا خطـوةـ اـثـرـ خطـوةـ أـمـامـ مـثـلـناـ الأـعـلـىـ المـتـبعـ ، ذـاهـلـينـ ، هـائـجـينـ ، حـانـقـينـ لـلـاسـتـسـلـامـ ، مـتـصـارـعـينـ مـعـ الـأـرـضـ ، تـوـاقـينـ إـلـىـ اـمـكـانـيـةـ الـفـرـارـ ، مـلـتـسـبـينـ مـغـرـجاـ ماـ – فـيـ هـذـهـ المـلاـكـمـةـ المـسـتـحـبـةـ كـمـ تـكـونـ

مقاومة الجدار الذي خلفنا مفاجئةً ومشوّمةً !  
إننا نتشعر بالظل المقدس يُعرض الطريق .  
اللامنحور الذي لا يعرف الرحمة ! يا له من فكرة مسلطـة على  
العقل !

واذن فليس لنا مع الضمير نهايةً البتة . فاختـر سـيـلـك ، وـفـقـه ،  
يا بـروـتوـس ، واختـر سـيـلـك ، وـفـقـه ، يا كـاتـون . إنـه — عـا هـسـوـ  
الله — لا قـرارـ له . إنـنا نـلـقـيـ فيـ هـذـهـ البـشـرـ عملـ حـيـاتـناـ كلـهاـ ، إنـنا نـلـقـيـ  
فيـهاـ حـظـناـ ، نـلـقـيـ فيهاـ ثـرـوتـناـ ، نـلـقـيـ فيهاـ نـجـاحـناـ ، نـلـقـيـ فيهاـ حـرـيـتناـ  
أـوـ وـطـنـناـ ، نـلـقـيـ فيهاـ هـنـاءـناـ ، نـلـقـيـ فيهاـ رـاحـتـناـ ، نـلـقـيـ فيهاـ سـعادـتـناـ .  
أـكـثـرـ ! أـكـثـرـ ! أـكـثـرـ ! أـفـرـغـ الـأـنـامـ ! أـمـلـ الـجـرـةـ ! إـنـ عـلـيـنـاـ آـخـرـ  
الـأـمـرـ انـ نـلـقـيـ فيهاـ فـوـادـنـاـ .

إـنـ ثـمـةـ فيـ مـكـانـ ماـ منـ ضـبـابـ الجـهـنـمـاتـ الـقـدـيمـةـ مـثـلـ هـذـاـ البرـمـيلـ .  
الـيـسـ يـعـذـرـ المـرـءـ إـذـاـ ماـ رـفـضـ آـخـرـ الـأـمـرـ ؟ هلـ يـسـطـعـ المـتـنـعـ عـلـىـ  
الـضـوـبـ اـنـ يـدـعـيـ شـيـئـاـ ؟ الـيـسـ السـلاـسـلـ الـتـيـ لـاـ نـهـاـيـةـ طـاـفـةـ فـوـقـ الـقـوـةـ  
الـبـشـرـيـةـ ؟ وـمـنـ ذـاـ الـذـيـ يـلـوـمـ ؟ اـذـنـ ، سـيـسـيفـوـسـ ؟ أـوـ جـانـ فـالـجـانـ اـذـاـ  
ماـ قـالـ : «ـ فـيـ هـذـاـ كـفـاـيـةـ ! »

إـنـ عـبـودـيـةـ الـمـاـدـةـ مـحـدـودـةـ بـالـاحـتـكـاكـ ؛ أـلـيـسـ ثـمـةـ حدـ لـعـبـودـيـةـ الـرـوـحـ ؟  
إـذـاـ كـانـ الـحـرـكـةـ السـرـمـدـيـةـ مـسـتـحـبـلـةـ فـهـلـ يـكـونـ التـفـانـيـ السـرـمـدـيـ  
مـطـلـوبـاـ ؟

إـنـ الـخـطـوـةـ الـأـوـلـىـ لـيـسـ شـيـئـاـ ، الـخـطـوـةـ الـأـخـيـرـةـ هـيـ الـعـسـيـرـةـ . ايـ شـيـءـ كـانـتـ  
قـضـيـةـ شـانـمـاتـيـوـ إـذـاـ ماـ قـورـنـتـ بـزـوـاجـ كـوـزـيـتـ وـكـلـ ماـ اـنـطـوـيـ عـلـيـهـ ؟ وـاـيـ  
شـيـءـ كـانـ هـذـاـ : الـذـهـابـ إـلـىـ سـجـنـ الـاشـغالـ الشـاقـةـ ، بـالـقـيـاسـ إـلـىـ هـذـاـ :

\* Sisyphus ، فيـ المـيـثـوـلـوـجـيـاـ ، ابنـ اـيـوـلـ Eolo وـمـكـ كـوـرـنـتـ . كـانـ فـاسـيـاـ شـهـيدـ  
الـوحـشـيـةـ وـقـدـ حـكـمـ عـلـيـهـ بـعـدـ موـتهـ يـانـ يـرـخـ ، فـيـ الجـمـعـ ، صـفـرـةـ خـسـنةـ الـقـبـيلـ ،  
وـلـكـنـ الصـخـرـةـ كـانـتـ تـرـقـدـ ، كـلـ مـرـةـ ، إـلـىـ الـخـارـجـ ...

الدخول في العدم ؟

ايه ايتها الدرجة الأولى من درجات التزول ، كم أنت داكنة ! ايه  
ايتها الدرجة الثانية كم انت سوداء !

كيف يستطيع ان لا يدبر رأسه هذه المرة ؟

الاستشهاد تسام ، تسام قارض . إنه تعذيب يكرس ويرسم . إنك قد تقره في الساعة الأولى وتجلس على عرش الحديد الحامي حتى الاحرمار ، وتضع على جيئنك تاج الحديد الحامي حتى الاحرمار ، وتتلقي الكرة الارضية المصنوعة من الحديد الحامي حتى الاحرمار ، وتأخذ صولجان الحديد الحامي حتى الاحرمار ، ولكن لا يزال عليك ان ترتدي معطف اللهب ، افلا يكون ثمة لحظة يثور فيها اللحم المسكين ، ويتنازل فيها المرء عن النكال والتعذيب ؟

واخيراً دخل جان فالجان في سكينة اليأس .

لقد راز ، ولقد فكر ، ولقد تأمل مختلف السبل التي يخربه بينها ذلك الميزان الخفي ، ميزان النور والظلام .  
أن يفرض سجن اشغاله الشاقة على هذين الطفلين الفاتحين ، أو أن يستهلك بنفسه غرقه العضال . في ناحية : التضحية بکوزيت ؟ وفي ناحية : التضحية بنفسه .

عند أي حل وقف ؟ اي قرار اتخذ ؟ ما كان ، في صميم ذاته ، جوابه الانجر عن طلب القدر العفيف ؟ اي باب اعتزم أن يقرع ؟ اي جانب من حياته وطن النفس على أن يوصد أو يسد ؟ ومن بين جميع هذه الهوى التي لا غور لها ، والتي تحيط به ، اي واحدة اختار ؟ اي طرف ارتفى ؟ لأي من هذه اللجاج حتى رأسه ؟

لقد استمر تفكيره ، الموضع الدوار في الرأس ، طوال الليل .  
وظل هناك حتى الفجر ، في الوضع نفسه ، منطويآ طيبتين فوق المسرير ، ساجداً تحت ضخامة القدر ، ولعله كان مسحوقاً ، وأسفاه ، متتشنج

الاصابع ، مبسوط الذراعين على زاوية قائمة ، مثل رجل <sup>مُنزع</sup> عن الصليب وُطِرَح على وجهه فوق الأرض . لقد ظل اثنى عشرة ساعة – اثنى عشرة ساعة طويلة من ساعات ليلة من ليالي الشتاء – مثلوجاً ، من غير ان يرفع رأسه ، ومن غير ان ينبس بكلمة . كان جامداً مثل جثة ، فيها كان فكره يتلوى على الأرض ويطير ، حيناً كالشعبان ، وحينما كالنسر . ولو رأته عن هكذا من غير حراك اذن لظنته مبتأ . وفجأة ، ارتعش في تشنج ، وقبل فمه ثياب كوزيت ، وكان مسمراً عليها . وعندئذ كان جديراً بتلك العين ان ترى أنه حي .

إية عين ؟ ما دام جان فالجان وحده ، وما دام احمد لم يكن هناك ؟

«العين» التي في الظلام .

## الكتاب السابع

### آخر قطعة في الكأس

#### الدائرة السابعة والستمائة الثامنة

ان اليوم الذي يلي العرس يوم نكتفه العزلة . فنحن نختتم خلوة السعيدين ، ومن هنا قليلاً ما نعوق رقادها . وصخب الزيارات والتهنئات لا يبدأ إلا في ما بعد . وفي صباح اليوم السابع عشر من شباط كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة بعضاً الشيء عندما سمع باسك ، وكان يرتب قاعة الانتظار متأطلاً متزره ومنفضة غباره ، قرعاً خفيفاً على الباب . إن أحداً لم يقرع الجرس ، وهو شيء بنم عن التكتم في يوم كهذا . وفتح باسك الباب ، ورأى مسيو فوشلوفان . وأدخله إلى قاعة

الاستقبال ، التي كانت ما تزال مزدحمة مقلوبة رأساً على عقب ، والتي بدت عليها سيمبا الميدان الذي شهد مباحث احتفال الليلة الفائتة .  
لاحظ باسلك :

- « وحق الاله ، يا سيدى ، لقد افتنا في ساعة متأخرة . . .
- وسائله جان فالجان :
- « هل استيقظ سيدك ؟ »  
فأجاب باسلك :
- « كيف حال ذراع سيدى ؟ »
- « أحسن . هل استيقظ سيدك ؟ »
- « ايها ؟ القديم أم الجديد ؟ »
- « مسيو بونميرسي . . .
- فقال باسلك متصدراً :
- « سيدى البارون ؟ »

ان المرء ليكون باروناً عند خدمه قبل كل شيء . إن شيئاً من ذلك ينعكس عليهم . فهم يملكون ما يستطيع الفيلسوف ان يدعوه « رشاش اللقب » ، وهم بذلك يعتررون . ولنقل هنا ، بين معتبرتين ، ان ماريوس الجمهوري المناضل ، ولقد اقام الدليل على ذلك ، كان الآن باروناً بالرغم منه . كانت ثورةٌ صغيرة قد نشبت في الاسرة حول هذا اللقب . ففي الوقت الحاضر كان مسيو جيلورمان هو الذي تثبت به ، وكان ماريوس هو الذي استخف به . ولكن الكولونيل بونميرسي كان قد كتب « ان ابني سوف يحمل لقبى » . وأطاع ماريوس . ثم ان كوزيت ، التي بدأت المرأة تشرق في أعطاها ، كانت تستشعر اعظم الخbur لكونها بارونة .

وكرر باسلك :

- « سيدى البارون ؟ سوف اذهب وأرى . سوف اقول له ان

سيو فوشوفان هنا . .

— لا . لا تقل له ذلك . قل إن شخصاً ما ، بسأل إن يتحدث  
إليه على افراد ، ولا تذكر له اي اسم .

فقال باسك :

— آه !

— أود ان أبادره بعجاجة .

فأضاف باسك :

— آه !

معطياً نفسه آهته الثانية كتفسير لآهته الأولى .

وغادر الحجرة .

وظل جان فالجان منفرداً .

وكانت الفوضى كما قلنا ، تسود حجرة الاستقبال . لقد بدا وكأن  
المرء كان لا يزال قادرًا ، إذا ما ارتفع سمعه ، على أن يسمع جلية  
العرض الغامضة . كان ثمة مختلف ضروب الأزهار ، التي سقطت من  
الاكاليل ومن القبعات ، على الأرض . وكانت الشموع ، التي اشتعلت  
حتى محاجرها ، قد اضافت إلى بلور التربات رواسب من شمع . لم تكن  
قطعة من قطع الآثار في مكانها . وفي الروايا ، كانت كل ثلاثة أو أربعة  
من الكراسي ذوات الأذرع قد تقارب وشكلت دائرة ، وبدها وكانتها  
ما تزال تواصل حديثاً ما . وكان مجموع ذلك ضاحكاً . إن ثمة جمالاً ما  
في الأعياد الميتة . لقد كانت هذه الحجرة سعيدة . وعلى تلك الكرامي  
المختلطة ، وبين هذه الأزهار الآخذة في الذبول ، وتحت هذه الأضواء  
المنظفة ، كان القوم قد فكروا أفكاراً بهيجة . لقد خلفت الشمس التربا ،  
ولقد دخلت في بشر إلى حجرة الاستقبال .

وتصرمت بضع دقائق . كان جان فالجان جاماً من غير حراك في  
النقطة التي تركه باسك فيها . كان شاحجاً جداً . وكانت عيناه غائرتين

في مجريها ، بسبب من الأرق ، إلى درجة جعلتها لا تكادان تبدوان إلا في عسر . وكانت ترين على سرتها السوداء تلك التغضبات المرهقة التي تبدو عادة على السيدة التي سلخت الليل بطوله . وكان مرافقاه قد ايضاً بذلك الزغب الناشئ عن دعك القهاش . كان جان فالجان ينظر إلى السافنة التي رسمتها الشمس ، عند قدميه ، فوق أرض الحجرة .

وسمع ضجة لدى الباب ، ورفع عينه .  
ودخل ماريوس ، مرفوع الرأس ، باسم الشغر ، مشرق الوجه بنور لا سهل إلى وصفه ، وضاح الجبين ، مظفر العين . إنه هو الآخر لم يعرف النوم .

وهتف لدن رؤيته جان فالجان :

- « هنا أنت ، يا أبي ! يا لباسك الأحمق الذي رانت على وجهه سيماء خفية ! ولكنك جئت مبكراً جداً . فلم تنقض على الظهور غير ساعة واحدة . ان كوزيت لا تزال نائمة . »

تلك الكلمة « أبي » يقولها ماريوس لسيو فوشلو凡 كانت تعني : السعادة العظمى . لقد كان ثمة بينهما دائمًا ، كما نعرف ، حاجز وبرود وتحفظ ، ثلج للكسر أو للذوبان . كان ماريوس قد انتهى إلى تلك المرحلة من النشوة التي يأخذ الحاجز عندها بالسقوط ، والثلج بالذوبان ، وكان مسيو فوشلو凡 بالنسبة إليه ، شأنه بالنسبة إلى كوزيت ، أباً .  
وتابع . لقد فاقت الكلمات منه ، وهو ما يميز نهايات الابتهاج الالتباهية هذه :

- « ما أعظم سعادتي برويتك ! لو كنت تعرف كيف افتقدناك أمس ! صباح الخير ، يا أبي . كيف يدك ؟ أحسن ، أليس كذلك ؟ »

ولاذ قص بالجواب الخير الذي قدمه هو نفسه ، مضى يقول :

— « لقد اكثروا ، كلامنا ، من الحديث عنك . إن كوزيت تحبك جماً ! أنت لن تنسى ان غرفتك هنا . نحن لا نريد شارع الرجل المسلح بعد اليوم . لا ، لا نريده بعد اليوم البتة . كيف استطعت ان تذهب وتقطن في شارع مثل ذاك ، شارع مريض ، شارع مدمد ، شارع بشع ، شارع يقوم عند احد طرفي حاجز ، حيث تصاب بالبرد ، وحيث لا تستطيع ان تدخل ؟ سوف تأتي ، وتستقر هنا . ولسوف تفعل ذلك اليوم . وإنما نشأ بينك وبين كوزيت نزاع . إنها تعترض ان تقدمنا كلنا من أنوفنا ؛انا احضرك . لقد رأيت غرفتك ؛ إنها جد قريبة إلى غرفتنا ، وهي تطل على الحديقة ؛ لقد جعلنا لها قفل ، وأقمنا السرير ، وكل شيء جاهز . وليس عليك إلا ان تجبي . لقد وضعت كوزيت كرسياً قدماً واسعاً ذا وسادة من محمل اوترخت إلى جانب سريرك وخاطبته قائلة : « أبسط ذراعيك له ». وكل ربيع يأتي عندليب الى مجموعة شجر الأكاسيا المواجهة لنوافذك . إنك سوف تقع عليه بعد شهر . وعندها يكون عشاها إلى يسارك ، وعشتها إلى يمينك . ويفرد لك العندليب ليلاً ، وتححدث كوزيت نهاراً . إن غرفتك قائمة إلى الجنوب تماماً . ولسوف ترب لك كوزيت كتبك هناك ، « رحلة الكابتن كوك » ، و « رحلة فانكوفيه » ، وسائل أشيائك . وهناك ، في ما اعتقاد ، حقيقة صغيرة انت حريص عليها جداً ، ولقد اخترت لهذه زاوية شرف . لقد قهرت جدي ، انت تناسبه . انتها سوف تعيشان معاً . هل تعرف الموسيقى ؟ انك سوف تأنس إلى جدي إذا عرفت الموسيقى . ولسوف تصحب كوزيت إلى التزهه يوم أكون غالباً في قصر العدل ، ولسوف تعطيها ذراعك ، كما تعلم ، شأنك في حديقة اللوكسمبورغ ، في ما مضى . لقد عقدنا العزم عقداً مطلقاً على ان تكون سعيدين جداً . وانت جزء من سعادتنا ، أنفهم ، يا أبي ؟ آه ، قل لي ، هل تتناول طعام

---

• Whist خرب من لعب الورق .

الصباح معنا اليوم ؟  
فالجان :

— « سيدى ، ان عندي شيئاً واحداً أقوله لك . أنا رجل حكم عليه سابقاً بالاشغال الشاقة . »

إن حدود الاصوات الحادة المدركة يمكن ان يتتجاوزها العقل بمشل السهولة التي تتجاوزها فيها الأذن . إن هذه الكلمات « أنا رجل حكم عليه سابقاً بالاشغال الشاقة » ، خارجة من فم مسيو فوشوفان داخلة في اذن ماريوس ، إنما ذهبت إلى أبعد من الممكن . ولم يسمع ماريوس . لقد بدا له ان شيئاً قد قيل له اللحظة ؛ ولكنه لم يدر ما هو . لقد وقف فاغر الفم .

ثم انه ادرك ان الرجل الذي يحدثه كان رهياً . إن العجرَ الذي اصاب عينيه كان قد حجب عنهم ، حتى تلك اللحظة ، ذلك الشعوب الفظيع .

ولك جان فالجان رباط العنق الأسود الذي كان يسند ذراعه ، ونزع القهاش الملفوف حول يده ، وعرى إبهامه ، وأراه ماريوس .

وقال :

— « ان يدي سليمة . »

ونظر ماريوس إلى الاتهام :

وتتابع جان فالجان :

— « وهي لم تكن غير سليمة في يوم من الأيام . »

لم يكن ثمة ، في الواقع ، أمراً أثر لجرح .

وواصل جان فالجان :

— « كان من الأفضل ان لا أحضر زفافك . ولقد تغيرت أكثر مما استطعت ان أتغير . لقد تظاهرت بهذا الجرح لكي لا اقوم بتزوير ، لكي لا أدخل البطلان على وثائق الزواج ، لكي أُغفر من التوقيع . »

وتلجلج ماريوس :

— « ماذا ت يريد ان تقول ؟ »

فأجاب جان فالجان :

— « اريد ان اقول اني كنت في سجن الاشغال الشاقة ..

فهتف ماريوس في ذعر :

— « انت تجعلني مخبلا ! »

وقال جان فالجان :

— « مسيو بونيرسي ، لقد سلخت نسخ عشرة سنة في سجن الاشغال الشاقة . بسبب من السرقة . ثم حكم علي بالسجن مدى الحياة . بسبب من السرقة . بسبب من تكرر الجرم . لاني في هذه اللحظة هارب من العدالة .. »

وكان من غير المجدى ان يرتد ماريوس أمام الحقيقة ، ان يرفض الواقعه ، أن يقاوم الدليل ، لقد اضطر إلى الادعاء . وشرع يفهم ؛ وكما يقع دائمًا في مثل هذه الاحوال ، فهم ما وراء الحقيقة . لقد استشعر رعدة وبيض باطني رهيب . لقد خطرت بياله فكرة جعلته يرتجف . لقد لمح في المستقبل قدرًا رهيباً مقدوراً له .

— « قل كل شيء ، قل كل شيء ! انت والد كوزيت .. »

وارتد إلى الوراء في سياء من الذعر لا سبيل إلى وصفها .

ورفع جان فالجان رأسه ، في جلال جعله يبدو وكأنه يرتفع إلى السقف .

— « من الضروري ان تصدقني في هذا ، يا سيدي . على الرغم من ان أيمان امثالنا غير مقبولة في نظر العدالة .. »

وهنا اعتصم بالصمت . ثم إنه اضاف ، في ضرب من السلطان المهيمن ، القبرى ، لافظ الكلمات في بطء ، ومؤكداً مقاطعها :

— « .... سوف تصدقني . أنا والد كوزيت . أما أمام الله ، فلست

والدها . سيدى البارون بونيرسي ، أنا فلاح من فافرول . لقد كنت اكسب رزقى من تسلیب الاشجار . إن اسمى ليس فوشلوغان . انى ادعى جان فالجان . أنا لا أمت بنسب إلى كوزيت . اطمئن !

وتنتم ماريوس :

— « ومن يثبت ذلك لي ؟ »

— « أنا . ما دمت اقول ذلك . »

وحنى جان فالجان رأسه وكأنه يقسم عيناً . ثم تابع كلامه قائلاً :  
— « اي صلة تربطني بكوزيت ؟ صلة عابر السبيل . قبل عشر سنوات ، لم اكن أعلم أنها في الوجود . أنا أحبها ، هذا صحيح . انتا حين تبلغ سن الشيخوخة تحب الطفلة التي سبق لنا ان رأيناها وهي صغيرة . وحين يبلغ الرجل سنًا عالية يحس أنه جد لجميع الأطفال . ان باستطاعتك في ما يخلي الي ان تفترض ان لي شيئاً يشبه الفواد . لقد كانت يتيمة . يتيمة من غير أب أو أم . كانت في حاجة الي . ذلك هو السبب الذي من اجله بدأت أحبها . إن الأطفال هم من الضعف بحيث يستطيع ايا امريء ، وحنى ولو كان رجلاً مثلـي ، ان يكون لهم حاميـاً . وقد قمت بهذه المهمة في ما يتصل بكوزيت . ولست احسب ان احداً يستطيع حقـاً ان يدعو هذا الشيء الفضيل جداً عملاً صالحـاً . ولكن اذا كان هو عملاً صالحـاً فاذكر انى انا الذي قمت به . دونـ هذا الظرف المخـفـ . إن كوزيت تغادر اليوم حياتـي . ان سـيلـينا يـفـرقـانـ . اـنـ لـسـتـ بـقـادـرـ عـلـىـ انـ اوـدـيـ لهاـ اـيـاـ خـدـمـةـ اـضـافـيـ ،ـ منـذـ الـيـومـ .ـ اـنـهاـ مـدـامـ بـوـنـيرـسـيـ .ـ لـقـدـ تـغـيرـ حـامـبـهاـ .ـ وـلـقـدـ كـسـبـتـ كـوـزـيـتـ بـهـذاـ التـغـرـ .ـ كـلـ ذـلـكـ حـسـنـ .ـ اـماـ السـتـمـثـةـ الـفـ فـرـنـكـ فـانتـ لـمـ تـحـدـثـيـ عـنـهاـ ،ـ وـلـكـنـ اـسـتـطـعـ اـعـرـفـ ماـ الـذـيـ بـحـولـ فـيـ خـاطـرـكـ .ـ اـنـهاـ وـدـيـعـةـ .ـ كـيـفـ اـنـتـهـتـ هـذـهـ الـوـدـيـعـةـ إـلـىـ يـدـيـ؟ـ وـاـيـ أـهـمـيـةـ لـذـلـكـ؟ـ اـنـ اـسـلـمـ الـوـدـيـعـةـ إـلـىـ أـهـلـهـاـ .ـ اـنـ شـيـتاـ اـكـثـرـ مـنـ ذـلـكـ لـاـ يـمـكـنـ اـنـ يـطـلـبـ مـنـيـ .ـ اـنـ اـتـمـ الـاعـادـةـ بـالـنـصـ عـلـىـ اـسـمـيـ الحـقـيقـيـ .ـ

وهذا شيء يتعلّق بي أيضاً . فأنا نفسي أرحب في أن تعرف من أنا ..  
ونظر جان فالجان إلى ماريوس في وجهه .

كان كل ما استشعره ماريوس مبللاً غير متلامح الأجزاء . إن بعض  
هبات القدر تحدث مثل هذه الأمواج في نفوسنا .

لقد عرفنا ، كلنا ، مثل لحظات الاضطراب هذه . التي يتبدّل خلالها  
كل شيء في ذوات نفوسنا . إننا نقول أول الأشياء التي ترد على ذهننا ،  
وهي ليست دائماً ، على وجه الضبط ، ما ينبغي أن نقوله . إن نعمة  
ضروباً من الكشف المفاجيء عن الأسرار لا تستطيع أن تحتملها ،  
فهي تذكرنا مثل خمر مهلكة . لقد شدّه ماريوس أمام الحالة الجديدة  
التي كشفت لعينيه إلى درجة جعلته يخاطب هذا الرجل وكأنه غاضب عليه  
أو يكاد ، لا عرافة ذاك .

وصاح :

ـ « ولكن ، لم تقول لي ذلك كلّه ؟ ما الذي يكرهك على أن تفعل  
ذلك ؟ كان في استطاعتك أن تختفظ بالسر لنفسك . إن أحداً لم يشبك ،  
ولست ملائحة أو متعقباً . إن عندك سبباً يدعوك إلى أن تكشف عن هذا  
السر ، طوعاً و اختياراً . أكمل . هناك شيء آخر . بمناسبة أي شيء  
تدلي بهذا الاعتراف ؟ بداعي من أي شيء ؟ »

فأجاب جان فالجان ، في صوت خفيض وغائر إلى درجة كانت  
تجizer للمرء أن يزعم أنه كان يتحدث إلى نفسه لا إلى ماريوس :

ـ « بداعي من أي شيء ؟ حقاً ، بداعي من أي شيء يجيء هذا  
المحكوم عليه بالاشغال الشاقة ويقول : أنا محكوم عليه بالاشغال الشاقة ؟  
حسن ، أجل ! الدافع غريب . إنه دافع الشرف . أجل ، إن سوء  
حظي حبل احمله هنا في قلبي ، فهو يحكم وثافي . وحين يبلغ المرء  
من الشيخوخة تكون هذه الحال قوية خاصة . إن الحياة كلها تتبيّد من  
حولها ، ولكنها تصمد وتقاوم . ولو كنت قادرًا على أن اقتلع هنداً

الحبل ، ان اقطعه ، ان أحل العقدة ، او أقطعها ، ان أقصد إلى مكان بعيد ، اذن لجوت ، ولم يكن على إلا أن امضي لسيلي . ان ثمة عربات عامة في شارع بولوا ، انتها سعيدان ، فلامض لسيلي . لقد حاولت ان اقطع ذلك الحبل ، لقد شدته ، ولكنه قاوم في ثبات ؛ إنه لم ينقطع ؛ لقد كنت اقلع قلبي معه . ثم قلت : لاني لا استطيع ان أحيا بعيداً عن هذا المكان . يجب ان أبقى . اجل ، ولكنك علس صواب ،انا نجول ، فلماذا لا أبقى بكل بساطة ؟ انت تقدم الى غرفة في المترزل . والسيدة بونيرسي تحبني كثيراً ، وهي تقول لذلك الكرسي ذي التراين : ابسط ذراعيك له ، وجدك لا يطعم في اكثر من ان تكون إلى جانبه ، فأنا الائمه . ولسوف نحيا كلنا معاً ، ونأكل كلنا معاً ، ولسوف أعطي ذراعي لكوزيت ... إلى السيدة بونيرسي ، عفواً . فانا اقول ذلك بحكم العادة ، ولن يكون لنا غير سقف واحد ، ومائدة واحدة . ونار واحدة ، وزاوية الموقد نفسها في الشتاء . والتزهه نفسها في الصيف ، تلك هي البهجة ، تلك هي السعادة ، ذلك هو كل شيء . سوف نحيا كأسرة واحدة ، كأسرة واحدة !

وعند هذه الكلمة غداً جان فالجان ضارياً . لقد طوى ذراعيه ، وحدق إلى الأرض . عند قدميه ، وكأنه كان يود ان يخفر هوة فيها . وغدا صوته ثاقباً على نحو مفاجيء .

— اسرة واحدة ! لا ، أنا رجل بلا أسرة . أنا لست من اسرتكم . أنا لست من اسرة الناس . ففي البيوت التي يكون فيها الناس بين اهلיהם اكون أنا فضلة زائدة . هناك أسر ، ولكنها ليست لي . أنا البائس ؛ أنا خارج الطلاق . هل كان لي اب وأم ؟ أنا أكاد اشك في ذلك . ويوم زوجت هذه الطفلة انتهى كل شيء . لقد رأيت أنها سعيدة ، وأنها مع الذي أحبت ، وان ثمة عجوزاً صالحأ ، أسرة من ملاكيبين . وان جمبع المباحث في هذا المترزل ، وان كل شيء

حسن ، قلت لنفسي : لا تدخل . لقد كان في استطاعتي ان اكذب ، هذا صحيح ، ان اخد عكم جميعاً ، ان أظل مسيو فوشوفان . لقد كان في ميسوري أن اكذب ما كان الكذب من أجلها ، اما وقد أصبح الكذب من أجلني أنا فليس ينبغي لي ذلك . وكان حسبي ان أظل صامتاً، هذا صحيح ، وعندئذ يستمر كل شيء . انت تسألني ما الذي يكرهني على الكلام ؟ شيء غريب : ضميري . لقد كان من اليسر جداً ، على اية حال ، أن اظل صامتاً . ولقد سلخت الليل وانا احاول إقناع نفسي بذلك . انت تطلب مني اعترافاً ، وما جئت لاخبرك به هو من الغرابة بحيث يكون من حقك ان توجه الي هذا الطلب . اجل ، لقد سلخت الليل وانا اقدم إلى نفسي اعتذاراً ، ولقد قدمت اليها اعتذاراً جيدة جداً ، لقد بذلت جهدي ، ولكن على غير طائل . بيد أنه كان ثمة شيئاً لم أوفق اليها . أنا لم اوفق لا إلى قطع الحبل الذي يجعل فوادي مثبتاً ، مسماً ، مرستخاً هنا ، ولا إلى إخراص ذلك الذي يتحدث الي في صمت حين أخلو إلى نفسي . وذلك هو الذي يجعلني اجيء واعترف لك بكل شيء هذا الصباح . بكل شيء ، أو بكل شيء تقريراً . فمن غير المجدي ان اخبرك بما يعني أنا وحدي . إني احتفظ بذلك لنفسي . الشيء الاساسي انت تعرفه . وهكذا أخذت لغزى ، وحملته اليك . ولقد بقررتُ سري امام عينيك . ولم يكن ذلك قراراً يسهل اتخاذة . فطوال الليل كنت في صراع مع نفسي . آه ، انت تحسب اني لم أقل لنفسي ان هذه القضية لا تشبه قضية شاماكيو . واني باخفائي اسمي لا اوذى احداً ، وان اسم فوشوفان قد اعطاني ايه فوشوفان نفسه عرفاناً منه لجميل أسديته اليه ، وان في ميسوري ان احتفظ به ، واني سوف اكون سعيداً في هذه الغرفة التي تقدمها الي ، واني لن اتدخل في شيء ، واني سوف اكون متوجهاً زاوية صغيرة ، وانه فيما تملك انت كوزيت ينبغي ان تراودني فكرة البقاء معهما في البيت نفسه . وعندئذ كان خليقـاً بكل

مريء ان ينعم بنصيبي الحق من السعادة . كان الاستمرار في انتقال  
شخصية فوشلوفان جديراً بأن يسوى كل شيء . اجل ، ما عدا روحه .  
كان ثمة بهجة تحيط بي من كل جانب ، ولكن اعماق نفسي كانت لا  
ترزال سوداء . ليس يكفي المرء ان يكون سعيداً ، إن علينا ان نكون  
راضين عن أنفسنا . ولو اني بقيت مسيو فوشلوفان اذن لكت اخفي  
وجهي الحقيقي ؛ اذن لكت ، في حضرة جذلكم ، احمل لغزاً ؛  
اذن لكت ظلمة في وضح نهاركم ؛ اذن لكت ادخلت سجن الاشغال  
الشاقة إلى متراككم من غير أن أطلق كلمة التحذير في صراحة ؛ اذن  
لجلست إلى مائدةكم وأنا افكر بانكم لو عرفتم من أنا لطردتووني من  
هنا ؛ اذن لاجزت لنفسي ان يقدم الي الطعام خدم لو عرفوا لقالوا :  
يا للهول ! ، اذن لكت لمستك بعرقني الذي يحق لك ان تشمئز منه ؛  
اذن لكت اختلس جُمع كفك ! لو فعلت ، اذن لكان في متراككم  
قسمة للاحترام بين شعر أبيض جليل ، وشعر أبيض يلفّه العار . وفي  
لحظاتكم الاكثر حميمية ، حين تحسب قلوبكم كلها ان بعضها منفتح  
لبعضها الآخر حتى الاعماق ، وحين تكون اربعتنا معاً ، جدك ، وانتها  
الاثنان ، وأنا ، فعندئذ يكون ثمة رجل غريب مجهول . لو فعلت ،  
اذن لكت جنباً إلى جنب معكم في وجودكم وليس لي غير هم واحد هو أن  
لا أزيح غطاء بثري الفظيعة ابداً . وهكذا اكون أنا ، انا الرجل الميت ،  
قد فرضت نفسي عليكم ، انتم الاحياء . وعندئذ اكون قد قسرتها على  
الارتباط بي إلى الأبد . وعندئذ تصبح انت ، وكوزيت ، وأنا ثلاثة  
رؤوس في قلنسوة خضراء ! ألا ترتعد ؟ أنا لست الآن إلا أكثر الناس  
بؤساً ، ولو احتفظت بشخصيتي المتحللة اذن لأصبحت أكثر الناس فطاعة .  
واذن لتعين علي ان ارتكب هذه الجريمة كل يوم ! واذن لتعين علي  
ان اكذب هذه الكذبة كل يوم ! واذن لتعين علي ان احمل وجه الليل  
هذا كل يوم ! واذن لكت قدمت اليكم نصيبي من عاري كل يوم !

كل يوم ! اليكم انتم ، يا أحبتي ، انتم ، يا اولادي ، انتم يا البريائي !  
الاحتفاظ بالسکينة هن ؟ الاعتصام بالصمت بسيط ؟ لا ، انه ليس هنأ  
ولا بسيطاً . إن ثمة صمتاً يكذب . ولو قد لجأت إلى الصمت اذن  
لتجرعت كذبي ، وخداعي . وخزيبي ، وجني ، وخيانتي ، وجريحي ،  
قطرة قطرة ، واذن لتعين علي ان ابصقها ، ثم انجرعها من جديد ،  
واذن لانتهي في منتصف الليل وبدأت من جديد عند الظهرة ، واذن  
ل كانت تحبني التي أطلقها في الصباح كاذبة ، وتحبني التي اطلقها في المساء  
كاذبة ، واذن لكت انام عليها ، وآكلها مع خبزي ، واذن لنظرت  
إلى كوزيت في وجهها وأجبت عن ابتسامة الملائكة بابتسامة الملعون ، واذن  
لكت مداعجاً مردولاً ! ولم افعل ذلك ؟ لكي اكون سعيداً ! وهل  
لي ، أنا ، الحق في ان اكون سعيداً ؟ أنا خارج الحياة ،  
يا سيدى . »

وكفَّ جان فالجان عن الكلام . واصفعي ماريوس . مثل هذه السلسلة  
من الافكار والآلام النفسية المرحة لا يمكن ان تقطع . وخفض جان  
فالجان صوته من جديد ، ولكنه لم يعد ذلك الصوت الغائر ، لقد أمسى  
صوتاً مشوشاً :

— « أنت تسأل لماذا أتكلم . أنت تقول ان احداً لم يش بي ،  
وانني لست مطارداً ولا متقبلاً . أجل ! لقد وُشي بي ! أجل ! أنا  
مطارد ! أجل ! أنا متعقب ! من ؟ من نفسي . اني انا نفسي الذي  
اوصد الطريق في وجه نفسي ، وانا اجرِّ نفسي ، وانا أدفع نفسي ،  
وانا اوقف نفسي ، وانا أعدم نفسي . وحين يكون قياد المرء في يده  
هو يكون قياده ذاك في يد أمينة . »

وأنسل بسترته هو بيده المطبقة في إحكام وقال وهو يسحبها نحو  
ماريوس :

— « انظر إلى هذه اليدين الآن . ألا ترى أنها تمسك برقة هذه

السترة على نحو لا سيل إلى الافتلال معه ؟ حسن ، ان الضمير لا يعلو  
ان يكون قبضة يد أخرى ! إذا أردنا ان تكون سعاداء ، يا سيدى ،  
فينبني أن لا تفهم الواجب ابداً ، إذ ما إن تفهمه حتى يمسي حقوداً .  
وقد نستطيع القول انه يعاقبك لفهمك اياه . ولكن لا ، انه يكافئك على  
هذا ، ذلك بأنه يضعلك في جحيم تستشعر فيه ان الله إلى جانبك . وما  
إن يتمزق فوادك حتى يعقد الصلح بينك وبين ذاتك . .

وفي توكييد مرير آضاف :

— « مسيو بونيرسي ، هذا ليس منطقاً عacula ، ولكنني رجل مستقيم.  
لاني بتحقيري لنفسي في عينيك أرفع من قدرها في عيني . ولقد حدث  
لي ذلك مرة من قبل ، ولكنه كان أقل إيلاماً ، آنذاك ؛ انه لم يكن  
 شيئاً . أجل ، رجل مستقيم . وما كنت لأكون رجلاً مستقيماً لو أقمت  
بسبب من خطأي ، على احترامي . اما الآن ، وقد أصبحت تختبرني ،  
فاني رجل مستقيم . لقد كتب عليَّ هذا القدر : لما كنت عاجزاً إلى  
الابد عن الفوز بأكثر من الاحترام المسروق فإن ذلك الاحترام يذلني  
ويرهقني باطنياً ؛ ولكي احترم نفسى يتبعنى على ان اكون موضع  
الازدراء . ثم لاني تصدرت . انا عبد رقيق من ارقاء الاشغال الشاقة  
يطبع ضميره . لاني اعرف جيداً ان هذا بعيد الاحتمال . ولكن ما  
الذى تريدى ان افعله ؟ إن الامر كذلك . لقد اخذت عهوداً على نفسى ،  
وانى لأنى بها . إن ثمة احداثاً تعييناً ، إن ثمة مصادفات تؤودنا إلى  
واجبات . اترى ، يا مسيو ماريوس ، لقد وقعت لي في حياتى  
أحداث . »

وتمهل جان فالجان كردة أخرى ، بالعما ريقه في عسر ، وكأنما كانت  
لكلماته خلقة مريرة ، ثم استأنف الكلام :

— « حين يكون المرء مثلاً بمثل هذا الهول فليس يملك الحق في ان  
يحمل الآخرين بشاركته إياته من غير علمهم ؛ ليس له الحق في ان

يعدiem بطاعونه ؛ ليس له الحق في ان يجعلهم يتزلقون إلى هاويةه من غير ان يخدرهم منها ؛ ليس له الحق في ان يترك قلنسوته الحمراء تنسحب فوق رؤوسهم ؛ ليس له الحق في ان يزعج سعادة الآخرين ، على نحو همراه ، بشقائه هو . ان اقربائك من المسلمين ومسك ايامهم ، في الظلام ، بقرحتك اللامنظورة شيء رهيب . لقد أغارني فوشلوغان اسمه عيناً دأنا لم يكن لي الحق في ان أفيده منه . كان في استطاعته ان يعطيي اياه ، ولكن لم يكن في استطاعتي ان آخذه . ان الاسم هو الأنا . اجل ، يا سيدى ، لقد فكرت بعض الشيء ، ولقد طالعت بعض الشيء ، على الرغم من اني فلاح ، وانت ترى اني اعبر عن نفسي على نحو مقبول : أنا اكون فكريتني الخاصة عن الاشياء . ولقد زودت نفسي بثقافة خاصة بي . اجل ، إن اختلاس اسم ما والاختباء تحته عمل غير شريف . إن احرف الابجدية يمكن ان تسرق مثل حافظة نقود أو ساعة سواه بسواء . أن تكون اعضاء مزوراً بالحم ودم ، أن تكون مفتاحاً مقلداً حياً ، أن تدخل إلى بيوت الشرفاء من الناس بتزوير أقفالم ، أن لا تنظر بعد اليوم البتة ، بل ان تنظر بحول ، ان تكون شيئاً في قراره نفسك ، لا ! لا ! لا ! من الافضل ان تتألم ، أن تدمى ، ان تبكي ، أن تترع الجلد بالاظافر عن اللحم ، ان تسخن اليالي بالتلوي ألا ، بالوجع النفسي المرير ، أن تبلى جسداً وروحاً . هذا هو السبب الذي حملني على ان اجيء واخبرك بهذا كله . اني افعل ذلك بمجرد طوعي واختياري ، كما تقول . »

وتنفس في صعوبة ، وقدف هذه الكلمة الاخيرة :

— « لكي اعيش ، سرت ذات يوم رغيفاً . واليوم ، لكي اعيش ، لا اريد ان اسرق اسماً . »

فقطاعده ماريوبس :

— « لكي تعيش ! انت في غير ما حاجة إلى ذلك الاسم لكي

تعيش !

فأجابه جان فالجان وهو يرفع رأسه وبخضه عدة مرات على العاقب :

— « آه ، لقد فهمت . .

وران السكوت . لقد اعتصم كل منها بالصمت ، لقد غرق كل منها في هاوية من الأفكار . وكان ماريوس قدجلس إلى جانب احدى الطاولات ، وكان يسند زاوية فمه على احدى أصابعه الملوية . وكان جان فالجان يذرع الحجرة جيئة وذهوباً . ثم انه وقف أمام احدى المراتيب وظل جامداً من غير حراك . وانهراً قال ، ناظراً إلى تلك المرأة التي لم ير فيها نفسه ، وكأنما كان يجرب عن حجة باطنية :

— « على حين أنني ، في الوقت الحاضر ، استشعر الراحة والعزاء . .

واستأنف سيره ، ومضى إلى الطرف الآخر من حجرة الاستقبال . ولم يكدر يستدير حتى لمح ان ماريوس كان يرتاب سيره . وقال له في نبرة لا سبيل إلى التعبير عنها :

— «انا اجر احدى قدمي بعض الشيء . انت تعرف سبب ذلك الآن . »

ثم استدار نحو ماريوس :

— « والآن ، يا سيدي ، تصور هذا : أنني لم أقل شيئاً ، أنني ظلت مسيو فوشوفان ، أنني أخذت مكانى في بينكم ، انى واحد منكم ، انى في غرفتي ، انى أجيء لتناول طعام الصباح في مبادلي ، اتنا نذهب ثلاثة عند هبوط الليل إلى المسرح ، انى اصحاب السيدة بونيرسي إلى التويلري وإلى القصر الملكي ، وانا كلنا معًا ، وانكم تحسبونني نظيراً لكم . وفيما اكون ذات يوم هناك ، وفيما تكونون انتم هناك ، وفيما نحن نتحدث ، وفيما نحن نضحك ، تسمعون صوتاً يصبح

بهذا الاسم : جان فالجان ! وترون تلك اليد الرهيبة ، البوليس ، تنبثق من الظلام وتترع القطاع فجأة عن وجهي ! » وكف عن الكلام كرها اخرى . كان ماريوس قد نهض في رعدة واستأنف جان فالجان حدثه :

— « ما قولك ؟ »

وكان صمت ماريوس جواباً .

وأضاف جان فالجان :

— « أنت ترى جيداً أني على حق في عدم الاعتصام بالصمت . امض ، كن سعيداً ، كن في الفردوس ، كن ملاكاً ملائكة ، كن معموراً باشعة الشمس ، وكن راضياً بذلك ، ولا تزعج نفسك بالطريقة التي يصطفعها رجل هالك مسكون لكي يفتح صدره ويؤدي واجبه . ان أمامك رجل باشاً ، يا سيدي . »

وعبر ماريوس حجرة الاستقبال في توءدة ، حتى إذا أمسى على مقربة من جان فالجان بسط يده له .

ولكن كان على ماريوس ان يأخذ تلك اليد التي لم تعرض نفسها ؛ إن جان فالجان لم يمانع ، ولقد بدا ماريوس انه يصافح يداً من رخام .

وقال ماريوس :

— « ان لجدي اصدقاء . ولوسوف احصل لك على العفو . »

فأجاب جان فالجان :

— « لافائدة . إنهم يحسبونني ميتاً ، وهذا كاف . الأموات غير خاضعين للمراقبة . إن من المفترض ان تصيبهم العفونة في سكينة . الموت صنو العفو . »

وسحب يده من يد ماريوس المتشبطة بها ، وأضاف في ضرب من الوقار الذي لا يعرف الرحمة :

— « وإلى هذا فإن قيامي بواجبتي هو الصديق الذي افرع اليه . وأنا

في غير ما حاجة إلا إلى عفو واحد ، هو عفو ضميري . . .  
وفي تلك اللحظة بالذات فُتح الباب في رفق عند الطرف الآخر من  
حجرة الاستقبال ، وأطل رأس كوزيت . إنها لم يرها غير وجهها العذر ؛  
كان شعرها أشعث على نحو فاتن ، وكانت عيناهما مترافقان متورمتين بالرقاد .  
وأطلقت حركة اشبه بحركة طائر يخرج رأسه من عشه ، ونظرت أولاً إلى  
زوجها ، ثم إلى جان فالجان ، ومخاطبتهما ضاحكة ، حتى لقد كان  
خليقاً بالمرء ان يحسب انه يرى ابتسامة في اعماق وردة :  
— « أنا اراهن انكم تحلبون في السياسة . يا للحِمَّة ! بدلاً من ان

تكونوا معي ! »

وارتعد جان فالجان .

وتلجلج ماريوس :

— « كوزيت ! »

ثم سكت . ولو قد رآها امرؤ لحسب أنها مجرمان .  
وواصلت كوزيت ، متألفة ، النظر إليها جميعاً . كان مرح الجنة  
في عينيها :  
وقالت :

— « لقد قبضت عليكما متلبسين بالجريمة المشهود . لقد سمعت اللحظة  
من خلال الباب ، أبي فوشوفان يقول : « الضمير ... أداء الواجب ... »  
هذه سياسة ، هذه . أنا لا اريدها ، ما كان ينبغي لكما ان تتحدثا في  
السياسة في مثل هذا اليوم . هذا شيء لا يجوز . »  
فأجاب ماريوس :

— « انت مخطئة ، يا كوزيت . نحن نتحدث في التجارة . انت  
تتدارس افضل الطرق لتوظيف فرنكاتك المستمثرة الف .... »  
فقطاعته كوزيت :

— « هذا ليس كل شيء . أنا آتية . هل ترغبان في وجودي هنا ؟ »

واجتازت الباب في عزم ، ودخلت إلى حجرة الاستقبال : كانت ترتدي ثوباً صباحاً أياض فضفاضاً ، ذا ألف ثنية ، وذا ردين عريضين ، ثوباً يبتدئ من العنق ويحيط حتى القدمين . إن في السعادات الذهبية التي نعم عليها في اللوحات القوطية القديمة مثل هذه الاثواب الفاتنة يرتديها الملائكة .

ورأت نفسها من قمة الرأس إلى أخمص القدمين في مرآة ضخمة ، ثم هتفت في تفجير نشوة روحية تمنتع على الوصف :

— « كان في غابر الزمان ملك وملكة : أوه ، ما أشد سعادتي ! »

قالت ذلك ، وحنت رأسها احتراماً لماريوس ولجان فالجان .

واضافت :

— « ها أنا ذا أستقر ، بالقرب منكما ، على كرسي ذي ذراعين . سوف نتناول طعام الفطور بعد نصف ساعة ، وعندئذ تقولان كل ما ترغبان في قوله . أنا اعرف جيداً ان الرجال يجب ان يتكلموا ، ولو سوف اكون عاقلة جداً . »

وامست ماريوس بذراعها وقال لها في حب :

— « نحن نتحدث في مسائل تجارية : »

فأجابت كوزيت :

— « بالنسبة ، لقد فتحت نافذتي فوجدت مجموعة كبيرة من *les pierrots* (عصافير الدوري أو الأقنعة) في الحديقة . عصافير أعني ، لا أقنعة . اليوم اربعاء الرماد ، ولكن ليس للطيور : »

— « اقول لك انا نتحدث في مسائل تجارية ؛ اذهبى ، يا حبيبي كوزيت ؛ دعينا لحظة . نحن نتحدث حول الارقام . إن ذلك سوف يتعملك . »

— « لقد لبستَ رباط عنق فاتنا ، هذا الصباح ، يا ماريوس . انت تحب الزينة كثيراً ، يا مولاي . ان ذلك لن يتعبني . »

- « اوَكَدْ لَكَ أَنَّهُ سُوفَ يَتَبَلَّكُ . . . »

- « لَا . لأنك أنت . أنا لن أفهمكما ، ولكنني سوف أصغي إلى الكلمات التي تقولها . إن اجتماعي بكمَا ، هنا ، هو كل ما أريده .

سوف أبقى معكمَا ، أجل سوف أبقى ! »

- « أنت كوزيت حبيبي ! مستحيل . »

- « مستحيل ! »

- « نعم . . . »

فأجابت كوزيت :

- « حسن جداً ، كنت جديرة بأن أقدم إليك الأخبار . كنت جديرة بأن أخبرك أن جدي لا يزال نائماً ، أن عمتك تشهد القdam ، أن الموقد في غرفة أبي فوشلو凡 يتسرّب منه الدخان ، ان نيكوليت قد استدعت منظف المداخن ، وان توسين ونيكوليت قد أخذتا تشاجران منذ اليوم ، وان نيكوليت تسخر من تاجلنج توسين . حسن ، إنك لن تعرف شيئاً . آه ، هذا مستحيل ؟ أنا بدوري - كما سترى - يا سيدى ، سوف أقول : هذا مستحيل . وعندئذ من الذي يقع في الشرك؟ أتوسل إليك ، يا حبيبي ماريوس ، دعني أبقى هنا معكمَا . »

- « أقسم لك أن علينا أن نبقى وحدنا . »

- « حسن ، وهل أنا شخص ما ؟ »

ولم ينطق جان فالجان بكلمة . والتفتت كوزيت إليه وقالت :

- « قبل كل شيء ، أريد منك ، يا أبي ، أن تجيء وتقبلي . ما الذي تفعله هنا هكذا صامتاً لا تنطق بكلمة ، بدلاً من أن تؤيدني ؟ من الذي أعطاني أباً مثل هذا ؟ أنت ترى فيوضوح اني تعيسة جداً في حياتي المتزلية . ان زوجي يضربني . تعال ، قلبني فسي الحال . »

وتقديم جان فالجان .

واستدارت كوزيت نحو ماريوبوس .

— « أما أنت ، يا سيدى ، فاني امد لسانى اليك . »

وقدمت جيئنها إلى جان فالجان .

وخطا جان فالجان في اتجاهها خطوة .

وارتدت كوزيت .

— « أبي ، انت شاحب الوجه : هل تؤمل ذراعك ؟ »

فقال جان فالجان :

— « لقد شفيت » .

— « هل أرقت الليلة البارحة ؟ »

— « لا . »

— « هل انت حزين ؟ »

— « لا . »

— « قبلني . اذا كنت في صحة جيدة ، اذا كنت قد نمت نوماً عبيقاً ، واذا كنت سعيداً فلن اعنتك . »

وقدمت له جيئنها كرة اخرى .

وقبّل جان فالجان ذلك الجبين الذي كان يطفو فوقه انسكامى صماوى .

— « ابتسم » .

وأطاع جان فالجان . كانت ابتسامة شبع .

— « والآن انتصر لي على زوجي . »

فقال ماريوبوس :

— « كوزيت ! ... »

— « اغضب ، يا أبي . قل له اني يجب ان ابقى . في استطاعتكما من غير شك أن تتحدى أمامي . وادن ، فازها تحسبان اني بلهاء جداً .

واذن ، فإنه لعجب جداً هذا الذي تقولانه ! تجارة ، وضع مال في  
مصرف ، هذه مسألة خطيرة . الرجال يتظاهرون بالتكلم لغير داع . اريد  
ان ابقى . أنا جميلة جداً هذا الصباح . أنظر الي ، يا ماريوس ! »  
وفي هزة كتفين فاتنة ، وفي إظهار للاستياء رائع إلى حد يكاد يمتنع  
على الوصف ، نظرت إلى ماريوس . فكان برقاً سري بين هذين الكاثرين .  
ولم يهمها ان يكون في الحجرة شخص آخر .

وقال ماريوس :

— « أحبك ! »

وقالت كوزيت :

— « أعبدك ! »

وارتى احدهما ، برغمـه ، بين ذراعي الآخر .

ثم ان كوزيت استأنفت كلامها ، معدلة احدى طبات ثوبها ، مطبلة  
شفتيها على نحو مظفر :

— « سوف أبقى .

فأجاب ماريوس ، في نبرة متسللة :

— « لا . لا . إن عندنا شيئاً ينبغي أن نعجزه .

— « ألا تزال تقول لا ؟ »

واصططع ماريوس نبرة وقوراً :

— « أوَّلَدْ لك ، يا كوزيت ، إن هذا مستحيل .

— « آه ، انت تتكلم بلهجة الرجال ، يا سيدي . حسن جداً ،  
سوف اذهب . وانت يا ابى ، انك لم تنتصر لي . سيدي الوالد ،  
سيدي الزوج ، انتما طاغيتان . سوف اشكوكما إلى جدي . إذا كنتما  
تحسبان أنني ساعود وأخوض معكم في شيء من الهراء تكونان مخطئين .  
أنا فخور . سوف انتظركم الآن . ولسوف تريان انكم انتما اللذان مستعبان  
بدوني . أنا ذاهبة ، حسن جداً . »

ومضت لسيلها .

وبعد ثانية فتح الباب من جديد ، واطل وجهها كرة اخرى من بين مصراعيه ، وصاحت قائلة لها :  
— « أنا غاضبة جداً . »

وأغلق الباب ثانية ، وعادت الظلمة .  
كانت الشبه بشعاع تائه اخترق الليل فجأة من غير ان يتوقعه احد :  
وتبثت ماريوس من ان الباب محكم الايصاد :  
وغمغم :

— « مسكينة كوزيت ! حين تعلم ... »  
وعند هذه الكلمات ارتعدت اوصال جان فالجان كلها . وسدد الى ماريوس عيناً مشدوهة .

— « كوزيت ! آه ، اجل ، هذا صحيح ، انت سوف تخبر كوزيت بهذا . قف ، أنا لم افكر في ذلك . ان لنا القوة على شيء ما و لكن ليست لنا القوة على شيء آخر . سيدى ،انا اتضاع اليك ، أنا اتوسل اليك ، يا سيدى ، ان تعاهدنى ياقدس ما عندك ان لا تعلمها بذلك .ليس يكفي ان تعرفه انت ؟ إن في استطاعتي ان اقول ذلك بطوعى من غير ان اكون مكرهاً عليه ، وان أعلنه على الكون ، على الناس جميعاً ، فليس في هذا ما يضرني . ولكن هي ، إنها لا تعرف ما ذلك ، ان ذلك خليق به ان يروعها . محكوم بالاشغال الشاقة ، ماذا ! سوف يتبعن عليك ان تشرح ذلك لها ، ان تقول لها : إنه رجل كان حبيساً في سجن الاشغال الشاقة . لقد رأت قافلة المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ذات يوم . اوه ، يا الله ! »

وارتمى في احد الكراسي ذوات النراعن ، وحجب وجهه بكلتا يديه . لم يكن في ميسور المرء ان يسمعه ، ولكن كان في ميسوره ان يرى ، من اهتزاز منكبيه ، انه كان يبكي . ان الدموع الصامتة دموع

ظفيعة .

إن دعوة اختناقًا في التحبيب . وامتدد به ضرب من التشنج ، وانقلب على ظهر الكرسي ذي الذراعين وكأنه كان يلتمس النفس ، تاركًا ذراعيه متسلبان ، ومجبراً ماريوس أن يرى وجهه مغسولاً بالعبرات . وسمعه ماريوس يغمغم في جرس خفيض إلى درجة بدا معها وكان صوته ينبعث من عمق لا قرار له : « أوه ، ليتني أموت ! »

قال ماريوس :

— « كن هادئاً ، سوف أحتفظ بسرك ولن أطلع عليه أحداً . »  
لعل ماريوس كان أقل انعطافاً مما كان ينبغي له ، ولكنه وجه نفسه خلال ساعة مضطراً إلى أن يروض ذاته على مواجهة رهيبة ، وقد رأى ، شيئاً فشيئاً ، رجالاً أشغالياً يوضع أمام عينيه فوق مسيو فوشلوغان . واستحوذت عليه شيئاً فشيئاً ، هذه الحقيقة المشوّمة ، وقد اندفع الموقف الطبيعية إلى أن يحدد الشقة التي اخذت تفصل ما بينه وبين هذا الرجل . واضاف ماريوس :

— « من المتعذر علي أن لا أقول لك كلمة عن الوديعة التي أعدتها في كثير من الأخلاص والأمانة . انه عمل من اعمال الصلاح . ومن العدل أن تقدم اليك مكافأة على ذلك . حدد المبلغ بنفسك بدفع اليك . لا تخشَ أن تحددك على نحو مرتفع جداً . »

فأجاب جان فالجان في رقة :

— « أنا اشكرك ، يا صيدي : »

وظل مستغرقاً في التفكير لحظة ، ثم رفع صوته :

— « لقد انتهى كل شيء تقريباً . بقيت مسألة واحدة ... »

— « مسافة؟ »

لكانما عرف جان فالجان ترددآ آخرآ . وتلمجع - ولا نقول قال -

في غير صوت ، بل ومن غير تنفس تقريباً :  
— « والآن ، وقد أصبحت تعرف ، هل تظن يا سيدى — وأنت  
صاحب الأمر — انه يتمنى علي ان لا أرى كوزيت كرة اخرى ؟ »  
فأجاب ماريوس في بروド :  
— « أعتقد ان هذا هو الأفضل . »  
وتمتم جان فالجان :  
— « أنا لن اراها بعد اليوم . »  
ومضى نحو الباب .

ووضع يده على قفاحة الباب ، وأذعن لسانه القفل ، وانفرج الباب  
بعض الشيء ، ففتحه جان فالجان حتى يكون في ميسوره اجتيازه ،  
ووقف لحظة من غير حراث ، ثم أوصى الباب ، والتفرست إلى  
ماريوس .

إنه لم يعد شاحب الوجه ، لقد غدا ازرق ضارباً إلى السواد . لم يبق  
نمة دموع في عينيه ، ولكن ضرب من اللهب الفاجع . كان صوته قد  
أنسى ، كرة اخرى ، هادئاً إلى حد غريب .  
وقال :

— « ولكن ، يا سيدى ، سوف أعود — إذا أجزت لي ذلك — لكي  
أراها . اوكلد لك أني حريص على هذا أشد الحرص . ولو لم اكن  
متشبثاً برونية كوزيت لما اقررت بالاعتراف الذي قمتُ به ، لو لم اكن  
متشبثاً بذلك لمضيت لسيلى : ولكن رغبتي في البقاء حيث تحيا كوزيت  
وفي الاستمرار في رؤيتها ، هي التي حملتني على ان اخبرك ، في الخلاص ،  
 بكل شيء . انت تتبع تفكيري ، اليis كذلك ؟ ان ذلك شيء يفسر  
نفسه بنفسه . انت ترى ؟ ، أنها كانت ، طوال تسعة سنوات مضت ،  
إلى جانبي ؛ لقد عشنا باديء الأمر في ذلك البيت العتيق القائم على  
الجادة ، ثم في الدير ، ثم قرب حدائق اللوكسمبورغ . وهناك رأيتها

انت للمرة الأولى . انت تذكر قبعتها الزرقاء المصنوعة من نسيج ذي وبر .  
ثم عشنا بعد ذلك في حي الانفالية حيث كان باب حديدي وحديقة .  
شارع بلوميه . لقد قطنت في فناء خلفي صغير حيث كنت اسمع عزفها  
على البيان . تلك كانت حياتي . اتنا لم تفرق البتة . ودام ذلك تسعة  
سنوات وبضعة اشهر . كنت مثل ايها ، وكانت هي ابني . انا لا ادرى  
ما اذا كنت تفهمني ، ايها السيد بونيرسي ، ولكن من العسير علي ان  
لا اراها البتة منذ اليوم ، ان لا اتحدث اليها بعد ، ان أحرم كل شيء  
بالكلية . وإذا لم تجد في ذلك سوءاً ، فسوف أجبي ، بين الفينة والفينية ،  
لأرى كوزيت . انا لن اكثُر من التردد عليكم . ولن اطيل المكث  
عندكم . قد تقول لاني ينبغي ان أستقبل في الحجرة الصغيرة السفلية .  
في الدور الاسفل . اني مستعد لأن ادخل من الباب الخلفي ، المخصص  
للخدم ، ولكن ذلك قد يثير الاستغراب . من الافضل ، في ما اعتقد ،  
ان ادخل من الباب العادي . صدقني ، يا سيدى ، انا ما زلت محتاجاً  
إلى ان ارى كوزيت . ان اراها نادراً إلى الحد الذي ترغبه فيه . ضع  
نفسك مكانى ؛ إنها كل ما أملك . وإلى هذا فان علينا ان نأخذ حذرنا .  
إذا انقطعت عن المجيء انقطاعاً كاملاً ، ترك ذلك اثراً سيئاً ، وخلائق  
به ان يُعتبر ظاهرة غريبة . ان ما استطيع ان أفعله ، مثلاً ، هو ان  
اجيء في المساء ، عند هبوط الليل .

فقال ماريوس :

— « انت سوف تأتي كل مساء . ولسوف تنتظرك كوزيت . »

فقال جان فالجان :

— « انت رجل كريم ، يا سيدى . »  
وانهى ماريوس لجان فالجان ، وقادت السعادة اليأس إلى الباب ،  
وافرق هذان الرجالان .

## الظلمات التي قد ينطوي عليها افشاء السر

كان ماريوس يستشعر قلقاً بالغاً .

لقد وجد ، الآن ، تفسيراً لتلك النفرة التي طالما احس بها نحو الرجل الذي رأه مع كوزيت . كان ثمة شيء لغزى غريب في هذا الشخص الذي سبق لغريزته ان حذرته منه . وكانت تلك الاحجية هي أبغض ضروب الغزى : سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . إن مسيو فوشوفان هذا كان هو الاشغالى جان فالجان .

إن وقوع المرء فجأة ، وهو في غمرة السعادة ، على مثل هذا السر ، اشبه باكتشاف عقرب في عش قماري .

هل فرض على سعادة ماريوس وكوزيت ، منذ اليوم ، ان تخضع لهذا الجوار ؟ أكان ذلك امراً واقعاً ؟ اكان قبول ذلك الرجل يشكل جزءاً من الزواج الذي تم ؟ لم يكن ثمة ما يُعمل ؟

هل تزوج ماريوس الرجل المحكوم عليه بالاشغال الشاقة أيضاً ؟  
فغير مُجدٌ ان تتوّج بالضياء وبالبهجة ، وغير مجد ان تنعم بالحظة الحياة الارجوانية الملوكية ، الحب السعيد . مثل هذه الصدمات تستطيع ان تُكره حتى كبير الملائكة في نشوته الروحية ، وحتى نصف الاله في مجده ، على الارتعد .

وكالذى يحصل دائماً في مثل تبادل الرأى هذا ، سأله ماريوس نفسه  
ليس ثمة تأنيب ينبغي ان يوجه اليه هو ؟ أكان يعوزه حسن التكهن ؟  
اكان يعوزه البصر ؟ هل أصابه الانشداد على نحو غير إرادى ؟ قليلاً ،

ربما . هل ولع - من غير ما احتياط كاف لالقاء الضوء على المناطق المجاورة - هذه المغامرة الغرامية التي انتهت إلى الزواج من كوزيت ؟ وقررـوهـكـنـاـ عـمـلـهـ هـذـهـ التـقـرـيرـاتـ المـعـاقـبـةـ التيـ تـخـذـهـاـ بـأـنـفـسـنـاـ فيـ مـاـ يـتـصـلـ بـأـنـفـسـنـاـ تـسـمـوـ بـنـاـ الـحـيـاةـ شـيـئـاـ بـعـدـ شـيـئـاـ قـرـرـ الجـانـبـ العـجـابـيـ منـ طـبـيـعـتـهـ ، بعضـ الطـبـائـعـ ، وـالـيـ تـبـسطـ فـيـ ذـرـوـةـ الـانـفـعـالـ وـالـأـلـمـ - حينـ تـغـيـرـ حـرـارـةـ الـرـوـحـ - وـتـجـاهـ الـأـنـسـانـ اـجـتـيـاحـاـ كـامـلاـ ، إـلـىـ حدـ يـحـيلـهـ إـلـىـ جـرـدـ وـعـيـ مـنـدـيـ بالـضـبابـ . ولـقـدـ اـشـرـفـاـ غـرـ مـرـةـ إـلـىـ هـذـاـ العـنـصـرـ المـمـيـزـ منـ عـنـاصـرـ شخصـيـةـ مـارـيوـسـ . لـقـدـ تـذـكـرـ أـنـهـ - فـيـ نـشـوـهـ جـبـهـ ، فـيـ شـارـعـ بـلـوـمـيـهـ ، خـلـالـ تـلـكـ الـاسـابـيعـ السـتـةـ أوـ السـبـعـةـ الـحـالـةـ - لمـ يـتـحدـثـ إـلـىـ كـوـزـيـتـ ، وـلـوـ مـجـرـدـ حـدـيـثـ ، عنـ مـأسـاـ بـيـتـ غـورـبـوـ الـقـبـرـ حيثـ اـعـتـصـمـ الـمـعـتـدـيـ عـلـيـهـ بـالـصـمـتـ ، عـلـىـ نـحـوـ غـرـبـ ، اـنـتـهـ الـصـرـاعـ ، وـلـادـ بـالـفـرـارـ فـيـ مـاـ بـعـدـ . كـيـفـ تـأـتـيـ لـهـ اـنـ لـاـ يـتـحدـثـ إـلـىـ كـوـزـيـتـ عـنـ ذـلـكـ ؟ وـمـعـ هـذـاـ ، فـقـدـ كـانـ ذـلـكـ غـرـيـباـ جـداـ ، وـرـهـيـباـ جـداـ . كـيـفـ تـأـتـيـ لـهـ اـنـ لـاـ يـذـكـرـ أـمـامـهـ اـسـمـ تـيـنـارـديـهـ وـاهـلـهـ ، وـلـوـ مـجـرـدـ ذـكـرـ ، وـبـخـاصـةـ فـيـ ذـلـكـ الـيـوـمـ الـذـيـ التـقـىـ فـيـهـ اـيـوـنـينـ ؟ لـقـدـ وـجـدـ الـآنـ عـسـراـ بـالـفـاـ فيـ اـنـ يـفـسـرـ لـفـسـهـ صـمـتـهـ السـابـقـ . وـمـعـ ذـلـكـ فـقـدـ وـجـدـ مـبـرـراـ لـهـ . لـقـدـ ذـكـرـ دـوـارـهـ ، وـثـلـهـ بـكـوـزـيـتـ ، وـقـدـ اـسـتـفـرـقـ الـحـبـ كـلـ شـيـءـ ، وـرـفـعـ كـلـ مـنـهـاـ الـآـخـرـ إـلـىـ هـقـامـ الـمـثـلـ الـاـعـلـىـ ، وـرـبـماـ اـيـضاـ - فـيـاـ يـمـتـجـدـ مـقـدـارـ الـعـقـلـ الـلـامـدـرـكـ بـهـذـهـ الـحـالـةـ الـعـنـيفـةـ الـفـاتـتـةـ مـنـ حـالـاتـ النـفـسـ - ذـلـكـ الـغـرـيـزةـ الـغـامـضـةـ الـكـلـيلـةـ الـتـيـ حـفـرـتـهـ إـلـىـ أـنـ يـخـبـيـ وـيـلـغـيـ فـيـ ذـاـكـرـتـهـ هـذـهـ الـمـسـأـلـةـ الرـهـيـةـ الـتـيـ كـانـ يـخـشـيـ اـنـ يـعـسـهـ ، وـالـتـيـ لـمـ يـشـأـ اـنـ يـلـعـبـ فـيـهاـ ايـ دورـ ، وـالـتـيـ تـمـلـصـ مـنـهـاـ ، وـالـتـيـ لـمـ يـكـنـ يـسـطـعـ اـنـ يـكـونـ فـيـهاـ لـاـ رـاوـيـةـ وـلـاـ شـاهـدـاـ مـنـ غـيرـ اـنـ يـكـونـ مـتـهـماـ . وـإـلـىـ هـذـاـ ، فـتـلـكـ الـاسـابـيعـ الـقـلـيلـةـ لـمـ تـكـنـ غـيرـ وـمـضـةـ ؛ لـمـ يـكـنـ لـدـيـهـاـ مجـالـ لـايـ شـيـءـ ، غـيرـ الـحـبـ . وـأـخـبـرـاـ ، إـذـاـ

ما وزن كل شيء ، وقلبه ، ودرسه ، ما النتائج التي كان يمكن ان تنشأ لو اخبر كوزيت بقصة كمين بيت غوربو العتيق وذكر امامها اسم تيارديه وأهله ؟ وحتى لو انه اكتشف ان جان فالجان محكوم عليه بالاشغال الشاقة ؛ أكان ذلك يغيره هو ، ماريوس ؟ اكان ذلك يغيرها هي ، كوزيت ؟ اكان يرتد على عقبيه ؟ اكان يعتري حبه لها ضعف او وهن ؟ اكان يتزدد في الزواج منها ؟ لا . واذن فليس ثمة ما يوجب الاسف ، وليس ثمة ما يواخذ نفسه عليه ؟ كان كل شيء حسناً . ان هناك ربا هولاك السكريين الذين ندعوهم العشاق . وهكذا فان ماريوس كان قد سلك ، في عهاد ، تلك الطريق التي كان خليقاً به ان يختارها لو قدر له ان يراها بوضوح . كان الحب قد عصب عينيه – ليقوده إلى أين ؟ إلى الجنة .

ولكن هذه الجنة كانت معقدة ، منذ اليوم ، بمصاحبة جحيمية . إن نفرة ماريوس السابقة من هذا الرجل ، من فوشلوفان هذا الذي أسمى جان فالجان ، غدت الآن مزوجة بالرعب . وفي رعبه – كما يتعين علينا ان نقول – كان شيء من الشفقة ، وكان شيء من الدهش أيضاً .

كان هذا السارق ، هذا السارق المحكوم عليه مرتبن بالاشغال الشاقة ، قد أعاد وديعة . وأية وديعة ؟ ستمائه الف فرنك . كان هو وحشه مطلعاً على سر تلك الوديعة . كان في امكانه ان يحتفظ بهذا المال كله ، ولكنه أسلمه كله .

ولى هذا ، فقد كان قد كشف القناع عن وضعه مختاراً . ان شيئاً لم يكن يكرهه على ان يفعل ذلك . واذا كان ثمة من يعرف هويته فهو مدين بهذه المعرفة اليه هو . لقد كان في ذلك الاعتراف شيء اكثـر من قبول الاذلال ، كان فيه قبول الخطر . فالقناع ، عند الرجل الصادر فيه حكم قضائي ، ليس قناعاً ؛ إنه ملـاذ . لقد تخلى عن ذلك الملاـذ .

والاسم الزائف أمن ؛ ولقد اطّرح هذا الاسم الزائف . لقد كان في استطاعته ، وهو الأشغالي ، ان يخفي نفسه إلى الابد في اسرة شريفة ؛ ولكنه قاوم هذا الاغراء . وبأي دافع ؟ بدافع من تردد الضمير . لقد شرح بنفسه هذه المسألة ببررة الحقيقة التي لا تقاوم . وباختصار ، فأياً ما كان جان جان فالجان هذا فقد كان له ضمير يقظ من غير شك . كان فيه اعادة اعتبار خفية مستهلكة ؛ والذي يلدو ، تبعاً لجميع المظاهر ، ان الضمير كان سيد هذا الرجل منذ زمن بعيد . ان مثل هذا الأفراط في العدالة والطيبة ليس من شيمة الطبائع الوضيعة . ويفظه الضمير لا تعدو ان تكون عظمة النفس .

كان جان فالجان مخلصاً . وهذا الاخلاص ، المرئي ، الملموس ، الذي لا يحتمل الشك ، الواضح حتى بالآلام التي انزلها به ، جعل البحث والتحقيق عديمي الجدوى ، وخلع الثقة على ما قاله هذا الرجل . وهذا عرف . ماريوس عكساً غريباً للأوضاع . ما الذي انبق من مسيو فوشلوفان ؟ الحذر . ما الذي تدفق من جان فالجان ؟ الثقة .

في هذه الميزانية الخفية التي وضعها ماريوس بكثير من الروية ، في ما يتصل بجان فالجان هذا ، ثبتت مما له ، وثبتت مما عليه ، وحاول ان يصل إلى موازنته . ولكن ذلك كله كان وકأنه وسط إعصار : إن ماريوس - وقد حاول ان يكون فكرة جلية عن هذا الرجل ، ولاحق جان فالجان ، إذا جاز التعبير ، في أعقاق تفكيره - قد ضيعه ثم وجده كرة اخرى في ضباب مشوؤم .

كان رد الوديعة في أمانة ، وكان الاعتراف التزيم الظاهر يرشحان بالخير . كانوا أشبه بانقشاع في سحابة . ولكن السحابة ما لبثت ان عادت سوداء من جديد .

وعلى الرغم من شدة الاختلاط في ذكريات ماريوس فان ظلاً منها عاوده .

ما كانت على وجه الضبط مغامرة مسكن جوندريت الحقير تلك ؟  
لماذا عمد ذلك الرجل ، لدن وصول الشرطة ، إلى الفرار بدلاً من ان  
يشكو أمره إلى رجال الأمن ؟ هنا وجد ماريوس الجواب . لأن هذا  
الرجل كان هارباً من وجه العدالة .

سؤال آخر : لماذا جاء هذا الرجل إلى المتراس ؟ ذلك ان ماريوس  
رأى الآن تلك الذكرى في وضوح ، بعد ان عاودت الظهور وسط  
هذه الانفعالات كالحبر العادم اللون أمام النار . لقد كان هذا الرجل  
في المتراس . إنه لم يقاتل هناك . ما الذي جاء به اذن ؟ أمام هذا  
السؤال انتصب شبح ، وقدم جواباً . جافير . لقد تذكر ماريوس أحسن  
التذكر ، في هذه الساعة ، مشهد جان فالجان المأسوي وهو يقود جافير  
موثقاً إلى خارج المتراس ، وسمع من جديد دوي الغدارة المروع خاف  
زاوية زفاف مونديتور . لعله كان ثمة كراهية بين هذا الماجوس وهذا  
الاشغالي . كان أحدهما يعوق الآخر . كان جان فالجان قد قصد إلى  
المتراس لكي يثار لنفسه . وكان قد وصل متأخراً . ولعله كان يعرف ان  
جافير كان اسيراً هناك . كانت نزعة الثأر الكورسيكي \* قد تسربت إلى  
بعض الاعماق السفل ، وغدت قانوناً لها . وهي نزعة طبيعية جداً بحيث  
لا تثير دهش التفوس نصف المرتد نحو الخير . وهذه القلوب قد  
ركبت على نحو قد يجعل المجرم ، الآخذ سبيله إلى التوبة ، متتفقاً عن  
اللصوصية ، ولكنه غير متغفف عن الثأر . كان جان فالجان قد قتل  
جافير . هذا ، على الأقل ، ما بدا واضحاً .

واخيراً ، سؤال ختامي ، ولكن لم يكن ثمة جواب عن هذا السؤال .  
لقد احس ماريوس بهذا السؤال وكأنه كُلابة . كيف اتفق لوجود جان  
فالجان ان لازم كوزيت هذه الفترة الطويلة كلها ؟ اي قدر غامض من

\* حالة من المداورة يتسع نطاقها في كورسيكا حتى تشمل جميع افراد الأسرة اثر  
عنوان او قتل يتعرض له احد المنتسبين الى تلك الاسرة . ( Vendette corse )

من اقدار العناية الالهية وضع هذه الطفلة على اتصال مستمر بهذه  
الرجل ؟ هل السلاسل المزدوجة القارنة تُطْرِقَ اذن في الأعلى أيضاً ،  
وهل يرضى رب ان يجمع ما بين الملائكة والشيطان ؟ هل في استطاعة  
الجريمة والبراءة اذن أن تعيش تحت سقف واحد في سجن الشقاء الخفي ؟  
وفي مضيق الْبُمَدَانِين هذا ، الذي ندعوه القدر البشري ، هل يستطيع  
جيتنان ان يتقاربا حتى التماس ، وأحدهما ساذج والآخر رهيب ،  
وأحدهما مندى بياض الضحى الالهي والآخر شاحب إلى الابد بوهج  
برق ازلي ؟ من الذي استطاع ان يقرر هذا الاقتران الذي لا تفسير له ؟  
بأي طريقة ، ومن خلال اية اعجوبة أقيمت وحدة الحياة بين هذه الطفلة  
السماوية وهذا البائس العجوز ؟ من الذي تمكّن من ان يشد الحبل إلى  
الذئب وان يشد الذئب - وهو شيء اشد امتناعاً على التفسير - إلى  
الحمل ؟ ذلك ان الذئب احب الحمل ، ذلك ان الكائن الضاري قدّس  
الكائن الضعيف ، ذلك ان الملائكة كان - طوال تسع سنوات - يتخذ  
من الهولة ساداً . كانت طفولة كوزيت وصباها ، ورؤيتها النور ، ونموها  
البتوبي نحو الحياة والضياء مصونة بهذا التفاني الشائي الرهيب . هنا  
تفشرت الاسئلة - إذا جاز التعبير - عن احاجي لا حصر لها ، وانفتحت  
الهُوَى في اعماق الهُوَى ، ولم يعد في ميسور ماريوس ان يعني فوق  
جان فالجان من غير ان يصييه الدوار . فأي شيء ، اذن ، كان هذا  
الرجل الهوة ؟

إن رموز سفر التكوين القديمة سرمدية . ففي المجتمع البشري ، كما  
هو اليوم وكما سيكون ، حتى ذلك اليوم الذي سوف يغرس فيه ضياء  
اعظم ، يوجد دائماً رجالان ، أحددهما فوق ، والآخر تحت . فاما الذي  
يتبع الخير فهو هايل ، واما الذي يتبع الشر فهو قاين . من كان هذا  
اللص المستغرق على نحو تقواي في حب فتاة عذراء ، والشهر عليها ،  
وتنشئها ، وحمياتها ، وتبجيلها ، واحتاطتها - وهو غير الطاهر -

بالطهر ؟ من كان هذا البالوعة الذي أَجْلَ هذه البراءة إلى حد جعلها خلواً من أية شائبة ؟ من كان جان فالجان هذا المشرف على تشريف كوزيت ؟ من كانت شخصية الظلام هذه التي لم يكن لها من هم غير ان تقي ، من كل ظلمة وكل سحاب ، طلوع كوكب من الكواكب ؟ ههنا كان سر جان فالجان ، وهنها أيضاً كان سر الله .

وأمام هذا السر المزدوج ، ارتدى ماريوس . إن أحدهما طمانه ، بطريقة ما ، في ما يتصل بالآخر . كان الله منظوراً في هذه المغامرة بقدر ما كان جان فالجان منظوراً . إن الله أدواته . وهو يصطنع الأداة التي تروق له . إنه غير مسؤول تجاه الإنسان . هل نعرف اساليب الله ؟ كان جان فالجان قد وقف جهوده على كوزيت . كان قد شكّل ، إلى حد ما ، تلك النفس . هذا شيء لم يكن محتمل الجدل . ولكن ، ثم مَاذا ؟ كان الصانع رهباً ، ولكن الأثر كان رائعاً . إن الله يجترح معجزاته على التحو الذي يبدو له صالحاً . كان قد أنشأ كوزيت الفتنة هذه ، وكان قد اصطنع جان فالجان في ذلك . لقد سره ان يصطفى هنا المعاون الغريب . اي حساب نستطيع ان نطلب منه ؟ أهي المرة الأولى التي نرى فيها المزللة تساعد الريع على تكوبين الوردة ؟

وقدم ماريوس هذه الأجوبة إلى نفسه ، وتبيّن له أنها صالحة . وفي جميع النقاط التي اشرنا إليها اللحظة لم يجرؤ على ان يلتجئ على جان فالجان في السؤال ، من غير أن يعترف لنفسه بأنه لا يجرؤ . كان يعبد كوزيت ، وكان عمله كوزيت . وكانت كوزيت ظاهرة على نحو رائع . وكان ذلك حسْبَهُ . فلَمْ أي تفسير كان يحتاج ؟ كانت كوزيت ضياء . وهل يحتاج الضياء إلى شرح ؟ كان يملك كل شيء ، ففي اي شيء يطمع بعد ؟ ليس يكفيه هذا الكل ؟ إن شؤون جان فالجان الشخصية لم تكن تعنيه . وفي اختيائه فوق ظل هذا الرجل المشووم ، كان يتثبت

بهذا الاعلان المهيب الذي أطلقه ذلك المخلوق البائس : « أنا لا أمت إلى كوزيت بنسب . منذ عشر سنوات ، لم أكن اعرف بوجودها . »

كان جان فالجان عابر سبيل . لقد قال هو نفسه ذلك . حسن ، ولقد كان يمضي لسبيله . فاياً ما كان هذا الرجل ، فان دوره قد انتهى . لقد كان على ماريوس ان ينهض ، منذ اليوم ، باعباء العناية الالاهية نحو كوزيت . وكانت كوزيت قد أقبلت لتجد في اللازورد ، كرة اخرى ، نظيرها ، وحبيها ، وزوجها ، ورجلها السماوي . لقد تركت كوزيت ، وقد طارت مجنةً متسامية ، يفعتها \* ، جان فالجان ، فارغةً رهيبة على الارض .

وفي إيمان حلقة من الأفكار دار ماريوس ، كان يرتد منها دائمًا وفي نفسه ذعر ما ، من جان فالجان . ولعل ذلك الذعر كان ذعراً مقدساً إذ كان يستشعر كما قلنا منذ لحظة « شيئاً مقدساً» *quid divinum* في هذا الرجل . ولكنه منها عمل ، ومهمها التمس من تلطيف ، كان مضطراً دائمًا إلى الواقع على هذا : لقد كان اشتغالياً محكوماً عليه بالسجن ، يعني ذلك المخلوق الذي ليس له في السلم الاجتماعية ، مكان مما يحيي المحكوم عليه بالأشغال الشاقة . إن الاشتغال لم يعد ، إذا جاز التعبير ، نظير الاحياء . لقد حرمه القانون كل ذلك القدر من الانسانية الذي يستطيع نزعه من إنسان ما . ففي المسائل الجزائية ، كان ماريوس - على الرغم من نزعته الديموقратية - لا يزال متسبباً بالنظام الذي لا يعرف الرحمة ، وكان يحمل في ما يتصل باولئك الذين يضر بهم القانون افكاراً القانون كلها . إنه لم يكن قد اعتنق بعد - ولنقل ذلك - جميع الفكريات

\* اليقمة Chrysalis أو Chrysalide هي المادرة pupa أو القشرة العصبية التي تخلف المنشأة قبل أن تصبح فراشة.

القدمية . لم يكن قد انتهى بعد إلى التمييز بين ما كتبه الإنسان وما كتبه الله ، بين القانون والحق . إنه لم يدرس ولم يزن فقط ذلك الحق الذي ينتحله الإنسان للتخلص مما لا يُردّ و مما لا سبيل إلى التعويض عنه . إنه لم يثر على كلمة الانتقام . كان يرى طبيعياً أن تُتبع بعض المخالفات للقانون المكتوب بعقوبات سرمدية ، ولقد اعتبر الملاك الابدي الاجتماعي طريقة من طرائق الحضارة . كان لا يزال عند تلك النقطة ، وكان لا بد له من أن يتقدم في ما بعد ، بحكم طبيعته الخيرة ، المكونة في أعمق اعماقهها من تقدم كامن .

من وسط هذه الفكريات بُرِزَ له جان فالجَان شائهاً مقيتاً . كان المبوزَ . كان المحكومَ عليه بالأشغال الشاقة . كانت هذه الكلمة أشبة عنده بأخر نفحة في صُورَ يوم الحساب . وبعد أن تأمل في جان فالجَان فترة طويلة انتهى إلى أن يشيح بوجهه عنه *Vade retro* .

وينبغي أن نذكر بل إن نلح في التذكرة أن ماريوس - على الرغم من استجوابه جان فالجَان إلى حد جعل جان فالجَان يقول له : أنت تطلب مني اعترافاً - لم يكن قد وجه إليه سؤالين حاسمين أو ثلاثة استلة حاسمة . وليس ذلك لأن هذه الاستلة لم تمثل في ذهنه ، ولكن لأنه كان خائفاً منها . مسكن جوندريلت الخفير ؟ المتراس ؟ جافير ؟ ومن يدري أين يمكن للأسرار المحتوكة السر أن تقف ؟ إن جان فالجَان لم يكن ، في ما يبدو ، ذلك الرجل الذي يعرف الانكفاء . ومن يدري ، فقد يرحب ماريوس في كبح جان فالجَان بعد أن يكون هو قد أخلف عليه في السؤال ؟ ألم يتافق لنا جميعاً ، في بعض الظروف ، أن وضعنا أصابعنا في آذانا - بعد أن طرحنا سؤالاً ما - خشية أن نسمع الجواب ؟ وهذا الجن يستحوذ علينا ، وخاصة ، حين نعشق . فليس من الحصافة أن نغالي في السؤال عن الحالات المشوّمة ، وعلى الخصوص حين يكون ذلك الجزء اللامنحل من حياتنا نحن مترجاً بها امتراجاً محظوماً . إن بعض

الضوء الرهيب قد ينبعق من شروح جان فالجان اليائسة ، ولكن من الذي يضمن له ان لا ينعكس هذا النور المخيف على كوزيت نفسها ؟ ومن يكفل له ان لا يبقى ضرب من الوهج الجحيمي على جبين ذلك الملائكة ؟ ان رشاش البرق ليس خلواً من الرعد . فللأقدار مثل هذا التكافل ، حيث تتطبع البراءة نفسها بالجريمة بحكم القانون الكالح الخاص بالانعكاسات الملوّنة . ان أطهر الوجوه قد تخفظ إلى الأبد بانعكاسات جوار رهيب . كان ماريوس خائفًا ، سواء أكان في ذلك على خطأ أم على صواب . لقد انتهى إلى أن يعرف ، حتى الآن ، أكثر مما ينبغي . وكان يتلمس التعمية على نفسه أكثر مما يتلمس تنويرها . لقد حمل كوزيت ، في وله ، بين ذراعيه ، مغمضًا عينيه عن جان فالجان . كان ذلك الرجل من الليل ، من الليل الحي الفظيع . كيف يجرؤ على سبره حتى الفعر ؟ إن استجواب الظلمة لرهيب . فمن يدرى ما الجواب الذي تصدر عنه ؟ إن الفجر قد يسود من جرائه إلى الأبد .

في هذه الحال النفسية كان مما يقلق ماريوس إلى حد مرير ان يفكر في ان هذا الرجل سوف يكون له ، منذ اليوم ، اتصال مهما يكن بكوزيت . وهذه الاستلة المروعة ، التي سبق له ان ارتد أمامها ، والتي كان من العجائز ان ينبعق منها قرار حاسم حقوقد ، اخذ الآن يعصف نفسه ، أو يكاد ، لعدم طرحه اياها . لقد حسب نفسه طيًّا أكثر مما ينبغي ، ليناً أكثر مما ينبغي ، ضعيفًا – ولنقل اخيرًا الكلمة – أكثر مما ينبغي . هذا الضعف كان قد قاده إلى تسليم غير حصيف . لقد اجاز لنفسه بأن تتأثر . ولقد اخطأ في ذلك . كان عليه ان ينبعد جان فالجان في بساطة . كان جان فالجان أشبه شيء بذلك المتاع الذي يترك للحريق إنقاذاً للباقي ، ولقد كان عليه ان يخلص البيت من هذا الرجل . واغتناظ من نفسه . اغتناظ من عنف ذلك الاعصار الانفعالي الذي أصمه ، وأعراه ،

وقاده . كان ناقماً على نفسه .

ما الذي يجب ان يصنع الآن ؟ كانت زياتات جان فالجان بغية منه  
اليه . اي فائدة لذلك الرجل في هذا البيت ؟ اي شيء ينبغي له ان يفعله ؟  
وتشغل عن ذلك ؛ انه لم يكن راغباً في التقبيل ، لم يكن راغباً في ان  
يذهب إلى أعمق . كان قد وعد ، كان قد أجاز لنفسه ان يساق إلى  
اعطاء وعد . لقد فاز جان فالجان بوعده منه . وحتى مع محاكمه عليه  
بالاشغال الشاقة ، بل مع المحكوم عليه بالاشغال الشاقة على وجه خاص ،  
يتعين على المرء ان يفي بالوعد . ومع ذلك ، فقد كانت كوزيت هي  
واجبه الأول . وعلى الجملة ، فقد استبد به تفزز غلب على كل  
شيء آخر .

وقلب ماريوس كل هذه المجموعة من الفكريات في ذهنه تقليباً  
مشوشًا ، منتقلًا من واحدة إلى أخرى ، مُثاراً بها جميعاً . ومن هنا  
ذلك الاضطراب العميق . ولم يكن يسيرًا عليه ان يخفي ذلك الاضطراب  
عن كوزيت ، ولكن الحب موهبة ، ولقد وفق ماريوس إلى ذلك .

إلى هذا فقد طرح ، من غير ما هدف واضح ، بعض الأسئلة على  
كوزيت ، التي كانت سليمة الطوبية بقدر ما تكون الحبامة بيضاء ، فلم  
ترتب في شيء . لقد تحدث معها عن طفولتها وعن صباها ، واقنع  
نفسه أكثر فأكثر بأن هذا الاشتغال وقف من كوزيت اطيب موقف  
يستطيع ان يقه انسان ، واكتئبه حفولا بالابوة والاجلال . كان كل  
ما رأاه ماريوس على نحو باهت وكل ما حدس به حقيقياً . كان ذلك  
القُرّاص الكالع قد أحب هذه الزينة وحشها .

## الكتاب الثامن

### شحوب و الغسق

١

#### الحجرة السفلية

وفي اليوم التالي ، عند هبوط الليل ، قرع جان فالجان باب العربات من منزل جيلنورمان . واستقبله باسلك . لقد اتفق ان كان باسلك في الفنان في الوقت المناسب ، وكأنما كان هناك نزولا عند أمر صادر اليه . فقد يتفق في بعض الاحيان ان يقول امرؤ لخادم : ترقب السيد الفلاني ، فاذا به يجيء .

ومن غير ان ينتظر وفود جان فالجان عليه ، خاطبه باسلك قائلا :  
— « لقد كلفني سيدى البارون ان اسأل السيد أيرغب في الصعود إلى

الدور الأعلى أم في البقاء تحت ؟ »

فأجابه جان فالجان :

ـ « سوف أبقى تحت . »

وفتح بأسلك ، الذي كان في ما عدا ذلك ناصحاً باحترام مطلق ،  
باب الحجرة السفلية ، وقال :  
ـ « سوف أخبر السيدة . »

كانت الغرفة التي ولجها جان فالجان حجرة تحتية رطبة ذات عقود ،  
وكانوا يتخذون منها سريراً عند الحاجة . كانت تطل على الشارع ، مفروشة  
ببلاط احمر ، ومضاءة على نحو قاتم بنافذة ذات شبّاكه حديدية .  
ولم تكن الحجرة من تلك الحجرات التي تُزرعَج كثيراً بالفرشة ،  
والمنضدة ، والملائكة . كان الغبار مستقرأ فيها . هناك لم يكن اضطهاد  
العناكب قد نُظمَ بعد . وكان يزين أحد الواح النافذة الزجاجية نسيج عنكبوت  
جميل ، منبسط انساطاً فسيحاً ، نسيج اسود فاحم مزدان بذباب ميت و  
وكانت الحجرة الصغيرة المنخفضة ، موئلاً بركام من الزجاجات الفارغة  
كدمست في احدى الزوايا . وكان الجدار قد طلي بطلاء بلون المقرة  
الصفراء كان قد اخذ يتقدّر صفائح صفائح . وفي اقصى الحجرة كان  
موقد خشبي ، دُهن باللون الاسود ، ذو رف ضيق . كانت النار قد  
أضرمت ، مما يدل على ان شخصاً ما ، كان قد توقع جواب جان فالجان :  
« سوف أبقى تحت . »

كان كرسياً من الكراسي ذات الأذرع قد وضعا عند زاويتي الموقد .  
وبين الكرسيين امتد ، بدلاً من السجادة ، بساط صغير من بُسط النوم ،  
بساط تكشف عن أمراس أكثر مما تكشف عن صوف .

كانت الحجرة مضاءة بالنار المصرمة في الموقد ، وبضوء الغسق المنبعث  
من النافذة .

وكان جان فالجان متعباً . إنه لم يعرف ، منذ بضعة أيام ، لا طعاماً

ولا رقاداً . وارتدى في واحد من الكرسيين ذوي الأذرع .  
ورجع باسكت ووضع شمعة مضاءة على الوقن ، وانسحب . ولم يلاحظ جان فالجان ، المنكس الرأس المستند الذقن إلى أعلى الصدر ، لا باسكت ولا الشمعة .

وفجأة تصدرَّ مغفلة . كانت كوزيت خلفه .  
إنه لم يرها تدخل ، ولكنه استشعر أنها دخلت .  
واستدار . وحدق إليها . كانت جميلة على نحو يغري بالعبادة .  
ولكنَّ ما تطلع إليه بتلك النظرة العميقة لم يكن جمالها ولكن روتها .

وهتفت كوزيت :

— « آه ، هي ذي فكرة ! أبي ، لقد كنت أعلم أنك غريب الأطوار ، ولكني لم اكن أتوقع قط شيئاً مثل هذا . لقد قال لي ماريوس أنك تريد مني أن استقبلك هنا . »

— « أجل ، أنا طلبت ذلك . »

— « لقد توقعت الجواب . حسن ، أنا أحذرك أني سوف أخاصلك . فلنبدأ من البداية . أبي ، قبلّي . »  
وقدمت إليه خدمها .

وظل جان فالجان جامداً لا يتحرك .

— « أنت لا تتحرك . أنا أرى ذلك . أنت سلك مسلك المتهمن . ولكن لا بأس ، أنا أصفح عنك . السيد المسيح قال : أدر خدك الآخر . ما هو ذا . . . »

وأدانت خدتها الثاني .

ولم يتحرك جان فالجان . لقد بدا وكأن قدميه كانتا مسرتين إلى أرض الغرفة .

قالت كوزيت :

- « الأمر أخذ يصبح جدياً . ما الذي فعلته لك ؟ أنا أعلن اني مرتبكة . يجب عليك ان تصالحي . سوف تتناول طعام العشاء معنا . »  
- « لقد تعشيت . »

- « هذا غير صحيح . سوف أطلب من مسيو جيلنورمان ان يوينك . الاجداد قد جعلوا لتوبيخ الآباء . تعال . اصعد معي إلى حجرة الاستقبال حالاً . »

- « مستحيل . »  
وهنا تراجعت كوزيت بعض الشيء . وكفت عن إصدار الأوامر وانقلت إلى توجيه الاسئلة .

- « ولكن لم لا ؟ وانت تختار أبغض غرفة في المنزل لكي تجتمع بي . ان هذا المكان رهيب . »

- « انت تعرفين ، يا سيدتي ، اني غريب الاطوار . إن لي اهواي الخاصة . »  
وشبكت كوزيت يديها الصغيرتين .

- « سيدتي ! انت تعرفين ! ها انت تعيد ذلك كرة اخرى . ما معنى هذا ؟ »

وسدد جان فالجان اليها تلك الابتسامة المحزنة التي كان يفرز اليها بعض الاحيان .

- « لقد اردت ان تكوني سيدة . وها انت كذلك . »

- « ليس بالنسبة اليك ، يا أبي ؟ »

- « لا تناذيني يا أبي ، بعد اليوم . »

- « ماذا ؟ »

- « ناديني مسيو جان او جان ، إذا شئت . »

- « انت لم تعد اببي ؟ أنا لم أعد كوزيت ؟ مسيو جان ؟ ما معنى هذا ؟ ولكن هذه ثورات ، هذه ! ما الذي حدث ؟ انظر اليّ في

وجهني قليلاً . وانت لن تس肯 معنا ! أنت لن تأخذ غرفتي ! ما الذي فعلته لك ؟ ما الذي فعلته لك ؟ هل نعم شيء اذن ؟ »

— « لا شيء . »

— « واؤذن ؟ »

— « كل شيء كالمعتاد . »

— « لماذا تغير اسمك ؟ »

— ولكنك انت غيرت اسمك أيضاً . »

وابتسم من جديد تلك الابتسامة نفسها ، وأضاف :

— « ما دمت السيدة بونميرسي ففي استطاعتي من غير شئ ان اكون مسيو جان . »

— « لست افهم شيئاً من ذلك . هذا هراء كله . سوف اطلب لك الاذن من زوجي لكي تكون مسيو جان . وآمل ان لا يوافق على ذلك . انت تسبب لي كثيراً من البلاء . قد تكون لك اهواوك الغريبة ، ولكن يتبعن عليك ان لا توقع الأسى في نفس حبيبك كوزيت . هذا خطأ . ليس لك الحق في أن تكون شريراً ، أنت المفعم بالطيبة : »  
ولم يجب بشيء .

وأنسكت بكلتا يديه في شدة ورفعتها ، في حركة لا تقاوم ، نحو وجهها ، وضغطتها على عنقها تحت ذقنها ، وتلك علامة عميقة من علامات المحنة والحنان .

وقالت له :

— « اوه ، كن كريماً ! »

ثم استأنفت كلامها :

— « هذا ما ادعوه الكرم : ان تكون لطيفاً ، ان تحب وتسكن هنا ، ونعاود القيام بنزهاتنا الخلوة الصغيرة ، فههنا يوجد طيور كثي في شارع بلومية ، وان تعيش معنا ، وترك ذلك المسكن الضيق الذي في

شارع الرجل المسلح ، وان لا تعطينا ألغازاً نحلها ، وان تكون مثل سائر الناس ، وان تتعشى معنا ، وتتناول طعام الصباح معنا ، وان تكون أبي . »  
واطلقت يديه .

— « انت لم تعودي في حاجة إلى أب . لقد أصبح لك زوج . »  
وثارت ثائرة كورزيت :

— « لم اعد في حاجة إلى أب ! الواقع ان المرء لا يعرف لماذا يحب عن هراء مثل هذا ! »  
وأجاب جان فالجان ، مثل رجل يبحث عن مستندات ويتعلق بكل قشة :

— « لو كانت توسين هنا اذن لكان أول من اعرف بأنه كانت لي دائماً مسالكى الغريبة . ليس في هذا شيء جديد . لقد كنت دائماً احب زاوية المظلمة . »

— « ولكن هذه الحجرة باردة . ان المرء لا يرى فيها بوضوح وانه من المستحسن أيضاً أن ترغب في أن تكون مسيو جان . أنا لا أريد ان تكلمني على هذا النحو . »  
فأجاب جان فالجان :

— « في هذه اللحظة ، وأنا قادم إلى هنا ، رأيت قطعة من أثاث في شارع سان لويس . عند أحد بخاري الابنوس . لو كنتُ امرأة جميلة لأهديتها نفسى هذه القطعة من الأثاث . تضليل تزيين رائع جداً ، على الزي الحالي . ما تسمونه خشب الورد ، في ما اظن . إنه مرصع . ومرأة ضخمة إلى حد بعيد . إن له دراجاً . إنه جميل . »  
فأجابت كورزيت :

— « أوه ، يا للدب البشع ! »  
وفي ظرافه فاتنة ، أطبقت بعض اسنانها على بعض وباعدت ما بين

شفتيها ، وتفتحت على جان فالجتان . كانت الآلة جمال تقلد هرة .

وقالت :

— « أنا حانقة . منذ البارحة وكلكم تبرون غضبي . كل امرئ منكم يغطيوني . أنا لا أفهم . انت لا تنتصر لي على ماريوس . وماريوس لا ينصرني عليك . لقد أصبحت وحيدة . ارتب حجرةً الطف ترتيب . ولو كان في استطاعتي ان اخضم الرب فيها ، لما أحجمتُ . ولكنك ترك غرفتي مهجورة . إن المستأجر عندي يفلسني . أنا أطلب من نقوليت تعدّ عشاء شهياً صغيراً ، ولكن احداً لا يريد عشاءك ، يا سيدتي . وابي فوشلوفان يرحب في أن أدعوه مسيو جان ، وان استقبله في سرّ رهيب ، عتيق ، بشغف ، عفن ، حيث للجدران لحية ، وحيث الزجاجات الفارغة تقوم مقام الكؤوس ، وأنسجة العنكبوت مقام السجف والستائر . أنت غريب الاطوار ، أنا اسلم بذلك ، وهذه هي طريقتك ، ولكن من الواجب ان تُمنع هذة ما إلى الناس حين يتزوجون . ما كان ينبغي لك ان ترجع إلى اطوارك الغريبة فجأة . واذن فسوف تكون راضياً كل الرضا في شارعك المقيت ذاك ، شارع الرجل المسلح . لقد كنت أنا يائسة جداً ، هناك . ماذا تنقم مني ؟ انك تسبب لي كثيراً من المتاعب . »

وغلب عليها الجد فجأة ، وسددت نظرها إلى جان فالجتان وأضافت:

— « واذن فأنت لا ت يريد سعادتي ؟ »

ان السذاجة تنفذ في بعض الاحيان ، على نحو غير واع ، إلى بعيد جداً . فهذا السؤال ، البسيط عند كوزيت ، كان قاسياً عند جان فالجتان . لقد ارادت كوزيت ان تخدش ، ولكنها مزقت .

وشجب وجه جان فالجتان . واعتتصم بالصمت لحظة ، ثم غغم مخاطباً نفسه في نبرة لا سبيل إلى وصفها :

— « لقد كانت سعادتها هي هدف حياتي . والآن ، قد يومي الله

الي بالانصراف . كوزيت ، انت سعيدة ، لقد انتهت مهمتي .

وهتفت :

— « آه ، لقد خاطبني بضمير المفرد ! »  
وواثبتت إلى عنقه .

وفي قوله ، ضمها جان فالجان إلى صدره ، ضمماً ممومماً . لقد  
تراءى له انه كاد يستردها من جديد .

وقالت كوزيت له :

— « شكرأً لك ، يا أبي ! »  
كان الجذل قد أمسى مُمضياً لجان فالجان . وفي لطف ، انسحب  
جان فالجان من بين ذراعي كوزيت ، وتناول قبته .

وقالت كوزيت :

— « والآن ؟ »

فأجاب جان فالجان :

— « سوف اتركك يا سيلستي . انهم في انتظارك . »  
ومن على عتبة الباب ، أضاف :

— « لقد خاطبتك بضمير المفرد . قولي لزوجك ان هذا لن يحدث  
كرة اخرى . انا ارجو عفوك . »

وخرج جان فالجان ، تاركاً كوزيت مشدوهة لهذا الوداع الغزير :

## ٣

### خطوات اخرى الى الوراء

وفي اليوم الذي تلا ، في الساعة نفسها ، أقبل جان فالجان .  
ولم توجه كوزيت ايها سؤال إليه . إنها لم تعد تُظهر الدهش ، لم تعد

نهف قائلة أنها تستشعر البرد ، لم تعد تتحدث عن حجرة الاستقبال .  
لقد تجنبت التلفظ بـ « يا أبي » أو بـ « مسيو جان » . لقد تركته يتحدث  
كما يشاء . ولقد أجازت لنفسها أن تخاطب بالفظ « السيدة » . بيد أنها  
تكشفت عن قدر من البهجة أقلّ . كان من العائز أن تكون محزونة ،  
لو كان الحزن ممكناً بالنسبة إليها .

ولعله قد جرى بينها وبين ماريوس حديث من تلك الأحاديث التي  
يقول فيها الرجل المحبوب كل ما يشاء ، ولا يشرح شيئاً ، ويفوز برضاء  
المرأة المحبوبة . إن فضول المحبين لا يذهب إلى ما وراء حبها بكثير .  
كانت الحجرة السفلية قد اتخذت زينتها بعض الشيء . كان باسل قد  
ازال الزجاجات ، وكانت نقوليت قد ازالت العناكب .

وكل يوم ، كان جان فالجان يفدي في الساعة نفسها . كان يجيء  
يومياً ، بعد أن استشعر أنه عاجز عن أن لا يأخذ كلمات ماريوس أخذها  
حرفيأ . واتخذ ماريوس ترتيبات تجعله غالباً عن المنزل كلها وفد جان  
فالجان إليه . وألسف المنزل طريقة مسيو فوشلوفان الجديدة في الحياة .  
وساعدته توسيع على ذلك ، فكانت تكرر : « لقد كان سيدي هكذا  
دائماً » . واصدر الجد هذا المرسوم : « إنه شخص شاذ الاطوار » وكانت  
تلك الكلمة الفصل . وإلى هذا ، ففي التسعين يتغير عقد علاقة جديدة .  
كل شيء قد رُصف ووضع إلى جانب غيره ؛ إن أيما وافد جديد  
عامل ازعاج ؛ لم يبق ثمة متسع ، كانت جميع العادات قد شُكلت .  
مسيو فوشلوفان ... مسيو ترانشلوفان ... إن الجد جيلنورمان لم يكن  
يطلب شيئاً خيراً من تخلصه من « ذلك السيد » . وأضاف : « ليس شيء  
أكثر شيوعاً من هؤلاء الاشخاص الشاذين ؛ لأنهم يقومون بمختلف ضروب  
الأشياء الغريبة . لا دافع على الاطلاق . كان المركيز ذو كأنابيل أسوأ .  
لقد اشتري قصراً ليعيش في مستودع للحجب . إنها مظاهر غريبة يتمذّلها  
الناس . »

إن أحداً لم يلحظ الظلمة التي في الأعماق . وإلى هذا ، فمن الذي كان في استطاعته ان يختر شيئاً كهذا ؟ إن ثمة مثل هذه المستنقعات في الهند . فلما يبدو غريباً ، ممتنعاً على التعليل ، مرتعشاً حيث لا ريح تبث به ، هائجاً حيث ينبغي له ان يكون هادئاً . انت ترى على السطح هذا الغليان الذي لا سبب له ؛ انت لا تلمع الافقى الميدالية الزاحفة في القعر .

وهكذا فإن لكثير من الناس هولة سرية ، مرضًا يغدوه ، تنبأ بضرهم ، يأساً يتمرر عليهم . مثل هذا الرجل يشهي سائر الناس ؛ إنه يروح وإنه يحيى ، وليس يدرى احد انه ينطوي على ألمٍ طفيلي رهيب ذي ألف ضرس ، ألمٍ يحيى في ذلك الرجل البائس الذي يموت به . إن أحداً لا يعرف ان هذا الرجل هاوية . إنه راكد ، ولكنه عميق . وبين الفينة والفينية يتبدئ على سطحه اضطراب لستا تفهم منه شيئاً . إن تفضناً غرياً يتراهى ، ثم يتلاشى ، ثم يعاد الظهور ؛ ففجاعة هواء ترتفع وتتجبر . إنه شيء ضئيل ، إنه فظيع . إنه تنفس المجهولة .

إن بعض العادات الغربية ، من مثل المجيء حين يذهب الآخرون ، والانكماش لحظة يتاخر الناس ، والتجلب دائمًا بما يمكن ان يدعى المعنف الذي يلون الجدار ، والتهام المر المتوحد ، وفضيل الشارع المهجور ، وعدم الاهتمام بالمحادثات ، واجتناب الحشود والأعياد ، وظهور امارات النعمة ثم العيش عيش الفقراء ، ووضع المرأة — برغم ثروتها — مفتاحه في جيده وشمعته عند الباب ، ودخوله من الباب الجانبي ، وارتفاعه السلم الخلفية ، كل هذه الغرائب الفضيلة ، — هذه التجعدات ، لففائق اهواه ، الثنات الزائلة — كثيراً ما تبعت من قعر راعب .

وتصرمت على هذا النحو بضعة اسابيع . وشيئاً فشيئاً استحوذت على

كوزيت حياة جديدة ، العلاقات التي مخلقتها الزواج ، والزيارات ، والعناية بالمنزل ، والمنع ، هذه المهام الكبيرة . ولم تكن متسع كوزيت غالبة التمتع ، كان قوامتها شيء واحد : أن تكون مع ماريوس . الخروج معه ، البقاء في المنزل معه ، ذلك كان شاغل حياتها الأكبر . كانوا يهدان مسراً جديدة بالكلية في الانطلاق ، متشابكي النرايين ، في وجه الشمس ، في وضيع الشارع ، غير متسرعين ، وعلى مرأى من الناس جمِيعاً ، وليس معهما أحد البتة . وكان ثمة شيء واحد يسوء كوزيت . إن توسيب لم تستطع التفاهم مع نيكوليت ، بعد أن تعذر إدغام أحدي العائسين بالأخرى ، ومضت لسبيلها . وكان الجد يتمتع بصحة جيدة . وكان ماريوس يترافع بين الفينة والفينية في بعض القضايا . وعاشت العمة جيلنورمان في دعة ، قرب ربة البيت الجديدة ، تلك الحياة العجائبية التي كانت تكتفيها ، وكان جان فالجان يحبها كل يوم .

كان في اقلاله عن عنايتها بضمير المفرد ، وفي اصطلاح لفظ «السيدة» و «ميyo جان» ما جعله شيئاً آخر في نظر كوزيت . وكانت العناية التي حاول ان يفصلها بواسطتها عنه قد نجحت معها . لقد غدت مرحة أكثر فأكثر ، رؤوفاً أقل فأقل . بيد أنها ظلت تحبه جداً عظيماً، ولقد استشعر هو ذلك . وذات يوم ، قالت له فجأة : «لقد كنت أبي ؟ أنت لم تعد أبي . لقد كنت عمي ؟ أنت لم تعد عمي . لقد كنت مسيو فوشلو凡ان ؟ أنت الآن جان . من أنت إذن ؟ أنا لا أحب هذا كله . لو لم أكن أعرف أنك طيب إلى أبعد الحدود لأنحدسي الخوف منك .»

وظل يسكن في شارع الرجل المسلح ، غير قادر على توطين العزم على الابتعاد عن الحي الذي تقطن فيه كوزيت . وفي المرات الأولى كان يمكث مع كوزيت بعض دقائق ليس غير ، ثم يمضي لسبيله .

وشيئاً بعد شيء تعود أن يجعل زياراته أطول . كان خليقاً بالمرء أن يقول إنه أفاد من المثل الذي ضربته الأيام الآخذة في الطول : أصبح بحبي أبكر ، وينصرف في ساعة أكثر تأخراً .

وذات يوم قالت له كوزيت سهراً : « أبي ! وأضاء وجه جان فالجان القائم وميض من الابتهاج . واجابها : « قولي جان . » فاجابته وقد انفجرت بالضحك : « آه ! صحيح ، مسيو جان . » فقال : « حسن » واستدار لكي لا تراه يكشف عبراته .

### ٣

## يتذكّر ان حديقة شارع

بلوميه

كانت تلك هي المرة الأخيرة . وابتداء من هذه الومضة الختامية رأى انطفاء كامل . لا دالة بعد اليوم ، ولا نحبة صباح مع قبلة ، ولا كلمة « أبي ! » العذبة إلى أبعد الحدود . لقد طرد ، بطلب منه وباشتراكه هو ، من كل وجه من وجوه السعادة على نحو متلاطم . لقد تخسر هذا الشقاء : أنه بعد أن فقد كوزيت برمتها في يوم واحد ، اضطر في ما بعد إلى أن يفقدها جزءاً بعد جزء .

إن العين لتنتهي إلى أن تألف نور الكهف . وعلى الجملة ، فقد كان حسبي أن يكحل عينيه بمرأى كوزيت كل يوم . كانت حياته كلها قد تركزت حول تلك الساعة . كان يجلس إلى جانبها ، وينظر إليها في صمت ، أو يحدّثها عن السنين الخواли ، عن طفولتها ، عن الدير ، عن أصدقائها في تلك الأيام .

وذات أصيل — كان ذلك في أحد أيام نيسان الأولى ، وكان الجو قد أمسى دافئاً ، ولكنه لا يزال على شيء من البرودة ، في تلك اللحظة التي تنعم فيها الشمس بابتهاجها الاعظم ، وقد استشعرت الحدائق المجاورة لنوافذ ماريوس وكوزيت انفعال اليقظة ، وشرع زعور الأودية يطلع ، وانتظم صف من المنشور المرصع بالجواهر على الجدران العتيقة ، وثناء بت زهرات أنف العجل في شقوق الحجارة ، وببدأ العشب يطلع ، على نحو فاتن ، افاحي وأزرار ذهب ، وبرزت فراشات العام البيضاء لأول مرة ، وجربت الريح — عازفة الكمان في العرس السرمني — في الاشجار أول ألحان تلك السيمفونية الفجرية « العظمى التي دعاها الشعراء القدماء « عودة الربيع » *renouveau* — في ذلك الاصيل قال ماريوس لكوزيت : « لقد قلنا اننا سوف نذهب لنرى حديقتنا في شارع بلوميه كرة اخرى . فلنذهب . ينبغي ان لا تكون عاقين ». وطارا مثل السنونو نحو الربيع . وتركـت تلك الحديقة التي في شارع بلوميه مثل اثر الضحى في نفسيهما . كانوا قد خلفا وراءهما في الحياة شيئاً أشبه بريـيع حبـها . كان متـزـلـ شـارـعـ بـلـومـيهـ ، بـوصـفـهـ قـدـ أـجـرـ ، لاـ يـزالـ مـلـكـاـ لـكـوزـيتـ . وـقـصـداـ إـلـىـ تـلـكـ الحـديـقـةـ إـلـىـ ذـلـكـ المـتـزـلـ . وـوـجـداـ نـفـسـيهـماـ فـيـ كـرـةـ اـخـرىـ ، وـنـسـيـاـ نـفـسـيهـماـ هـنـاكـ . وـعـنـدـ المـسـاءـ ، فـيـ السـاعـةـ الـمـعـادـةـ ، وـفـدـ جـانـ فالـجانـ إـلـىـ شـارـعـ فـيـتـاتـ كـالـفـيرـ . وـقـالـ لـهـ باـسـكـ : « لقد خـرجـتـ السـيـدةـ معـ السـيـدـ ، وـلـمـ يـرـجـعاـ حـتـىـ الـآنـ ». وـجـلـسـ فـيـ صـمـتـ ، وـانتـظـرـ ساعـةـ . وـلـمـ فـرـجـعـ كـوزـيتـ . وـحـىـ رـأـسـهـ وـمـضـىـ لـسـيـلـهـ . وكانت كوزيت منتشرة جداً بزرتها إلى « الحديقة » ، وسعيدة جداً بكل منها « قد عاشت يوماً كاملاً في ماضيها » حتى أنها لم تتحدث في اليوم التالي عن أي شيء آخر . ولم يخطر لها ببال أنها لم تر جان فالجان .

\* نسبة الى الفجر .

وسأله جان فالجان :

- « كيف ذهبتا إلى هناك ؟ »
- « مشياً على الأقدام . . .
- « وكيف رجعتا ؟ »
- « في عربة كراء . . .

منذ فترة من الزمان وجان فالجان يلاحظ الحياة المقتصدة التي يحييها الروجان الشابان . وازعجه ذلك . كان اقتصاد ماريوس قاسياً ، وكان الكلمة معناها المطلق عند جان فالجان . وغامر في السؤال :

- « لم لا تقتنيان عربة خاصة ؟ إن عربة جميلة ذات أربع عجلات لا تتكلفكما غير خمسة شهرياً . أنت غنية . . .

فأجابت كوزيت :

- « لست أدرى . . .

وأضاف جان فالجان :

- « وهذا هو الشأن مع توسين . لقد مضت لسيلها ، ولكنك لم تستعيضي عنها بغيرها . لماذا ؟ »

« نقوليت تكفي . . .

- « ولكن ينبغي أن يكون لك فراشة . . .

« ألمست إملك ماريوس ؟ »

- « ينبغي أن يكون لك بيت خاص ، وخدم مخصوصون ، وعربة ، ومقصورة في المسرح . ليس ثمة نعم لا تستحقينها . لماذا لا تفديين من ثرائك ؟ الثروة تضاعف السعادة . . .

ولم تجتب كوزيت بشيء .

ولم تتقاضر زيارات جان فالجان . ما أبعد ذلك عن الصواب ! فحين يترافق القلب لا توقف فوق المنحدر . وكلما أراد جان فالجان ان يطيل زيارته ، ويجعل الساعات تقضي من

غير انتباه ، كان يأخذ في اطراء ماريوبس ؛ كان يذهب إلى أنه وسيم ، نبيل ، شجاع ، ذكي ، فصيح ، طيب . وكانت كوزيت تزايده في ذلك ؛ وكان جان فالجان يأخذ في الاطراء من جديد . إنها لم يعرفا الصمت قط . فماريوس كلمة لا يتطرق إليها التفاصيل . كانت ثمة مجلدات في هذه الاحرف الستة . وهكذا كان جان فالجان يوفق إلى البقاء فترة طويلة . كان يستعدب رؤية كوزيت والنسوان بقربها استعداداً كبيراً . كان ذلك هو الضيادة لجرحه . واتفق عدة مرات أن كان باسك يحيط إلى الحجرة السفلية مرتين متاليتين ليقول : « مسيو جيلنورمان أوددني لأنجبر سيدتي البارونة أن مائدة العشاء قد أعدت . » وفي تلك الأيام كان جان فالجان ينقلب إلى منزله وهو مستغرق في التفكير .

هل كان ثمة اذن بعض الصدق في تشبيه جان فالجان بالبيقة ، ذلك التشبيه الذي تمثل لعقل ماريوبس ؟ هل كان جان فالجان ، في الواقع ، بيقة عنيفة ، بيقة تفقد لزيارة فراشتها ؟

وذات يوم مكت أكثر من المأثور . وفي اليوم التالي لاحظ انه لم يكن في الموقد نار . وقال في ذات نفسه : « ماذا ! لا نار . » وقدم إلى نفسه هذا التفسير : « هذا طبيعي جداً . نحن في شهر نيسان . لقد انصرمت الأيام الباردة . »

وهتفت كوزيت عند دخولها :

— « يا الشهي ! ما أبدى هذه الحجرة ! »

فقال جان فالجان :

— « ولكن لا . »

— « وأذن فأنت الذي قلت لباسك ان لا يضرم النار ؟ »

— « نعم . لقد أشرفتنا على شهر نوار . »

— « ولكتنا نضرم النار حتى حزيران . وفي هذا الكهف يحتاج المرء إلى النار طول السنة . »

— « لقد حسبتُ ان النار غير ضرورية . »  
فأجابت كوزيت :

— « هي ذي واحدة من فكراتك ! »  
وفي اليوم التالي كان في الموقد نار . ولكن الكرسيين ذوئي الذراعين  
كانا قد وضعا في الطرف الآخر من الحجرة ، قرب الباب . وفسر  
جان فالجان : « ما معنى هذا ؟ »

ومضى التهاساً للكرسين ، وأعادهما إلى مكانهما المألف قرب الموقد .  
ومع ذلك فقد شجعته هذه النار المضرمة من جديد . واطال المحادثة  
أكثر من العتاد . وفيها كان ينهض للانصراف ، قالت له كوزيت :

— « لقد قال لي زوجي شيئاً مضحكاً أمس . »

— « وما هو ؟ »

— « قال : ان لدينا دخلاً مقداره ثلاثون الف فرنك . سبعة وعشرون  
تملكينها انت ، وثلاثة اعطاني ايها جدي . فقلت : هذا يجعلها ثلاثين .  
فسألني : هل تملكون الجرأة على ان تعيشني على الثلاثة الآلاف ؟ فأجبته:  
نعم ، وعلى لا شيء ، شرط ان يكون ذلك معك . ثم سأله : لماذا  
تقول لي هذا ؟ فأجاب : لكي اعرف . »

ولم يقل جان فالجان كلمة . ولعل كوزيت كانت تتوقع منه تفسيراً  
ما . لقد أصغى إليها في صمت فاجع . وانقلب إلى شارع الرجل المسلح :  
كان مستغرقاً في التفكير إلى درجة جعلته يخطيء الباب . وبدلاً من ان  
يدخل بيته هو ، دخل البيت المحاذي . ولم يتبه إلى غلطته إلا بعد ان  
قاد يصل إلى الدور الثاني ، فهبط السلم كرفة أخرى .

كانت الظنون تنكل بعقله تنكيلاً : فقد كان واضحاً ان ماريوس  
يرتاب في أصل هذه الفرنكات المستئنة الف ، ومن يدرى فعله كان  
يحسب ان مصدرها غير ظاهر . أو لعله كان قد اكتشف ان هذا المال  
 جاء منه هو ، جان فالجان . ولعله ان يكون قد تردد امام هذه الثروة

المريمية ، فكريه أن يجعلها ملكاً له ، مؤثراً ان يظل هو وكوزيت فقيرين ، على ان ينعم بثراء تحيط به الشكوك .  
ولى هذا ، فقد استشعر جان فالجان ، على نحو غامض ، انه قد اُصرف في خشونة .

وفي اليوم التالي اصيب ، لدن دخوله إلى الحجرة السفلية ، بشيء كالصدمة . كان الكرسيان ذوا الأذرع قد اختفيا . بل لم يكن ثمة كرمي من اي نوع .

وتهافت كوزيت وهي داخلة :

— « والآن ، لا كراسي ! أين الكرسيان ذوا الذراعين اذن ؟ »  
فأجاب جان فالجان :  
— « لقد ولّا : »  
— « هذه مسألة طريفة . »  
وتمتم جان فالجان :  
— « لقد قلت لك ان يخرجهما من هنا . »  
— « وما سبب ذلك ؟ »  
— « أنا لن أبقى غير بضع دقائق اليوم . »  
— « إن بقائك فترة قصيرة ليس مسبياً كافياً لوقوفك ما دمت هنا . »  
— « أحسب ان باشك قد احتاج إلى بعض الكراسي ذوات الأذرع  
غرفة الاستقبال . »

— « لماذا ؟ »  
— « لا ريب في ان عندكم ضيوفاً اليوم . »  
— « ليس عندنا احد . »  
ولم يستطع جان فالجان ان يقول كلمة اضافية .  
وهزت كوزيت كتفيها .  
— « تطلب إخراج الكرسيين ! وفي ذلك اليوم طلبت ان لا تضرم

النار ! ما أغرب اطوارك ! »

وددم جان فالجان :

— « استودعك الله . . .

انه لم يقل : « استودعك الله ، يا كوزيت . . ، ولكنه لم يقو على القول « استودعك الله ، يا سيدتي . . » ومضى لسيله مثلاً بالغم . كان هذه المرة قد فهم .

وفي اليوم التالي لم يجيء . ولم تلاحظ كوزيت ذلك إلا مساء . وقالت :

— « غريب . ان مسيو جان لم يجيء اليوم . . ولما بها شيء أشبه بانقباض ضئيل في الصدر ، ولكنها لم تلحظ ذلك الا بشق النفس ، إذ شغلتها عنه ، في الحال ، قبلة من ماريوس : وفي اليوم الذي بعده ، لم يجيء أيضاً .

ولم تلق كوزيت بالا إلى ذلك ؛ لقد أمضت السهرة ، ونامت ليلاً ذلك ، كالعادة ، ولم تفك في المسألة إلا بعد ان استيقظت . كانت سعيدة إلى أبعد الحدود ! ووجهت نيكوليت على جناح السرعة إلى منزل مسيو جان لترى ما إذا كان مريضاً ، ولماذا لم يأت البارحة . ورجعت نيكوليت بجواب مسيو جان . إنه لم يكن مريضاً . لقد كان مشغولاً . ولسوف يجيء في وقت قريب . في اقرب وقت ممكن . وإلى هذا ، فقد كان يعتزم القيام برحلة صغيرة . والسيدة تذكر انه كان من عادته الارتفاع بين الفينة والفينية . فلا داعي للقلق . ولا داعي لأن يشغل احد نفسه بالتفكير فيه .

وكانت نيكوليت قد كررت ، لدن دخولها منزل مسيو جان ، كلمات سيدها بالحرف الواحد . ان السيدة قد بعثتها ل تستطلع « لماذا لم يأت مسيو جان البارحة . . » فقال جان فالجان في رقة : « لقد تحلفت عن المجيء يومين

متاليين .

ولكن هذه الملاحظة اخطأت انتبه نقوليت فلم تنقل شيئاً منها إلى  
كوزيت .

## ٤

### انجداب وانطفاء

خلال الأشهر الأخيرة من ربيع ١٨٣٣ والأشهر الأولى من صيف ذلك العام ، لاحظ عابرو السبيل المتناثرون في الـ «ماريه» ، واصحاب الدكاكين ، والمعطلون على عربات الأبواب — لاحظوا رجلاً عجوزاً مرتدياً ثوباً نظيفاً يخرج كل يوم ، حوالي الساعة نفسها ، عند هبوط الليل ، من شارع الرجل المسلح ، في اتجاه شارع «سانت كروا دو لا بروتونوري» ، ويختاز بـ «البلان مانتو» ، إلى شارع «كولتور سانت كاترين» ، ثم ينتهي إلى شارع الـ «إيشارب» ، وينعطف إلى اليسار ، ويدخل شارع «سان لويس» .

هناك كان يمشي في خطى وئيدة ، منكس الرأس ، غير مبصر شيئاً ، غير سامع شيئاً ، مصوّب النظرات على نحو ثابت ، نحو نقطة واحدة ، لا تعرف التغير ، بدت له وكأنها مرصعة بالنجوم ، نقطة لم تكن غير زاوية شارع فتيات كالغبار . حتى إذا اقترب من زاوية ذلك الشارع ، كان وجهه يتهلل ، وكان ضرب من البهجة يضيء عينيه مثل حالة باطنية ، وعلت وجهه سيراً مفتونة مشفقة ، وتحركت شفتيه حركات غامضة وكأنما كان يحدث شخصاً لم يكن يراه ، ويفتر ثغره عن ابتسامة كليلة ، ويتقدم بأقصى ما يستطيع من البطء . كان في ميسور المرء ان يقول انه على الرغم منه رغبته في الوصول إلى مكان ما ، كان يخشى

اللحظة التي يقترب فيها منه . حتى إذا لم يبق بينه وبين ذلك الشارع الذي بدا وكأنه يجذبه غير بيوت قليلة كانت خطاه تنتهي إلى بطء شديد حتى لتحسب في بعض الأحيان أنه كف عن السير . كان تذبذب رأسه وثبات عينيه يذكر أنك بالابرة الباحثة عن القطب . بيده أنه كان يصل آخر الأمر ، مهما بذل من أجل تأخير ذلك . كان يصل إلى شارع فتيات كالغیر . وهناك كان يقف ، وكان يرتد ، وكان يضع رأسه بضرب من الجن القائم خلف زاوية المنزل الآخر ، وينظر إلى ذلك الشارع ، وكان في تلك النظرة الفاجعة شيء يشبه الانشاده بالمستحيل وانعكاس اضواء فردوس محترم . ثم إن دمعة كانت قد تجمعت شيئاً فشيئاً في زاوية عينه ونمطت إلى حد عيكتها من الاحدار كانت تنزلق على خده وتنقف في بعض الأحيان عند فمه . وكان الرجل العجوز يذوق موارتها . وكان يظل هكذا بضع دقائق ، وكأنه قد تحول إلى حجارة . ثم إنه كان يرجع من الطريق نفسها وبالخطوة نفسها . وكلما ابتعد انطفأت تلك النظرة .

وشيئاً بعد شيء كف هذا العجوز عن التقدم حتى زاوية شارع فتيات كالغبار . كان يقف عند منتصف شارع سان لويس . وفي بعض الاحيان كان يمضي إلى أبعد قليلاً ، وفي بعض الاحيان كان يمضي إلى أقرب قليلاً . وذات يوم ، وقف عند زاوية شارع « كولتور سانت كاترين » ونظر إلى شارع فتيات كالغبار من بعيد . ثم إنه حرك رأسه ، ففي صمت ، من اليمين إلى الشمال ، وكأنه كان يأبى على نفسه شيئاً ، وارتدى على عقبيه .

وما هي إلا فترة قصيرة حتى أقلم عن التقدم إلى شارع سان لويس نفسه . كان ينتهي إلى شارع «بافيه» ، ويهر رأسه ، ويعود أدراجه . ثم إنه ما عاد يمضي إلى أبعد من شارع الد «ترووا بافينون» ؛ ثم أمسى لا ينخطي الد «بلان مانتو» . لكنه رقص ساعتين يدور ، فذبذباته تتلاطم ريشها تتفنّن نهائياً .

وكل يوم ، كان يغادر بيته في الساعة نفسها ، ويشخص إلىغاية نفسها ، ولكنه يرتد قبل بلوغها ، ويقتصرها - وربما على نحو غير واع - تقصدراً موصولاً . كان مياله كله يفصح عن هذه الفكرة الوحيدة : ما القائدة ؟ كانت حدقته قد خبت ، فليس فيها بعد إشعاع . وكانت الدمعة قد ولت أيضاً ، إنها لم تعد تتجمع عند زاوية الجفن . كانت تلك العين المفكرة جافة . كان رأس الرجل العجوز منكساً ما يزال ؛ وكانت ذقنه ترتعش في بعض الأحيان ؛ وكان النظر إلى تبعيدات رقبته المهزولة يوقع الألم في النفس . وأحياناً ، حين تكون الحال الجوية سيئة ، كان يتأنط مظلة لا يفتحها أبداً . وكانت نسوة الحي الطيبات يقلن : « إنه ساذج » . وكان الأطفال يلتحقون به ضاحكين .

## الكتاب التاسع

### ظلمٌ عظيمٌ و مجرٌ عظيمٌ

١

شفقة للتعيس ولكن

رفق بالسعيد

أن نكون سعداء — ذلك شيءٌ فظيع ! ما أشد سرورنا بهذا ! وما أكثر ما نجده كافياً ! وما أكثر ما ننسى ، حين تملّك هدف الحياة الرائق ، السعادة ، الهدف الحقيقى منها : الواجب !  
ومع ذلك ، فيتعين علينا أن نقول إن من الظلم أن نلوم ماريوس . إن ماريوس لم يوجه قبل زواجه — كما سبق منا القول — أبداً سؤال إلى مسيو فوشلوفان ، ولقد خشي ، منذ زواجه ذاك ، ان يوجهه أبداً

سؤال إلى جان فالجتان . كان قد ندم للوعد الذي اجاز لنفسه أن تستدرج  
إليه . وكثيراً ما قال في ذات نفسه انه أخطأ في تساهلاته مع اليأس . لقد  
اجترأ بالعمل لابعاد جان فالجتان ، شيئاً بعد شيء ، عن منزلته ، ولمحوره  
جهد الطاقة من ذهن كوزيت . لقد وضع نفسه على نحو موصول -  
وبطريقة ما - بين كوزيت وجان فالجتان ، واثقاً من أنها ، على هذه  
الصورة ، لن تلحظه ولن تفكّر فيه البتة . كان ذلك أكثر من محو ،  
كان كسفنا .

لقد عمل ماريوس ما قدر أنه ضروري وصائب . لقد اعتقد انه كانت لديه - لاقصاء جان فالجان ، في غير خشونة ، ولكن في غير ضعف - اسباب جدية رأينا بعضها من قبل ، وسرى بعضها الآخر في ما بعد . لقد اتفق له ان اجتمع ، في قضية كان يترافع فيها ، بموظف عجوز في مصر لافتت ، فاطلع - من غير ان يسعى إلى ذلك - على بعض المعلومات الفاضحة التي لم يستطع ، في الواقع ، أن يسرى غورها احتراماً منه لذلك السر الذي وعد بفضائه ، ومراعاةً منه لمركز جان فالجان المحفوف بالخطر . ولقد اعتقد ، في تلك اللحظات نفسها - ان عليه واجباً خطيراً يجب اداوه ، وهو إعادة المستمئنة الف فرنك إلى شخص ما ، راح هو - ماريوس - يبحث عنه باكثر ما يكون من الحذر . وفي غضون ذلك ثقادي استعمال هذه الثروة .

أما كوزيت فلم تكن على علم بأي من هذه الأسرار . ولكن من القسوة أدانتها أيضاً .

كانت تفيض من ماريوس نحوها مغناطيسية كلية القدرة تضطرها إلى أن تعمل ، غرّزاً بل آلياً تقريباً ، ما يتناه ماريوس . لقد استشعرت ، في ما يتصل بـ « مسيو جان » ، ارادة من ماريون ؛ وأذعنت لها . ولم يكن عند زوجها شيء يقوله لها . لقد عرفت ضغط رغباته غير المفوظة ، ولكن الواضحة ، وخضعت له خضوعاً أعمى .

وكان خصوصها هنا ينبع على عدم تذكّرها ما نسيه ماريوس . وما كان لها أن تبذل أبداً جهد في ذلك . فمن غير أن تدري هي نفسها لماذا ، ومن غير أن يكون ثمة أبداً دليل يساعد على لومها ، كانت روحها قد غدت روحَ زوجها بحيث أن كل ما جلله الظلام في ذهن ماريوس أظلم في ذهنتها .

ومع ذلك ، فيجب أن لا نذهب إلى بعيد جداً . ففي ما يتصل بجان فالجتان لم يكن هذا التسيان وهذا المحو إلا سطحيين . كانت ذاهلة أكثر منها ناسبة . كانت في أعمق أعماقها تحب ذلك الذي طالما نادته « يا أبي ! ». ولكنها أحبت زوجها أكثر . كان ذلك هو الذي ذهب بتوازن ذلك القلب ، المائل في ناحية مفردة .

وانتفق لجوزيت أن تحدثت ، ذات مرة ، عن جان فالجتان واظهرت دهشتها . فيما كان من ماريوس إلا أن هدا رووعها : « انه غائب ، في ما اظن . ألم يقل انه سوف يقوم برحلة ؟ » ، فقالت كوزيت في ذات نفسها : « هذا صحيح . كان من عادته الاختفاء على هذه الشاكلة . ولكن غيابه لم يكن يطول إلى هذا الحد . » ومرتين أو ثلاث مرات ارسلت نيكوليت لسؤال في شارع الرجل المسلح ما إذا كان مسيو جان قد رجع من رحلته وكان جان فالجتان يجيب أن لا .

ولم تجد كوزيت السؤال بعد . فقد كان لها مطلب واحد في هذا الوجود : ماريوس .

ويتعين علينا ان نقول إن ماريوس وكوزيت كانوا بدورهما غائبين أيضاً . كانوا قد ذهبا إلى فيرنون . كان قد مضى بكوزيت إلى ضريح أبيه . كان ماريوس قد استل كوزيت ، شيئاً بعد شيء ، من جان فالجتان . وانقادت كوزيت لرادته .

وإلى هذا ، فأن ما ندعوه بكثير من القسوة ، في بعض الأحوال ‘ عقوق الاولاد ليس ، دائماً ، شيئاً يستحق اللوم بقدر ما نعتقد . إنه

عوقق الطبيعة . فالطبيعة ، كما قلنا في مكان آخر ، « تنظر إلى أمام » . والطبيعة تقسم الكائنات الحية إلى مقبلين ومولين . فأما المولون فتوجهه وجههم نحو الظلام ، وأما المقبولون فتوجهه وجههم نحو النور . ومن هنا ينشأ تباعد هو ، من ناحية الشيوخ ، محظوظ ، ومن ناحية الجيل الطالع غير إرادتي . وهذا التباعد ، غير المدرك في بادئ الأمر ، يتعاظم تدريجياً ، ككل تباعد بين الأغصان . إن الفنان لتبتعد عن المجنع من غير أن تنفصل عنه . هذه ليست خطيبتها . الشباب يمضي إلى حيث الابتهاج : إلى الاحتفالات ، إلى الأضواء الساطعة ، إلى الحب . والشيخوخة تمضي إلى غايتها . إن أحدهما لا ينبع عن بصر الآخر ، ولكن الصلات بينهما تترافق . إن أفراد الجيل الطالع يستشعرون برد الحياة ، والشيخوخة يستشعرون برد القبر . فيتعين علينا أن لا نلوم هؤلاء الأطفال المساكين .

## ٢

### آخر خفقات المصباح

الذي نفذ زيته

وذات يوم هبط جان فالجان سلم متزلاً ، وخطا في الشارع ثلاثة خطوات ، وجلس على معلم من معالم الطريق ، ذلك المعلم عينه الذي وجده غافروش جالساً فوقه ، ليل الخامس من حزيران ، مستغرقاً في التفكير . ومكث هناك بضع دقائق ، ثم عاود الصعود إلى متزلاً من جديد – كانت هذه آخر ذبذبة من ذبذبات الرقصان . وفي غد ، لم يغادر غرفته : وفي اليوم الذي سلا ، لم يغادر فراشه .

ونظرت بوابته - التي قدمت اليه طعامه المزيل : بعض الكرنب  
وقليل من البطاطس مع شيء من شحم الخنزير - نظرت إلى القصص  
القصاربة السمراء ، وهتفت :  
- « ولكنك لم تأكل اي شيء أمس ، ايهما الرجل البائس  
العزيز . »

فأجاب جان فالجان :

- « اجل ، لقد فعلت . »

- « القصص ما تزال ملائى . »

- « انظري إلى آنية الماء . إنها فارغة . »

- « هذا يظهر انك شربت . إنه لا يظهر انك أكلت . »

فقال جان فالجان :

- « حسناً ، وافرضي اني لم اكن جائعاً إلا للماء ؟ »

- « هذا يدعى العطش . وحين لا يأكل المرء شيئاً في الوقت نفسه

ندعو ذلك حمي . »

- « سوف آكل غداً . »

- « أو في عيد الثالوث الأقدس . لماذا لا تأكل اليوم ؟ هل  
يقول الناس : سوف آكل غداً ! انك ترك لي قصصتي كلها من غير ان  
تمسها ! إنها ملفوفاتي التي كانت جيدة جداً . »  
وأنمسك جان فالجان يد المرأة العجوز ، وقال لها في صوته  
العطوف :

- « أعدك بأن آكلها . »

فأجابت البوابة :

- « أنا لست راضية عنك . »

ولم ير جان فالجان قط كائناً بشرياً غير هذه المرأة الصالحة . إن في  
باريس شوارع لا يسر فيها أحد ، وبيوتاً لا يفد إليها أحد . وكان

جان فالجان في واحد من هذه الشوارع ، وكان في واحد من تلك المنازل .

وكان قد اشترى ، قبل ان ينقطع عن الخروج من منزله ، صليباً نحاسياً صغيراً من عند احد النحاسين ، مقابل بضعة دريمات ، وكان قد علق ذلك الصليب - وقد ثُنحت عليه جسد المصلوب - تجاه سريره . ان الصليب شيء يحسن النظر اليه دائماً .

وتصرم اسبوع ، ولم يكن جان فالجان قد خطأ في غرفته أبداً خطورة . كان لا يزال في سريره . وقالت البوابة لزوجها : « إن الرجل الذي فوق لم يعد يقوم من فراشه أبداً ، لم يعد يأكل أبداً ، وهو لن يعيش طويلاً . إن له احزانه . وليس في استطاعة احد ان يتزع من رأسه هذه الفكرة : أن ابنته لم توفق في زواجه . »

وأجاب الباب ، في نبرة السيادة الجديرة بالازواج :

— « إذا كان غنياً فليسندع طيباً . وإذا لم يكن غنياً فلا داعي لأن يستدعي طيباً . وإذا لم يستدعي طيباً فعنده ذموم . »

— « وإذا استدعي طيباً ؟ »

قال الباب :

— « يموت أيضاً . »

وشرعت البوابة تحرث الارض ، بسكين عتيقة ، حول عشب كان قد نجم في ما كانت تدعوه رصيفها . وفيما كانت تقتلع العشب ، غمضت :

— « شيء مؤلم . رجل عجوز نظيف جداً . إنه أبيض مثل الدجاجة . »

ورأت طيباً من اطباء الحي يجتاز بأقصى الشارع . فأخذت على عانقها التوسل إليه أن يصعد .

وقالت له :

- « إنه في الدور الثاني . ليس عليك إلا ان تدخل . إن المفتاح هو دائماً في الباب بعد ان عجز الرجل عن مفارقة سريره . . . » ورأى الطبيب جان فالجان ، وتحدث اليه .
- وحين هبط السلم استجوبته البوابة :
- « حسناً ، أيها الطبيب ؟ »
- « إن مريضك مريض جداً . »
- « من يشكوا ؟ »
- « من كل شيء ، ومن لا شيء . إنه رجل يستدل من جميع المظاهر انه فقد شخصاً أثراً لديه . إن المرأة لموت بسبب من ذلك ؟ »
- « ماذا قال لك ؟ »
- « لقد قال ان حاله حسنة . »
- « هل سترجع كررة ثانية ، أيها الطبيب ؟ »
- فأجاب الطبيب :
- « أجل . ولكن شخصاً آخر غيري ينبغي أن يرجع . . . »

### ٣

ريشة ترهق ذلك الذي رفع

كارثة فوشلوفان

وذات مساء وجد جان فالجان عساً في رفع نفسه على مرفقه وجسّ معصمه ، فلم يجد اي نبض . كان نفسه قصراً ، وكان ينقطع بين القينة والقينة ، وادرك انه أضعف مما كان في أيّامه وقت مضى . ثم إنه بذل جهداً ، تحت ضغط رغبة علياً من غير شك ، وجلس في

فراشه ، وارتدى ملابسه ؛ لقد لبس ثوبه العهالي العتيق . كان قد عاد إليه ، بعد أن أفلح عن الخروج من غرفته ، وكان يوثره . وتعين عليه أن يتمهل عدة مرات أثناء اللبس . وكان في مجرد ارتدائة صدرته ما جعل العرق يتحدّر على جيئنه .

ومنذ أن أمسى وحيداً كان قد وضع سريره في غرفة الانتظار لكي يختلي هذا البيت المهجور أقل ما يكون الاحتلال .  
وقطع الحقيقة ، وأخرج ملابس كوزيت .  
ونشرها على سريره .

كان شمعداناً الأسف في مكانها ، على الموقف . وخرج شمعتين من أحد الدرج ، ووضعهما في الشمعدانين . ثم اشعلهما ، على الرغم ان الشمس ما زالت مشرقة ، فقد كان الفصل صيفاً . إننا نرى المشاعل مضاءة في وضع النهار ، أحياناً ، في الغرف التي يستلقى فيها الأموات .

كانت كل خطوة يخطوها في الانتقال من أحدى قطع الأثاث تضنيه ، وكان مضطراً إلى الجلوس . إنه لم يكن ذلك التعب العادي الذي يتفق القوة لكي يجدها ، كان بقية الحركة الممكنة . كان هو الحياة المستفيدة تُعتصر قطرةً قطرةً في جهود مرهفة لن تُبدل كرة ثانية .

وكان أحد الكراسي التي ارتكى فيها قائماً أمام تلك المرأة ، المژوومة جداً بالنسبة إليه ، الساواية جداً بالنسبة إلى ماريوس ، التي كان قدقرأ فيها مذكرة كوزيت ، مقلوبة على ورق التشفاف . لقد رأى نفسه في هذه المرأة ، فلم يعرف نفسه . كان في الثالثين . أما قبل زواج ماريوس فكان المرء لا يحسب أنه في الخمسين إلا بكثير من العسر . كانت هذه السنة بعثابة ثلاثة سنة . إن ما ران على جيئنه الآن لم يكن تفضلاً الشيخوخة ، ولكن أمارة الموت الخفية . كنت تلمع هناك أثر المخلب الذي لا يعرف الرحمة . كان خداه غائرين ، وكانت بشرة

ووجهه ذات لون يوحى بأن الثرى قد علاها منذ الآن . وكانت زوابيا فمه قد انخفضت وكأنها في ذلك القناع الذي كان القدماء ينحوونه على قبورهم . وكان ينظر إلى الفراغ نظرة تأنيب ، ولقد كان خليقاً بالمرء أن يحسبه واحداً من تلك الكائنات الجليلة الفاجعة التي تنهض شاكية شخصاً ما .

كان في تلك الحال - آخر مراحل الأعباء - التي ينقطع فيها الألم عن الجريان . لقد تخثر ، إذا جاز التعبير . لأن النفس قد غطيت بمحاطة يأس .

كان الليل قد هبط . وفي كثير من العناي جر احدى الطاولات وذلك الكرسي العتيق ذا الذراعين إلى مقربة من الموقد ، ووضع على الطاولة ريشة ، وحبراً ، وورقاً .

حتى إذا تم له ذلك أصيّب بأغماء . وحين ثاب إلى رشده ، شعر بظماء . واذ عجز عن رفع آنية الماء ، فقد حناها نحو فمه ، في مشقة ، وشرب جرعة .

ثم التفت إلى السرير ، ونظر - وهو لا يزال جالساً لأنه لم يستطع البقاء واقفاً - إلى الثوب الاسود الصغير وجميع تلك الاشياء الاشيرة لديه .

مثل هذه التأملات تدوم ساعات تبدو وكأنها دقائق . وفجأة ارتعد ، واستشعر ان البرد قد أصابه . وانحنى فوق الطاولة المضاءة بشمعداني الاسقف ، وامسك بالريشة .

واذ كان كل من الخبر والريشة لم يستعمل منذ عهد بعيد ، وكان دأس الريشة مرتدًا إلى الوراء ، وكان الخبر قد جف ، فقد اضطر إلى ان ينهض ويضع في الخبر بعض قطرات من الماء ، وهو شيء لم يستطع ان يقوم به من غير ان يتمهل ويقعد مرتين أو ثلاث مرات ، وقد اضطر إلى ان يكتب بظاهر الريشة . وكان ، بين الفينة والفينية ، يمسح جبينه .

وارتعدت يده . وفي بطء ، خط الاسطر القليلة التالية :

« كوزيت ، إني اباركك . سوف أقدم إليك تفسيراً . لقد كان زوجك على حق في إشعاري بأن علي ان انصرف . ومع ذلك فان نعمة بعض الخطأ في الذي اعتقاده ، ولكنك كان على حق . إنه ممتاز . وحن اموم ، أحبيه دائماً جماً . وانت يا مسيو بونميرسي ، أحب دائماً طفلتي الحبيبة . كوزيت ، إن هذه الورقة سوف توجد ، هذا ما اريد ان اخبرك إياه ، ولسوف تقرأين ارقاماً ، إذا كانت لي القدرة على تذكرها ؛ اسمعي جيداً ، إن هذا المال هو لك حقاً . وهذه هي القصة كاملة : إن الكهرمان الايبس يجيء من نروج ، والكهرمان الاسود يجيء من انكلترة ، وتقليلها الزجاجي الأسود يجيء من المانيا . والكهرمان أخف ، وأنفس ، أغلى . وفي استطاعتنا ان نقلده في فرنسة كما يقلدونه في المانيا . وهو يقتضي سنداناً صغيراً مساحته بوصستان مربعتان ومصباحاً على الكحول لأسالة الشمع . وكان الشمع يصنع في ما مضى من صنع الصنوبر وسود الدخان ، وكانت الاوقية تكلف اربعة فرنكات . وقد تراءى لي ان أصنعه من صمغ اللثك وصمغ البطم . وهذا لا يكلف غير ثلاثة سو ، وهو أفضل بكثير . والابازيم تصنع من زجاج بنسجي نلصقه بواسطة هذا الشمع بقطعة صغيرة مدورة من حديد أسود . والزجاج يجب ان يكون بنسجياً للحل الحديدية ، وأسود للحل الذهبية . واسبانية تشتري مقادير كبيرة منها . تلك هي بلاد الكهرمان .... »

وهنا كف عن الكتابة ، وسقطت الريشة من بين اصابعه ، وأطلق احدى تلك الزفرات البائسة التي كانت تصعد احياناً من أعماق وجوده . وامسك الرجل البائس رأسه بين يديه ، وانشا يفك . وهتف في ذات نفسه - وتلك صيحات مخزنة لا يسمعها غير الله :

« اوه ! قضي الأمر . أنا لن اراها بعد اليوم . إنها ابتسامة

عبرت فوقي : سوف ادخل في الظلام من غير ان اراها مجرد رؤية ،  
كرة اخرى . اوه ! دقيقة ! لحظة ! لكي اسمع صوتها ، لكي ألسن  
ثوبها ، لكي انظر اليها ، هي ، الملائكة ! وبعد ذلك اموت . ليس  
الموت شيئاً ذا بال ، ولكن الشيء الرهيب ان اموت من غير ان اراها :  
انها خليقة بأن تبتسم لي ؛ وانها خليقة بأن تقول لي كلمة . هل في ذلك  
ما يؤذني احداً ؟ لا ، لقد قضي الأمر ، إلى الأبد . ها أنا ذا في وحدة  
مطلقة . يا الشهي ! يا الشهي ! أنا لن اراها بعد ابداً .  
وفي تلك اللحظة خفق شخص الباب .

## ٤

### زجاجة حبر لا توقف إلى أكثر من التبييض

في ذلك اليوم نفسه ، أو في ذلك المساء نفسه على الأصح ، لحظة  
غادر ماريوس المائدة وأوى إلى مكتبه ، إذ كان لديه ملف أوراق ينبغي  
ان يدرس ، قدم إليه باسك رسالة وقال :  
— إن الشخص الذي كتب هذه الرسالة هو في غرفة الانتظار .  
كانت كوزيت قد تأبطة ذراع جدها ، وراحت تتجمول في  
الحدائق .

إن الرسالة قد يكون لها ، كما للرجل ، مظهر مقيد . ورق خشن ،  
طية غليظة ، إن مجرد النظر إلى بعض الرسائل ليسوء . ولقد كانت الرسالة  
التي حملها باسك من هذا الضرب .  
وتناولها ماريوس . كانت رائحة التبغ تفوح منها . وليس ثمة ما

يوقف الذكريات مثل الراية . وعرف ماريوس هذا التبغ . ونظر إلى العنوان : « إلى سيدى ، السيد البارون بوميرسي . في قصره .» وقد اته معرفته للتبغ إلى أن يعرف الخط . وفي استطاعة المرء ان يقول إن للدهش بروقه . لأن ماريوس كان قد استضاء بوحد من تلك البروق .

وأحيت حاسةُ الشم ، ذلك المذكّرُ الخفي ، عالماً كاملاً في ذات نفسه . هنا كان الورق نفسه ، وطريقة الطyi ، وشحوب الخبر ، هنا كان في الواقع ذلك الخط المعروف ؛ فوق كل شيء ، هنا كان التبغ . وبذا أمامه مسكن جوندريت الحقير .

وهكذا ، نزوة غريبة من نزوات المصادفة ! إن أحد ذينك الآثرين اللذين طالما بحث عنهما ، ذلك الآثر الذي عاد فبدل مؤخراً جهوداً كبيرة للامتداء إليه والذي اعتقد انه ضاع إلى الأبد ، إن ذلك الآثر جاء بنفسه إليه .

وكسر الختم في لففة ، وقرأ :

« سيدى البارون ، لو ان الكائن الأسمى اعطاني الموهب لذلك ، اذن لكان من الجائز ان أكون البارون تينار ، عضو الاكاديمية الفرنسية ، ولكنني لست كذلك . انا احمل الاسم نفسه ليس غير ، واني اكون سعيداً إذا ما كان في هذه الذكرى ما يدخلني رحاب جودك . والمنة التي ستشرفني بها سوف تكون متبادلة . انا املك سراً يتصل بشخص ما . وهذا الشخص يهمك . واني لأحتفظ بالسر واضعاً اياه بتصرفك ، راغباً في ان أتشرف بأن اكون ذافائدة لك . سوف اقدم اليك الوسيلة البسيطة لكي تطرد من اسرتك النبيلة ذلك الشخص الذي لا حق له فيها ، باعتبار ان السيدة البارونة ذات محتد رفيع . إن هيكل الفضيلة لا يستطيع ان يؤوي الجريمة اكثر مما فعل من غير ان يتخلص عن مسكناته .

« أنا أنتظر في غرفة الانتظار أوامر سيدى البارون ... مع الاحترام » .

و كانت الرسالة موقعة هكذا : « تinar ».

ولم يكن ذلك التوقيع كاذباً . لقد كان مختبراً بعض الشيء ،  
ليس غير .

إلى هذا . فان ذلك الانشاء المتهافت وذلك الخط أئمّا كشف النقاب . كانت شهادة المنشأ كاملاً . ولم يكن ثمة مجال لأعماش .

وكان انفعال ماريوس عميقاً . وبعد شعور المفاجأة استحوذ عليه شعور بالسعادة . فليجد الآن الرجل الآخر الذي التمسه ، الرجل الذي انقذه ، هو ماريوس ؟ وهل كان ثمة ما شمناه غير ذلك ؟

فتح أحد ادراج مكتبه ، واخراج بعض الوراق النقدية ، ووضعها في جيوبه . واغلق درج المكتب ، وقرع السجرس . وفتح الباب نصف فتحة :

وقال ماريوس :

— أدخله . »

و نادی پاصلہ :

— ۱۰۷ —

و دخل رجل .

مفاجأة أخرى لماريوس . كان الرجل الذي دخل مجهولاً عنده بالكلية . وكان هذا الرجل - العجوز - ذا أنف ضخم ، وذقن ملتتصقة برباط رقبته ، ونظارتين خضراءين ذواتي عاكستين للنور من حرير أخضر فوق العينين ، وشعر مصقول ومملمس ، وجبين قريب إلى الحاجبين ، مثل الشعر المستعار الذي يرتديه سائقو العربات الانكليز العاملون في خدمة النساء . كان شعره أشيب . وكانت ثيابه سوداء كلها ، من أعلى الرأس

لى أخْمَصِ الْقُدْمَ ، وَكَانَتْ تَلَكَ الثِّيَابُ بِالْيَةٍ . وَلَكِنَّهَا نَظِيفَةٌ . وَكَانَتْ حَزْمَةٌ مِنَ الْجَوَاهِرِ الرَّخِيْصَةِ الْمُتَدَلِّيَةِ مِنْ جِبَبِ صَدْرِهِ تَوْحِي بِأَنَّهُ يَحْمِلُ سَاعَةً . وَكَانَ يَمْسِكُ بِيَدِهِ قَبْعَةُ عَتِيقَةٍ . وَلَقَدْ مَشَى فِي الْخَنَاءِ ، وَلَقَدْ زَادَ الْخَنَاءُ ظَهْرَهُ فِي الْخَفَاضِ سَلَامَةً .

وَكَانَ الَّذِي لَفَتَ نَظَرَ مَارِيوسَ لِلْوَهْلَةِ الْأُولَى أَنْ ثُوبَ هَذَا الرَّجُلِ ،  
الْخَفَاضُ اكْثَرُ مَا يَنْبَغِي . عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ مَزْرَرٌ فِي عَنَابِيَةٍ ، بَدَا  
وَكَانَهُ لَمْ يُجْعَلْ لَهُ اَصْلًا .  
وَهُنَا لَا بُدَّ مِنْ اسْتَطْرَادِ قَصِيرٍ .

كَانَ فِي بَارِيسَ ، لِذَلِكَ الْعَهْدِ . فِي مَسْكِنِ عَتِيقِ بَشَارَعِ « بُوتَرِيَّيِي » ،  
قَرْبِ دَارِ الصَّنَاعَةِ ، يَهُودِيٌّ نَابِغَةٌ مَهْنَتُهِ تَحْوِيلُ النَّذْلِ إِلَى رَجُلٍ فَاضِلٍ .  
وَلَكِنَّ لِيَسَ إِلَى فَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ جَدًّا . مَا قَدْ يَكُونُ مَرْبِكًا لِلنَّذْلِ . وَكَانَ  
ذَلِكَ التَّحْوِيلُ يُجْرَى بِالنَّظَرِ وَمِنْ غَيْرِ مَقِيَاسٍ . لَيْوَمٍ أَوْ يَوْمَيْنَ ، مُقَابِلِ  
ثَلَاثَيْنَ سَوْ يَوْمَيْاً . بِوَاسِطَةِ بَذَلَةٍ تَشَبَّهُ إِلَى أَقْصَى حَدُودِ الْإِمْكَانِ بِذَلَلَاتِ  
الْأَفَاضِلِ مِنَ النَّاسِ عَلَى الْعُمُومِ . وَكَانَ مُؤَجِّرُ الْبَذَلَاتِ هَذَا يَدْعُى « الْمَغْرِبُ »  
كَانَ لِصُورَصِ بَارِيسِ قَدْ خَلَعُوا عَلَيْهِ هَذَا الْاسْمَ ، فَهُمْ لَا يَعْرِفُونَهُ إِلَيْهِ .  
كَانَ عَنْدَهُ خَزانَةُ مَلَابِسٍ كَامِلَةٌ إِلَى حَدِّ مَا . وَكَانَ الْأَسَاءَلُ الَّتِي يَتَبَلَّبُوا  
عَنْ بَائِسَهُ مُحْتَرِمَةً تَقْرِيبًا . كَانَ سَلْعَهُ تَنقَسِمُ إِلَى صَنُوفٍ وَأَنْوَاعٍ . وَفُوقَ كُلِّ  
مَسَارٍ فِي دَكَانِهِ ، كَانَ حَالَةُ اِجْتِمَاعِيَّةٍ تَنْدَلِي بِالْيَةِ رَثَةً . فَهُنَا ثُوبُ  
الْحَاكِمِ ، وَهُنَالِكَ ثُوبُ الْكَاهِنِ ، وَهُنَالِكَ ثُوبُ الْمَصْرِفِ . وَفِي هَذِهِ  
الْزَّاوِيَةِ ثُوبُ الْجَنْدِيِّ الْمُتَقَاعِدِ ، وَفِي تَلَكَ الزَّاوِيَةِ ثُوبُ الْأَدِيبِ ،  
وَفِي مَكَانٍ أَبْعَدُ ثُوبَ رَجُلِ الدُّولَةِ . وَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يَقْدِمُ  
الْمَلَابِسَ لِلْدَّرَاماَتِيَّةِ الَّتِي يَمْثُلُهَا الْمَكْرُ في بَارِيسِ . كَانَ كَوْخَهُ هُوَ  
الْمَقْصُورَةُ الَّتِي تَنْطَلِقُ مِنْهَا الْلَّصُوصِيَّةُ ، وَيَنْقُلُبُ إِلَيْهَا الْإِخْتِلَاصُ . وَوَفْدُ  
عَلَى هَذِهِ الْخَزانَةِ نَذْلُ رَثَ الثِّيَابِ ، وَدَفَعَ ثَلَاثَيْنَ سَوْ ، وَاخْتَارَ — وَفَقَأَ  
لِلْدُورِ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يَمْثُلَهُ ذَلِكَ الْبَوْمَ — ثُوبَ الَّذِي يَلَّاتِمُهُ ، وَجَنَّ رَجَعَ

إلى الشارع كان النزل قد أمسى شخصاً ما . وفي اليوم التالي ، اعيدت الشياط في أمانة ؛ إن «المغير» الذي استودع اللصوص كل شيء لم يسرق فقط . وكانت هذه الملابس علة واحدة ، وهي أنها «لا تلائم» . كانت بوصفها غير محبطة خصيصاً لمن يلبسونها ضيقة على هذا الرجل ، فضفاضة على ذاك ، غير مناسبة لأحد . وكان كل لص متجاوز للمتوسط البشري في الصالة أو الضخامة لا يستشعر الراحة في ثياب «المغير» . إن عليه أن لا يكون بيدينا أكثر مما ينبغي ، أو هزيلاً أكثر مما ينبغي . لقد أعد العدة للرجال العاديين فحسب . وكان قد أخذ مقاييس النوع في شخص أول وغد صادفه ، ولم يكن هذا الوغد لا بيدينا ولا هزيلاً ، ولم يكن لا طويلاً ولا قصيراً . ومن هنا بعض التعديلات ، العبرة أحياناً ، التي كان زبائن «المغير» يستعينون بها لتحقيق أغراضهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . أما الشواد فلامهم الهبل ! فنوب رجل الدولة ، مثلاً ، الأسود من أعلى إلى أدنى ، والموافق وبالتالي ، قد يكون كبيراً أكثر مما ينبغي بالنسبة إلى «بيت» ، وصغيراً أكثر مما ينبغي بالنسبة إلى «كاستلسيكالا» . وكان ثوب «رجل الدولة» موضوعاً على النحو الآتي في بيان (المغير) – ونحن ننسخ ذلك نسخاً : «سترة من جوخ أسود ، وبنطلون جلدي من صوف أسود مقصّر ، وصدرة حريرية ، وحذاء عالي الساق ، وبياضات ..» وكان في الهاشم : «سفير قديم» وملحظة نسخها هنا أيضاً : «في صندوق خاص لمة مستعاره مجعدة على نحو دقيق ، ونظاراتان حضراؤان ، وجواهر زهيدة القيمة ، وقليلان صغيران من ريش الطير طول كل منها بوصة ملفوان بالقطن ..» كان هذا كله خاصاً برجل الدولة ، السفير القديم . وكان هذا الثوب كله ، إذا جاز لنا ان نصطمع الكلمة ، مضنيّ . كانت الدرزات قد اخذت في الايضااض ، وكانت عروة غير محددة تبرز في احد المرفقين ، وفوق هذا كان احد الازرار يعزز الثوب فوق صدر السترة . ولكن هذه لم

ت肯 غير مسألة ثانوية . ولما كان من الواجب أن تظل به رجم حوة داخل الثوب دائمًا ، وفوق القلب ، فقد كانت وظيفتها اختفاء الماء .

ولو أن ماريوس كان على معرفة بمؤسسات باريس الخفية إذن لتبين في الحال ، على ظهر الزائر الذي ادخله باسكت اللحظة عليه ، سترة رجل للدولة المستعارة من خزانة « المغير » .

وانقلب خيبة أمل ماريوس — لدنروبيته شخصاً آخر يدخل عليه غير الذي توقعه — إلى كراهية للوافد الجديد . وأجال بصره فيه من أعلى الرأس إلى أخمص القدم ، فيما انحنت الشخصية في افراط ، وسأله في نبرة حادة :

— « ماذا تريد؟ »

واجاب الرجل في تكشيرة أنيسة تستطيع ابتسامة التمساح الملاطفة ان تعطي فكرة عنها :

— « ييدو لي من المستحيل ان لا اكون قد حظيت حتى الآن بشرف رؤية سيدي البارون في المجتمع . انا أعتقد في الواقع اني لقيته على نحو خصوصي منذ بضع سنوات في قصر السيدة الأميرة باغراسيون ، وصالونات صاحب السمو الفيكونت دامبرى ، عضو المجلس الأعلى . . . إنها لوسيلة ناجحة دائمًا ، في حالم التصوصية والندالة ، أن تعرف شخصاً لست تعرفه .

وأضفى ماريوس ، في انتهاء ، إلى صوت هذا الرجل . وترصد نبرته وأشاراته في لففة ، ولكن خيبة أمله تعاظمت . كان لفظاً أخن ، مختلفاً كل الاختلاف عن الصوت الحاد الجاف الذي توقعه . وانحده انشداه كامل .

وقال :

— « لست اعرف لا مدام باغراسيون ، ولا مسيو دامبرى . أنا لم أطأ طوال عمري بيت هذه أو ذاك . . .

كان الجواب فطأ . ولكن الشخص اصر ، رغم ذلك ، في لطف  
— « إذن فينبغي ان اكون قد رأيت سبدي في بيت شاتوبريان !  
أنا أعرف شاتوبريان جيداً . إنه لطيف جداً . وهو يقول لي احياناً :  
تينار ، يا صديقي ، اتحب ان تشرب معي كأساً ؟  
وغداً جبين ماريوس كالحاً أكثر فأكثر :  
— « أنا لم اشرف في يوم من الايام بزيارة مسيو دو شاتوبريان .  
اختصر ! ماذا تربى ؟ »

وتجاه الصوت الاشد قسوة ، انحنى الرجل انحناء اكبر .  
- « سيدى البارون ، تنازل وأصفع الي . إن فى اميركته . فى منطقة  
باناما ، قرية تدعى لا جويما . وهذه القرية مؤلفة من بيت واحد . بيت  
ضخم ، مربع ، ذي ثلاثة ادوار بنيت من لين ، وطول كل ضلع  
من أضلاع المربع خمسة قدم ، وكل دور يرتدي اثني عشر قدمأ وراء  
الدور القائم تحته ، بحيث يترك امامه سطحة تحيط بالبناء ؛ وفي الوسط  
فناء داخلي فيه موئن ومخازن . لا نوافذ ولكن كوى . لا ابواب ، ولكن  
مراقي ، مراق للصعود من الارض إلى السطحة الأولى ، ومن الأولى إلى  
الثانية ، ومن الثانية إلى الثالثة ، مراق للهبوط إلى الفناء الداخلي . لا  
ابواب للغرف ، ولكن مداخل أفقية . لا سلام إلى الغرف ، ولكن  
مراقي . وفي الليل تغلق المداخل الافقية ، وتسحب المراقي إلى الوراء ،  
وتُسدد البنا دق القصيرة والبنادق الخفيفة من الكوى . لا وسيلة إلى  
الدخول . بيت في النهار ، قلعة في الليل . ثمانية نسمة ، تلك هي  
القرية . لم هذا الحذر كله ؟ لأن تلك المنطقة خطرة ، إنها ملائى  
بأكلة لحوم البشر . واذن فلماذا يذهب الناس إلى هناك ؟ لأن تلك المنطقة  
رائعة ، الذهب موجود هناك . »

فقطاعه ماريوس ، وكان قد شرع ينتقل من خيبة الأمل إلى فراغ الصر :

- « ما الذي جاء بك ؟ »

- « من أجل هذا ، يا سيدي البارون . أنا دبلوماسي عتيق مرافق . لقد استندتني الحضارة القديمة . أنا أحب أن أجرب التوحشين . »

- « ثم ماذا ؟ »

- « سيدي البارون ، الأنانية قانون العالم . إن المرأة الريفية الكادحة التي تشغله في النهار تستدير بين تمر العربة العامة ، أما المرأة الريفية المالكة التي تشغله في حقلها هي فلا تستدير . وكاب الفقير ينبع على الغني ، وكلب الغني ينبع على الفقير . كلّ يفكّر في مصالحه . المصلحة هي هدف الناس . الذهب هو حجر المغناطيس . »

- « وبعد ؟ إختم . »

- « أنا أرغب في الذهاب إلى « لا جويا » والاستقرار فيها . نحن ثلاثة . إن عندي زوجتي ، وابنتي الصغيرة ، وهي فتاة جميلة جداً . الرحلة طويلة وغالبة . أنا في حاجة إلى شيء من المال . »

فأله ماريوس :

- « وما علاقتي أنا بذلك ؟ »

وأنلع الرجل المجهول رقبته من خلال رباط عنقه ، وهي حركة من حركات العُقاب ، وأجاب في ابتسامة مزدوجة :

- « وادن ، فسيدي البارون لم يقرأ رسالتي ؟ »

ولم يكن ذلك بعيداً عن الصواب . فالواقع أن محتوى الرسالة فات ماريوس . لقد رأى الخط أكثر مما قرأ الكتاب . وكان لا يذكر شيئاً من ذلك ، أو يكاد . ومنذ لحظة كان مفتاح جديد قد قدم إليه . لقد لاحظ هذه الواقعة : « زوجتي ، وابنتي الصغيرة » . وسدّد عيناً فاحصة إلى الرجل المجهول . وما كان في ميسور قاض من قضاء التحقيق أن يفعل خيراً من ذلك . لقد بدا وكأنه يكمن له . وأجاب :

- « إشرح . »

وأقحم الرجل المجهول بيده في جيبي مترته ، ورفع رأسه من غير ان يقوم عموده الفقري ، مدققاً النظر بدوره في ماريوس من خلال نظارته الخضراوين .

- « ليكن ، يا سيدى البارون . سوف اشرح . إن عندي سراً اريد ان اباعك اياه . »

- « سر ؟ »

- « اجل ، سر . »

- « سر يتصل بي ؟ »

- « بعض الشيء . »

- ما هذا السر ؟ »

وتأمل ماريوس الرجل ، اكثر فأكثر ، فيما كان يصغي اليه .

فقال الرجل المجهول :

- « سوف ابدأ بالمجان . سوف ترى ان حديثي ممتع . »

- « تكلم . »

- « سيدى البارون ، إن في بيتك لصاً وسفاحاً . »

وارتعد ماريوس .

وقال :

- « في بيتي ؟ لا . »

ومسح الرجل الغريب قعده برذنه ، وتابع كلامه رابط الجأش :

- « سفاح ولص . لانتبه ، يا سيدى ، إلى أنني لا اتحدث هنا عن وقائع قدمة ، بالية ، هرمة ، يمكن ان تسقط بمرور الزمن في نظر القانون ، أو بالتوبه في نظر الله . انا اتحدث عن وقائع حديثة ، عن وقائع فعلية ، وقائع تجهلها العدالة حتى هذه الساعة . سوف أتابع . ان هذا الرجل قد تسلل إلى ثقتك ، بل إلى أسرتك تقريباً ، تحت اسم زائف . سوف اقول لك اسمه الحقيقي . وسوف اقوله لك لقاء

لا شيء ..

- « أنا مصنع إليك ..»

- « ان اسمه جان فالجان ..»

- « أعرف ذلك ..»

- « وسوف اقول لك ، لقاء لا شيء أيضاً ، من هو ..»

- « قل ..»

- « إنه أشغالٍ قديم ..»

- « أعرف ذلك ..»

- « انت تعرف ذلك منذ كان في شرف إعلامك به ..»

- « لا ، أنا اعرف ذلك من قبل ..»

وكان في نبرة ماريوس الباردة ، وهذا الجواب المزدوج . و « اعرف ذلك » . وابحازه المربي للحوار ما أنوار بعض الغضب المكتوب في نفس الرجل المجهول . ورشق ماريوس بنظرية ضاربة مختلفة ما لبث أن خبت . وعلى الرغم من سرعتها البالغة ، فإن هذه النظرة كانت واحدة من تلك النظارات التي تدرك بعد أن تُرى مرة واحدة ؛ إنها لم تفت ماريوس . إن بعض الالتباعات لا يمكن أن تنطلق إلا من تقوس عينها . ان العين ، نافذة الفكر تلك ، تتوجه بها . وليس في استطاعة النظارتين ان تخفي شيئاً . ضع زجاجة على الجحيم ، اذن .

واستأنف الرجل المجهول كلامه ، وهو يتنسم :

- « لست اسمع لنفسي ان أنا فرض سيدى البارون . وعلى اية حال ، ينبغي ان ترى اني حسن الاطلاع . والآن . ان ما اريد ان اخبرك اياه لا يعرفه احد غيري . إنه يتصل بثروة السيدة البارونة . إنه سر استثنائي . سر للبيع . أبا أقدمه إليك أولاً . ثمن رخيص . عشرون الف فرنك ..»

وقال ماريوس :

- « أنا اعرف هذا السر كما اعرف بقية الاسرار . . .  
واستشعر الشخص الحاجة إلى أن يخفي سره قليلا . . .

- « سيدى البارون ، قل عشرة آلاف فرنك ، وعندئذ انكلم . . .

- « اكرر القول انه ليس عندك شيء تحيطني به علماً . أنا اعرف ما تريده اخباري اياه . . .

وأومض في عين الرجل بريق جديد . وهتف :

- « ومع ذلك ، فينبغي ان اتعشى اليوم . إنه سر استثنائي ، اقول لك . سيدى البارون ، سوف انكلم . أنا انكلم . أعطني عشرين فرنكاً . . .

وثبّت ماريوس نظراته عليه وقال :

- « أنا أعرف سرك الاستثنائي ، تماماً كما عرفت اسم جان فالجان ، وكما عرفت اسمك . . .

- « اسمي ؟

- « نعم . . .

- « هذا ليس عسراً ، يا سيدى البارون . لقد تشرفت بكتابته إليك وإعلامك به . تينار . »

- « ... ديه . . .

- « ايه ؟

- « تينار ديه . . .

- « من هذا ؟

آمام الخطر ، يطلع الدليل . أشواكه ، ويظاهر الجُعل بالموت ، ويشكل الحرس الوطني القديم مربعاً . أما هذا الرجل فقد بدأ يضحك .

ثم إنه نقض ، بصربيه من سبابته ، ذرة من غبار عن ردن ثوبه .

---

pore — épice • وهو حيوان ثالث .

وتتابع ماريوبوس :

- « وانت أيضاً العامل جوندريت ، والكوميدي فابانتو ، والشاعر جانفلو ، والاسباني دون الفاريز ، والمرأة باليزار . »
- « أبة امرأة ؟ »
- « وكان عندك مطعم حقر في موغير ماي . »
- « مطعم ؟ ابداً . »
- « وانا اقول لك انك تيناردية . »
- « انا انكر ذلك . »
- « وانت نذل . خذ . »

واخرج ماريوبوس من جيده ورقة مالية ، وقدف بها في وجهه .

- « شكرآ ! عفواً ! خمسة فرنك ! سيدى البارون ! »
- « وأمسك الرجل بالورقة المالية ، ذاهلاً ، منحنياً في احترام ، وانشا يسألها . »

وكرر في دهش :

- « خمسة فرنك ! »

وتلجلج في همس :

- « خمسة فرنك جديدة . »

ثم هتف :

- « حسن ، فليكن . فلنأخذ راحتنا . »

وفي رشاشة قرد خلع معباه كما يخلع المرء قبعته ، راداً شعره إلى وراء مقلعاً نظاريه ، محرجاً من انهه ومنتسلماً قلمي ريش الطير اللذين تمدثنا عنهم منذ لحظة ، وللذين سبق ان رأيناهم في صفحة اخسرى من هذا الكتاب .

والتمعت عينه . وبرز جيئه مثليماً ، غير مستوي ، محدباً في مواطن ، مغضضاً من فوق على نحو بشع . وغدا انه حاداً مثل منقار . وتبعدت

من جديد الصورة الجانبية الضاربة الذكية الخاصة بالجوارح من الناس .

وفي صوت صاف لم تبق فيه أياما خنة ، قال :  
— « ان سيدى البارون معصوم عن الخطأ . أنا بيشارديه . »  
وقدم ظهره المنحني .

كان بيشارديه — فقد كان هذا الرجل هو بيشارديه حقاً — مندهشاً على نحو غريب ، ولقد كان خليقاً به أن يضطرب ويقلق لو ان ذلك ممکن بالنسبة اليه . كان قد وفد ليُوقع الدھش ، فإذا به يتلقاه . وهذه الاھانة عادت عليه بخمسة فرنك ، ولقد قبلها بعد ان قلب الأمر على مختلف وجوهه . ولكنه ظل مع ذلك منذهلاً .

لقد رأى البارون بونيرسي هذا للمرة الأولى : وعلى الرغم من تذكره عرفه البارون بونيرسي ، وعرفه معرفة كاملة . ولم يكن هذا البارون تام الاطلاع على كل ما يتصل بيشارديه فحسب ولكنه بدا كاملاً الاطلاع على كل ما يتصل بجان فالجان أيضاً . من كان هذا الشاب . الأمرد أو يكاد ، المثلوج إلى أبعد الحدود والسعادي إلى أبعد الحدود : الذي يعرف اسماء الناس ، الذي يعرف جميع اسمائهم ، والذي يفتح حافظة نقوده لهم ، والذي يهين الأوغاد مثل قاضٍ ويدفع اليهم المال مثل أحمق ؟

والقاريء يذكر ان بيشارديه ، على الرغم من انه كان جاراً لماريوس . لم يقدّر له قط أن يراه ، وهو امر مألف في باريس . لقد سمع ذات مرة بناته يتحدثن عن شاب فقير جداً يدعى ماريوس كان يسكن في المتزل نفسه . وكان قد كتب اليه ، من غير ان يعرفه ، الرسالة التي نعرفها . لم يكن ممكناً ان تقوم في ذهنه أياماً صلة بين ماريوس والسيد بارون بونيرسي .

أما فيما يتصل باسم بونيرسي فالقاريء يذكر ان بيشارديه لم يسمع

منه ، في ساحة القتال بواترلو ، غير المقطعين الآخرين الذين كان ينظر اليها دائمًا نظرة الازدراء الشرعي التي نوجهاها عادة لما هو مجرد شكر ليس غير .

ولى هذا ، فمن خلال ابنته آزيلما التي كان كلفها بتعقب أثر العروسين يوم السادس عشر من شباط ، ومن خلال مباحثه الخاصة ، كان قد وفق إلى اكتشاف أشياء كثيرة . ومن اعتقاد ظالمته كان قد وفق إلى الامساك بأكثر من خيط خفي . كان قد اكتشف ، بفضل الصناعة ، أو على الأقل حزراً ، بفضل الاستفراء ، ذلك الرجل الذي لقيه ذات يوم في البالوعة العظمى . ومن الرجل ، انتهى في سهولة إلى الاسم . لقد عرف أن السيدة البارونة بونميرسي كانت كوزيت . ولكنه اعتزم أن يكون ، من هذه الناحية ، حكيمًا . من كانت كوزيت ؟ إنه هو نفسه ما كان يدري على وجه الضبط . لقد لمح ثمة لا شرعية ما . وكانت قصة فانتين قد بدت له غامضة دائمًا ، ولكن ما الفائدة من الخوض في ذلك الموضوع ؟ لكي يتضادى ثمن سكوته ؟ كان عنده ، أو كان يحسب أن عنده ، شيء يبيعه غير مق ذلك . وجميع المظاهر تدل على أن الذهاب إلى البارون بونميرسي وكشف النقاب أمامه ، من غير ما دليل ، عن هذا الأمر : فوجئت ابنة زفا لن يجدب غير حذاء الزوج إلى ظهر الكاشف .

كانت المعادنة مع ماريوس لما تبدأ بعد في نظر تينارديه . لقد اضطر إلى التراجع ، إلى تعديل استراتيجيته ، إلى اخلاء موقع ، أو تغيير جبهة ، ولكنه لم ينسر شيئاً أساسياً ما ، ولقد كانت في جيشه خمسينه فرنك : وإلى هذا ، فقد كان لديه شيء حاسم يقوله . وحتى أمام هذا البارون بونميرسي المطلع إلى أبعد الحدود المسلح إلى أبعد الحدود ، استشعر أنه قوي . إن كل حوار هو معركة في عرف من كانت له طبيعة كطبيعة تينارديه . وفي ذلك الصراع الذي يوشك ان

ينشب ، ما كان وضعه ؟ إنه ما كان يعرف من مخاطب ، ولكنه كان يعرف عنمن كان يخاطبه . واجرى على نحو خاطف هذا الاستعراض الباطني لقواه ، وبعد ان قال : أنا تيارديه ، تمهل .

وظل ماريوس مستغرقاً في التفكير . لقد أمسك ، آخر الأمر ، اذن ، بتيارديه . هذا الرجل الذي طالما ود لو يعثر عليه من جديد كان الآن أمامه . ان في ميسوره اذن ان ينفذ وصية الكولونيل بونغرس . وأخزاه ان يكون هذا البطل مدیناً بشيء ما لهذا اللص ، وان يظل سند الدفع الذي حواله اليه ابوه من اعماق قبره غير مدفوع حتى ذلك اليوم . لقد بدا له أيضاً ، في الحالة المعقّدة التي ألمت بذهنه في ما يتصل بتيارديه ، ان هنا فرصة مناسبة للانتقام للكولونيل من نكد الطالع ذاك الذي جعله مدیناً بحباته مثل هذا الوغد . واياً ما كان ، فقد كان يشعر بالارتياب . كان على وشك ان ينفذ طيف الكولونيل ، آخر الأمر ، من هذا الدائن غير الجدير به ، وتراءى له انه يوشك ان يحرر ذكرى أبيه من السجن بسبب الدين .

وإلى جانب هذا الواجب كان عليه واجب آخر : ان يلقي الضوء - إذا استطاع - على مصدر ثروة كوزيت . لقد بدا وكأن الفرصة قد ستحت لذلك . ومن يدرى ، فعلم تيارديه يعرف شيئاً ما . وقد يكون من المفيد سر هذا الرجل حتى الأعماق ، وببدأ من هنا . كان تيارديه قد أزل « الخمسة فرنك الجدية » في جيب صدرته ، وكان ينظر إلى ماريوس في وداعه تقاد تكون حنناً .

وقطع ماريوس حل الصمت :

- « تيارديه ، لقد قلت لك اسمك . والآن هل تريد مني ان أعلمك بسره ، بذلك الذي جئت تخبرني به ؟ ان لي انا أيضاً استعلاماتي وسوف ترى اني اعرف عن ذلك اكثر مما تعرف انت . إن بيان فالجان كما قلت ، سفاح ولص . لص ، لأنه سرق صناعياً شيئاً ، سبيلاً

مادلين ، كان هو سبب افلاسه . وسفاخ ، لأنه سفع دم ضابط الشرطة ،  
جافير . »

فقال تينارديه :

— « لست افهم ، يا سيدي البارون . »

— « سوف اوضح كلامي . اسمع . كان في مقاطعة الـ « با دوكاليه »  
حوالى ١٨٢٢ ، رجل كانت له مشكلة قديمة مع العدالة ، وكان قد  
تاب وأصلح متخدناً اسم مسيو مادلين . كان قد امسى رجلاً مستقيماً ،  
 بكل ما في الكلمة من معنى . وبواسطة احدى الصناعات . صناعة الخرز  
الأسود ، كان قد انشأ ثروة مدينة بكمالها . اما ثروته الخاصة . فكانت  
قد انشأها أيضاً ، ولكن على نحو ثانوي . ويوجه ما . ينصحه . كان  
أبا القراء الحاني . لقد اسر مستثقبات . وفتح متاريس . وعدد  
المرضى ، ومنح البائنة للفتيات ، وأعان الأرامل على تعيش . ويشتّي  
الآيات . كان اشبه ما يكون بوصي على المنطقة . وكان قد رفض توصيم .  
وكان قد اختبر عمدة . وعرف أشغالى مطلق السراح سر عقوبة آتزلت  
ذات يوم بهذا الرجل . وسعى به عند السلطة ، فاعتقل . وافاد من  
اعتقاله فوفد على باريس وسحب من لافت المصرفى — لقد عرفت هذه  
الواقعة من امن الصندوق نفسه — بتوجيه زائف مبلغاً يزيد على نصف  
مليون كان ملكاً لمسيو مادلين . وهذا الاشغالى الذي سرق مسيو مادلين  
هو جان فالجان . أما في ما يتصل بالواقعة الأخرى فليس عنده ما تخبرني  
به أيضاً . لقد قتل جان فالجان جافير . قتله بغدرة . وانا ، انا الذي  
اخاطلك ، كنت حاضراً . »

والتي تينارديه على ماريوم تلك النظرة الرائحة بالسلطان ، التي  
يلقيها رجل مهزوم أمسك بتلابيب النصر كرها اخرى ، واسترجع منذ  
لحظة ، وفي دقيقة واحدة ، كامل الأرض التي خسرها . ولكن الابتسامة  
ما لبثت أن عادت في الحال . ان الادنى لا يستطيع ان يتزعزع من

الارفع غير انتصار رقيق ، واجترأ تينارديه بأن قال ماريوس :

— « سيدى البارون ، نحن نضل الطريق . »

واكد هذه العبارة بأن راح يدير حزمة جواهره الرخيصة على نحو معبر .

واجاب ماريوس :

— « ماذا ! هل تنكر ذلك ؟ هذه حقائق . »

— « إنها أوهام . إن الثقة التي يشرفي بها سيدى البارون تجعل من واجبى ان اقول له ذلك . الحقيقة والعدالة قبل كل شيء . أنا لا احب ان ارى الناس يتهمون اتهاماً ظالماً . سيدى البارون ، إن جان فالجان لم يسرق مسيو مادلين قط ، وجان فالجان لم يقتل جافير فقط . »

— « انت تتحدث في قوة ! كيف ذلك ؟ »

— « لسبعين اثنين . »

— « ما هما ؟ تكلم . »

— « هوذا الأول : إنه لم يسرق مسيو مادلين ، لأن مسيو مادلين لم يكن غير جان فالجان نفسه . »

— « ما هذا الذي تقوله لي ؟ »

— « وهوذا الثاني : إنه لم يقتل جافير ، لأن الذي قتل جافير هو جافير . »

— « ماذا تعنى ؟ »

— « إن جافير اتحر . »

فصاح ماريوس وقد استبد به القلق والاضطراب :

— « برهن ذلك ! برهن ذلك ! »

فاستأنف تينارديه الكلام مقطعاً جملته كما يقطع وزن الشعر الالكتندرى القديم :

— « ان — رجل — الشر — طة — جا — فير — قد — وجد — غري — قتا —

تحت - قارب - قرب - جسر - الشا - نج .  
- « برهن ذلك اذن ! »

واخرج تينارديه من جيده ظرفاً ضخماً رمادي الورق بدا وكأنه ينطوي على أوراق مطوية ذات أحجام متغيرة .

وقال في هدوء :  
- « ان عندي وثائقى . »

وأضاف :

- « سيدى البارون . من أجل مصلحتك اردت ان اعرف جان فالجان حتى القعر . انا اقول إن جان فالجان ومادلين شخص واحد ; وانا اقول ان جافير لم يقتله احد غير جافير . وحين اتكلم اقدم البراهين على كلامي . لا براهين خطوطه ، فالكتابة موضع ارتياح . الكتابة ملطفة ، ولكن براهين مطبوعة . »

وفيها كان تينارديه يتكلم اخرج من الظرف صحفيتين . صفر اوين . ذايلين ، مشبعتين بالتبغ إشبعاً قوياً . وكانت احدى هاتين الصحفيتين ، المنكسرة عند طياتها جميعاً ، المتساقطة قطعاً مربعة ، تبدو اشد عنقاً من الاخرى .

وقال تينارديه :

- « حقيقةتان ، وبرهانان . »  
نشر الصحفيتين ، وقدمهما إلى ماريوس .  
والقاريء يعرف هاتين الصحفيتين . إن أحدهما وهي القدم - نسخة من عدد « الراية البيضاء » الصادر في ٢٥ تموز ١٨٢٣ والمنطوي على نص يستطبع القاريء ان يجده على الصفحة ١٠٢ من المجلد الثاني من هذا الكتاب - تقييم الدليل على ان مسيو مادلين وجان فالجان شخص واحد . والثانية ، عدد صحيفة « المونيتور » الصادر في ١٥ حزيران ١٨٣٢ ، ثبتت انتحار جافير ، وتضييف قائلة إنه يستفاد من تقرير شفهي

قدمه جافير إلى مدير الشرطة ان جافير ، وقد أسر في متراس شارع الشانفرييري ، كان مديناً بمحاجاته لشهامة متزد عمد ، على الرغم من انه - جافير - كان تحت رحمة غدارته ، إلى اطلاق النار في الهواء بدلاً من اطلاقها على رأسه .

وقرأ ماريوس . كان ثمة دليل ، وتاريخ ثابت ، وبرهان لا سبيل إلى الشك فيه . إن هاتين الصحفتين لم تطبعاً خصيصاً لتأييد أقوال تيناردييه . وكانت الكلمة المنشورة في الـ «مونيتور» بلاغاً رسمياً صادراً من مديرية الشرطة . ولم يكن في ميسور ماريوس ان يشك . كانت المعلومات التي استمدتها من أمين الصندوق الموظف في المصرف خاطئة ، وكان هو نفسه مخدوعاً . وانبثق جان فالجان - وقد تعاظم فجأة - من وسط السحب . ولم يستطع ماريوس ان يكتم صبيحة فرح : - « حسن ، اذن ، فهذا الرجل التعمس رجل رائع . لقد كانت تلك الثروة كلها ثروته حقاً ! انه مادلين ، التعمدة المقيدة لمنطقة برمتها ! إنه جان فالجان ، منقذ جافير ! إنه بطل ! إنه قدّيس ! »

قال تيناردييه :

- « إنه ليس قدّيساً ، وإنه ليس بطلاً . إنه سفاح ولص . »  
وأضاف في نبرة رجل شرع يستشعر بعض السلطان :  
- « فلنكن هادئين . »  
لص ، سفاح ؟ كانت هاتان الكلمتان اللتان افترض ماريوس أنها اختفتا ، والثانية رجعنا كرهاً أخرى ، قد سقطتا عليه كسقوط وايل مثلوج .

قال :

- « أيضاً . »

فأجاب تيناردييه :

— « أجل ! إن جان فالجان لم يسرق مادلين ، ولكنه لص . إنه **يقتل جاifer ولكنه سفاح** .. فعاد ماريوبس إلى القول :

— « أتريد أن تتكلّم عن تلك السرقة التافهة التي قام بها منذ أربعين سنة ، والتي كفَّرت عنها ، كما يستفاد من صحيفتيك نفسهاها ، حياة كاملة من التوبة ، وانكار الذات ، والفضيلة ؟ »

— « لقد قلت سرقة وقتلا . وانا اكرر اني اتكلّم عن وقائع حقيقة . إن ما اريد ان اكشف لك النقاب عنه مجهول تماماً . إنه مما لم ينشر من قبل . ولعلك ان تجده في مصدر الثروة التي قدمها جان فالجان ، في حدق ، إلى السيدة البارونة . أقول في حدق ، لأن انسلاله ببيبة من هذا النوع إلى بيت شريف سوف يشارك هو في مناعمه ، وانخفاضه في الوقت نفسه جريمة . واستمتعاه بسرقه ، ودفنه اسمه ، واحتلّاق اسرة نفسه ... كل ذلك ليس شيئاً نعوزه البراعة كثيراً . »

فلاحظ ماريوبس قائلاً :

— « في ميسوري ان افاطرك هنا . ولكن أكمل . »

— « سيدى البارون ، سوف اخبرك بكل شيء . تركتك سكرفة على كرمك . إن هذا السر يساوى كومة من الذهب . سوف تقوّي يديك لماذا لم تذهب إلى جان فالجان ؟ لسبب بسيط جداً : أنا أعرف أنه تخفي عن كل شيء ، وتخلى عن كل شيء لصالحك ، وأنا أرى أن ذلك التدبير بارع ؛ ولكنه لم يبق معه درهم واحد ؛ إنه سوف يربّي يديه الفارغتين ، ولما كنت في حاجة إلى شيء من المال من أجل رحلتي إلى « لا جوريا » ، فأنا افضلك ، انت الذي تملك كل شيء ، عليه ، هو الذي لا يملك شيئاً . أنا متّعب بعض الشيء ، اسمع لي بأن اجلس . »

وجلس ماريوبس ، واوْمأ اليه أن يجلس .

لقد اصتقر تينارديه في كرسي مزود بخشبة ، واستعاد صحيفتيه ،

وأقحمهما في الظرف ، وغمم ناقرًا «الراية البيضاء» بظفره : «لقد اقتضاني الحصول على هذه جهادًا شاقًا .» قال ذلك ، ووضع رجلا على رجل ، واستلقى على ظهر كرسيه ، وهو وضع تميز للناس الوافدين مما يقولون ، ثم دخل في الموضوع في نبرة من الجد ، موكداً الكلمات :

— « سيدى الباورن ، في اليوم السادس من حزيران ، ١٨٣٢ ، منذ ستة تقوياً ، وفي يوم الفتنة ، كان رجل في بالوعة باريس العظمى ، هرب مصب بالوعة في الـ «سين» ، بين جسر الانفالد وجسر اينا ، وفجأة قرُب ماريوس كرسيه إلى كرسى تيارديه . لاحظ تيارديه هذه الحركة ، وتتابع كلامه في توعدة متهدّث مسيطر على من يخاطبه ، مستشعر خفقات قلب خصمه تحت كلماته :

— « كان هذا الرجل ، المصطرك إلى إخفاء نفسه ، لأسباب لا صلة لها بالسياسة ، قد اتخذ من بالوعة مأوى له ، وكان يملك مفتاحاً لها . وكان ذلك — وأنا أكرر هذا — في السادس من حزيران . ولعل الساعة كانت الثامنة مساء . وسمع الرجل صوتاً في بالوعة . واد اخذه الدهش الشديد ، فقد اختبأ ، وترصد . كان وقع خطى ؛ ان شخصاً كان يمشي في الظلام ؛ ان شخصاً كان يتقدم نحوه . شيء غريب ، لقد كان ثمة في بالوعة شخص آخر غيره . ولم تكن شبكة منفذ بالوعة بعيدة . ومكنته الضوء الضئيل النافذ من خلالها من ان يتبنى الوارد الجديد ، وان يرى انه كان يحمل على ظهره شيئاً . لقد مشى محدودياً . وكان الرجل الماشي محدودياً رجلاً حكم عليه سابقاً بالأشغال الشاقة ، وكان ما حمله على كتفيه جثة . قتل بال مجرم المشهود ، إذا كان ثمة شيء مثل ذلك . أما السرقة فتتبع طبعاً . فالمروع لا يقتل رجلاً من أجل لا شيء . وكان ذلك الاشتغال يعتزم ان يلقى الجثة في النهر . ولأنهاحقيقة جديرة بالذكر أن هذا الاشتغال الذي اقبل من مكان بعيد في بالوعة كان قد اضطرره

قبل ان يصل الى متقدمه . يحيى بن بختو موحلاً يهـ ١٠٠  
يعترم ترك الجنة فيه . ولكن في هذه الاختلاف . كـ حبيـه ورـاحـه ورـجـعـه  
العاملين في المohl . أن يجدوا في اليوم التالي جنة للرجل المقتول . ويـسـتـ  
هذه بغية القاتل . من أجل ذلك آثر ان يمضي بحمله عبر المohl . ولا  
ريب في ان جهوده التي بذلها كانت رهيبة . ومن المستحيل تعریض  
حياة امرئ لخطر اعظم من ذلك . أنا لا أفهم كيف خرج من هناك  
حـاـ

وأقرب كرسى ماريوس اقرباً أضافياً . واغتنم تinarديه هذه الفرصة  
لـki يأخذ نفساً طويلاً . ثم أكمل :

— « سيدى البارون ، البالوعة ليست الشان دو مارس .. إن المرء  
يعوزه كل شيء هناك . حتى المجال . وحين يكون رجلان في البالوعة  
فلا بد لهما من ان يلتقيا . وهذا ما حدث . واضطرب المقيم وعابر  
السييل إلى ان يتبدلا التحية . على تكره منها لذلك . وقال عابر السييل  
المقيم : « انت ترى ما أحمله على ظهري . إن عليّ ان اخرج . ان  
معك المفتاح . أعطني اياه . » وكان ذلك الاشتغال برجلا ذا قوة فظيعة .  
ولم يكن الرفض ممكناً . ومع ذلك ، فقد عمد صاحب المفتاح إلى المقاومة  
ابتغاء كسب الوقت ليس غير . لقد فحص الرجل الميت . ولكنّه لم  
يستطيع ان يرى شيئاً . ما خلا انه كان شاباً . حسن البرزة ، غنياً في  
ما يظهر . مشوهاً بالدم تشوهاً كاملاً . وفيها هو يتحدث وجد  
وسيلة إلى ان يقطع ويترعرع من وراء ، دون ان يلاحظ القاتل ذلك ،  
جزءاً من سترة القتيل . وثيقة مؤيدة للتهمة ، كما تعلم . وسيلة لتعقب  
آثار المسألة . ولأقامة الدليل على جريمة المجرم . ووضع تلك الوثيقة  
في جيبي . وبعد ذلك فتح الشباكة الحديدية ، ومكّن الرجل من الخروج  
وحمله على ظهره . واقفل الشباكة من جديد وفرّ ، حريراً اقبل  
المحرص على ان يتورط في بقية المغامرة ، وغير راغب على الخصوص

في أن يكون حاضراً حين يلقى القساتل القتيلَ في النهر . انت تفهم الآن . ان ذلك الذي كان يحمل الجثة ، هو جان فالجان . وذلك الذي كان يحمل المفتاح يخاطبك الآن ، والقطعة المتزعة من السترة ... .

وانهى تيارديه العبارة بأن سحب من جيده ، ورفع إلى مستوى عينيه بين إيماته وسبابته ، قطعة من جوخ اسود بال ، مقطأة كلها يقع داكنة .

كان ماريوس قد نهض ، شاحباً ، مبهوراً ، مسدداً العين إلى قطعة الجوخ الأسود . ومن غير أن ينطق بكلمة ، ومن غير أن يعرف عينه عن هذه المزقة ، تراجع إلى الجدار ؛ وبيده اليمني المدودة خلفه راح يتلمس الجدار باحثاً عن مفتاح كان في قفل خزانة قائمة قرب الموقد . ووجد ذلك المفتاح ، وفتح الخزانة ، واقحم ذراعه فيها من غير أن ينظر ، ومن غير أن يعرف عينيه المذعورتين عن المزقة التي كان تبتارديه يعرضها عرضاً .

وَفِي غَضْوَنِ ذَلِكَ تَابِعٌ تِبْنَارَدِيَّهُ كَلَامَهُ :

- « سيدى البارون ، أن عندي أقوى الاسباب للاعتقاد بأن القتيل الشاب كان غريباً مثرياً استدرجه جان فالجان إلى فخ ، وحمله مبلغ مالي ضخم . »

وهنا صاح ماربوس ، طارحاً على السجادة سترة عتيقة سوداء ملطخة كلها بالدم :

- « هذا الشاب هو أنا . وهذه هي السرّة ! »  
 ثم انزع المزقة من بين يدي تيارديه ، والتحى فوق السرّة .  
 ووضع تلك الخرقة في المكان المزق منها . وتلاعث أطرافها تلاؤماً  
 كاملاً . إن المزقة قد أكملت السرّة .  
 وتحجَّ تيارديه . وقال في ذات نفسه : « لقد هزمت .

ونهض ماريوس ، مرتعداً ، يائساً ، متألقاً .  
وتحت في جيئه ، ومشى ، هائجاً ، نحو تينارديه ، مقدماً اليه ،  
بل دافعاً نحو وجهه تقريراً ، قبضته الملأى بالأوراق المالية ذات الخمسة  
فرنك والالف فرنك .

— « أنت نذل ! أنت كذاب ، مفترٌ ، مجرم . لقد جئت تتهم  
هذا الرجل ، فبرأته ». اردتَ ان تحطمته فلم توفق إلا إلى تمجيده .  
وانما أنت ، أنت اللص ! وإنما انت ، أنت السفاح ! لقد رأيتكم ،  
يا تينارديه ، يا جوندريت ، في ذلك الوكر الذي في «جادة المستشفى» .  
أنا اعرف عنك ما يكفي لارسالك إلى سجن الاشغال الشاقة . بل إلى  
أبعد من ذلك ، إذا شئت . خذ ، هذه الف فرنك ، ايهما المتحذلق  
الشقسي ! »

وقذف بورقة الف فرنك إلى تينارديه .

— « آه ! جوندريت تينارديه ، ايهما النذل الخسيس ! ليكن ذلك  
درساً لك ، ايهما المتعيش بالأسرار ، المتاجر بالخفايا ، الباحث في الظلام !  
و Gund ! خذ هذه الخمسة فرنك ، واترك هذا المكان . ولتصنُّك  
واترلو . »

وغنم تينارديه واضحاً الخمسة فرنك في جيئه مع الالف فرنك :  
— « واترلو ! »

— « اجل ، ايهما السفاح ! لقد انقذتَ هناك حياة كولونيل ... »  
قال تينارديه رافعاً رأسه :  
— « حياة جنرال . »

فأجاب ماريوس في هياج :

— « حياة كولونيل . أنا لا ادفع فاساً واحداً من اجل جنرال .  
وبحثت إلى هنا لكي ترتكب مخازيك ! اقول لك انك اقترفت الجرائم  
جميعها . اذهب ! اغرب عن وجهي ! كن سعيداً بمفردك ، هذا كل

ما ارحب فيه . آه ! ايها المولة ! لا يزال هناك ثلاثة آلاف فرنك .  
خذها . سوف تسفر غداً إلى اميركة ، مع ابنتك ، لأن امرأتك قد  
ماتت ، ايها الكذاب المقيت ! سوف اتدبر أمر سفرك ، ايها اللص ،  
ولسوف ادفع لك ، عندئذ ، عشرين الف فرنك . اذهب وعرّض نفسك  
للشتق في مكان آخر . »

فقال ماريوس ، وهو ينحني حتى الارض :

— « سيدى البارون ، أنا اعترف بجميلك إلى الأبد . »  
وخرج تينارديه ، غير فاهم شيئاً ، ذاهلاً ومنتشياً بهذا الانسحاق  
العذب تحت اكياس الذهب وبهذه الصاعقة المنفجرة فوق رأسه او راقداً  
نقدية .

كان مصعوقاً ، ولكنه كان سعيداً أيضاً . ولقد كان خليقاً به أن  
يغضب غضباً شديداً لو أعطى مانعة صواعق بدلاً من تلك الصاعقة .  
فلننته من هذا الرجل في الحال . فيبعد يومين انقضيا على الاحداث  
 التي نرويها في هذه اللحظة ، سافر ، باشراف ماريوس وعناته ، إلى  
 اميركة ، تحت اسم زائف ، تصوجه ابنته آزيليا ، وفي جيده حواله على  
 نيويورك بعشرين الف فرنك . ولكن تينارديه ، شقاء تينارديه الأخلاقي ،  
 هذا البورجوازي المنهار ، كان ممتنعاً على العلاج . كان في اميركة ما  
 كانه في اوروبة . إن لمسة من رجل شرير كثيرةً ما تكفي لأفساد عمل  
 صالح واستخراج شيء رديء منه . فبأموال ماريوس ، أمسى تينارديه  
 نخاساً .

وما ان خرج تينارديه ، حتى هرع ماريوس إلى الحديقة حيث كانت  
 كوزيت لا تزال تتمشى .

وصاح :

— « كوزيت ! كوزيت ! تعالى ، تعالى بسرعة . فلنذهب .  
 باسك ، إيتنا بعربة كراء ! كوزيت ، تعالى . اوه ، يا التّهي ! إنه

هو الذي انقضى حياتي ! ينبغي أن لا نصيغ دقيقة واحدة ! ضعيف شالك عليك . . .  
وحيسته كوزيت محبولا ، وأطاعت .

ولم يأخذ نفسا ، ووضع يده على قلبه لكي يكتب خفقاته . وأنثا بذراع المكان جيئة وذهوبا في خطى واسعة ، وعائنة كوزيت قائلة :

« أوه ! كوزيت ! أنا رجل تعس ! »  
كان ماريوس ذاهلا . لقد بدأ يرى في جان فالجان هذا صورة معزولة شاحنة على نحو غريب . وبرزت امامه فضيلة لا تضاهى ، فضيلة سنية ووديعة ، متواضعة في عظمتها . لقد تحول الاشغال إلى بسوع المسيح . وُشِّدَ ماريوس بهذه العجزة . إنه لم يدر على وجه الضبط ما قد رأى ، ولكن ما رأه كان جليلا .

وفي لحظة ، كانت احدى عربات الكراء بالباب .  
واسعد ماريوس كوزيت في امتنانه من العزبة ، ثم وثب هو إليها .  
وقال :

« إلى شارع الرجل المسلح ، رقم ٧ ، إيمان السائق . »  
وانطلقت العربة .

وقالت كوزيت :

« أوه ! يا للسعادة ! شارع الرجل المسلح ! أنا لم أجرو على  
أن أحديث عنه كرة أخرى . إننا سوف نرى مسيو جان . »

« أبوك ! كوزيت ، أبوك أكثر منه في إيمانا وقت مضى .  
كوزيت ، لقد حزرت . لقد أخبرتني إنك لم تتسلمي قط الرسالة التي  
وجهتها إليك مع غافروش . لا بد أنها قد وقعت في يديه . كوزيت ،  
لقد مضى إلى المتراس لكي ينقدني . وازدَّ كان شيئاً ضرورياً عنده أن  
يكون ملائكا ، فقد أفقد - خلال ذلك - الآخرين أيضا . لقد انقضى

جاifer . لقد اخطفني من تلك الهوة لكي ينحث ايدي . لقد حملني على ظهره في تلك البالوعة الرهيبة . اوه ! أنا كافر بالنعمة على نحو رهيب . كوزيت ، لقد كان هو العناية الاللهية بالنسبة الي ، بعد ان كان العناية الاللهية بالنسبة اليك . حسبك ان تفكري انه كان منه موحلاً غيف كاف لاغراقه مئة مرة ، لاغراقه في الوحل ، يا كوزيت ، وانه حملني عبر ذلك المohl . كنت غائباً عن الوعي ، انا لم ار شيئاً ، انا لم اسمع شيئاً ، ولم يكن في ميسوري ان اعرف شيئاً عن مصربي نفسه . سوف ترجع به الى بيتنا ، سوف نصطحبه ، سواء أرضي أم لا ، ولن يتركنا بعد اليوم ابداً . شرط أن يكون في المنزل فقط ! شرط ان نجلسه فقط ! أنا على استعداد لأن أتفق بقيمة عمري في توقيره واجلاله . أجل ، لا شك ان هذا ما وقع ، ألا ترى من يا كوزيت ؟ لا ريب في ان غافروش قد أسلمه رسالي . لقد فسر كل شيء . أنت تفهمين : »

ولم تفهم كوزيت كلمة .

وقالت له :

- « لقد أصبت . »

وهي غضون ذلك ، جرت العربة .

## ٥

### ليل يعقبه فجر

وأدأر جان فالجان رأسه لدن سباعه قرعاً على باب غرفته .

وقال في وهن :

- « أدخل . »

وفتح الباب . وبرزت كوزيت وماريوس .  
واندفعت كوزيت إلى الغرفة .

وظل ماريوس على العتبة ، متكتأً على قائمة الباب .  
- « كوزيت ! »

قال جان فالجان ذلك ، ونهض في كرسيه ، باسط النراugin ،  
مرتعداً ، ذاهلاً ، شديد الشحوب ، كالمع الوجه ، مفعم العينين بابتهاج  
عظيم .

وارتمت كوزيت ، وقد خنقها الانفعال ، على صدر جان فالجان .  
وقالت :

- « أبي ! »

ونعمت جان فالجان ، وقد استبد به اضطراب عاصف :  
- « كوزيت ! هي ؟ أنت ، ايتها السيدة ! هذا أنت ! آه ،  
يا الهسي ! »

وهتف ، وهو مهصور بين ذراعي كوزيت :

- « هذا أنت ! أنت هنا ! أنت تغرين لي أذن ! »

وخفض ماريوس جفنيه لكي يمنع دموعه من التحدّر ، وتقديم خطوة ،  
وغمغم بين شفتيه اللتين كانتا متقلصتين في تشنج لكي تكينا  
الزفرات :

- « أبي ! »

قال جان فالجان :

- « وأنت أيضاً تغرنني ! »

ولم يستطع ماريوس أن يقول كلمة . واضاف جان فالجان :

- « شكرآ ! »

ونزعت كوزيت ثالثاً ، وطرحت قبعتها على السرير .

وقالت :

- « إنها يضايقاني : »

وجلست على ركبي العجوز . وبحركة فاتنة ازاحت شعره الاشيب ،  
وطبعت على جبينه قبلة .

ولم يدِّ جان فالجان ، في انشاده ، اما معارضه .  
وضاعفت كوزيت - التي لم تفهم ذلك إلا فهماً مشوشاً - ملاطفاتها ،  
وكأنما كانت تريد ان تفني دين ماريوس ؟  
وتلجلج جان فالجان :

- « ما احمق الانسان ! لقد ظنتت أنني لن أراها ثانية البتة . حسبك  
ان تفكـر ، يا مسيـو بونـغـريـسي ، انـي كـنـتـ اقول لـنـفـسي ، لـحظـةـ دـخـلـتـهاـ:  
فـضـيـ الـأـمـرـ .ـ هـوـذـاـ ثـوـبـهاـ الصـغـيرـ ،ـ أـنـاـ رـجـلـ باـئـسـ ،ـ أـنـاـ لـنـ اـرـىـ كـوـزـيـتـ  
بعـدـ الـيـوـمـ .ـ كـنـتـ اـقـولـ هـذـاـ وـأـنـتـاـ تـرـتـقـيـاـنـ السـلـمـ .ـ هـلـ كـنـتـ أـبـلـسـ ؟ـ  
أـجـلـ ،ـ مـاـ أـكـثـرـ مـاـ يـصـيـبـنـاـ الـبـلـهـ !ـ وـلـكـنـاـ لـاـ نـدـخـلـ اللهـ فـيـ الحـسـابـ .ـ  
يـقـولـ اللهـ :ـ اـنـتـ تـظـنـ اـنـكـ سـوـفـ تـهـجـرـ وـيـخـلـ عـنـكـ ،ـ اـيـهاـ الـاحـمـقـ ؟ـ  
لـاـ .ـ لـاـ ،ـ اـنـ الـامـورـ لـنـ تـجـرـيـ عـلـىـ هـذـهـ الشـاكـلـ .ـ هـيـاـ ،ـ إـنـ ثـمـ رـجـلـاـ  
باـئـسـاـ فـيـ حـاجـةـ إـلـىـ مـلـاـكـ .ـ وـيـجـيـءـ المـلـاـكـ ،ـ وـأـرـىـ كـوـزـيـتـ مـنـ جـدـيدـ !ـ  
وـارـىـ حـبـيـتـيـ كـوـزـيـتـ مـنـ جـدـيدـ !ـ أـوـهـ !ـ لـقـدـ كـنـتـ باـئـسـاـ جـدـاـ !ـ»

وظل لحظة عاجزاً عن الكلام ، ثم تابع :

- « كـنـتـ حـقاـ فيـ حـاجـةـ إـلـىـ أـنـ أـرـىـ كـوـزـيـتـ ،ـ فـتـرـةـ قـصـيـرـةـ ،ـ بـيـنـ  
الـفـيـنـيـةـ وـالـفـيـنـيـةـ .ـ اـنـ القـلـبـ لـيـحـتـاجـ إـلـىـ عـظـمـ يـقـرـضـهـ .ـ وـمـعـ ذـلـكـ ،ـ فـقـدـ  
شـعـرـتـ جـيـداـ أـنـيـ عـقـبـةـ فـيـ الطـرـيـقـ .ـ وـقـدـمـتـ إـلـىـ نـفـسـيـ اـعـذـارـاـ :ـ لـنـمـ  
فـيـ غـيـرـ حـاجـةـ إـلـىـكـ ؟ـ إـبـقـ فيـ زـاوـيـتـكـ ؟ـ لـيـسـ لـكـ الـحـقـ فـيـ الـبقاءـ إـلـىـ  
الـاـبـدـ .ـ آـهـ !ـ تـبـارـكـ اللهـ ،ـ إـنـيـ اـرـاـهـاـ مـنـ جـدـيدـ !ـ هـلـ تـعـرـفـنـ ،ـ يـاـ  
كـوـزـيـتـ ،ـ اـنـ زـوـجـكـ وـسـيـمـ جـدـاـ ؟ـ آـهـ !ـ اـنـ طـوـقـ ثـوـبـكـ الـمـوـشـيـ لـجـمـيلـ :ـ  
نـعـمـ ،ـ نـعـمـ ،ـ اـنـاـ أـحـبـ هـذـاـ الرـسـمـ .ـ اـنـ زـوـجـكـ هـوـ الذـيـ اـخـتـارـهـ ،ـ  
الـيـسـ كـذـلـكـ ؟ـ وـإـلـىـ هـذـاـ ،ـ فـيـنـبـغـيـ اـنـ يـكـوـنـ عـنـدـكـ ثـيـابـ مـخـيـطـةـ مـنـ

نسيج كشمير . أبها السيد بونيرسي ، دعني اخاطبها بضمير المفرد . إن ذلك لن يلوم طويلاً . . وتابعت كوزيت من جديد :

— « كيف اجزت لنفسك أن تفارقنا على هذه الصورة ؟ إلى أين ذهبت ؟ لماذا طالت غيابك إلى هذا الحد ؟ إن رحلاتك في الأيام السابقة ما كانت تستغرق أكثر من ثلاثة أيام أو أربعة أيام . لقد أرسلتنيقوليت ، فسكن الجواب دائمًا : انه غير موجود . ومنى كانت عودتك ؟ لماذا لم تحطتنا علمًا ؟ هل تعلم انك تغيرت كثيراً ؟ آه ، يا للأب الحبيب ! لقد كان مريضاً ، ونحن لا نعرف ذلك ! ماريوس ، إلمن پده ، ما أشد بروتها ! » وكرر جان فالجان :

— « واذن فأنت هنا ! أبها السيد بونيرسي ، إنك تغفر لي ! » وعند هذه الكلمات ، التي كان جان فالجان قد أعادها لمرة الثانية ، وجد كلُّ ما فاض في قلب ماريوس متقدًا . فانفجر قائلًا :

— « كوزيت ، هل تسمعين ؟ ذلك شئه دائمًا ! إنه يتمنى سموري . وهل تعلمين أي خدمة أسدتها الي ، يا كوزيت ؟ لقد تنهى حسبي . تَمَّ فعل أكثر من ذلك . لقد اعطاني إياك . وبعد أن أتفتنني . وبعد أن اعطاني إياك ، يا كوزيت ، ما الذي فعله بنفسه ؟ لقد ضحى بشئه . هؤذا الرجل ! وهو يقول لي ، أنا الكافر بالجميل ، أنا الكثير التسبيان ، أنا العديم الرحمة ، أنا المجرم — يقول لي : شكرًا ! كوزيت ، لو انفقت حياتي كلها على قدمي هذا الرجل لكان ذلك أقل مما ينبغي . لقد اجتاز ذلك المتراس ، تلك البالوعة ، ذلك الاتون ، ذلك المستنقع ، بل لقد اجتاز كل شيء من أجلي ، من أجلك يا كوزيت ! لقد حملني عبر ضروب الموت كلها ، التي ازاحها عني وارتضاها لنفسه . إنه يتحلى بالشجاعات كلها ، بالفضائل كلها ، بالبطولات كلها ، بالقداسات كلها .

كوزيست ، إن هذا الرجل ملاك ! »

ـ « صه ! صه ! لماذا تقول هذا كله ؟ »

فهتف ماريوس في غضب مشوب بالاجلال :

ـ « ولكن أنت ! لم لم تبع بذلك ؟ إنها غلطتك أيضاً . أنت تنفذ حيوات الناس وتحفظي ذلك عنهم ! بل أنت تذهب إلى أبعد من ذلك ، بمحنة رفع القناع عن وجهك ؛ أنت تفترى على نفسك . هذا شيء راعب . »

فأجاب جان فالجان :

ـ « لقد قلت الحق . »

فقال ماريوس :

ـ « لا . الحق هو الحق كاملاً . وانت لم تقل الحق كاملاً . لقصدكنت مسيو مادلين ، فلماذا لم تقل لي ذلك ؟ لقد انقذت جافير ، فلماذا لم تقل لي ذلك ؟ أنا مسدين لك بخيانتي ، فلماذا لم تقل لي ذلك ؟ »

ـ « لأنني فكرت مثلث . لقد وجدت انت على صواب . كان من الضروري أن أمضي لسيلي . ولو انت عرفت مسألة البالوعة تلك اذن لأبقيتني معك . وهكذا كان علي ان ألتزم الصمت . ولو اني تكلمت لأربكتكم جميعاً . »

ـ « اربكت مساداً ! اربكت من ! هل تظن انت سوف تبقى هنا ؟ سوف نصبحك معنا . آه ، يا الآهي ! حين افكر اني لم اعرف هذا كله إلا مصادفة ! سوف نصبحك معنا . انت جزء منا : انت أبوها وأبي . انت لن تفتشي يوماً آخر في هذا المنزل الرابع . لا تخيل انت سوف تكون هنا غداً . »

قال جان فالجان :

ـ « غداً لن اكون هنا ، ولكني لن اكون في بيتك . »

فأجاب ماريوس :

— « ماذا تعني آه ، فهمت ، أنت لن نسمع لك بالقيام بأي رحلة بعد اليوم . إنك لن تفارقنا كرهاً أخرى . أنت ملك لنا . أنت لن تدعك تذهب . »

وأضافت كوزيت :

— « سوف يكون ذلك إلى الأبد ، هذه المرة . ان معنا حرفة تحت . سوف ارفعك . ولسوف الجا إلى القوة . إذا كان ذلك ضروريًا . »

وضحكت ، وقامت بحركة توحى بأنها سوف ترفع الرجل العجوز بين فراغيها حقاً .

وابعدت :

— « إن غرفتك لا تزال في بيتنا . ليتك تعرف ما أبهى الحديقة في هذه اللحظة . ان الغار الشيحيّ لينمو نمواً حسناً . والمجازات مفروشة برمel النهر . إن ثمة بعض الاصداف البنفسجية الصغيرة . ولسوف تأكل شيئاً من توتي الأفرنجي . إنني اسقيه بنفسى . وليس هناك بعد اليوم « سيدتي » وليس هناك « مسيو جان » أيضاً . نحن جمهورية ، وكل الناس يستعملون ضمير المخاطب المفرد ، أليس كذلك يا ماريوس ؟ لقد تغير البرنامج . ليتك تعرف يا أبي ، لقد كنت محزونة ، كان ثمة عصفورة من عصافير « أبي الحناء » أقامت عشها في فجوة بالمجدار ، فجاء هرّ رهيب وأكلها لي ! مسكينة عصفورتي تلك الصغيرة الجميلة ! لقد وضعت رأسها على نافذتها ونظرت اليّ ! وبكيت عليها ! ولقد كنت مستعدة لأن أقتل المرة . أما الآن ، فإن أحداً لا يبكي . القوم كلهم يضحكون ، القوم كلهم سعداء . أنت سوف تذهب معنساً . ما أعظم السعادة التي ستغمر جدي ! سوف تكون لك مسكنتك في الحديقة ، ولسوف تعنى بزراعتها بنفسك : ولسوف ترى هل سيكون

توتك الافرنجى جميلا مثل توتى ؟ ثم انى ساعمل اي شي . تريده ،  
ثم انك ستطيعنى .

وأصفي جان فالجان لها من غير ان يسمعها . لقد سمع موسيقى صوتها أكثر مما سمع معاني كلامها . ونبعت في عينه ، ببطء ، احدى تلك العبرات الكبار ، التي هي لآلئ النفس القائمة . وغمغم : « إن وجودها هنا هو الدليل على رحمة الله . »

و صاحت کوزیت :

— (أبی !

فتاibus جان فالجان :

- « صحيح جداً ان حياتنا معاً سوف تكون فاتنة . إن اشجارها حافلة بالطيور . ولسوف أتمنى مع كوزيت . إن من الجميل ان يكون المرء مع أناس يحبون ، وينتادلون التحية ، وينتادون إلى الحديقة . ولسوف يرى كل منا الآخر منذ الصباح . ولسوف يعني كل منا بزراعة زاويته الصغيرة . سوف تدعني آكل توتها الأفرننجي ، ولسوف ادعها تقطف ورودي . سوف يكون ذلك فاتناً . لولا ... »

وتمهل ، ثم قال في وهن :

— « يا للخسارة ! »

ولم تتحدر الدمعة ؟ لقد ارتدت على عقيبها ، واستعراض جان فالجان عنها بابتسامة .

وأنسكت كوزيت بيدي العجوز كلتيهما بيدها .

**وقالت :**

- « يا الله ! لقد أمست يدك أبداً ملائكة . هل أنت مريض ؟  
هل تخس باللم ؟ »

فَأَجَابَ جَانَ فَالْجَانُ :

— « لا . أنا في حال جيدة جداً . لولا ... »

وكف عن الكلام .

— « لولا مازاً؟ »

— « سوف أموت في الحال . »

وارتعدت كوزيت وماريوس .

وصاح ماريوس :

— « تموت ! »

قال جان فالجان :

— « أجل . ولكن هذا ليس شيئاً ذا بال . »

وتنفس . وابتسم . وتتابع :

— « كوزيت . انت تتحدين الي . تابعي ، تحدي من جديد ، لقد ماتت عصفورتك الصغيرة اذن ؟ تكلمي ، دعني اسمع صوتك ! »

وحدق ماريوس . وقد تجسر : إلى الرجل العجوز .

وأطلقت كوزيت صيحة ثاقبة :

— « أبي ! أبي ! سوف تحييا . لا بد ان تحييا . سأجعلك تحييا ، أسامع انت ! »

ورفع جان فالجان رأسه ، نحوها ، في تقدير .

— « آه ، أجل ، حظري عليّ الموت . من يدرى ؟ لعلي اطيع . لقد كنت على عتبة الموت حين جئت . ولقد حال ذلك بيّني وبين الموت . لقد بدا لي اني ولدت من جديد . »

فهتف ماريوس :

— « انت مفعم بالقوة والحياة . أتحسب ان الناس يموتون على هذه الصورة ؟ لقد ألم بك حزن ، ولكنك لن تعرف الحزن بعد اليوم . أنا وأسألك العفو الآن . وأسألك ايام راكعاً على ركبتي ! اناك سوف تحييا ، تحييا معنا . وتحيا طويلا . سوف نرجحع بك إلى بيتنا . ولن ي تكون

لأحد منا كلينا غير هم واحد ، منذ اليوم ، هو إسعادك .»  
وأضافت كوزيت والدمع يتحدر من عينيها :  
— « أنت ترى أن ماريوس يقول إنك لن تموت . »  
وظل جان فالجان يبتسم .

— « إذا أرجعتني معك ، إبها السيد بونيرسي ، فهل يجعلني ذلك  
غير ما أنا ؟ لا . لقد فكر الله كما فكرت أنت وفكرة أنا ، وهو لم  
يغير رأيه ، من الخبر ان امضى لسيلي . الموت نسوية جيدة . الله  
يعرف حاجاتنا أكثر مما نعرفها عنن . لا ريب في ان سعادتكما ،  
وفوز مسيو بونيرسي بكوزيت ، واقتران الشباب بالصبح ،  
وكونكما محاطين ، يا ولدي ، بالزنابق والعنادل ، وكون حياتكم  
واحة خضراء تحت أشعة الشمس ، وامتناع نفسيكما برقصي السماء جميعاً ،  
واحتضاري الآن ، أنا الذي لا أصلح لشيء ، لا ريب في ان هذا  
كله حسن . اسمع ، يجب ان تكون عاقلين ، ليس ثمة شيء آخر  
ممكن الآن ؛ أنا واثق من ان كل شيء قد انتهى . منذ ساعة ،  
أغمي علي . ثم اني ، في الليلة الماضية ، شربت ذلك الاناء المليء  
ماء . ما اطيب زوجك ، يا كوزيت ! إنك معه اسعد منك معـي . »  
وسمع صوت لدى الباب . كان الطبيب قد أقبل .  
وقال جان فالجان :

— « مرحباً ، إبها الطبيب ، ووداعاً . ها هنا ولدائي المسكينان . »  
واقرب ماريوس من الطبيب . ووجه اليه هذه الكلمة المفردة :  
« سيد ؟ ... » ولكن كان في طريقة تلفظه بها سؤال كامل .  
وأجاب الطبيب عن السؤال بنظرة معبرة .

وقال جان فالجان :

— « إن كون الاشياء غير سارة ليس سبباً يبرر ظلمـنا للـه . »  
وساد صمت . كانت الصدور كلها منقبضة .

والتفت جان فالجان نحو كوزيت . وشرع بمحدق اليها وكأنه يأخذ نظرة ينبغي أن تدوم عبر الأبدية . وفي اعماق الظلمة التي كان قد انحدر إليها ، كان لا يزال في ميسوره أن ينعم ، من طريق النظر إلى كوزيت ، بالنشوة الروحية . لقد أضاء انعكاس ذلك المحيا العذب وجهه الشاحب . إن القبر قد يكون له سحره أيضاً .  
وجس الطبيب نبضه .

وغمغم ، ناظراً إلى كوزيت وماريوس :

— « آه ، إنكم أنتما اللذان كان في أمس الحاجة اليهما . »

ثم انحنى فوق أذن ماريوس ، واضاف في صوت خفيض جداً :

— « لقد فات الأوان . »

والقى جان فالجان على الطبيب وماريوس ، من غير أن يكفت عن التطلع إلى كوزيت تقريباً ، نظرة تنضح بالصفاء . وسمعا هذه الكلمات ، التي ما تكاد تبين ، تخرج من بين شفتيه :

— « الموت ليس شيئاً . الشيء الرهيب هو أن لا تعيش . »

وفجأة نهض . إن رجعات القوة هذه تكون أحياناً أمارة من أمراء الاحضار . ومضى في خطى ثابتة إلى الجدار ، مزيحاً من طريقه ماريوس والطبيب اللذين حاولا مساعدته ، ونزع عن الجدار الصليب النحاسي الصغير — وعليه جسد المسيح — المعلق هناك ، وعاد ، وجلس في حرية التحرك المميزة للعافية الموفورة ، وقال في صوت مرتفع ، واضعاً المصلوب على الطاولة :

— « هوذا الشهيد العظيم . »

ثم غار صدره ، وترسخ رأسه ، وكأنما استبد به دوار القبر ، وشرع يُنشب ظفره — ويداه على ركبتيه — في قماش بنطلونه . وأسندت كوزيت كتفيه : وانتحبت ، وحاولت أن تخاطبه ، ولكنها لم تستطع . كان في ميسور المرء أن يتبيّن ، بين الكلمات الممزوجة بذلك الرضاب

القاجع الذي يصاحب الدموع ، جملة مثل هذه : « أبي ! لا ترکنا .  
امکن ان نكون قد وجدناك ثانية لكي نفقدك نهائياً ؟ »  
في استطاعتني القول ان حشرجة الموت تتلوى . إنها تروح ، وتحبّ ،  
تقدّم نحو القبر ، وترجع نحو الحياة . ان في فعل الموت تلمساً في  
الظلام .

واستجتمع جان فالجان قواه ، بعد شبه الاغماء هذا . وهزّ جبينه  
وكانه كان يبغى ان يطرح الظلمات ، واستعاد صفاءه . او كاد ،  
استعادة كاملة . وأمسك بطرف ردها ، وفُبله .

وصاح ماريوس :

— « إنه يعود إلى الحياة ! ايها الطيب ، إنه يعود إلى الحياة ! »  
— « إن كلا منكم لكريم . سوف أقول لكم ما الذي آلمني .  
الذي آلمني ايها السيد بونميرسي . انك كنت راغباً عن مس ذلك المال .  
إن ذلك المال ، هو ملك لزوجتك حقاً . سوف اشرح الأمر لكم ،  
يا ولدي ، ومن اجل ذلك أنا سعيد بأن أراكم . إن الكهرمان الأسود  
يحبّ من انكلترة . وإن الكهرمان الايض يحبّ من نروج .  
وكل ذلك تجده في الورقة التي تريانها هناك ، والتي سوف تقرآنها .  
أما في ما يتصل بالأساور ، فقد اختبرت الاستعاضة بالمشابك المصنوعة  
من صفيح ملوبي ، عن المشابك المصنوعة من صفيح ملتحم . ذلك  
أجمل ، وأفضل ، وأرخص . وانتها تفهمان اي ثروة يمكن ان تجني  
من وراء ذلك . وهكذا فإن ثروة كوزيت هي ملكها حقاً .انا اعطيكما  
هذه التفاصيل حتى تطمئن نفساكما . »

كانت البوابة قد ارتفت السلم . وراحت تنظر من خلال الباب  
نصف المفتوح . وأمرها الطيب بالابتعاد ، ولكنه لم يستطع ان يمنع تلك  
المرأة الطيبة الغيور من ان تخاطب الرجل المحضر بصوت عال ، قبل  
مغادرتها المكان :

— « هل ت يريد كاهناً . »

فأجاب جان فالجان :

— « عندي كاهن . »

وبدا وكأنه يوميء باصبعه إلى نقطة فوق رأسه حيث كان في امكاناته  
ان يقول إنه رأى شخصاً ما .

لعل الاسقف كان يشهد احتضاره حقاً .

وفي لطف ، أزالت كوزيت وسادة تحت ظهره .

واستأنف جان فالجان حديثه :

— « أنها السيد بوئرسى ، لا تحف . أنا أقسم لك . إن الفرنكات  
الستمائة الف هي ملك كوزيت حقاً . واني اكون قد خسرت حياتي  
إذا لم تستمع بها ! لقد نجحنا بجاحاً كبيراً في صناعة الخرز هذه . لقد  
نافست ما يدعى حلبي برلين . الواقع ، ان الرجال الألماني الأسود لا  
يمكن ان يقارن بيضاعتنا . فالغروصة الواحدة ، التي تحتوي على الف  
ومئتي حبة حسنة القطع ، لا تكلف غير ثلاثة فرنكات . »

حين يكون امرؤ أثير الدين على وشك ان يموت نظر اليه  
نظرة تشتبث به ، نظرة تود ان تخفظ به . وهكذا وفقاً كلامها أمامه ،  
وقد اخرسهما الام النفسي المزير ، غير عارفين ما يقولانه للموت ،  
يايسين مرتعدين ، ويد كوزيت في يد ماريوس .

ومن لحظة إلى أخرى ، كان جان فالجان بزداد وهن على وهن .  
كان يتلاشى ؛ كان يقترب من الافق المظلم . كان تنفسه قد امسى  
متقطعاً ؛ ان حشرجة ضئيلة اعتبرته . ووجد صعوبة في تحريك معصميه ،  
وكانت قدماه ، قد فقدتا القدرة على القيام بائماً حرفة . ولحظة تصاعف  
عجز اوصاله وخوار جسده ارتفع جلال الروح كله وتحلى على جبينه .  
كان ضياء العالم المجهول قد اضحي منظوراً في عينيه .  
وشحب وجهه . وابتسם في آن معاً . لم تعد ثمة حياة ؛ كان ثمة

شيء آخر . وتلاشى نفسه ، وتعاظمت نظرته . كانت جثة تشعر ان لها جناحين .

واوماً إلى كوزيت بأن تقرب ، ثم إلى ماريوس . كان واضحاً أنها الدقيقة الأخيرة من الساعة الأخيرة ، وشرع يخاطبها في صوت واهن إلى درجة جعله يبدو وكأنه ينبعث من مكان بعيد ، حتى لقد يخبل إلى المرء ان جداراً كان قد انتصب منذ اللحظة بينه وبينها .

- « اقرباً أكثر ، اقرباً أكثر ، كلّكم . أنا احبّكم جمّاً . اوه ! جميل ان يموت المرء هكذا ! أنت أيضاً ، انت تحبيني يا كوزيت . لقد عرفت جيداً انه كان لا يزال عندك بعض الحب لصاحبك العجوز . كم كان طيفاً منك ان تصعي هذه الوسادة تحت ظهوري ! انتا سوف تبكيان علي قليلاً ، أليس كذلك ؟ ولكنْ ليس أكثر مما ينبغي . أنا لا اريد ان يلمّ بكلّ أمّا أسيّ عميق و يجب ان تستمتعوا بالحياة استمتعوا كثيراً ، يا ولدي . لقد نسيت ان اخبركم ان في امكان المرء ان يربح من الابازيم التي لا ألسنة لها اكثراً مما يربح من سائر الاصناف . ان الغروصة ، أو الاثني عشرة ذرية ، تكلف عشرة فرنكات ، وتتابع بستين . هذه في الواقع تجارة رابحة ، وادن ، فيبني ان لا تدهش للفرنكات المستمرة الف ، ايها السيد بونيرسي . انه مال حلال . في استطاعتكما ان تكونا موسرين في اطمئنان . ينبغي ان تكون لكم عربة خاصة ، ومقصورة في المسارح بين الفينة والفينية ، وثياب رقص جميلة يا كوزيت . ثم يحسن بكلّ ما تقبلا مأدبة عامرة لاصدقائكم ، وان تكونا سعيدين جداً . لقد كنت اكتب ، منذ لحظات ، إلى كوزيت . سوف تجدان رسالتي . اني اوصي لها بالشمعدانين اللذين على الموقد . إنها من فضة ، ولكنها عندي من ذهب ، بل من الماس . إنها بحول الله الشموع التي توضع فيها إلى شموع مقدسة . انا لا ادري ما اذا كان ذلك الذي منعني ايابها راضياً عنني في الاعالي . لقد

عملتُ على قدر طاقتِي . يا ولدي . انتَ تفينا انتَ رجل حضر .  
ولسوف تدفناني في اقرب زاوية من الارض تحت حجر يعيّن موضع  
ذلك هي وصيبي . ولا تنقثا اي اسم على الحجر . وذا ما زارتني  
كوزيت قليلاً في بعض الأحيان كان ذلك مبعث سروري . وأنت أيضاً .  
ايها السيد بونيرسي . يجب أن أعرف بأنني لم أحبك دائمًا . أنا أسألك  
الغفو . والآن ، هي وانت لا تدعوان ان تكوننا شخصاً واحداً في  
نظري . أنا عظيم الاعتراف بجميلك . أنا أشعر انك تُسعد كوزيت .  
لو كنت تعرف ، ايها السيد بونيرسي ، لقد كانت وجنتها الورديتان  
الجميلتان هنا بهجتي . كنت احزن إذا رأيتها شاحبة بعض الشيء . ان  
في الخزانة ورقة مالية ذات خمسة فرنك . أنا لم امسها . أنها للفقراء .  
كوزيت ، هل ترين ثوبك الصغير . هناك ، على السرير ؟ هل تعرفيه ؟  
ومع ذلك ، فقد كان هذا من عشرة أعوام ليس غير . ما أسمع ما تمر  
الأيام ! كنا سعيدين جداً . لقد قضي الأمر . يا ولدي ، لا بكيا ،  
انا لست ذاهباً إلى مكان بعيد جداً . سوف أراكما من هناك . وليس  
عليكم إلا أن تظرا حين يهبط الليل ، وعندئذ تجدانني أبسم . كوزيت ،  
هل تذكرین موافق ماي ؟ كنتِ في الغابة ، كنتِ خائفة جداً . هل  
تذكري يوم أخذتُ مقبض الدلو المليء ماء ؟ كانت تلك أول مرة لست  
فيها يدك الصغيرة البائسة . كانت باردة جداً ! آه ، كانت لك يدان  
حمراوان في تلك الأيام ، ايها الآنسة ، أما اليوم فيدائك شديدة البياض .  
والدمية الكبيرة ! هل تذكريها ؟ لقد دعوتها كاترين . لقد ندمتِ  
لأنك لم تحمليها إلى الدبر . وكم أضحكتكِ في بعض الأحيان ، يا ملاكي  
العذب ! وحين أمطرت السماء ، أقيمت بعض القدى في القنوات ،  
ورحت تراقبينها . وذات يوم ، اعطيتكِ مضرب كرة من خيزران ،  
وكرة ذات ريش اصفر وازرق واحضر . لقد نسيتِ ، انتِ ، ذلك .  
لقد كنتِ كثيرة الشيطنة في طفولتك ! كنتِ تلعبين . كنتِ تصعبين حبات

كفرز في اذنيك . هذه الاشياء هي جزء من الماضي . الغابات التي  
احتقرتها مع طفلي ، والاشجار التي ترثها في ظلها ، والأديار التي اختبأنا  
فيها ، والألعاب ، وضحك الطفولة الطلق ، كل ذلك طواه الظلام •  
لقد تخيلت ان هذا كله ملك لي . وهنها كانت تكمن حماقتي . لقد  
كان تينارديه وزوجته شريرين . يجب ان نغفر لها . كوزيت ، لقد  
آن الاوان لاخبارك باسم امك . كان اسمها فانتين . تذكرى هذا  
الاسم : فانتين . اركعي على ركبتيك كلما لفظته شفتاك . لقد تأملت  
كثيراً . وأحبتك كثيراً . لقد تجرعت كأس السعادة متراة كما تجرعت  
كأس السعادة متراة . هكذا يقسم الله الاشياء بين الناس . إنه في الأعلى ؟  
إنه يرانا جميعاً ، وهو يعرف ما يعمله وسط كواكب العظمى . واذن ،  
فسوف أرحل ، يا ولدي . تحابا دائمًا أعظم الحب . فليس في العالم  
شيء ، تقريباً ، غير التحاب ، ولوسوف تفكران احياناً في الرجل العجوز  
البائس الذي مات هنا . آه ، يا حبيبي كوزيت ! إنها ليست غاطسي ،  
حقاً ، إذا لم ارك طوال هذا الوقت ، لقد تفطر قلبي بسبب من ذلك ؟  
لقد مضيت حتى زاوية الشارع ، ولقد كنت خليقاً بأن أبلو مضحكتا  
في نظر الناس الذين يرونني أمشي هناك ؛ لقد بذلت أشهه بالمخجل ،  
وذات يوم خرجت من غير قبعة . يا ولدي ، أنا لم اعد أرى ، الآن ،  
في وضوح كبير ؛ كانت عندي اشياء اخرى احب ان اقوها ، ولكن  
لا بأس . فكرا في قليلا . أنها مخلوقات مباركان . لست ادرى ماذا  
ألم بي ؛ إني ارى ضياء . اقرباً أكثر . انا اموت سعيداً . قرباً رأسي كما  
العزيزين المحبوبين لكي اضع يدي فوقهما . »

وخر ماريوس وکوزيت على الأرض راكعين ، مصعوقين ، تخنقهما العبرات ، وأمسك كل منها بأحدى يدي جان فالجان . كانت هاتان اليدان الجليلتان قد فقدتا الحركة بالكلية . كان قد انكفا إلى وراء ، وكان نور الشمعدانين يضي وجهه ،

وكان وجهه الايض ذاك ينظر إلى السماء . وترك تكزيت وماريوس يغمران يديه بالقبلات ، لقد مات .

كان الليل عاطلا من النجوم ، وكان داماً . وليس من ريب في ان ملاكاً عظيماً ما ، كان واقفاً في الظلمة ، باسط الجناحين ، ينتظر تلك النفس .

## ٦

### العشب يحجب والمطر يمحو

في جبانة « بير لا شيز » ، في جوار مقبرة القراء والمجاهلين ، بعيداً عن الحي الاندق من مدينة القبور تلك ، بعيداً عن جميع تلك الااضحة الغريبة التي تعرض في حضرة الابدية ازياء الموت الرهيبة ، وفي زاوية مهجورة ، في مخاذاة جدار عتيق ، تحت زرنيبة \* ضخمة يتسلق عليها البلا布 ، بين النجيل \*\* والطحالب - في تلك الجبانة كان حجر . وهذا الحجر لم يعد بريئاً - أكثر من غيره - من جذام الدهر ، والعفن ، والأشنة ، وذرق الطيور . ان الماء يخضره ، والهواء يسوده . وهو غير قريب من أيما مجاز أو مر ، والناس لا يحبون ان يذهبوا إلى تلك البقعة ، لأن العشب مرتفع ، ولا ان اقدام المرء تُبلل هناك في الحال . وحين تلقى الشمس بعض أشعتها ، تنطلق الحراذين . إن ثمة ، حول البقعة كلها ، حفيف شوفانٍ بري . وفي الربيع ، تفرد الدُّخّلات في الشجرة .

وهذا الحجر عاري عن اي زخرف . فلم يفكّر ، عند اعداده ، إلا

\* الزرنيبة نبات طيب الرائحة ، ويُدعى ايضاً رجل البراد .

\*\* النجيل : نبات من نوع الحمض .

في حاجات القبر الضرورية ، ولم يُعنَّ بغير جعل هذا الحجر كافياً ،  
من حيث الطول والعرض ، لغطية رجل .  
ولم يكن ثمة اسم ما .

ييد ان يبدأ خطت على ذلك الحجر بقلم الرصاص - منذ عدة  
سنوات - هذه الايات الاربعة التي انتهت تدريجياً إلى ان تصبح  
غير مقرودة ، تحت المطر والغبار ، والتي احتج الي يوم في اغلب  
الظن :

انه يرقد . وعلى الرغم من أن القدر كان بالنسبة  
لليه غريباً جداً ،  
فقد عاش . لقد مات عندما فقد ملاكه .  
ان الأمر يحدث ، ببساطة ، من تلقاء نفسه ،  
كما يهبط الليل حين يولي النهار .

تمت الترجمة الكاملة

لرواية المؤسأ

## فهرست القسم الخامس : «جان فالجان»

ص

### الكتاب الاول : الحروب بين اربعة جدواں

- |    |   |    |
|----|---|----|
| ١  | «كاربيد» ضاحية سان انطوان و «سيلا» ضاحية التامبل  | ٧  |
| ٢  | ما الذي يمكن أن يصنع في المرة غير الكلام؟   | ١٨ |
| ٣  | ثورة وظلم   | ٢٤ |
| ٤  | نقص خمسة وزيادة واحد  | ٢٧ |
| ٥  | أي لفق يرى من أعلى المتراس  | ٣٧ |
| ٦  | ماريوس تائهاً ، جايفير موجزاً   | ٤٢ |
| ٧  | الوضع يصبح خطراً  | ٤٥ |
| ٨  | المدفعيون يتركون انطباعة جديدة  | ٥١ |
| ٩  | فائدة تلك للبراعة القديمة في الصيد المحظوظ ، وتلك الطلقة النارية<br>المعصومة التي اثرت في الحكم الصادر عام ١٧٩٦ | ٥٦ |
| ١٠ | الفجر   | ٥٨ |
| ١١ | الطلقة التي لا تخطر أبداً ولا تقتل أحداً  | ٦٢ |
| ١٢ | الفوضى نصير للنظام  | ٦٥ |
| ١٣ | ومضات تخبو  | ٧٠ |

ص

١٤ . حيث نقرأ اسم خليلة آنجولارس	٧٢
١٥ . غافروش في الخارج	٧٦
١٦ . كيف يصبح الاخ ابا	٨٠
١٧ . «الأب الميت يرثه ابنه حسب الشريعة»	٩٢
١٨ . العُقاب يصبح فريسة	٩٥
١٩ . جان فالجان يثار لنفسه	١٠١
٢٠ . الموتى مصييون والاحياء غير مخطفين	١٠٥
٢١ . الابطال	١١٢
٢٢ . قدمًا لقدم	١٢٣
٢٣ . اوريست صائمًا وبيلاد سكران	١٢٩
٢٤ . في الاسر	١٣٣

### الكتاب الثاني : مصران لوياتان

١ . الارض وقد افترها البحر	١٤٣
٢ . تاريخ البالوعة القديم	١٤٧
٣ . برونيسو	١٥٢
٤ . تفاصيل مجهرة	١٥٧
٥ . التقدم الحالى	١٦٢
٦ . التقدم المقبل	١٦٤

### الكتاب الثالث : وحل ، ولكن روح

١ . البالوعة ومتاجبتها	١٧٢
٢ . تفسير	١٨٠
٣ . المطاردة المترقبة	١٨٣
٤ . وهو أيضًا يحمل صليبه	١٨٩
٥ . ان للرجل ، كما للمرأة ، رقة خادعة	١٩٤
٦ . الخف	٢٠٠

- ٧ . قد نجح إلى الشاطئ أحياناً حيث ذهبنا  
اننا نهبط إلى اليابسة ٢٠٣
- ٨ . ذيل السرقة المزق ٢٠٦
- ٩ . ماريوس يبدو ميتاً في عيني خبير ٢١٤
- ١٠ . عودة الابن الباذل حياته ٢٢٠
- ١١ . ارتجاج في المطلق ٢٢٢
- ١٢ . الجد ٢٢٥

### **الكتاب الرابع : جافير يتسلّك للطريق ٢٢٢**

### **الكتاب الخامس : الحفيد والجد**

- ١ . حيث نرى الشجرة ذات صفيحة الزنك ككرة أخرى ٢٥١
- ٢ . ماريوس وقد نجا من الحرب الأهلية يستعد للحرب المزالية ٢٥٦
- ٣ . ماريوس يهاجم ٢٦٢
- ٤ . الآنسة جيلمورمان تنتهي بأن لا تجد نفسها في دخول مسيو فوشلوفان إلى البيت متابطاً شيئاً ما ٢٦٧
- ٥ . لأن تستوعب مالك غابة ما ، خير لك من أن تستوعبه كتاباً عدلاً ما ٢٧٥
- ٦ . العجوزان يصنعان كل شيء ، كل على طريقته ، لكي تكون كوزيت سيدة ٢٧٦
- ٧ . آثار حلم ممزوج بالسعادة ٢٨٩
- ٨ . رجال من المتقد الاهداء اليها ٢٩٣

### **الكتاب السادس : الميلة البيضاء**

- ١ . ١٦ شباط ، عام ١٨٢٢ ٣٠١
- ٢ . جان فالجان لا يزال رافعاً ذراعه إلى صدره ٣١٦
- ٣ . متنة الانفصال ٣٢٩

### **الكتاب السابع : آخر قطرة في الكأس**

- ١ . الدائرة السابعة والسبعين الثامنة ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٣٤٠
- ٢ . الظلمات التي قد ينطوي عليها افشاء السر ٠ ٠ ٠ ٣٦٦

### **الكتاب الثامن : شحوب الفسق**

- ١ . الحجرة السفلية ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٣٧٧
- ٢ . خطوات أخرى إلى الوراء ٠ ٠ ٠ ٣٨٤
- ٣ . يتذكران حديقة شارع بلوبيه ٠ ٠ ٠ ٣٨٨
- ٤ . انجداب وانطفاء ٠ ٠ ٠ ٣٩٥

### **الكتاب التاسع : ظلة عظمى وفجور اعظم**

- ١ . شفقة للتيس ولكن رفق بالسعيد ٠ ٠ ٠ ٣٩٨
- ٢ . آخر خفقات المصباح الذي نفذ زيه ٠ ٠ ٠ ٤٠١
- ٣ . ريشة ترهق ذلك الذي رفع كارة فوشلوفان ٠ ٠ ٤٠٤
- ٤ . زجاجة حبر لا توفق إلى أكثر من التيس ٠ ٠ ٤٠٨
- ٥ . ليل يعقبه فجر ٠ ٠ ٠ ٤٣٤
- ٦ . العشب يمحب والمطر يمحو ٠ ٠ ٠ ٤٤٩

مَطْبَعَةُ الْعَالِيَّةِ

خَارَةِ حَرَبِكَ - لَبَنَان